

تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم

تأليف

الدكتور

أحمد محمود الساداتي



الناشر

مكتبة الأعلام

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت ٨٦٨ - ٣٩

تاريخ المسلمين

في شبه القارة الهندية وحضارتهم

الجزء الأول

تأليف

الدكتور

أحمد محمود الساداتي

الناشر

مكتبة الأعلام

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت. ٨٦٨ - ٣٩

تَارِيخُ الْمُسْلِمِينَ

في شبه القارة الهندية وحضارتهم

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين ، والصلاة والسلام على خير المرسلين .

شبه القارة الهندية التي تضم اليوم دولتي باكستان الإسلامية والهند الهندوكية ^(١) بدأ أظهر أدوارها التاريخية — على إجماع من المؤرخين — بالفتوحات الإسلامية ، وأخصها تلك التي توغل فيها الغزنويون ، ومن جاء من بعدهم ، بهذه البلاد منذ أواخر القرن الرابع الهجري ، وصحبهم فيها جملة من العلماء والمؤرخين والرحالة المسلمين الذين درسوا أحوال الهند وكشفوا عما كان بها من حضارات ومدنيات عريقة تقصّوا أسسها وتفصيلاتها .

وتاريخ شبه القارة الهندية القديم ، فيما قبل فتوح المسلمين ، غالبية الغالبة عموماً يكتنفها الغموض الشديد . ولولا القليل منه

١ - لفظ هندوكي أو هندوسي - وهو مرب - غدا عند كذاب العربية المحدثين
علما على أصعاب العقائد الهندية القديمة من سكان شبه القارة الهندية ، وهو
ما ذهبنا إليه في هذا الكتاب .

الذى استشفته المؤرخون من الكتب الهندية الدينية القديمة ،
مثل الوبدا والمهابارتا ، ومن أكدا س أساطير الهنود القدماء ،
وما وصل إلينا من تدوينات جوتابى هذه البلاد فى الأزمنة الغابرة من
أمثال السفير الإغريق ميغاستين والراهبين الصينيين البوذيتين هيون
تسيا نغ وفا هيان ، لظل ماضى هذه البلاد مجهول إلى درجة كبيرة . ذلك أن
آثارها وعادياتها القديمة ، التى أكتشفت حتى اليوم ، لا تُعد فى الغالب
ثبتا وثيقا مفصلا لماضيها على نطاق واسع نظير ما عند مصر واليونان .
والمسلمون الذين أسهموا فى حفظ تراث اليونان وزادوا عليه ،
هم أنفسهم الذين أظهروا العالم على الكثير من تراث الهند الذى
اطلعوا عليه ، فجر الاسلام ومطلع ضحاه ، فحبب إليهم الاستزادة
بما عند غيرهم من مختلف فنون المعرفة (١) ودفعهم إلى طلبها .

صنع المسلمون ذلك ولم يكن قد مضى عليهم بالهند أكثر من
قرن واحد من الزمان ، ولم يكونوا يملكون من أراضيها إلا

Havell, E. B. The History of Aryan Rule in India — ١

London n.d. p. 254-56 .

هذا وتنبه هنا إلى أن تراث الهند كان بدوره قد تأثر بالثقافة اليونانية التى حملها
الاسكندر المقدوني إلى هذه البلاد حين غزاهما فأقام بعض قواده دولات
إغريقية بأطرافها .

ولاية واحدة صغيرة ، بالقياس إلى مساحة الإقليم الشاسعة ،
هى السند التى كانوا قد دخلوها أواخر القرن الأول الهجرى .

أوغل المسلمون ابتداء من أواخر القرن الرابع الهجرى فى
هذه البلاد ، فإذا بعلمائهم يقفون على ما عند الهنود من فنون
المعرفة السكثيرة ، على نطاق واسع ، من أفواه المشتغلين بها من
رجالهم بعد ما كانوا قد اطلعوا على قدر منها فى بطون كتبهم ،
ويتعرفون على أحوالهم وعقائدهم بمخالطتهم ومسائلة كهنتهم
ورهبانهم ومناظرة فلاسفتهم . وكان إمام هؤلاء العلماء الأعلام
جميعا العلامة أبو الريحان البيرونى العارف بلغات الهند . وفيما
تركة من كتب قيمة عن هذه البلاد ثبت لذلك كله .

واستقر الفاتحون بعد قليل بالبلاد التى فتحوها ، فخُفِظت
بذلك أموال الهند وثرواتها عليها بعد أن كان الغزاة يحملون
معهم الكثير منها إلى بلادهم .

واستعصى المسلمون على البوتقة الهندية التى انصهر فيها
السيث والهنون وكل الغزاة الذين دخلوا الهند من قبل . ليس هذا
فحسب ، بل إن هؤلاء على قلة عددهم ما لبثت عقيدتهم السمحة

الفتية - بمبادئها الإنسانية الرفيعة ونظمها الاجتماعية القائمة على المساواة التامة بين معتققيها، والتي لا تعترف بنظام الطبقات - أن طفتت تجتذب إلى صفوفها ألوفاً وألوفاً من الهنود في ازدياد متدرج، فهم اليوم يشبه القارة هذه يزيد عددهم على مائة المليون .
ومالبت لغتهم وفنونهم أن صارت إلى لغات المسلمين وفنونهم في الغالب ^(١) . ذلك أن الفاتحين كفلوا، بقوة عقيدتهم ومدنييتهم، دخول شعوب البلاد التي فتحوها في ملتهم، دون إرهاب أو عنف، والإقبال على حضارتهم، بل والعمل على ازدهارها في همة وعناية، على ما قال به المؤرخون المنصفون من غير المسلمين وفيهم الهنادكة .

والمسلمون ببناء حضارات أينما حلوا ونزلوا . وفي طبيعة الإسلام أنه يدفع دائماً بعجلة الحضارة والمدنية إلى السير من جديد في كل بلد يدخله . وأصحابه حين توغلوا بالهند، ومعهم حضارتهم، التي كانت قد بلغت خارج هذه البلاد درجة عالية من الرقي، لم يهملوا أمر حضارة الهند وثقافتها، بل شغلوا بها وانهلك علماءهم في كل العصور في النقل منها، حتى ترجموا أقساماً من المهابهارتا نفسها سفر الهنادكة المقدس . وكان من بين السلاطين المسلمين

١ - اللغة الأوردوية ، أوسع لغات شبه القارة الهندية انتشاراً اليوم ، هي من مشتقات لغات المسلمين ، وتكتب بالحروف العربية .

من حض الهنادكة أنفسهم على الاشتغال بترائهم القديم والكشف
عن ماضى بلادهم ، وبذل لهم في ذلك العون والمساعدة .
ولا تجد حتى عند أشد المؤرخين الهنادكة كراهية للحكم الإسلامى
إشارة واحدة إلى إحراق المسلمين لكتب الهنادكة وأسفارهم
أو إتلافها .

ولئن كان المسلمون قد هدموا جملة من المعابد الهندوكية وحطموا
ما بها من أصنام ، قضاء على الشرك والوثنية ، - ولم يكن ذلك
يحدث عادة إلا إبان الحروب وفي المدن الكبرى ليس غير -
فإنهم لم يرغموا أحداً من الهنادكة في الغالب على اعتناق ملتهم ،
فمن دخل فيها منهم كان ذلك دون إكراه أو عنت ؛ فمارس
الهنادكة ، الذين بقوا على دينهم ، طقوسهم الدينية في حرية تامة ،
ولم يُمْنَعُوا حتى من إقامة معابد جديدة لهم إلا في أحوال قليلة .
هذا كما أضطلع جملة منهم بوظائف الدولة ، وتولوا إدارة شئون
البلاد عموماً إلا في العواصم والمدن الكبرى . وبلغ كثيرون ممن
أسلخوا منهم مناصب القيادة والوزارة .

وما عاناه عامة الهنادكة من بؤس وشقاء ، في بعض العهود ، قد
شاركهم فيه عامة المسلمين في الغالب كذلك ، حيث يتسم العصر

الوسيط بوجود هوات سحيقة فى الثراء ورغد العيش تفصل بين
أرباب الدولة والتجار والعامه .

وها هو ذا المؤرخ الهندوكى المعاصر إيشوارى براساد يقرر
صراحة بأن الحكم الإسلامى فى شبه القارة الهندية كان فيه الكثير
من الخير ، ويرُد ما يسمو به المجتمع فى هذه البلاد اليوم من الخصال
الحميدة وما يروج فيه من رسوم وعادات راقية إلى تقاليد هؤلاء
الفاطمين ^(١) ونفوذ الإسلام فى جميع نواحي الحياة الاجتماعية
بها ، ذلك النفوذ الذى يظهر أثره جليا فى تعاليم كبار المصلحين الدينيين
الهنداكة أنفسهم من أمثال كبير وناك الزعيمين السكيين المشهورين .
والمسلمون هم الذين وحدوا الهندستان فى دولة واحدة بعد
أن كانت فى الغالب نهبا للملوك طوائف متقاتلين فيما بينهم على
الدوام — وليس بخاف أن الخضوع لقانون واحد هو الركن
الأساسى الذى يقوم عليه المجتمع — ونهضوا من بعد ذلك بهذه
البلاد نهضة رائعه ظهرت آيات الإبداع الواضح فيها فيما خلفوه
من آثار علمية وفنية وأدبية ومنشآت وعمائر عديدة نفمة نافعة .

والإسلام كان بالهند ، وغير الهند من البلاد التى فتحها المسلمون ،

ديننا وحكما ومدنية ، دخل في حياة الناس العامة والخاصة. وأدى
توحيده بين شتى عناصر معتنقيه وعروقتهم وحده على التألف بين
أفكار الأجناس والشعوب التي تدين به إلى أن تولد في نفوس أبناء
هذه الشعوب ميول واحدة ظهرت واضحة قوية أكيدة في مناسبات
متعددة ، وكان أعظم مظاهرها تساندها جميعا في مواجهة الاستعمار
الأوروي في قوة وعزم يبشران بقرب استرداد العالم الإسلامي
لسابق مجده وعزته .

القاهرة - ضاحية المادى

صفر ١٣٧٧

سبتمبر ١٩٥٧

أحمد الساراني

موضوعات الكتاب

الهند القديمة :

٣

جغرافية الهند - سكان الهند - معتقدات الهند -

لغات الهند - تاريخ الهند القديمة وحضارتها .

الفتوحات الاسلامية في شبه القارة الهندية :
فتوح العرب بالسند :

٥٣

معرفة العرب بالهند قبل الاسلام -

محمد بن القاسم وفتح السند - يزيد بن

أبي كبشة - حبيب بن المهلب - عمرو بن مسلم

الباهلي - جنيد بن عبد الرحمن - الحكم بن عوانة -

عمرو بن محمد بن القاسم - يزيد بن غرار - منصور

ابن جمهور الكلبي - عبد الرحمن بن أبي مسلم العبدى -

موسى ابن كعب - عمر بن حفص - عبد الله بن محمد

الأشتر العلوى - هشام بن عمرو التغلبي - الليث

ابن ظريف - داود بن يزيد - بشر بن داود -

موسى بن يحيى البرمكى - عمران بن موسى - عمر

ابن عبدالعزيز الهباري - نتائج الفتح العربى للسند .

٨١ الغزنويون وخلفاؤهم :

سبكتكين - محمود الغزنوي - مسعود -
 السلاجقة - محمد الغزنوي - مودود ومجدود -
 إبراهيم بن مسعود - علاء الدين وسنجر - بهرام
 والغوريون - التركمان - خسرو بن بهرام -
 غياث الدين بن سام الغوري - بهرام شاه الثاني

١١٢ الغوريون :

معز الدين محمد بن سام الغوري وقواده .

١٢٣ دولة المماليك :

قطب الدين أيك - شمس الدين التمش -
 جلال الدين شاه خوارزم - ركن الدين
 فيروز شاه - الملكة رضية - بهرام شاه - علاء الدين
 مسعود شاه - ناصر الدين محمود شاه - آل بلبن :
 غياث الدين بلبن - محمد وبغراخان - طغرل - كيقباز .

١٤٨ الخلاجيون :

جلال الدين فيروز شاه - علاء الدين ونظمه :
 كافر - قطب الدين مبارك شاه - خسرو شاه .

١٦٩ آل تغلق :

غياث الدين تغلق - محمد تغلق وخططه .
فيروز تغلق وإصلاحاته - غياث الدين تغلق
الثاني - أبوبكر ومحمد تغلق - محمود تغلق - ملوك
الشرق - نصرت شاه - ملو إقبال خان -
سارنك خان - الغزو التيموري وآثاره .

ملوك الطوائف : ٢٠٩

الكجرات - مالوه - خاندش - جونپور -
البنغال - الدكن - سلطنة بهمنى : برار - بيجاپور -
أحمد نكر - غولكونده - بدر (بيدار) -
قبايانكر - أسرة السادات بدھلي .

اللودھيون الأفغان : ٢٣٥

بھلول لودھی - سکندر شاه - إبراهيم لودھی -
دولت خان لودھی - علاء الدين علم خان -
بانی پت .

الدولة الإسلامية في شبه القارة الهندية : ٢٥٠

، لكنها تقدمت الحضارة وتنوّر الناس
زاد عدد المسلمين ، فيسفر عن لين
تعصب الطوائف وانتشار المبدأ القائل بإله
واحد في ذلك القطر المملوء بالخرافات انحناء
النفوس بالتدريج أمام جلال الله وعظمته -
حقاً إن فتح الاسلام للهند لمّا يتم ، وهو سائر
بطيئاً صامتاً على طريقه فلم يقف تقدمه
سلطان انكلترا النصرانية .
(من كتاب حضارة الهند لجوستاف لوبون)

الهند القديمة

جغرافية الهند

لم تكن الهند في القديم هي شبه القارة المترامية الاطراف المتعارف عليها في العصور الحديثة ، اذ كانت هذه التسمية يضيق مدلولها حيناً فليُعرف به الاشْقة ضيقة من الأرض، او يتسع اتساعاً كبيراً حيناً آخر فيشمل رقعة واسعة من جنوب القارة الآسيوية .

واختلف الناس في منشأ تسمية هذه البلاد فمنهم من نسبها الى الإله إندرا ، إله الهند القديم ، ومنهم من ردها الى السند الذي كان يعرفه الفرس القدماء باسم «هند هو» اي النهر ، جرياً على عادتهم في ابدال السين السنسكريتية بالهاء ؛ وكان نفوذهم قبل غزو الاسكندر قد عم الجزء الغربي من هذه البلاد وتوغلوا فيه .

وهؤلاء الفرس هم الذين اطلقوا كذلك اسم الهندستان (اي ارض الانهار) على الشمال باكملة من هذا الاقليم .
شبه القارة الهندية، التي تضم اليوم جمهوريتي باكستان والهند،

هى كتلة بالغة الضخامة من اليا بس تصل مساحتها الى المليونين من الاميال المربعة ، اى بما يزيد على نصف مساحة القارة الاوربية ، فيها تمثيل كامل لمختلف عروق الانسان وما عرفه من فنون وآداب وعلوم وما اعتنقه من مختلف العقائد منذ ظهور الوثنية حتى اهتداء الناس بالتوحيد . وفيها انواع الاجواء المتباينة من الصقيع القطبي وثلوجه بالهملايا ومرتفعاتها بالشمال الى قِط المناطق الاستوائية وشواطئها باقصى الجنوب . وفيها كذلك من صنوف الحيوان والطير والنبات والمعدن ما يصلح لأن يكون اجمالا لما بالعالم كله منها .

فهى فى الحق دنيا قائمة بذاتها قد عزلها عن بقية اليا بس الاسيوى امنع متراس اقامته الطبيعة بين بلدين وهو جبال الهملايا الهائلة التى تعرف بسقف الدنيا . وبهذه الجبال الشاخطة مسارب تجارية ضيقة تنفذ الى التبت وبلاد التركستان ولكنها لا تصلح لمروور القوافل الكبيرة .

والحدود الشرقية للهند جبلية كذلك ، وتمثل فى جبال آسام ، وبها بعض المسالك التى تصل ارض الهند بالصين الغربية وشرقي آسيا .

وتمتد فى الغرب جبال الهند كوش من الشمال حتى البحر جنوبا . وتخترقها بدورها كذلك مسالك تصل الى التركستان واواسط آسيا

عبر بلاد الأفغان ، والى إيران عبر بلوخستان . وعن طريقها نفذ الغزاة والمهاجرون ، آريون واغريق وهون وسيث وفُرس وأتراك ومغول ، الى شبه القارة الهندية ، فلم يظهر طابعهم قويا إلا في الشمال والشمال الغربي منها ، حتى أصبحت هذه الاجزاء التى تعرف باسم الهندستان تغاير في ثقافتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية نظائرهما في الوسط والجنوب .

وكان مما صد حضارة الشمال عن التسرب جنوبا ووقف حائلا في وجه الغزاة تلك الوهدة الضيقة العميقة التى تتوسط شبه القارة ممتدة من الشرق الى الغرب عند شمال الدكن ، وتقع فيها جبال الوندهايا وتلال ساتپورا مع نهر نربدا . وفيما عدا ما ذكرنا من حدود جبلية لشبه القارة الهندية فالبحر من حولها محيط .

وفي شمال الهند ستان يجرى كذلك اعظم انهار الهند وهما السند والسكنج اللذان يستمدان ماءهما من ثلوج الهملايا . والهنداكه يقدسون مجارى المياه قاطبة لما تهبه لهم من خيرات ونعم . ونهر السكنج هو اقدسها جميعا عندهم حتى ليتطهروا بمائه كل يوم . بل انهم ليلقون بجمث موتاهم فيه تبركا ما أفلتوا من الرقابة . وطوبى لمن يكتب له منهم الحجاج الى منابعه العليا المقدسة .

واكبر روافده هما جمته وبراهما بيرا؛ وبنيهراته الاثنى عشر
التي تولف دلتاه يصيب اقليم البنغال خصبا عميما .
ولئن كان الكنج هو أقدس الانهار عند الهنادكة فإن السند
بأمياله الآلاف أطولها جميعا . وروافده الخمسة ، وهى ستلج
وجينآب وياس وجهلم وراوى ، قد عُرف الاقليم الذى تجرى
فيه بعددها ، فالپنچآب يعنى الانهار الخمسة . وللسند كذلك رافد
سادس هو نهر كابل الذى ينبع من الهندكوش ويلتقى بالنهر الرئيسى
فى ناحية الغرب . واقليم الپنچآب هو من بوابات التجارة الهندية
الكبرى، ومنه نفذ أغلب الغزاة والفاحين فاوغلوا فى شبه القارة .
ويضم وديان السند والكنج أغلب اراضى الهند الزراعية، وإن
كان وديان الثانى اكثر اتساعا وخصبا وبالتالى اغص بالسكان ذلك
أن الكنج تمده على طول مجراه روافد عدة تستمد ماؤها من ثلوج
الهملايا الدائمة ، وهو مالىس للسند منه نصيب فضلا عن انسيابه
فى أرض يغلب الاستواء عليها مما يؤدى إلى بطى جريانه وضياع
الكثير من مائه فى صحراء الثارا اكبر صحراوات الهند والتي فصله عن
الكنج . وتعرف هذه الصحراء أيضا باسم الراجپوتانا، نسبة إلى الامراء
الهنادكة الراجپوتيين الذين جرى بذكر شدة بأسهم وبطولتهم ووقوفهم
دائما فى وجه الغزاة والفاحين ، تاريخ الهند وأساطيرها على السواء .

وفي وسط الهند يجري نهر نربدا، وإلى الجنوب منه يجري
مُهندي، وتحتته جودا فزى أعظم أنهار الدكن ثم يليه نهر كرشنا .
وانهار شبه القارة الهندية هذه برغم كثرتها لا تكفي لرى
أراضيها، لذلك كان اعتماد الزراع الأكبر على مياه الأمطار
الموسمية التي يؤدي أمتاعها إلى مجاعات مروعة محتومة . فلم يكن
عبثا إذن أن ذُكر المطر في كتب الهنادكة المقدسة القديمة بأنه
عطاء الآلهة الذي يهب لهم الزرع قوام الحياة .^(١)

سكان الهند .

وأصل سكان الهند لم يصل إليه الباحثون على وجه التحقيق ،
وإن كان الثابت المعروف أنه قدورد على شبه القارة هذا موجات
متتابة من هجرات أجناس مختلفة .

وكما تتغير الهند في أجوائها تغايرا واسعا المدى فهي كذلك
تختلف في أجناسها اختلافا بينا شديدا للوضوح . ففي مناطقها
الشمالية يعيش جماعات لهم سمات الشعوب الشمالية ونشاطها في
الغالب . وبجانبيهم أقوام آخرون لهم ، خصوصا في وسط

١ . v Le Bon. Les Civilisations de l'Inde — ١
Paris 1887. p 34,35

والجنوب ، سواد سكان المناطق الحارة حيث تقسو حرارة الشمس على الناس فتُضعف ابدانهم وتقلل من نشاطهم ^(١) .
واقدم من سكن الهند في الغالب قوم سود ، لهم سمات الاجناس الحامية قطنوا الغابات ؛ ولا تزال منهم بقايا منقرضة متهزلة تسكن وسط الهند حتى اليوم .

وقدم الهند من بعد ذلك ، في عصور ما قبل التاريخ ، موجات تورانية وافدة من الشمال فدفعوا بأهل البلاد أمامهم صوب الاماكن الجبلية في الوسط . وما لبثوا أن توالدوا معهم فظهر الدراوريون والتمول أقدم من سكن الهند في التاريخ ، ومنهم أغلب سكان شبه القارة اليوم .

وتوالد موجات الآريين البيض من السيث والهن على الهند من بعد ذلك قادمة من ناحية الشمال الغربي فاكنتسحت أمامها التورانيين واخضعتهم والدراوريين والتمول لسلطانها . وعن الدراوريين أخذ هؤلاء الغزاة نظمهم الحكومية والاقتصادية . وسكن هؤلاء البيض في بادىء الامر إقليم البنجاب ، باب الهند الآرى ، ثم أخذوا من بعد ذلك ينتشرون في منطقة الدواب

١ — تنبه هنا إلى أن كلمة هندوكى ليس لها أى دلالة جنسية أو عرقية ففى تطلق في الهند على اتباع عقائد الهند القديمة .

التي صارت مركزا لحضارتهم .

وخاف البراهمة مغبة اختلاط بنى قومهم الآريين بعناصر الهند الأخرى فوضعوا نظام الطبقات وجعلوا أنفسهم والنسلا المحاربين من الآريين على رأسها . فالجيش يقوده النبلاء فى الحرب والبراهمة يؤيدونه ويشدون من عضدة بالدعاء الذى لن يتم له النصر بدونهم ^(١) .

والى جانب الطبقتين الآريتين ، وهم الكهنة البراهمة والاكشترية المقاتلة من النبلاء ، الذين يرون فى موت الرجل منهم بمخدعه عارا وأى عار ، سلك التورانيون فى طبقة الويشية التجار . ولا يأتى من بعدهم سوى طبقة الشودرا التى تنظم الزراع والصناع والعمال ، وكانوا أغلب سكان شبه القارة الاصليين إذ ذاك . أما الآريا ، وهم المنبوذون ، فكانوا فى بادى أمرهم جماعة صغيرة لا تنتمى إلى الطبقات الأربعة سالفة الذكر . وقوامهم بعض القبائل الوطنية وأسرى الحرب ، ورجال نحولوا إلى عبيد عقابا لهم بسبب ولادتهم عن زواج بين براهممة وشودرية ، أو لعجزهم عن وفاء بالدين ، أو لممارستهم المهن الحقيرة التى تضم

الكناسين والجزارين والجلادين والحواة ومن الهم . وهم بعددهم
المتزايد الذى ينوف على الأربعين مليوناً ونفوسهم الشائرة مع
عطف البشر البالغ عليهم ، حين يزداد الوعى الإنسانى تغلغلا
فى صفوفهم ، كفيلون بزلزلة كيان النظام الطبقي كله والقضاء
عليه .

وأثر الآريين العظيم فى الحضارة والمدنية يتجلى فى ديانات
الهند القديمة وعاداتها وطبائعها ولغاتها .

وإذا كانت غلبة الجنس الآرى تظهر واضحة فى مناطق الهملايا
العليا حيث يتميز السكان ببياض بشرتهم ، فإنها ما تلبث ان تأخذ
فى القلة اذا ما اتجهنا صوب الجنوب حيث تأخذ سمرة اللون فى
الظهور بازدياد متدرج .

حتى اذا ما زلنا وادى الكنج ، أخصب بقاع الهند والذى
يزدحم فيه أكثر من ثلث سكان البلاد ، وجدنا به تمثيلاً يسكاد
يكون كاملاً لعروق الهند من الدراوريين والآريين والتورانيين
على تفاوت. هذا والعنصر الأخير، أى التوراني ، كان أبعد أثر فى
سكان الهند من الناحية الجثمانية واطهر من كافة العناصر الأخرى
التي قدمت هذه البلاد من بعده .

وإذا كان وادى الكنج قد اختلطت فيه عروق الهند من

آريين وتورانيين ودرأوريين ، وتجاورت فيه كذلك دياناتها وعقائدها من برهمية وبوذية وهندوكية وإسلامية ، فإننا نجد الپنچاب وأغلب وادى السند يكاد يكون وقفا على عرقين اثنين ، هما العرق التوراني والعرق الآري ، وعقيدة واحدة هي الإسلام . ومن بين سكان الپنچاب والسند قبائل الميـد والچات (الزط) الذين عُرفوا بشجاعتهم ، ومهارتهم في التجارة . وقد قيل ان علي بن ابي طالب استخدمهم على حراسة أموال البصرة في وقعة الجمل ، كما انزلهم الامويون ثغور الشام فشاركوا في حمايتها ^(١) .

وهذه القبائل ومعها السكهكر فيهم المسلمون وفيهم الهنداكة ، وتمتد منازلهم حتى صحراء الراجپوتانا .

اما وسط الهند وجنوبها فغالبية سكانه الساحقة من الدراوريين والتمول القدماء . وهم عند البراهمة يعدون من الشودرا والپاريا نفاية البشر ومنبوذيه في الغالب .

وايأما كان من تباين عروق الهند واختلاف اجناسها الشديد فقد عمت البيئة الواحدة طباع وعادات مشتركة ، ولاغرو فللبقاع

تأثير في الطبايع على حد قول المقدسى جغرافى العرب .
وسكان شبه القارة الهندية الذين يبلغون اليوم اربعمئة
مليون ، اى خمس سكان الدنيا باسرها — اذا غرضنا الطرف عن
قلة ضئيلة من أهل الفطرة تسكن أما كن منعزلة متناثرة ، ولا تزال
على عقائدها الطوطمية الاولى فتؤله الافاعى والقردة والنمره ،
فضلا عن ممارستها إلى عهد غير بعيد لعادة تعدد الازواج من
الذكر وحيث يبنى بضعة اقارب او اخوة فى العادة بامرأه واحدة
ويقيموا أسرة — يمكن ان نكتلهم فى كتلتين كبيرتين على هدى
اليئة وأساسها .

وأكبر الكتلتين هى الكتلة الهندوكية التى تقطن غالبيتها
جمهورية الهند اليوم . وهى تألف ثلاثة ارباع سكان شبه القارة
الهند وباكستانية على كل حال .

وقد ادى معيشة هؤلاء الهنادكة فى بيئته واحدة تخضع لعقائد
واحدة منذ القدم ، الى قيام صفات عامة مشتركة كثيرة فيما
بينهم .

واما الكتلة الثانية فهى كتلة المسلمين الذين يجاوز عددهم
اليوم المائتين مليون من الانفس ، وتضم اغليبتهم جمهورية باكستان .
وبرغم وفود جموع الغزاة المسلمين من العرب والفرس والأتراك

إلى هذه البلاد فإن غالبية المسلمين هناك هم في أصولهم الأولى هناك
مخلص . ذلك ان المسلمين في مدى قرون قليلة حكموا فيها بالهند ،
أفلحوا في تغيير معتقدات هذا الفريق الهندوكى الكبير الى دينهم
وعقيدتهم . بل لقد بلغوا به كذلك الى تغيير لغة وفنونه الى لغتهم
وفنونهم ، وهو ما مارسوه في كل البلاد التى فتحوها وعجز عنه
غيرهم من الامم ورجال الدين . وكان من أهم أسباب انتشار
الاسلام فى شبه القارة الهندية خاصة ، بشهادة المؤرخين
حتى فى العصر الحديث ، هو قوله بالمساواة ، فلم تستطع بريطانيا
ومن سار فى ركبها ، حين كانت تحتل هذه البلاد أن تحد من
نشاطه فيها ، ذلك النشاط الذى جرف كل ما كان يقام فى طريقه
من معوقات وعراقيل (١) .

معتقدات الهند القديمة

فى شبه القارة الهندية كما قلنا من قبل تمثيل كامل لكافة العقائد
التي عرفتها الدنيا ومراحل تطورها من الطوطمية الوثنية الى

١ - حضارة الهند لجوستاف لوبون ، تعريب عادل زعيتر - القاهرة

التوحيد الكامل ؛ وعليها تقوم النظم الاجتماعية لسكانها جميعا .
ولقد عرفت الهند قبل البرهمية كثيرا من معتقدات الآريين
الآسيويين الذين كانوا قد وفدوا إليها قبل الميلاد بأكثر من خمسة
عشر قرنا ، فاعتنقت الناجا الطوطمية وعبدت الهها الافعوان ، كما
عبدت هانومان الإله القرد وناندس الإله الثور ، وقدست الأشجار
والموتى من الاسلاف اعتقادا منها بخلود أرواحهم ، وقدمت لهم
القرايين ، وصلت من أجل سعادتهم في مشواهم الابدى ،
واستخدمت الرقى والتعاويذ والسحر لجلب السعادة وإطالة العمر
ودفع الارواح الشريرة وإيقاع الارتباك بالاعداء . وقد انتقل
كثير من ذلك كله إلى الهند في العصر التاريخي ، ومازال اليوم
قلة منقرضة منعزلة توله النهرة والقردة والافاعي والآفات .

وقدورد بكتب الويدا ، أقدم اساطير الهند ، تفصيل لآله
الآريين الكثيرة هذه ومن بينها مايمثل قوى الطبيعة نفسها
وعناصرها مثل الإله إندرا الذى ينسب اليه البعض تسمية الهند ،
وهو إله العواصف والسماء ، وهو الخالق البارئ الاعلى الذى
يجلب الامطار والماء اصل الحياة ، وأغنى إله النار موجب الحياة
الكونية والعوالم والآلهة ؛ وشوريا إله الشمس .

ولئن اختلف رأى فيمن ينسب إليه خلق العالم من

بين هذه الآلهة العاتية ، فقد اجمعوا ، على كل حال ، على وجوب رد الأمر كله الى خالق واحد قهار ^(١)

وصار للبراهمة بعد العصر الويدى السلطان والمنعة فثبتوا نظام الطبقات الذى كانوا قد أقاموه من قبل ، ووضع قديسهم الأعظم منو شرائعه وفقهه الذى غدا دستور الهند وقانونها الاساسى فى كافة نواحي الحياة بها . ٢٠٨٠٢٢

وظهر فى هذا العصر ، قبل الميلاد بقرون اربعة ، ملاحم المهابهارتا والراماينا . والاولى تشتمل اليوم على قرابة ربع المليون بيت من الشعر فى حين تضم الثانية بين دفتيها ثمانية وأربعين الف بيت ، أى أضعاف أضعاف الياذة هو ميروس ، فبذا كانتا أضخم آثار العالم الادبية القديمة على الاطلاق .

ولا يستقيم مع العقل القول بكتابة هذه الاسفار فى بضعة سنين . فهى قد تعرضت ، دون ادنى ريبة ، إلى إضافات كثيرة غزيرة على كر القرون حتى بلغت صورتها الأخيرة . وللمهابهارتا على الخصوص قداسة عظيمة عند الهنداكة ،

(١) - ابو الريحان البيروني « ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مردولة »

كقداسة القرآن عند المسلمين ، والانجيل عند اتباع المسيح ، حتى
ليعدّون قراءة ما تيسر منها مجلبة للرحمة والمغفرة .

هذا وتنص شرائع منو على امتيازات للبراهمة لا يرقى اليها
الملك نفسه الذى كان عليه الا يقطع أمراً دون الرجوع اليهم فيه
أو يصبر حتى على حاجة لهم .

فهذه الشرائع التى رسمت لسكل طائفة من الطوائف حدوداً
لا تتعداها^(١) ، قد اطلقت فى الوقت نفسه ايدى البراهمة من كل
قيد وجعلت لهم زعامه الناس جميعا . فالبرهمى لا يدنس بذنوب
حتى ولو قتل أهل الكون جميعا ، فهم وما يملكون ملك يمينه .

وأباح منو لآبناء الطبقات الثلاث الأولى حق المصاهرة فيما
بينهم على قدر ، حتى إذا ما تجاوزوه إلى طبقة الشودرا الذين
حرم عليهم مخالطتهم ، انقلبوا منبوذين يصيبهم الخزي فى الدنيا
والآخرة .

١ - نص منو دهرما ساسترا فقيه الهندوس الأكبر على أن البرهمى - سيد
الطبقات جميعا - هو العلم والسكاهن والقاضى والوزير الأكبر الذى لا يقضى
الملك فى أى شأن بدون رأيه ، اما الاكثرى - وكان الملك من بين الاكثربة -
فعليه أن يتعلم ويقدم القرايين ويتصدق ويحمل السلاح دفاعاً عن الوطن ، واما
الويشى فعليه أن يتجر ويجمع المال ويتفق على رجال الدين واهل العلم ، وأما
الغودرى فعليه ان يخدم هذه الطوائف الثلاثة الشريفة . (حضارة الهند)

وكم من شودرى نُتفى من الأرض لمحاوئته التطلع إلى من هم
أعلا منه طبقة . وكم منهم ممن جرع الحميم من الزيت الفوار أو
قطعت يدها لمجرد معارضته للبراهمة .

وإنا ما كان من صرامة شرائع منو بشأن امتزاج الطبقات ،
فقد استطاعت المرأة الهندية بفتنتها أن تحطم هذه القيود وتخترق
هذه الحواجز في أحوال كثيرة كافية لأن تنفى اليوم القول بنقاء
دماء أبناء الطبقات العليا .

هكذا اتاح منو بشرائعه ذلك السلطان المطلق والنفوذ
الواسع لطبقة الكهنة ظل براهما على الأرض - رب الكون
الذى يحيط بجميع المخلوقات بجسم مؤلف من عناصر الطبيعة
الخمسة - فأخضعوا اتباعهم لنظام مرهوب خشعوا له خشية سوء
المصير فى الآخرة .

وضاق الناس ذرعا باطراد سلطان البراهمة واشتداد وطأتهم
عليهم . حتى بدت لهم تباشير الخلاص على أيدي مصلحين عظيمين
ظهروا من بينهم فى القرن السادس ق . م وهما مهاير صاحب
الديانة الجينية وكوتا ما بده صاحب البوذية .

ولقد غمضت حياة هذين المصلحين ، اللذين يقدر اسمهما
علايين من البشر اليوم ، أشد الغموض على الذين تصدوا للكتابة

عنهما وعن مبادئهما فلم يجدوا ما يعتمدون عليه في الغالب
الأساطير.

وعلى حد قول جوستاف لوبون ، الذى طوف بالهند سنوات
عشرة باحثا ودارسا ومنقبا حتى اخرج كتابه المشهور عن
حضارتها ، فباستثناء النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم ، نجد ان
مؤسسى الأديان لم تولّف سيرهم الا بعد وفاتهم بزمان طويل مما
اعسر الاطلاع على حياتهم اطلاعا صحيحا^(١) .

والجينية ، اى عقيدة قهر النفس ، هى اسبق في الظهور من
البوذية . وفيها ينظر نسبها ماهير (اى البطل العظيم) إلى الحياة
بأنها لعنة على المرء ان يتخلص منها بنعمة الانتحار البطيء جوعا
ليبلغ سر الوجود ، ويدرك الحقيقة المجردة التى لا تتكشف الا
للواصلين . ذلك أن الحقيقة والمعرفة عند اهل الدنيا المتعلقين
باهدا ب الحياة فيها لا تتجاوز النسبى فى الزمان والمكان فيها ، فما هو
عند فريق منهم حق محسوب هو عند غيرهم باطل معلوم فى الغالب^(٢) .

١ - حضارة الهند ص ٣٤٤ .

٢ - الهند وجيرانها وهى الجزء الثالث من قصة الحضارة لبول دورانت ترجمة

الدكتور زكى نجيب محمود ص ٥٩

وطريق الخلاص عند الجنيين يقتضى الامتناع عن ايداء اى
كائن حى او جماد ، فالمعادن والحجارة والاشجار لها بدورها
ارواح كامنة فيها . حتى امتنعوا عن ممارسة اى عمل من الاعمال
وغطوا افواهم بايديهم كي لا تنسرب اليها كائنات من الهواء فتقتل ،
وكنسوا الارض برفق زائد أمامهم ومن تحتهم خوف القضاء
على ما يسرح فيها من هوام حين يمشون وحين يجلسون أو
يرقدون . ويفعلون ذلك كله الى ان يتم لهم اعظم انتصار تظفر به
الروح على ارادة الحياة وهو الانتحار البطىء . جوعا .

هذا وحياة البُدد وعقيدته كما ترونها الاساطير تتفق فى كثير
وسيرة المسيح بن مريم وتعاليمه . فبوذا (البُدد) قد ولد كعيسى
عند جذع شجرة^(١) مثمرة ، وشرقت السماء بنور ربها عند مولده ،
وسمع الاصم ونطق الابكم ، واقبل الملوك من اقصى الارض
يرحبون بمقدمه . وهو يماثل عيسى عليه السلام فى الصيام فى
البرية ومحاولة الشيطان ان يغويه . هذا كما نرى كلتى الديانتين
تدعوان الى أن يتغلب المرء على غضبه بالكظم والعفو ، ويزيل
الشر بالخير والكرهية بالحب . بل لقد استخدم البوذيون الماء

١ — يذكر الاستاذ جوستاف لوبون ايضا فى كتابه ص ٣٤٤ نقلا عن الاساطير
الهندية ان البُد قد ولد من ام غراء كذلك .

المقدس والبخور واضاءوا معابدهم بالشعوع ، كما ابتدعوا الرهبانية
فارادى رجالهم امسوحا خاصابهم ، وحلوا المسابح واعتكفوا
بالاديرة ، وتقبلوا الاعتراف من المؤمنين ، قيل أن يفعل اتباع
عيسى ذلك كله بقرون عدة ^(١) .

وإذا كان مبلغ علم هؤلاء الكتّاب في ذلك لا يعد وما وقفوا عليه
في الأساطير الغامضة ، فلا يجوز لنا أن نصل بأقوالهم إلى نتائج
إيجابية عن مبلغ دينونه إحدى هاتين العقيدتين الأخرى ، وهو
ليس من موضوعنا على كل حال .

ويتفق البُدم مع مهابير في انكار وجود خالق للعالم وأن
الموجودات كلها ليست إلا وهم وظواهر باطلة فانية ، وأن
الحديث عن الكون وهل هو متناه أو لا مُتناهى ، والروح
وامتزاج النفس والبدن أو انفصالها ما هو إلا أسطورة وخرافة
من خرافات الفلاسفة . وكذلك أنكر البُدم القضاء والقدر وقال
بأن مصير كل حي منوط بسلوكه الذى قد يقوده إما إلى السعادة
أو إلى الشقاء ، فلا آخرة ولا جنة بنعيم ولا سقر بحميم .

على أنه ، أى البُدم ، ما يلبث أن يختلف مع سالفه في مسألة تعذيب
النفس الذى أدى به حين مارسة إلى الشعور بالغرور فكاد

يُقصيه عن الطريق لبلوغ المعرفة . وسلم بوجوب الحياة على أن يكبح الإنسان جماح شهواته الذاتية ساعياً إلى الخير المجرد دون سواه، إذ أن كل لذة تحمل في طياتها سُماً هو الألم الذى يرجحها . وسخر البُدد من البراهمة سخرية شديدة هز من كياهم حين أعلن بأن الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة واللاهوت مسائل لا تستحق النظر ، وأن القرابين والاذعية والتائم إن هي إلا من صناعة الكهنوت . كما هاجم نظام الطبقات ضماً حين صرح بأن الناس ، اشرافهم وادنياءهم واغنياءهم ، كلهم سواء . وقضى على الجينية بقلة الانتشار ماتدعو إليه من تطرف بالغ فى النقشف والزهد حرم على أتباعها التملك والزواج والتدثر بالثياب^(١) . فليس لها اليوم بالهند إلا أتباع ، (دون المليون عدداً) يتناقصون بالتدريج . ولا ينبذ الثياب منهم إلا قديسوم المتقون . والغالب أن ما كان يعتمد إليه غاندى زعيم الهنداكة الأكبر من التطهر بالصوم الشاق والسير فى خرقة

١ - الناسك الحق هو الذى يقهر جميع مشاعره فلا يشمر بالحر او البرد . والمراء طالما يتذكر أنه عار او أن هناك خير أو شر ، حسن او قبح ، فتمناه انه لا يزال متعلقاً بالدنيا وما فيها فلا يفور بالنجاة والشمور بالحياء من العرى يضمن تصور الآثم . فترك الآثم وقد كان آدم وحواء يعيشان فى الجنة عاريين بظهر كامل ، حتى أكل ، بفعل الشيطان من شجرة العلم بالخير والشر فأخرجاً من الجنة .

بسيطة ، لا تستر إلا عورته ، لم يكن إلا أثر من آثار هذه العقيدة .

وفي الوقت الذي لم يأبه البراهمة فيه لأمر الجينية التي لم تكن بذات خطر جدى بالنسبة لهم ، انصرفوا انصرافا نشيطا حازما الى العمل على تقويض صرح البوذية المنساححة التي غدت تناوى سلطانهم حتى أحدثت تغييرات غير قليلة في نظم الهند الاجتماعية والسياسية بما صار لها من أتباع كثيرين ؛ فما زالوا بها حتى أفلحوا على كر السنين في تقويض نفوذها بالهند لتبقى قدرا كبيرا من الرواج في بورما وبلاد الصين واليابان والتبت من بعد ذلك .

ذلك أن رؤساء البراهمة عمدوا الى ادخال قدر غير يسير من التطور والتسامح في شعائرهم ، في الوقت الذي انخرق فيه سدة البوذية عن مبادئها الاولى المبسطة الى مستحذات موقده أقحموها على عقيدتهم ، وراحوا ينشدون لانفسهم ، بغير ر ، نظير ما للبراهمة من مجد وسلطان ، حتى وسعوا ، باستيازاتهم التي أدعواهم لانفسهم ، الشقة فيما بينهم وبين اتباعهم الذين ما لبثوا أن جذبهم تسامح البراهمة الطارىء وتديروهم المحكم حين أدخلوا للبدن نفسه مكانا بين آلهتهم هو ومهاير ، وأعلنوا لهم قد سببتهم ،

فراحوا يعبدونهما وكانوا قد نهوا عن ذلك من قبل .
وهكذا ظهرت برهمية جديدة لا تختلف عن البرهمية القديمة في
كثير . وبساعد على استرداد أصحابها لسلطانهم القديم ما وجدوه عند
الأمراء الراجپوتيين من مناصرة وتشجيع وتعزید يسر لهم نشر
مدارسهم في كل مكان ، حتى سادت عقيدتهم الهند كلها لا يضيرها
وجود تلك القلة الجينية الضئيلة .

ودين الهنادكة اليوم السائد هذا ، الألوهية فيه ثلاث صور
رئيسية هي نبراهما الخالق سيد الآلهة والمسيطر على العالم كله والذي
يحيط بجميع الكائنات فتتمو بعد أن تولد ثم تنحل على ما يشابه
مذهب وحدة الوجود ، ووشنو الحافظ إله الحب الذي أحيا
الموتى ، أبرأ الأكمة والابرص ثم صعد إلى السماء ليعود إلى الناس
من جديد قبل النشور ليهديهم إلى الحق ، وشيوا المدمر الموكول
به قبض أرواح تناس وخلصها من أبدانهم وإلى جانب هؤلاء
الآلهة فهناك ملايين من آلهة آخرين تزدهم بهم الهند بعضها أقرب
إلى الشياطين وبعضها أقرب إلى الملائكة ومنها ماهو في صورة
الطير أو الحيوان والهوام . وتجمعها كلها شبكة لا حدود لها تتناسخ
الأرواح فيها .

والهندوكية المشتركة ، أى البرهمية الجديدة ، والشيوية والوشنوية

وجميعها مستمدة من البرهمية الأولى ، لم يقف الأمر عند تفرعهم إلى مذاهب لاحصر لها ، هي اليوم في عددها أشبه بأوراق شجرة باسقة كثيفة الأغصان أيام الربيع ، حتى ذهب أتباع كل مذهب منها يتشددون في أحكامهم فلا يطاعون غيرهم أويجالسونهم^(١).

لغات الهند .

لم يكن عجباً وفي شبه القارة الهندوياً كستانية من المذاهب والعقائد مالا يدخل تحت حصر أن يروج فيها أكثر من مائتين من اللغات وما يتفرع عنها من لهجات توبو على الثلاثمائة . وتُرد لغات الهند عموماً إلى أصليْن اثْنين : الأصل الآري واليه ترجع أغلب لغات الشمال وقسم من لغات الوسط ، والأصل الدراورى واليه ترد أغلب لغات الجنوب ومناطق متفرقة في الوسط والشرق .

والسنسكريتية هي أشهر لغات الهند الآرية القديمة وأعرقها ، وبها كُتبت أسفار الهند المقدسة القديمة . ولقد أتى على هذه اللغة حين من الدهر كاد يكون استعمالها فيه مقصوراً على رجال الدين

والعلماء ، ثم كُتب لها من بعد ذلك قدرٌ من الرواج بفضل تشجيع بعض سلاطين المسلمين . حتى اذا جاء وأكبر ، أعظم سلاطين الدولة المغولية ، ينادى بان الهند للهند ، هنادكة ومسلمين ، صادفت هذه اللغة بدورها رواجا كبيرا اذ راح هذا السلطان النابه يحض الهنادكة على الاشتغال بأدابهم واحياء تراثهم في نهضته العلمية . الكبرى التى لم يعرف العالم لها نظيرا فى عصره . وهى اليوم ، أى السنسكريتية ، لغة جمهورية الهند الحديثة . ويصفها بعض اللغويين الاعلام بأنها فضلا عن اتحادها فى اصولها مع اغلب اللغات الاوربية فإنها أكمل من لغة اليونان واوسع من لغة الرومان ، أى اللاتينية ، وادق من كليهما ^(١)

وتروج فى الدكن والجنوب لغة تامل وتلنجو وهما من اللغات الدراورية القديمة .

وأعظم لغات شبه القارة الهندو باكستانية انتشارا هى الأوردوية وهى لغة آرية وضع قواعدها ونحوها علماء المسلمين . وكلمة أوردو معناها المعسكر . والمقصود هنا معسكر اسرى المغول والترك المسلمين حول دهلى حيث نشأت هذه اللغة فبدأت بالظهور فى

١ - Elphinstone, M. The History of India London 1911
p 161.

القرن العاشر الهجرى . والفاظها مزيج من العربية والسانسكريتية
والفارسية والتركية. وهى فى قواعدها آرية خالصة ، وتكتب
بالحروف العربية مع الاضافات الفارسية^(١).

ولا يزال للفارسية سوق رائجة فى الاوساط الاسلامية. وما ربح
المجوس، الذين يعرفون بالپارسيين، محتفظين فى الغالب بلغتهم الهلوية
القديمة . وهم فى غرب البلاد على قلتهم يعدون فى بين اصحاب
الثراء الواسع. هذا الى جانب بعض اللغات الاسبوية والاوروبية
الاخرى التى تسمع هنا وهناك بالهند .

ماريج الهند القديمة ومضارنها

كان بشبه القارة الهند وباكستانيه حضارات مزدهرة ايام كان
المصريون يقيمون اهرامانهم قبل ميلاد المسيح بقرون ثلاثين .
فقد كشفت بعثة مارشال فى حفر بانها عند قوهنجو دارو ، فى
غرب السند عام ١٩٢٤ م عن آثار ، يرجع تاريخها الى عصر
الاهرامات ، لمدينة عريقة كانت تسود البلاد اذ ذاك ، وكان
اصحابها على صلات اقتصادية وثقافية وسياسية ببابل فى الغالب .
وهذه المدن الاربعة أو الخمسة التى كشفت عنها هذه البعثة ، والتى

١ - هى الباء الثلاثة الى التى تكتب بنقط ثلاث من تحتها ثم الجيم الثلاثة والزاي
والكاف الفارسية.

كان يقوم بعضها فوق بعض ، حوت دورا من طبقات عدة قوامها
الآجر المتين، والى جوارها الحمامات والآبار ، وفيها آنية من خزف
مصقول ، واسلحة دقيقة ، وزخارف رقيقة من الخشب والمعدن ،
وأدوات للزينة مما لا تروج عادة إلا في أرقى المجتمعات ^(١) .

على أن قلة وثائق الهند القديمة التاريخية عموما ، وصعوبة
الاستدلال على ما ضيها من نقوشها وأطلالها ، قد أظهر المؤرخين
على أن لا معدى لهم من أن يستشفوا من كتب هذه البلاد الدينية
القديمة وملاحمها ، وما حوت من أكداس الأساطير ، ما يكشف
عن ، بعض نواحي التاريخ الهندى القديم واحداً .

وحدد جمهرة المؤرخين لمؤرخى المسلمين ورحالهم جهودهم
العلمى البارز الموفق حمداً جعلهم يقررون بأن أظهر أدوار الهند
التاريخية ^(٢) لم يبدأ إلا بتدوينات هؤلاء العلماء الذين صحبوا
الفتوحات الإسلامية فى الهند ، ونعنى بها تلك الفتوحات التى
بدأها محمود الغزنوى وخلفاؤه فأخضعوا أغلب شبه القارة
الهندية لحكمهم ، بعد أن كان العرب قد أقنصر أمرهم فى القرن
الأول الهجرى على احتلال بعض ولايات سندية صغيرة .

وسنحدث عن ذلك كله تفصيلا في الصفحات التالية .

وعاونا كذلك على استجلاء غوامض تاريخ الهند القديم ما وصلنا من تدوينات بعض الرحالة الذين زاروا الهند في القديم واطلعوا اطلاقا واسعا على أحوالها ، أمثال ميغاستين ، سفير السلوقيين الاغريق لدى دولة الموريا الهندية في القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم الحاجين الصينيين البوذيين فاهيان وهيون تسيانغ اللذان طوفا بالهند في القرنين الخامس والسابع الميلادى على التوالي .

ولا نعرف من تاريخ الهند قبل نفاذ الاسكندر المقدونى إلى هذه البلاد إلا استيلاء الفرس على إقليم السند والقسم الشمالى الغربى من هذه البلاد فأقاموا به قرنين من الزمن واستخدموا سكانه وفيولهم فى جيوشهم لخاربوا بهم اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد .

واكتسح الاسكندر بلاد فارس ثم نفذ من أرض كابل إلى السند فدخله عام ٣٢٦ ق . م ، بعد أن عبر الهندكوش ، فطبق يتجول بالپنجاب عام بأكمله . حتى إذا ما عزم على المضى فى الفتح قدما ، بعد ما هزم بورس ملك الهند ، ليبلغ البحر فى ناحية الشرق فيقيم له امبراطورية هندية ، عارضه رجاله ، الذين

لم يصبروا على احتمال حر هذه البلاد مع ما عاودهم من الحنين إلى بلادهم ، فاستدار بهم عائدا إلى وطنه ، عبر بلو خستان ، فوافاه أجله في الطريق قبل أن يبلغه .

وكان من أثر فتح الاسكندر هذا اتصال الهند بثقافة الاغريق وحضارتهم اتصالا وثيقا . أما ما أسسه بعض قادته ، ومن تخلف معهم من رجالهم ، من بعض الامارات بالسند ، فلم يعمر إلا عدد سنين .

وظهر بالهند ، أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، امبراطورية الموريا الهندية التي اتخذت لها الطاووس شعارا . وكانت رقعتها تمتد من البنغال إلى الهند كوش وتضم معها مالوه والكجرات وأرض كابل .

هذا وكان چَـندرا كُـبُـبُتا (٣٢١ - ٢٩٦ ق م) مؤسس هذه الدولة قد أقام بدوره زمنا بمعسكر الاسكندر ، إذ كان أبوه من زعماء البنجاب الذين وقعوا في أسر القائد المقدوني ، ثم نكل بالحميات الاغريقية من بعد ذلك وطفق يوسع من رقعة ملكه متخذًا من بته حاضرة له .

وذاع صيت هذا الملك الهندي ، حتى بعث إليه نيكاتور السلوقي ، الذي ملك بعد وفاة الاسكندر سوريه وبابل ، سفيره

ميغاستين فاطلع اطلاعا واسعا على أحوال هذه البلاد وطباع أهلها وعاداتها، حتى ليُعد ما وصل إلينا من مذكراته، من أهم مصادر الهند التاريخية القديمة ^(١).

وقد أشاد هذا المبعوث الاغريق بما كان عليه قصر الملك من الروعة والفخامة وما كان يزينه من نقوش وجواهر وعمد طليت بالذهب. كما وصف الحضارة الهندية التي كانت قائمة إذ ذاك بأنها تساوى اختها اليونانية مساواة تامة. واثى الثناء الكثير على شيوع الفضائل ونصرة الحق بين السكان عموما، وانعدام الرق عندهم برغم قيام نظام الطبقات فيما بينهم ^(٢).

وكان من أهداف هذا السفير العمل على تحويل مجرى التجارة الهندية إلى بلاد الشام، عبر مملكة السلوقيين، بدلا من الطريق المحرى الذى يفتى بها إلى مصر فتبثرى من ورائه. ودهمت الهند في أواخر عصر هذا الملك مجاعات شديدة اعتزل الحكيم بسببها، فترهب مدى اثني عشر عاما قتل نفسه في آخرها جوعا على مذهب مهابير.

Cambridge History of India pp. 384,467.

— ١

Havell. E. B. The History of Arayan Rule in Indta. — ٢
pp. 75-83.

ويعتبر المؤرخون حفيده الملك الفليسوف آزوكا (آشوك :
٢٧١ - ٢٣١ ق.م) أول حاكم واضح الشخصية في تاريخ
الهند القديم ^(١) . وبه يبدأ تاريخ الهند المعمارى ؛ ولا تزال هذه
البلاد حتى اليوم كثير من عُمُدِه التى أقامها فى أنحاء متفرقة
بها لتنقش عليها مراسيمه ؛ هذا فضلا عن قصوره التى وصفها
الرحالة فاهيان بأنها كانت من الاعاجيب .
وتروى الاساطير أنه قتل اخوته المائه الذين ولدوا لآبيه
من ست عشر زوجة ليأمن بذلك منافستهم له ، فما غدا أن ندم على
فعلته ، فوقف حياته من بعد ذلك على التعبد والعناية بأمر الدين
حتى صار داعية البوذية الأكبر الذى احيا شعائرها من جديد .
فقد أمر عماله فى كافة أنحاء بلاده أن ينظروا الى رعاياهم نظرهم
الى ابنائهم فيعاملوهم بالحسنى . كما بنى دورا للشفاء وملاجئ للعجزة
من الانسان والحيوان ؛ ثم بعث بمبشرى هذه العقيدة الى خارج
الهند فبلغوا مصر واليونان وسوريا وبلاد العرب ، كما انتشروا
فى اواسط آسيا وجابوا التبت والصين واليابان . وفى عهد هذا
الملك عرفت الهند النقود كأداة تعامل لأول مرة فى تاريخها .
وانتهى أمر اسرة الموريا هذه عام ١٨٤ ق . م . على أيدى

أسرة أندهارا التي خلقتها في بلادها .
وظهرت قبائل السكا على حدود الهند الشمالية الغربية بعد قليل ،
وانشأت لها امارات في الشمال والوسط ، لكن أسرة اندهارا
ماعتمت أن تصدت لستار بهم ^(١) فانزلت بهم هزائم كثيرة .
كذلك عبرت قبائل كوشان السيثة حدود الهند الغربية وتوغلت
في شمال الهند حتى بنارس . وفي عهد ملكهم كُنَشكا ضمت دولتهم
ارض كابل والپنچاب والراچپوتانا .

ويُعد هذا الملك ثانی حماة البوذية في الهند بعد آزوكا ^(٢) . فقد
جمع مجلسا من كهنة البوذية الکبار عهد الیهم بتدوين سُنن البوذية
فبلغت ثلاثمائة الف نص رفعوا فيها البُدد الى مصاف الآلهة .
وفي عهد هذا الملك الذي كان على اتصال بالرومان ، راجت
الحياة العقلية رواجا كبيرا وازدهرت العمارة والنحت .

وبغیم تاریخ الهند حتى بداية القرن الرابع الميلادی لتظهر أسرة
كُبتا الثانية على مسرح الحوادث في شبه القارة ، فتطرد ، بفضل
بطولة ثانی ملوکها بکر مادیت ، السیث أصحاب کنشکا من الهند ،

١ - الترتب - هو حاکم الإقليم عند الفرس القدماء ، وعنه أخذ البابليون
والاغریق .

Moreland, W.A short history of India. London 1936. - ٢

وتُبعد عن حدودها ستارية السكا، ثم تبسط نفوذها من بعد ذلك في الشمال والوسط والغرب وتخضع لولاها الدكن والبنغال وآسام. وقد تحدث الرحالة الصينى فاهيان فى مذكراته عن ملوك هذه الأسرة ، ووصف بلاطهم وما كان به من الفلاسفة والشعراء وكُتّاب المسرحيات (١).

وخلب لب هذه الحجاج البوذى ما رأى بالهند إذ ذاك من مدن كبيرة تعج بالحركة والسكان ، وما صادفه من دور للشفاء مجانية عديدة ورباطات كثيرة ، بل ومدارس وجامعات تزدهم بعلمائها وطلابها ، ومن بينها جامعة تكسيلا السندية ومدرستها الطبية المشهورة. هذا فضلا عن شيوع العدل بين الناس ورخاء العيش

وفى عهد هذه الأسرة نعم البراهمة برعاية ردت لهم سلطانهم ونفوذهم القديم الذى كان آشوكا قد حد منه كثيرا ، فراحوا بالتالى يحيون تقاليدهم الأدبية من جديد فكتبوا المهابهارتا والراماينا فى صورتيهما الحاضرة فى الغالب. (٢)

وظلت هذه الأسرة تحكم الهند حتى أقبل الهون من بلاد

ماوراء النهر في القرن الخامس الميلادى فقصوا عليها في الوقت الذى كانت فيه قبائل أخرى منهم تتوغل، بقيادة زعيمهم الأكبر أنيلا، بأوروبا.

وأقام هرشا، وكان من سلالة الكُتوبتين، إمبراطورية واسعة له في القرن السابع الميلادى شملت آسام والكجرات مع شمال الهند كله. وكان هذا الملك شديد الرفق برعاياه فُخذ من سلطان البراهمة وأخذ بيد البوذية من جديد. ويروى عنه أنه كان يتنازل لشعبه عن كل ثروته مرة في كل أربع سنوات. وقد استنفدت هباته في إحدى هذه المرات كل أمواله وأملاكه حتى ذهب يستجدى أختا له رداء قديما ليتدثر به، فأكاد يتناوله منها حتى سجد للبد حمداً وشكراً (١)

ويذكر الحاج الصينى الثانى هيون تسيانغ الكثير عن فضائل هذا الملك العابد الذى انتزع الملك من الهون، ويشيد بما كانت عليه حاضرتة فتزوج من الروعة والفخامة. وهذه المدينة التى كانت حاضرة أسرة كُبتا من قبل، والتي ذكرها بطليموس الجغرافى عام ١٤٠ م باسم قُنتوجيا، كما أعجب بها محمود الغزنوى فاتح الهندستان إعجاباً شديداً، كانت تقع

إلى الشرق من آكرا الحالية وعلى مسيرة كيلو مترات قليلة من
نهر الكنج .

وانفرط مُلك هرشا عقب وفاته مباشرة . ذلك أن خلفاءه ،
لم يستطيعوا لضعفهم أن يقفوا في وجه قبائل الهون التي طفقت
تتدفق من جديد على أرض الهند ، فضربت القوضى أطناها في
أنحاء البلاد ، وقام بين أمرائها ما يشبه الحرب الأهلية التي أخذ
البراهمة يذكون نيرانها طلبا لزيادة نفوذهم ولاخضاع البوذية
لسلطاتهم .

واستطاعت إمارة قنوج ، برغم انسلاخ الجزء الأكبر من
من إمبراطورية هرشا الواسعة عنها ، أن تحتفظ بمركز الصدارة
في الشمال الهندي كله . وظلت تقاوم غزوات أمراء كشمير
والبنغال وما حولها حتى نهض بها مهير بهوج في القرن التاسع
الميلادي فاسترد لها كثيرا من أملاك هرشا السابقة في البنجاب
والدوآب وعندكواليار . وبدأت الغزوات الإسلامية تترى على
هذه الإمارة منذ أوائل القرن الحادي عشر الميلادي فلم يشارف
على نهايته حتى دخلت في حوزة المسلمين .

كذلك بقي بسال ديوا يسيطر هو وأحفاده على إمارة دهلي ،
التي كانت تمتد فيما بين الهملايا والوندهايا ، حتى اقتحمها الغوريون ،

خلفاء الغزنويين ، عليهم وجعلوا من مدينتهم الكبرى
حاضرة لملكهم .

أما مالوه فكان قد نهض بها بدروها راجا كرسنا في القرن
التاسع الميلادي . واشتهر خلفه مونكا ، إلى جانب بطولته في
الحرب ، بتشجيعه ورعايته للفنون والآداب السنسكريتية . وقد
اعتنق آخر حكام مالوه الهنداكة الإسلام على أيدي الخلاجيين
في بداية القرن الرابع عشر الميلادي .

هذا وقد اشتهر من بين حكام الكجرات «مولراجا» الذي بنى
معبد سومنات وخليفته راجا بهما الذي حاول أن يحمي هذا
المعبد الشهير بوقوفه في وجه محمود الغزنوي الذي دمره عن
آخره . وقد ضم الخلاجيون إلى أملاكهم أيضاً هذه الولاية التي
تعد أهم مراكز التجارة الهندية .

وبرغم أن هرشالم استطاع فتح إقليم كشمير فإنه أفلح في
حمل أصحابه على قبول البوذية في بلادهم .

وأتيح لهذه الامارة في القرن الثامن الميلادي أن توسع من
رقعتها حتى اشتهر أمرها ، فقامت بينها وبين الصين علاقات
اقتصادية وثقافية وسياسية .

على أن وعورتها وحصانة موقعها الطبيعي لم تمنعها على غزاة

المسلمين ، فاجتاحتها جيوش محمود الغزنوى الذى يزد إليه الفضل
فى نشر الإسلام بها .

وسطع نجم بهار والبنغال بعد انفصالهما عن ملك هرشا ،
فحكمهما أسرتا بالاولوسنا على التوالي .

وبسطت الاولى منهما نفوذها على أغلب الشمال الهندى بعض
الوقت . وكان الخالجيون هم أول غزاة من المسلمين نفذوا إلى هاتين
الإمارتين .

أما إقليم السند ، وهو آخر الأقاليم الشمالية التى نتحدث عنها ،
فقد خضع طويلا لقبائل السكا الآرية حتى انتزعه منهم الملك
البرهمى داهر ، وهو الذى وجده العرب المسلمون على هذا
الإقليم عند غزوهم له .

ويشير الرحالة الصينى هيون تسيانغ إلى حكم الأمراء
الراچپوتيين فى الدكن . وقد اشتهر من بينهم أسرة الشليوكيين ، إذ
استطاع بايكسين الثانى ، أحد ملوكها . أن يقف فى وجه هرشا
سالف الذكر ويغزو الكجرات وملوه والراچپوتانا ، كما أنشأ
علاقات ود وصداقة مع ملوك الفرس الساسانيين وتعد النقوش
التي ظهرت فى عهده من أعظم آثار الهند الفنية حتى اليوم .
وخلف الشليوكيين على عرش الدكن أسرة راشتراكوتافى

القرن الثامن الميلادى ، وقد قامت بينها وبين العرب علاقات اقتصادية^(١) قوية ، وكان تجارهم حين يقدون إلى بلاد الدكن يقابلون بالحفاوة والترحيب .

وبقيت الدكن تستعصى على غزاة المسلمين حتى اجتاحتها الخلاجيون الذين بلغوا بفتوحاتهم شبه القارة الهندية جنوباً . والأمراء الراجبوتيون الذين حكموا فى إمارات الشمال والدكن ، والذين ذاعت شهرتهم وبطولتهم فى التاريخ الهندى والأساطير على السواء ، لم يصل الباحثون حتى اليوم إلى حقيقة أصلهم . والرأى الغالب أنهم من أصلاب الأبطال الآريين الذين سبقوا الهون إلى أرض الهند فحكموها . وقد احتموا من وجه الغزاة المسلمين آخر الأمر بالمنطقة الصحراوية الوعرة بصحراء النار التى عُرفت باسمهم كما تعرف كذلك براجاستان أى أرض الملوك . وترد الأساطير الهندية نشأتهم إلى تزواج القمر بالشمس .

على أن بطولة هؤلاء الأمراء هذه لم تمنعهم من الانغماس فى تيار المنازعات الداخلية ، شأهم فى ذلك شأن الأمراء الإقطاعيين

فى كل زمان ومكان ، فأثروا فى الغالب الاندفاع وراء أطماعهم على الاتحاد والتآزر لدفع الغزاة والفاحين عن الهند وطنهم الأكبر . وتاريخ جنوب الهند أشد غموضا من تاريخ شمالها الذى لم يرتبط به إلا عرضا . ولا تشير كتب الشمال وملاحمه ، بل ونقوشه وآثاره ، إلى الجنوب إلا إشارات قليلة ، وجدت فى مخلفات عصر آشوكا وبعض مخلفات أخرى ، تفيد قيام ممالك بهذا القسم الهندى قبل الميلاد بقرون قليلة . وما وجد من كتابات التمول والتلنجو عن هذا الجنوب لا يسبق القرن الثامن الميلادى فى القدم ، ولا يجاوز مابه من نقوش وآثار القرن الخامس .

ويرجع ظهور ممالك الجنوب الكبرى ، وهى بنديا وكولا وجيرا ، إلى ما قبل ميلاد المسيح بقليل . وكانت الأولى تقع بأقصى الجنوب ، وكانت على قدر كبير من الثراء وعلى اتصال اقتصادى وثيق بالمصريين والرومان كما كانت عاصمتها مادورا من أجمل مدن الهند إذذاك . وإلى الشمال منها والشرق كانت تقوم إمارة كولا ، فى حين كانت جيرا تقع الى الشمال من الأولى وإلى الغرب من الثانية .

وتتمكن حكام كولا من الاستيلاء على بنديا وبسط سلطانهم على جزيرة سيلان جنوبا ، فى حين امتد نفوذهم فى الشمال حتى البنغال وأورده وإن لم يعمر طويلا هناك .

وبلغت جيرا بدورها شأوا عظيما في القرنين الرابع والخامس، فلم يزل الثامن الميلادى حتى تجاوز نفوذها نهر نربدا .
واخذ وسط الهند وجنوبها يتعرض للغزو الإسلامى ابتداء من أيام الخلقين حتى استقل امراء المسلمين بسلطنة بهمنى الدكنية فى القرن الرابع عشر الميلادى ليقوم من ورائهم بالجنوب ، على انقاض إماراته الثلاثة سالفة الذكر ، إمارة قيايا نكر الهندوكية اعظم الامارات التى عرفها الجنوب . ومنع من القضاء عليها ما كان من اقتتال خلفاء سلطنة بهمنى فيما بينهم ، فلبثت وبعض دويلات هندوكية فى الجنوب تنعم بالنفوذ والاستقلال حتى بسطاورنك زيب المغولى سلطانه على شبه القارة الهندية بأكمله .

هذا وقد كان لقدماء الهنود حضارة عريقة ودينية رفيعة بلغت من الرقى درجة عالية ، فلم تكن أقل شأنا من نظائرها عند اليونان ومصر فى القديم .

وتشير كتب الهند القديمة الى قيام النظام الجمهورى ، وتحدث عن الوزراء والمجالس النيابية والتشريع والقانون والإدارة حديثا ديموقراطيا ؛ وتصف الملك الهندى بأنه فى حقيقته خادم لقومه

يحصل على اجره ، وكان السدس السنوى من الحاصلات ، ليعمل به على رفاهيتهم ^(١)

هــذا ولما كانت مساحة البلاد الواسعة لا تمكن الحكومة المركزية من الاضطلاع بشئون السكان فى كل مكان ، فقد أدى ذلك تلقائيا إلى قيام مجتمعات صغيرة متماسكة بالقرى ترعى شئون نفسها بنفسها فى وحدة تامة لا يعلوها سوى الدولة . فكانت القرية منذ القدم ، بنظامها السياسى والاجتماعى هذا ، وطن الهندوكى الذى يقوم على كافة شئونه الدنيوية والدينية . ففيه حكومته وقاضيه وكاهنه وطبيبه وشاعره ، ومن حوله أبناء عشيرته الذين يشعرونه بأنه واحد منهم : فهو يشترك معهم فى العمل بأرض القرية التى هى فى الغالب مشاع بينهم . وله من بعد ذلك نصيب من ثمارها أودخلها ، عن طريق العمل أو عن طريق الميراث .

ولم يتعرض الغزاة وحكوماتهم فى الغالب لهذا النظام . فلم يكن يعينهم إلا دفع الضرائب لهم . وهو ما كان يهون على الفلاح الهندوكى أمره من بعد ذلك ^(٢) . وكانت حالة الفلاح الهندوكى عموما تتراوح بين الميسرة والمعسرة وفقا لما يطالب به من ضرائب .

Prasad, India pp XX111, XXX1V. - ١

Le Bon. pp 637,38 - ٢

والمرأة الهندية كان لها في مجتمعات بلادها القديمة شأن مهم ،
شاركت في الاشتغال بفنون المعرفة ، حتى لا تزال الهند تنغمى بذكري
جارجى التى كان لها شرف الانخراط فى سلك الفلاسفة القدماء ^(١)
وشاركت الهندية كذلك فى الدفاع عن بلادها فخاربت غير مرة بجانب
عناديد الهند . وصعدت فوق المواقد مفضلة الموت حرقا على الوقوع
فى أيدي الأعداء .

والمرأة الهندوكية لا تتوانى فى الغالب ، ما أتاحت لها الفرص حتى
اليوم ، فى أن تحرق نفسها مع جثمان زوجها عن إيمان وشعور
بالزهو والشرف بين دعاء القوم وهتافهم . ولعل مما ساعد على ممارسة
عادة الساتى هذه ، ما كان ينتظر الأرملة التى ليس لها ولد ،
على الخصوص ، من بؤس وشقاء ، إذ تصير منبوذة محترقة من
الناس جميعا ؛ فلم يكن لها مناص إذن من سلوك طريق الساتى
الذى لا تزال تمارس حتى اليوم ما أفلت الناس من الرقابة .

هذا وقد وصل فن العمارة فى الهند القديمة إلى ذروة الرقى
والجمال الذى تجلى فى معابدها الرائعة وأبنيتها الفخمة فبهر أعين
الرحالة والمؤرخين من الأغريق والصينيين والمسلمين الذين زاروا
هذه البلاد واطلعوا على أحوالها .

أما الصناعات الهندية، من معدنية وخشبية وحجرية وعاجية وجلدية وصوفية وحريرية وقطنية، فقد بلغت شأوا كبيرا من الازدهار قبل الميلاد بقرون كثيرة. وكان لكل طائفة من أبناء الحرف في الغالب نقابة قوية تنظم شئونهم وتدافع عن حقوقهم. وحملت قواهل الهند، ما بين برية وبحرية، منتجات هذه البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد إلى كافة نواحي العالم القديم مباشرة أو بواسطة بلاد الشرق الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، فتيبار والمقاتلون بسيف الهند البتارة، وتعطرت النساء بعطورها وورفلن في حريرها وازين بلآلها، وازدحت الجموع حول الملاعب لمشاهدة نمر الهند وفيلها في المعترك. (١).

وكانت الهند إذ ذاك تتداول ما يشبه خطابات الاعتماد والضمان المتعارف عليها في عالم الاقتصاد اليوم، وتعامل بالنقود قبل الميلاد بزمان طريل.

ويذكر الرحالة الصيني هيون تسياغ الكثير عن انتشار الجماعات بالهند القديمة ومنها جامعة تاكسيلا التي كانت تشتهر

بالبحث العلمى أيام الاسكندر وجامعة يوجين الفلكية
وأجانتا الطبيّة وبنارس البرهمية ونالاندا البوذية ؛ ويفيض فى
حديثه عن الفلسفة الهندية وازدهار العلوم والفنون بهذه البلاد .
والواقع أن اشتغال الهنود بالعلوم وتقدمهم فيه قديم جداً .
فعالمهم آريه بهت ، الذى ترجم العرب كتبه أيام العباسيين ، هو
الذى سبق إلى اثبات دوران الأرض حول محورها وأعلن عن
كرويتها وعلل أسباب الكسوف والخسوف (١٢) والانقلابين
والاعتدالين فى الفصول الأربعة ؛ كما تحدث عن قيمة النسبة
التقريبية المستعملة فى حساب مساحة الدائرة ، ووضع كثيراً
من فوائين حساب المثلثات والجيب .

وخلف هذا العالم رياضى آخر يدعى براهما كوبتا وطائفة
من الفلكيين قسموا العالم إلى اثني عشر شهراً ، وكل شهر إلى
ثلاثين يوماً ، وحسبوا بدقه بالغة مواقع النجوم فى
أفلاكها وبحسبوا فى قوانين الجاذبية ، كما أبتكروا فكرة الساعة
فى الجبر ، وعالجوا الجذور وقواعد التبادل والتوافق .

وكذلك نبغ الهنود فى الكيمياء فصهروا الحديد
وبلغوا بالصلب درجة عالية لم يصل إليها غيرهم ، حتى اعتبر

الإسكندر هديتهم له منه من أنفس الهدايا فآثرها على الذهب والفضة ^(١) . ولعل ذلك كان هو مرد شهرة أسلحتهم وسيوفهم . هذا كما تفننوا في الصباغة والدباغة وصناعة الزجاج والصابون ، وكلسوا وقطروا وحضروا الأملح على اختلاف أنواعها .

وكما بذ الهند القدماء الإغريق في نواح من الرياضيات كثيرة ، كذلك فاقوهم في العلوم الطبية حتى رأينا ديوسقورس الطبيب، الذي عاش بالإسكندرية قبل الميلاد بقرن ، يستخدم كثيرا من المصطلحات الطبية الهندية ^(٢) . فقد كانوا على إحاطة تامة بتشريح الجسم ووظائف الأعضاء والعضلات والأنسجة وتركيبها وخواصها : كما استنبطوا ضروبا من المخدر استعانوا بها على إجراء الجراحات الكثيرة التي كانوا يحذقونها ؛ وضبطوا النسل على طريقة لا يعارضها رجال الدين ؛ واهتموا إلى لقاح الجدري قبل الميلاد بخمسة قرون ؛ وتمكنوا من تشخيص المرض بمجرد النظر في بول المريض .

١ - الهند وجيرانها ص ٢٤٠

٢ - تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولا ، ترجمة المرحوم حمزة طاهر ص ٤٦

ولانعدو الحق حين نقول كذلك إن الفلسفة الهندية قد ذاع صيتها قبل أن يشتهر أمر الفلسفة اليونانية بزمان طويل . والمعروف أن فيثاغورس الفيلسوف اليوناني ، الذي عاصر بوذا ، قد شغل بعلوم الهند في القرن السادس قبل الميلاد ، أي قبل أن يغزوا الإسكند الهند بأكثر من قرنين . ويُروى أن فلاسفة من الهنود زاروا أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد وناظروا سقراط فسخروا منه . (٢)

ومن بين فلاسفة الهند القدامى ، فيما قبل عصر الإسكندر ، الفيلسوف كاپيلا ، أزل من قال بمقدرة العقل الإنساني واستقلاله وحرية الكاملتين (٣) .

هذا ولم يكن اشتغال الهنود بالآداب السنسكريتية وغيرها من الآداب الهندية الأخرى وسموهم بها ليقبل عما فعلوه بالفلسفة . وفي ألداس تراثهم من القصص والملاحم والتمثيلات والشعر ما يشهد بطول باعهم في هذا المضمار .

ولقد انفرد أبو الريحان البيروني في العربية بأول وأكبر حديث عن قدماء الهنود وحضارتهم ومدنيتهم ، وأثبت وجود

مبدأ التوحيد عندهم (١) . وجاء معه ومن قبله ومن بعده ، إلى هذه البلاد طائفة من مؤرخى المسلمين ورحالتهم ، من أمثال العسني والبيهقي والمسعودي والاصطخري والإدريسي وابن بطوطه وابن حوقل ، فطوفوا بها واسهبوا فى الحديث عنها وعن أحوالها .

على أن توفر مقامات الحضارة والمدنية الكثيرة عند الهنود لم تمنعهم من انقسامهم على أنفسهم وتناحر أمرائهم فيما بينهم على النفوذ والسلطان حتى سقطوا آخر الأمر وبلادهم فريسة غير صعبة للغزاة والفاحين .

وطفق المسلمون منذ أواخر القرن الأول الهجرى ينفذون إلى هذه البلاد فاتحين . ولم يبدأ الغزو الإسلامى الجدى لشبه القارة الهندية إلا على أيدي الغزنويين فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، فدخل تاريخ هذه البلاد فى عهد جديد وبدأ فى أرضها الصراع بين القديم والحديث .

١ - انظر كتابه : ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للقل أو سرذولة ، وقد بداولة طبقات كثيرة فى الشرق والغرب ، ص ١٢ من طبعة زاخو بلندن ١٨٨٧ « واعتقاد الهند فى الله سبحانه أنه الواحد الأزلى من غير ابتداء ولا انتهاء . . . »

ولقد وهم كثير من أهل الرأى فى الهند، حين أقبل عليهم المسلمون فاتحين، أن هؤلاء الغزاة سينتهى أمرهم إلى ما انتهى إليه مصير من سبقهم من اليونان والهن وغيرهم من الأمم التى وفدت إلى هذه البلاد فانصهرت جميعها فى بوتقة شبه القارة .

فما لبث هؤلاء المسلمون أن بلغ نفوذهم بالهند نفس الأثر العميق الذى وصله فى جميع الأقطار التى فتحوها ، وهو ما لم يرق إليه اليونان أو الرومان من قبل أو يبلغوه . فتم لهم بهذه البلاد نظير ماتم لهم بوادى النيل حيث حولوا شعبا ، كانت له أقدم الحضارات ، عن دينه ولغته وفنونه وثقافته إلى دينهم ولغتهم وثقافتهم وفنونهم . وآية ذلك أنه يشبه القارة الهندية اليوم ما يزيد على مائة المليون من المسلمين هندوكي الأصل فى الغالب . هذا كما نجد كثرة باللغة من السكان جميعاً تتحدث الأوردوية التى هى من مشتقات لغات المسلمين .

وكان مما ساعد على إقبال هذه السكثرة الغالبة من الهنادكة على الدخول فى دين الإسلام ما وجدوه فيه من عقيدة فطرة لا طبقات عندها ولا تفاضل بين أفرادها إلا بالتقوى (١)

والفتح الإسلامى للهند ، باعتراف جمهور المؤرخين العدول
ومن بينهم علماء الهنادكة ، كان فيه الكثير من الخير . هذا كما ترد
سمفوة تقاليد المجتمع الحديث بشبه القارة الهندية كلها إلى هؤلاء
الفاحين (١) الذين دفعوا بعجلة الحضارة والمدنية الهندية إلى السير
عن جديد ، ونقلوا إليها كثيرا من فنون المعرفة عند المسلمين ،
وأقاموا من أنفسهم رعاة على ذلك كله (٢) .

وبلغت الشخصية الهندية الإسلامية أوجها أيام الدولة
المغولية التى حكمت الهند قرابة قرون ثلاثة ابتداء من القرن
العاشر الهجرى الموافق للسادس عشر الميلادى . وفى عهدها
وُحِّدَت شبه القارة كلها تحت الراية الإسلامية .

ولقد خضع أهل الهند قرونا طويلة للحكم الإسلامى فلم يجدوا
عنده عنتا ولا رهقا ، كما لم يصادفوا فى الغالب تقييدا لحريتهم
الدينية فعاشوا ، هنادكة ومسلمين ، متحابين فى كثير من
الأحيان ، فى ظل سلاطين المسلمين .

والحكام المسلمون هم الذين قادوا الثورة التى نشبت بالهند فى

منتصف القرن التاسع عشر الميلادى لطرد المستعمرين البريطانيين من شبه القارة .

ويطلق البريطانيون اسم فتنة الغدر والعصيان على هذه الثورة التى تزعمها بهادر خان آخر امراء البيت المغولى ، بتعضيد ومعاونة الافغان ، للقضاء على شرور شركة الهند الشرقية البريطانية التى كانت تبسط يدها على أجزاء كبيرة من هذه البلاد ، وبمعنى أوضح ، كان الإنجليز يحكمون هناك باسمها . وقد أفلح البريطانيون ، بمعاونة فريق من الهادكة السك ، فى القضاء على الثوار الوطنيين الذين كانوا قد أنزلوا بهؤلاء المستعمرين ضربات شديدة حتى خلسوا من أيديهم أقاليم كثيرة لا سيما فى البنجاب وبهار . ومن ثم نفى البريطانيون الأمير المغولى من البلاد بعد أن قتلوا كثيرين من أبناء أسرته وذوية ، وفيهم أطفال دون السادسة . وأعلنوا من فورهم ضم شبه القارة الهندية لتاج مملكتهم فكتوريا .

ولم يكن البريطانيون هم أول من جاء الهند من جماعات الأوربيين ، فقد سبقهم البرتغاليون إليها ثم جاء من بعدهم الهولنديون . ولحق الفرنسيون بالبريطانيين من بعد ذلك ، لكن الآخرين استطاعوا بدسائسهم ، فى أوروبا على الخصوص ،

أن يحملوا لويس الخامس عشر ملك فرنسا على إخلاء أملاكه الهندية الواسعة .

وطفق الإنجليز، حين أخلى لهم الجو من منافسة الأوربيين بالهند ، ينفخون في نار الخلاف بين أمرائها ويشيرون النزاع بينهم بالدس والوقعة ، حتى انهكت قواهم فسقطوا فريسة سهلة . وتم للبريطانيين السيطرة التامة على شبه القارة الهندية بمعاونة جنود من الهنود أنفسهم جذبتهم أموال المستعمرين الذين كانوا قد ابتزوها بدورهم من أمراء البلاد حين كانوا ينشدون عونهم على منافسيهم . وهكذا فتح الإنجليز الهند بأموالها ورجالها ، وامتصوا خيراتها وبركاتها قرابة القرنين من الزمان . وبدعوى المحافظة على مواسلاتهم بالهند ، دخل هؤلاء المستعمرون مصر ثم احتلوا وادى النيل كله واغتصبوا فلسطين التي تركوها أخيرا لليهود ، كما اكتسبوا مزايا سياسية بالعراق ومشارف كثيرة بالشواطىء العربية . وداوموا ، إبان ذلك كله ، على إشعال نيران فتنة متلاحقة بإيران بأمل أن يكون لهم الشرق كله فيما بين البحر الأبيض المتوسط والهند ، على اختلاف دروبه ومسالكه .

واستيقظت الهندو غيرها من أمم الشرق التي بُليت بالبريطانيين ، وطفق الوعي القومى فيها ينمو ويقوى ، وأخذ أهلها يشعرون

بما في السكوت على وجود المستعمر ببلادهم من خزي وعار .
وأخلى البريطانيون شبه القارة الهندية آخر الأمر عام ١٩٤٦م وقد
اتفق سكانها فيما بينهم على تقسيمها إلى جمهوريتين كبيرتين هما
جمهورية باكستان الإسلامية وجمهورية الهند الهندوكية .

الْفَتْحُ الْإِسْلَامِيُّ فِي سَبِيلِ الْقَارَةِ الْمُنْدَكَةِ

فتوح العرب بالسند

كان العرب وحدهم، فيما قبل الإسلام، واسطة مقايضات التجارة الهندية ماورد منها برا، عن طريق بلاد فارس، فتولاه المناذرة والغساسنة ليلغوا به موانئ الشام، أو بحراً، عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر، فحمله اليمينيون من أبناء سبأ القديمة، فنه ما كان من نصيب القرشيين في رحلة الشتاء، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، ليسيروا بدورهم بأكثره في رحلة الصيف إلى بلاد الشام، ومنه ما كان من نصيب تجار مصر ليقايضوا عليه تجار الرومان والإغريق بموانئهم على ربح طائل وفير.

هكذا كان العرب في القديم على معرفة غير قليلة بالهند وأحوالها عن طريق تجارهم الذين نزلوا بهذه البلاد في غربها فاختلفوا بأهلها ولقوا في الغالب حفاوة وعناية عند حكامها، ليعودوا إلى بلادهم في كل مرة فيدهشوا الناس بما يروونه لهم عن ثراء الهند الطائل وما لهم من غرائب العادات والمعتقدات، ويهروا أنظارهم بما يعرضونه عليهم من لآلئ الهند وتقيس معادنها ومنسوجاتها

وعطويزها وثمارها ثم سيوفها التي اشتهرت بها .
كذلك وقف العرب القدماء على جانب من حضارة الهند
وأخبارها وما بها من ثقافات عن طريق المدارس العلمية في أرض
الفراتين . مهد الحضارات القديمة وجمعها ، التي كانت على اتصال
وثيق بالهند ترد إليها بضائعها ويفد إليها علماءها . وقد تخرج على
أيدى الهند بمدرسة جنديسابور الساسانية فريق من العرب ،
منهم الحارث بن كلدة الثقفي ، طبيب العرب قبل الاسلام الذي
قام على علاج الناس بفارس ، وطبَّ بعض سراها فأعطاه مالا
وجارية محي 'سمية أم زياد بن أبيه . (١)

وفتح المسلمون بلاد الشام ومصر ، وتخطت جيوشهم شمال
إفريقية إلى بلاد الأندلس ، كما توغلوا في بلاد فارس المزممية
الأطراف وطرقوا أبواب بلاد ماوراء النهر ، فعظم شأن الدولة
الإسلامية . هذه الفتوحات الكثيرة المهمة وقويت دعائم الخلافة
الأموية بها .

وعهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، بأمر القسم الشرق
من بلاده إلى الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكان محبا للفتح ميالا إلى
التوسع . فوجه جند المسلمين إلى بلاد ماوراء النهر فدخلت بخارى

وسمرقند وخُجند وفرغانة حتى وصلت إلى قشغر على حدود الصين.. وكان من الطبيعي ألا يهمل الحجاج أمر إقليم السند، باب الهند ذات الثراء الطائل، الذي أصبح يجاور آخر حدوده الشرقية. هذا وكان العرب، أيام عمر، قد خرجوا، قبل فتحهم لفارس، في حملات خفيفة من البحرين وعمان إلى بعض سواحل الهند على مقربة من ميناء كراچی الحالية وبمبای، ولكن ثانی الخلفاء الراشدين نهى عامله بالبحرين، الحكم بن أبي العاصي، عن المضي في هذا الأمر، إذ كان يخاف البحر على جند المسلمين شديد الخذر من حمل الدود على العود، على حد قوله.

على أن الحكم شجعه ما غنمه في غزواته على الإغضاء عن أوامر خليفته طلبا للزید من الاسلاب وللتمكن من الاطلاع على أحوال تلك النواحي، فبعث بأخيه المغيرة هذه المرة إلى ديبيل عند مصب السند في حين قصد هو بروج.

فلما فتح المسلمون العراق وفارس، طلب عثمان بن عفان إلى عامله على العراق، عبد الله بن عامر، أن يوجه إلى ثغور الهند من يُعلمه عنها، فوجه إليها حكيم بن جبله العبدى الذى بعث مخاوفه الخليفة بحديثه عنها فصرف المسلمين عن غزوها^(١).

ولم تنفثه خلافة عثمان على كل حال حتى كان المسلمون قد فتحو
كابل وانتشروا على حدود السند يستطلعون أخباره وأحواله جنوباً
حتى البحر .

وغزا المسلمون من بعد ذلك إقليم قيقان السندى ليجمع المهلب
ابن أبي صفرة من بعدهم أيام معاوية فيغزو به والاهوار (لاهور)
بين الملتان وكأنه . وعدل الذين خلفوا المهلب هناك عن الاهتمام
بالمناطق الشمالية لوعورتها ، فعادوا إلى حصر جهودهم في المنطقة
الممتدة بين كابل ومكران عند الشاطئ .

وبعث الحجاج ، حين ولى العراق ، بسعيد بن أسلم إلى مكران وفخرج
إليه معاوية ومحمد بن الحارث الغلافى فقتلاه ؛ إذ كانا من الخارجين
على سلطان الأمويين في هذه الجهات . وكانا قد اقبعا عند داهر ، ملك
السند البرهمي ، كل ترحيب حين لجأ إليه برجالهما الخمسمائة ، وما
لبثا حين نصرهما في بعض حروبه أن صارا من أصحاب الخطوة
عنده .

وبلغ الحجاج الخبر فسأل الوليد الإذن بتسيير حملة إلى السند
التي غدت ملجأ للخارجين على الدولة ، لكن الخليفة لم يجبه إلى
طلبه . حتى إذا ما تعرضت قراصنة من ميد الديبل أسفن كانت قادة .
من جزيرة الياقوت (سيلان) وفيها بنات وأرامل لتجار من

للمسلمين واتفاهم الأجل هناك ومعهم هدية من ملك هذه الجزيرة للخليفة، فاعتذر داهر ملك السند للحجاج، حين ألح عليه في تخليص نساء المسلمين من الأسر، بعدم قدرته على لصوص البحر هؤلاء، سير الحاكم الثقفي من فوره إلى ديبُل، عبيد الله بن نهران في قوة انتهى أمرها إلى الهزيمة والقتل. ولقي بُدَيْل بن طهفة البجلي نفس المصير حين خرج من عمان بأمر الحجاج للغرض ذاته.

هناك تبدى للحجاج مدى الإهانة التي تلحق بهيمة المسلمين وخطورتها إن هو سكنت على هذا الأمر، فما زال بالخليفة حتى أذن له بتسيير الجند لفتح السند، في الوقت الذي كانت فيه جيوش المسلمين تتوغل بالأندلس وجهتها بلاد الفرنجة.

واختار الحجاج ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفي أميرا للحملة السندية وطفق قائد هذه الحملة، وكان يقيم إذ ذاك بشيراز، بعد لها العدة طوال شهور ستة. وعُني الحجاج بالإشراف بنفسه على تزويد الجند بكل ما قد يحتاجون إليه من الذخائر والمؤن حتى أمدهم بالخيوط والمساليل وكذلك بالجل^(١).

وأقبل محمد بن القاسم، وهو دون العشرين من عمره، يغزو

١ - كان الخل يمالج بأن ينقع فيه القطن المحلوج في الظل حتى ينتشر به ويخف، فإذا أربد استخرج ما به من الخل ثانية نقع في الماء من جديد فينجل فيه.

بلاداً مترامية الاطراف متسعة الأرجاء، اشتهر أهلها بأنهم رجال حرب أقوياء وأصحاب حضارة ومدنية عريضة، وهو في قلة من الجند إلى جانب كثافة جندهم، وعناية من الموارد بالقياس إلى ما كان يرويه الناس عن مبلغ ثرائهم .

وسار المسلمون من مكران وجهتهم ديل في اثني عشر الفا من جند الشام والعراق وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعهم . أما عنادهم الحربي، وكان قد قام على تجهيزه لهم محمد بن هارون حاكم مكران، فقد اتخذ طريقه بحرا، فالتقى الجيش بسفنه في ظاهر المدينة في ربيع الأول عام ٨٩ هـ / ٧٠٧ م

وانضم إلى جيش المسلمين عند ديل جموع كثيرة من رجال الميد والجات (الزط)، وهما قبيلتان سديتان هاجر كثير من رجالهما إلى خارج بلادهم لفرط ما كانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية، إذ كانوا في عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء غالي الثياب، ولم يكن يباح لهم من المهن والحرف إلا أدنوها .

وأفاد الغزاة المسلمون من رجال الميد والزط، إلى جانب شجاعتهم في الحرب وشدة جلدتهم فيها، معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم في النزال .

ورابط الغزاة بخنادقهم بظاهر ديبيل خلف أسوارها ،
فأخذوا يقطعون الأقوات والمدد عن سكانها الذين لبثوا على
مقاومتهم . حتى إذا ما نصب محمد بن القاسم منجانيقه الكبير
والعروس ، وحوله خمسمائة من الرجال الأكفاء يقومون عليه ،
فدق يقذائفه معبد الهنادكة الأكبر بالمدينة فهدمه ، استولى
العرب والفرع على السكان وشاعت الفوضى بينهم ليقنحهم المسلمون
المدينة عليهم من بعد ذلك . واستمر القتال بين الفريقين المتحاربين
في عنف بالغ انتهى إلى فرار أمير السند داهر وفلوله من الميدان .
وبنى القائد الثقي بالمدينة مسجدا ، وعمر المسلمون أحد أحيائها ،
وترك بجانبهم حامية قوامها أربعة آلاف من الجند ، ثم واصل
زحفه فبلغ مدينة نيرون (١) على الضفة الغربية للسند . فاعم أهلها ،
وكانوا بوذيين يدينون بعدم العنف والبعد عن إراقه الدماء ،
أن أبرزوا له عهدا بالأمان كانوا قد حصلوا عليه من الحجاج ،
يوم أن سار بعض عماله من قبل إلى غزو السند ، فأكده
لهم بدوره .

١ - تقع هذه المدينة على مسافة ٧٥ ميلا من مكران وتعرف أيضا باسم نيرانكوت
وموقعها حيدر آباد السند العالية . ويضبط بعض الكتاب فيكتبون نون الكلمة
الأولى باءا وينسبون إليها على ذلك العلامة البيروني ، وهو خطأ شنيع ، فمدينة
بيرون مسقط رأس هذا العلامة هي بالليم خوارزم .

وفيما كان الغزاة على أهبة التقدم بجمعهم صوب الشمال ، ورد على قئدهم كتاب من الحجاج يلح عليه فيه بتعديل اتجاهه إلى شاطئ السند الشرقى حيث يربط عدوّه فى جموعه .

هنالك رجع ابن القاسم عن موقع سيوى ، الذى كان قد بلغه عند الشمال من نيرون ، ليفاجئ عدوّه بعبور النهر اليه ليلا ، فلم يملك داهر إلا أن يرتدّكرة أخرى إلى حصن راور فيمتنع فيه إلى حين .

واشتبك الخصمان فى قتال عنيف ، انتصر فيه المسلمون ، برغم مواجهتهم فيلة الحرب لأول مرة ، وقتل داهر ، وكان يمتطى فيلا اشتدبه العطش فثار على فيّاله واندفع إلى النهر ، فترجل الملك وأخذ يبارز على قدميه حتى أصابت سيوف العرب منه مقتلا (١) .

وبلغ الخبر رانى باى ، وكانت أختا لداهر بنى بها ، فجمعت بالقلعة خمسة عشر ألفا من الجند ، أخذوا يقذفون العرب بوابل من سهامهم ومن النفط المشتعل وقطع الصخر ، فلم يجدهم ذلك كله نفعا . هنالك دعت أرملة الملك نساء الحصن ليلقين بأنفسهن فى

النيران فلا يقعن بأيدي الغزاة^(١) .

واستولى محمد بن القاسم في راور على الكثير من أموال داهر وكروزه . ووقع في أسره خلق كثير كان من بينه نفر من الأميرات بعث بهم جميعا إلى عاصمة الخلافة .

وزحف المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرفين حتى باغوا مدينة برهما آباد ، وكان قد فر إليها ابن لداهر ، يدعى چای سنك ، بعد سقوط راور فأحكم من تحصينها وسد منافذها . وافتحم الغزاة المدينة على أهلها بغته وعنوة فلم يملك ابن داهر إلا الفرار شمالا مستجيرا بملك كشمير ، في حين سقط في الأسر زوجة أخرى لداهر تدعى لادهي وبعض بناته ، إذ أذهلهم المفاجأة عن سلوك السبيل الذي سلكته راني باي وصوب محباتها في راور من قبل .

وأقام القائد العربي بهذه المدينة فترة من الزمن دبر فيها شئون المناطق المفتوحة ونظم إدارتها . وما يؤثر عنه أنه أكرم رؤساء الهنادكة من رجال الدين هناك واطلق لهم حرية العبادة على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا ما يفرض عليهم من جزية عن طيب خاطر^(٢) .

وبلغ الجيش العربي الروماني (١)، عاصمة داهر، وكان ابنه قد تحصن فيها من جديد وراح، في سبيل حث قومه على المقاومة، يلقى في روعهم أن ملكهم إنما قد اختفى ليعود إليهم في القريب بجند وسلاح كثير. واستمات الهادكة فعلا في مقاومة الغزاة ودفعهم دفعا شديدا. حتى إذا ما فطن محمد بن القاسم لخدعة خصمه بعث بلادي أرملة داهر، وكان قد بنى بها، فنادت في قومها بأدنى الأسوار تؤكد لهم موت ملكهم، فانهارت قواهم على أثر ذلك بعد ما عانوا طويلا من انقطاع الماء عنهم وطول الحصار من حولهم. ومبر الغزاة من بعد ذلك بياس، رافد السند، إلى مدينة الملتان، أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه، فامتعت عليهم شهورا ستة نفدت فيها مؤنهم فطعموا الحُر. حتى أتاها رجل مستأمن دهم على مدخل الماء الذي يشرب منه السكان، فقطعه عنهم، فنزلوا إلى قتالهم في معركة شديدة استمرت أياما سبعة اقتحم المسلمون الأسوار من بعدها واستولوا على المدينة كلها.

وفي الملتان، آخر حصون السنديين الكبرى، أقبل على محمد بن القاسم الأعيان والتجار، وأصحاب الحرف في عدد كبير من سكان الأقاليم المجاورة من رجال الميد والجات، الذين كانوا يعانون من ظلم

البراهمة ، والذين كان قد بلغهم الكثير عن تسامح هذا القائد العربي وكرمه وكفه لا يدي رجاله عن السلب والنهب ، فأعلنوا جميعا ولاهم له فأمنهم على أنفسهم وأموالهم .

ودل أحد البراهمة محمد بن القاسم ، تقربا منه ، على مكان خفي بأحد المعابد القرية كان ملوكهم يودعون فيه أموالهم وكنوزهم ، فوجد به من المال الكثير ما مكنه من أن يرُد إلى بيت مال المسلمين ضعف نفقات الحملة السندية ، وكان الحجاج قد تعهد بذلك للخليفة بادی الامر ، فحُمِل إلى دمشق عشرون ومائة ألف ألف درهم دون أن يضار الأهلون في أموالهم أو يُفرض عليهم من الغرم مالا يطيقونه ^(١) .

وهكذا كان لحفيد مسلك ابن القاسم مع الأهلين ، في حسن معاملته لهم وتأمينهم على أموالهم وانفسهم ، واطلاق حرية العبادة لهم ، أبعد الأثر في نفوس القوم مما ساعد كثيرا على توطيد مركز المسلمين هناك ^(٢) .

وكتب الفاتح العربي من بعد ذلك إلى الحجاج يستأذنه في فتح مملكة قنوج أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتد من السند إلى

١ — تاريخ الكامل لابن الأثير الجزري طبع بولاق ١٣٠١ مجلد ٤ ص ٢٠٩

٢ — Dunbar, India p 89. — ٢

البنغال ، فأجابه الى طلبه وشجّعه على المضي في خطته .
هناك بدأ محمد بن القاسم ، أولا ، بإيحاء بعثة من رجاله
إلى صاحب قنوج تدعوه إلى الإسلام أو الجزية . حتى إذا مارد
الملك الوفد ردّا غير كريم ، أخذ الفاتح العربي يعدّ العدة لغزو
عدوه ، فجهز لذلك جيشا فيه عشرة آلاف من الفرسان وعليه
قائد أبو الحكم .

على أنه لم يكد يفرغ من إعداد حملته هذه حتى وافته الرّسل
تنبيهه بوفاة الحجاج ثم وفاة الوليد بن عبد الملك من بعده وانتقال
الخلافة إلى سليمان الذي أرسل يستدعى فاتح السند للقدوم إليه .
وكان سليمان بن عبد الملك يكره الحجاج وينقم عليه لتأييده
الوليد حين عزم على جعل ولاية العهد لابنه بدل أخيه هذا . ولم
يمنع موت الوليد ، قبل أن يتم هذا الأمر ، سليمان من إنزال نقمته ،
في عنف ، بكل من كان يتصل بالحجاج خاصة بسبب .

ولقد كان بوسع محمد بن القاسم أن يعتذر عن عدم تلبية دعوة
الخليفة ، بل ويرفض المسير إليه مستقلا بما فتح من بلدان وما
استولى عليه من اراض ، وهو الذي أمكن له أن يخضع السند لراية
الخلافة في مدة لا تتجاوز سنوات ثلاثا ، صار من بعدها يتمتع
بمحبة الأهلين وولائهم له هناك ، ولكنه أثر ألا يشق عصا

الطاعة على خليفة المسلمين برغم توجّسه الشر منه .
فُحْمِلَ مقيدا بالأغلال حتى بلغ باسط فلقى بها من العذاب
النُّكْر ، على أيدي أعوان سليمان وأعداء الحجاج من آل
المهلب ، حتى لقي حتفه ، فبعثوا برأسه إلى دمشق .

وترد بعض الروايات غضب الخليفة الأموي على محمد بن
القاسم إلى عبثة بسبب الهند إلى دار الخلافة ، وكان فيه ابتنان لداهر
هما بارمل ديوا وسوراج ديوا . فإِنْ اختلنا بسليمان حتى صرحتا
له باعتداء الفاتح العربي عليهما قبل مسيرهما إلى دمشق ، فهاج
للخبر وأمر بقتل ابن القاسم وأن يُحْمِلَ إليه في جلد ثور محشو
بالتبن . وتقول الرواية من بعد ذلك إن الأميرتين حين عُرِضَ
عليهما رأس القائد الثقفى ، عدلتا عن قولهما السابق واعتذرتا عنه
بما يحملانه من ضغينة وحقّد لقاتل أبيهما ، فسبقتا إلى حتفهما
باقترائهما وغدرهما .

وليس لهذه القصة سند عند ثقات المؤرخين على كل حال .
وقرأهتام الخلافة من بعد ذلك بأمر الفتوح في شبه القارة
الهندية ، إذ كانت بوادر الانحلال والضعف قد بدأت تظهر في
الدولة الأموية . في حين حرصت الدولة العباسية من بعدها على
عدم التوسع الكثير في الفتح بعد أن عظمت رقعة الدولة الإسلامية

وترامت أطرافها . يضاف إلى ذلك أن الولايات السندية ، فضلا عن جذبها النسبي وضعف خراجها ، كانت لاتزال محوطة في الشمال والشرق بإمارات قوية يحكمها الهنادكة ، كما كان سكان البلاد أنفسهم قد طفقوا بدورهم يثورون في وجه ولايتهم من العرب الذين حادوا في الغالب عما استنه محمد بن القاسم من الرفق بالرعية وإشاعة العدل والتسامح بينهم .

وهكذا شغل أكثر الولاة المسلمين في السند بإقرار الأمن والسلام بداخل البلاد وعلى حدودها ، فانصرفوا عن التفكير الجدّي في الماضي . فيما بداه محمد بن القاسم من الفتوح . وأخذت الاضطرابات تنتشر في السند حتى قامت بين القبائل العربية نفسها هناك من الهزارية واليمنية الذين لم يتركوا أى بقعة حلوا بها في أراضى الدولة الإسلامية الواسعة ، سواء في أرض الشام أو بلاد الأندلس أو السند ، إلا واعتكروا فيما بينهم بها . وزاد من تفاقم الأحوال بالسند نفاذ الخوارج والشيعة والقراطة إليه ، فانكشبت أملاك المسلمين هناك من جراء ذلك كله فلم يبق لهم إلا المنصورة والمملتان .

وتفصيل ذلك كله أنه قد خلف محمد بن القاسم على ولاية السند يزيد بن أبي كبشة السكسكى من قبل سليمان بن عبد الملك ،

ولكنه ما لبث أن قضى على أثر وصوله بأيام قليلة . وأدى اضطراب الأحوال على أثر هذا الحادث إلى أن انتهز چای سنك ابن داهر المقتول هذه الفرصة فانقض على مدينة برهما باد فاستخلصها لنفسه ، فلم يستطع حبيب بن المهلب حين ولى السند أن يستردها منه . حتى إذا ما بعث الخليفة عمر بن عبد العزيز بعامله عمرو بن مسلم الباهلى أخى قتيبة إلى هذه البلاد فأوصاه بالرفق بأهلها والعمل على ترغيبهم فى الدخول فى الإسلام دون إكراه أو قسر ، صادفه التوفيق والنجاح فيما نُدب له حتى أقبل ولد داهر نفسه على اعتناق الإسلام فأقره على إمارته .

وحاول فريق من آل المهلب ، عقب وفاة عمر بن عبد العزيز الذى كان قد ألقى بهم فى السجن لطفغيانهم وتبديدهم لأموال المسلمين ، أن يشيعوا الفتن فى الجزء الشرقى من الدولة الإسلامية حتى بلغوا بها السند التى لاذوا بها ، لكنهم باءوا آخر أمرهم بالفشل وقضى عليهم .

وصار أمر السند فى عهد هشام بن عبد الملك إلى جُئيد ابن عبد الرحمن المرى . وكان حاكما حازما استرد إمارة برهما باد من أيدي چای سنك بعد أن قتله ، كما سَير جنده فى غزوات ناجحة بلغت يوجين ومالوه والكجرات عند شرق السند وجنوبه

الشرقي . حتى إذا ما خلفه تميم بن زيد العتيبي أضاع بترده وضعفه كل ما بذله سلفه من جهود .

وجاء السند من بعد ذلك الحكم بن عوانة وفي صحبته عمرو بن محمد بن القاسم ، الذي انفرد بالحكم من بعده . وفي عهدهما بُنيت مدينتا المحفوضة والمنصورة على شاطئ " السند " ، غير بعيد من برهما باد . وصارت الأخيرة حاضرة المسلمين فيما بعد ، وموقعها اليوم مشارف حيدر آباد السند هذا وقد نهج عمرو خاصة نهج أبيه محمد بن القاسم في الحزم والعدل وأحيا سيرته في التسامح الديني والإطلاق حرية العبادة للهناك .

واقترح السند على يزيد بن غرار ، خليفة عمرو هناك ، ثأر من الخارجين على سلطان الخلافة الأموية يدعى منصور بن جمهور الكلابي فاغتصب هذه الإمارة عام ١٣٠ هـ لنفسه .

وقضى البساسيون على الخلافة الأموية ، فعهد السفاح أول خلفائهم بأمر الأقاليم الإسلامية إلى نصيره أبي مسلم الخراساني الذي بعث بدوره إلى السند بعبد الرحمن بن أبي مسلم العبدى . ليفشل في إرد جمهور بن منصور الكلابي منها ويلتقي حنقه على يديه . حتى وفد موسى بن كعب التميمي فما زال بالثأر الكلابي يطارد به إلى أن هلك في الصحراء عطشا ، في حير لقي أخوه نزار

مقتله على يديه . وطفق موسى من بعد ذلك يستميل قلوب الناس إلى دعوة بنى العباس ويعمل على التناغم حوله، فجدد بناء المنصورة وأقام بها مسجداً جديداً . وبلغ بجنده بعض غزوات موفقة .

وخلف المنصور السفاح فبعث إلى السند بعمر بن حفص . وكان هذا الوالى الجديد ، الذى عرف بحسن تدبيره وحزمه ، على تشيع وثيق للعلويين دون الجهر ، حتى رحب فى بلاده بأحد زعمائهم حين جاء إليها هرباً من وجه العباسيين . فكان عهده هذا هو بداية انتشار التشيع بالسند . ذلك أن عبدالله ابن محمد الأشتر الحسنى العلوى كان قد ورد السند مستترا فى هيئة التجار (١) ، فما إن عرف بميل أميره إلى أهل البيت حتى كشف له عن أمره فنال عنده كل حظوة ورعاية . ولكن كان أن خاف عمر بطش الخليفة فأنزل العلوى مع أتباعه عند أمير هندوكى فى أحد البلاد المجاورة ، موالياً رعيتهم والعناية بأمرهم فى الخفاء . ومضت سنوات عشرة على هذا الحال حتى علم الخليفة بالأمر ، فكتب إلى عامله السندى يأمره بغزو بلاد الأمير الهندوكى ومطاردة الشريف العلوى . وما إن أحس الخليفة بما طلة عمر فى

١ - تاريخ الطبرى طبع القاهرة ١٣٢٣ هـ المجلد التاسع حوادث سنة ١٥١

تنفيذ ما أمره به حتى نقله إلى شمال إفريقيا ، بعد أن كاد يفتك به ،
وبعث مكانه بهشام بن عمرو التغلبي .

كذلك قصد السند أيام ابن حفص داعية من الخوارج
يدعى حسان بن مجاهد الهمداني ، لكنه لم يجد لدعوته سوقاً رابحة ،
فقد لحظ شدة ميل الأهلين إلى التشيع فرجع من حيث أتى :

على أي ، فإن الدعوة الشيعية بالسند لم يظهر أثرها قوياً
إلا بعد مضي زمن طويل على هذا الحادث ، فقامت لهم دولة
إسماعيلية حكمت هناك سنين عدة حتى قضى عليها محمود الغزنوي
حين فتح هذه البلاد .

وحرص الخليفة العباسي عامله الجديد على القضاء على الشيعة
وأنصارها بالسند ، ولم يكن يدرى ميل هشام بدوره خفية
إليهم . ولكن حدث سوء حظ العلويين أن خرج السفينح أخو
هاشم إلى الحدود فصادف عبدالله ورهطه ، فقتل العلوي وفريقاً
من أتباعه ، وبعث برأسه إلى الخليفة ، فأسقط في يد هشام ولم
يسعه بدوره إلا التظاهر بتدبير هذا الأمر اتقاء لنقمة
مولاه وعقابه .

هذا وقد سكنت المصادر التاريخية كلها عن ذكر اسم الأمير
الهندوكي ، الذي كان العلوي قد لجأ إليه ، أو اسم إمارته .

وانجحت همه هشام إلى توسيع رقعة إمارته ، فغزا إقليم
الكجرات واستولى على بروج ميناء بحر العرب ، وكان بها جالية
إسلامية كبيرة ، كما أخضع الملتان كله ، وبلغت جنده كابل وكشمير .
وكلف هذا الأمير بالأدب حتى قصده فريق من الشعراء منهم
مطيع بن إياس

وتولى المهدي الخلافة ببغداد فعنى بنشر الإسلام بالسند عناية
كبيرة صادفه التوفيق فيها ، إلا أن اشتداد النزاع بين القبائل
العربية التي كانت قدما جرت إلى هناك منذ بداية الفتح العربي ،
أخذ يضعف من سلطان الحكومة السندية ويحد من قوتها
ونفوذها . فكان من جراء انشغال الولاة بالقضاء على فتن هذه
القبائل في الداخل أن طفق الأمراء الهنادكة بظاهرها يفتحمون
كل ما يلوح لهم من الفرص لاقتطاع أراض من أملاك المسلمين
السندية وضمها إلى أماراتهم . حتى جاء السند بعد وفاة المهدي
العباسي ، الليث بن ظريف فملك طريق الشبة معهم والعنف
فأمكن له أن يؤمن أحوال البلاد ويقضى على ثورات هذه القبائل
العربية ولكن إلى حين . ذلك أن داود بن يزيد بن جاتم المهلبتي
حين آلت إليه إمارة السند عام ١٨٤ هـ مال إلى التخلف ببغداد
فأوفد أخاه المعيزة نائبا له هناك — وهي سنة ابتدئها كبار الحكام

وراجت على الخصوص إبان ضعف الدولة ، أغنى بقاء الأمراء .
بيغداد تربصا بالحظوة والنفوذ وزيادة في الترف وإرسال نواب
عنهم إلى ما يتقلدونه من الامارات — فإذا بهذه القبائل تطالبه
بتقسيم البلاد إلى ولايات ثلاثة ، فقسم لقريش وثنان لربيعه وثالث
لقيس . فلم يتمكن المغيرة من كبح جماح هذه القبائل إلا بعد أن
استعان عليهم بعساكر الخليفة الذين قدموا من بغداد فحاصروا
المنصورة عاصمة السند ، عشرين يوما استسلم لهم الثأرون
من بعدها .

ولبث داود بن يزيد يحكم السند عشرين عاما مرض في أثنائها
الرشيد ، فأرشد لعلاجه بعض أطباء الهنود . وكان شفاء الخليفة
العباسي على أيديهم من أسباب مضاعفة العناية بعلوم الهند وطبها .
وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ثبت لأسماء الأطباء
والصيادلة الهنود الذين نزحوا إلى بغداد فأفاد الناس منهم .

وخلف بشر أباه داود فسار سيرته في الحزم . حتى إذا ولى
السند موسى بن يحيى بن خالد البرمكي عمد إلى محاسبة زعماء العرب
هناك ومحاولة فض ما بينهم من المنازعات بالمودة ، ثم صرف همته
من بعد ذلك إلى تعمير البلاد فشق كثيرا من الطرق وأقام دور
الشفاء . وخلفه ابنه عمران فبنى مدينة البيضاء بإقليم قيقار ، بعد

أن انتزعه من الزط، كما قضى على ثورات الميد وقتل بضعة آلاف منهم . وانهز الزاريون فرصة انشغال عمران بإطفاء فتن الميد والزط، فثاروا عليه واهموه بتحيزه لليمنيين وتفضيله لهم عليهم . وانتهت منازعتهم معه إلى مقتله على أيدي زعيمهم عمر بن عبد العزيز الهباري^(١)

وهكذا استولى زعيم القرشيين على المنصورة ليكتب منها عام ٢٤٠ هـ إلى المتوكل العباسي معلنا ولائه له وإخلاصه فيثبته بذلك على إمارة السند .

والملاحظ أن ولاء أغلب حكام الولايات الإسلامية للخليفة، لا سيما ما كان منها على مبعدة من بغداد، غدا، قليل منتصف القرن الثالث الهجري، مجرد مسألة شكلية اسمية .

وبلغ من إهمال الخلافة لشأن السند أن رأينا الخليفة الضعيف المعتمد العباسي يقطعها للصفاريين هي وبلخ وطخارستان وسيستان وكرمان علته بذلك يخفف من شدة ضغطهم على العراق .

وولى أمر السند أمراء ضعاف من أبناء عمر بن عبد العزيز الهباري لم يحالفهم التوفيق في تأمير الأحوال بلادهم . وما عتموا

١ - كان جد هذا الأمير قد قدم السند مع الحكم بن عوانة السكبي . البلاذري

أن دب الخلاف بينهم وبين رجالهم من قریش ، حتى اقتصر سلطانهم
على ولاية المنصورة التي كانت أرضها تنحصر بين الرور وشاطئ
البحر . في حين حكم إقليم الملتان أسرة قرشبة أخرى من بني منبه ،^(١)
بقيت فيه حتى انتزعه الإسماعيليون الشيعة منها .
ذلك انه كان قد قدم السند في بداية القرن الرابع الهجري دُعاة
للفاطميين وعلى رأسهم من يدعى الهيثم رسول عبد الله المهدي .
ثم توالى دعاة الإسماعيلية على هذه البلاد حتى جاءها قائد قدير من
قوادهم وداعية من خير دعائهم يدعى جلم بن شيبان . فما غدا حين
قدم الملتان ، فالتف حوله القرامطة ، الذين كانوا قد نفذوا إليها
قادمين من البحرين وبلاد فارس ؛ — أن استغل ما كان فيها من
اضطرابات حتى تمكن آخر الأمر من الاستيلاء على مقاليد الحكم
فيها . فكانت حكومته هذه أول دولة إسماعيلية عرفتها شبه القارة
الهندية كلها .

وسلك جلم سبيل العنف مع سكان البلاد ، مسلمين وهنالك

١ - المسمودي ، مروج الذهب طبع القاهرة ١٣٤٦ هـ أول من أورد

المسمودي عام ٣٠٣ هـ بالنصورة عمر بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الهيارى
أبو المنذر القرشى ، وأدرك بالملتان أبا الإباب المنبه بن الأسد القرشى وهو من
ولد أسامة بن لؤى بن غالب

على السواء ، فأغلق المسجد الجامع الذى كان قد أقامه محمد بن القاسم
كما هدم المعبد الهندوكى بها وكان المسلمون ييقون عليه ضمنا
لتجنب مهاجمة الهادكة المدينة .

وتولى حكومة الإسماعيلية ، من بعد جلم ، الشيخ حُسيند وهو
الذى وجده سبكتكين الغزنوى بالملتان فهزمه ليخلفه أبو الفتح
دارد القرمطى حفيده . وما زال محمود الغزنوى يطارد داود وقومه
حتى قضى على حكومتهم .

وقد انتهى أمر بلاد السند كلها إلى استيلاء الغزنويين عليها
حين أقبلوا على الهندستان فاتحين أواخر القرن الرابع الهجرى ،
فكانت فتوحاتهم بداية حقبة جديدة فى تاريخ شبه القارة الهندية
كلها . أصحابها من المجاهدين المسلمين ولكن ليسوا من العرب .

نتائج الفتح العربى للسند .

لقد وفد على السند أنخاذا من القبائل العربية ، التى كان قوام
جيش الفتوح فى الغالب منهم ، فاستوطنوا هذه البلاد ثم أصهروا
إلى أهلها بعد قليل على ما فعل أنخاذا أخرى لهم بأغلب البلاد
التي فتحوها . كذلك كانت لهم مشاركة ناجحة فى نشر تعاليم الدعوة
الإسلامية ، والعربية ، لغة وكتابة ، بين السنديين بفضلهم .

صاحب حكاهم وأمرهم من علماء المسلمين أمثال الربيع بن صبيح البصري أشهر المحدثين وأولهم تدويننا للحديث . فلم يرض بضع عشرات من السنين على فتح السند حتى طفقت أفواج من اهله ترى تشارك في بناء الثقافة الإسلامية العربية وتبرز في ميادينها . فكان منهم علماء في الحديث واللغة والأدب مثل أبي معشر نجيب السندی المحدث صاحب المغازي ، وابن الأعرابي اللغوي ، أستاذ ثعلب وابن السكيت ، وأبي عطاء السندی المخضرم الشاعر^(١) ثم أبو علي السندی وأبو اليزيد طيفور بن عيسى البسطامي المتصوف . وغنى عن البيان أن العرب كانوا في أول عهدهم بالفتوح يكونون إلى أبناء البلاد المفتوحة أعمال الدواوين ، لقلّة درايتهم بها إذ ذاك ، تحت إشرافهم ، وينفردون وحدهم في الغالب بالقضاء وشئون الجزية والخراج على مقتضيات الكتاب والسنة .

ولئن قيل إن الفتح العربي للسند كان من الناحية السياسية حدثا لا أهمية له في التاريخ الإسلامي إلا أنه صير هذه البلاد جزءا من الدولة الإسلامية تخضع لنظامها وتجري عليه أحكامها ، لئن قيل كذلك إن العرب لم يكن لهم من آثار بارزة هناك إلا نشر تعاليم دينهم بهذه البلاد وتسرب إلسانهم إليها ، فقد كان لهم الفضل ، أكبر الفضل ، في

إعادة الاتصال الثقافي بين شبه القارة الهندية وبلاد الشرقين الأوسط والأدنى.

وقد جى العرب بدورهم من فتحهم هذا كسبا عظيما للثقافة الإسلامية . ذلك أنهم حين قدموا هذه البلاد واختلطوا بأهلها ، وجدوا عندهم من فنون المعرفة وألوان الحضارة ما بهرهم . فالفلسفة الهندية ، وفروعها من الفلك والطب والرياضيات ، كانت قد بلغت من الرقي والتقدم شأوا بعيدا وغدت تزخر بنظرياتها وقوانينها ومبادئها ، وكذلك الفنون على اختلاف ضروبها ، والدراسات الدينية لا سيما ما كان منها خاصا بعلم الكلام والتصوف . ويقول Havell : « إن المسلمين مدينون للهناذكة أولا^(١) » .

لا لليونان ، بما وصلهم من مختلف ألوان المعرفة والثقافة الجديدة في فجر حياتهم سواء في الفلسفة أو في الرياضيات أو الفلك أو الطب ، وقد طلبوها من بعد ذلك عند اليونان حين تمكنت من أنفسهم محبة العلوم واشتد شغفهم بها . ويؤيد رأيه هذا أن أولا كتب في الفلك والرياضيات حُملت الى بلاط الخلافة ، وكان ذلك أيام المنصور العباسي ، هي كتاب براهما سد هانتا لمؤلفا العالم برهمكيت ، وتذكره الكتب العربية باسم كتاب السنند هند

وهو أقدم الرسائل الفلكية على الإطلاق إذ يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٤٢٥ ق . م ، وكتاب كهند كهاديكا المعروف باسم اركنند ، ثم كتاب آريه بهت المعروف باسم أرجسهند أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود . ومن أول هذه الكتب يُظن أن العرب تعلموا الأرقام الحسائية والنظام العشري . وقد وجدت الأولى منقوشة على أعمدة آشوكا قبل أن يستخدمها المسلمون بألف عام^(١) .

وقد نقلت هذه الكتب الفلكية والرياضية مع طائفة أخرى من الكتب الطبية إلى العربية ببغداد في منتصف القرن الثاني الهجري بمشاركة علماء من المسلمين وإشرافهم من أمثال إبراهيم ابن حبيب الفزارى وأبي الحسن الأهوازي ويعقوب بن طارق . عرف العرب هذا كله عند الهنادكة قبل أن تصل أيديهم إلى كتاب المجسطى ، لبطليموس ، وإلى علوم الرياضة البحتة التي برزت في أغلبها اليونان الهنادكة وغيرهم^(٢) .

١ — الهند وجيرانها ص ٢٣٦ ، ٣٧ .

٢ — تاريخ الفلسفة الإسلامية لدى بود ترجمة الدكتور أبوريعة القاهرة ١٩٣٨

ثم جاء البرامكة ، وكان آباؤهم سداة بوذيين فى الغالب (١) .
ففعنوا بأمر الهند فى دولة العرب ، وأحضروا علماء طبها وحكماءها
على حمد قول صاحب الفهرست . فجلبوا منك الطيب الهندى
الذى نجح فى علاج الرشيد فنال الخطوة عنده وبقي يشرف على
نقل الكتب من السنسكريتية إلى العربية بدار الخلافة هو وابن
دهن الذى عهد إليه بإدارة دار الشفاء . ثم ابن بهلة الذى تولى
علاج إبراهيم بن صالح عم الرشيد فشفي بعد أن كان ابن بختيشوع ،
طبيب الخليفة ، قد جزم باستحالة برئه .

هذا إلى جانب عنايتهم وتشجيعهم لدراسة علوم الهند
الأخرى وعقائدها وأحوالها ، تلك الدراسة التى وصلت إلى
أكمل صورها فيما بعد عند أبى الريحان البيرونى فيما تركه من كتب
ورسائل عن هذه البلاد .

ويشيد الجاحظ ، علامة العرب ، بذكر الهند فى بيانه فيقول : « إنما
الأمم المذكورة من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند
والروم ،

١ - بدء العلاقات العلمية بين العرب والهند - للدكتور السيد محمد يوسف الهندى ،
(مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٢ ح ١ سنة ١٩٥٠ م ص ١٠٤ وما بعدها .

الغزنويون وحلفاؤهم

لم يكن فتح العرب للسند ، أواخر القرن الأول الهجري ، إلا احتلالاً لولاية واحدة في أقصى الغرب ، لا هي بالواسعة الرقعة ولا بذات الموارد الغنيّة والأرض الخصبة .

وبدأ الغزو الاسلامي لهذه البلاد في اوسع مداه حين شرع الغزنويون الأتراك ، أواخر القرن الرابع الهجري ، بطرقون أبواب شبه القارة الهندية ويتوغلون فيها ، بعد أن أقاموا لهم بخارجها دولة واسعة ضمت غزة وسيستان وبلغان وخراسان واغلب بلاد ما وراء النهر .

واقعد وقعت في الفترة ما بين الفتحين العربي والتركي للهند أحداث خطيرة متنوعة في العالم الإسلامي . فقد زالت الدولة الأموية التي عرفت بتعصبها للعنصر العربي ، وكان مما عجل بسقوطها اشتداد النزاع القبلي بين العرب أنفسهم من جهة ، واستعلاء هؤلاء العرب على غيرهم من المسلمين من جهة أخرى ، الأمر الذي نتج عنه ظهور الشعوبية واشتداد ساعدها . وخافهم العباسيون فقتلوا

العاصمة من دمشق إلى الكوفة ثم بغداد، وأخذوا ينفذون أيديهم من العناصر العربية في وظائف الدولة ومناصبها ويستعبدون عنهم بالعناصر الفارسية في المناصب المدنية على الأخص، وبالأتراك في الجيش والحرس الخاص.

وهكذا أخذ المغلوبون يستردون سالف سلطانهم بالتدريج، بل ويفرضونه على الغالبيين، حتى دب الانحلال في أوصال الدولة نفسها وطفق فريق من القواد يستقلون بأجزاء منها مع ولائهم الأسمى لخليفة بغداد، فظهرت الدولة الطاهرية ثم الصفارية والسامانية وغيرها.

واشتد نفوذ العنصر التركي بالبلاط العباسي، فما غدا أن طغى على ما كان للعناصر الفارسية من سلطان. فصار الخليفة العباسي آلة في أيدي رجال بلاطه من الترك، يرضون عن أمير فيولونه الخلافة ثم يغضبون عليه وينقمون فيسملون عينيه ويعزلونه. ولم يقصروا نفوذهم بطبيعته الحال على دار الخلافة فحسب، فقد صار كثير منهم حكاما في ولايات الخلافة فيما بين مصر وبلاد ما وراء النهر. وعظم شأن الأتراك في شرق الإمبراطورية الإسلامية فورث العز نوبيون والقرخانيون^(١) دولة بني سامان الفارسية.

١ - وم الأيلكخانيون قوم بنرا خان قشغر الذي دخل وقومه الإسلام في =

ودفع بالاولين طموحهم الى التطلع للفتح والغزو فولوا وجوههم
قبل شبه القارة الهندية .

وتعد فتوح الغزنويين الهندية بداية غزو المسلمين الحقيقي
لشبه القارة الهندية ، ذلك الغزو الذى سرعان ما انتهى بالفاتحين
الى اتخاذهم من هذه البلاد مقاما دائما لهم .

ومؤسس الدولة الغزنوية التى اقتحم اصحابها الهند وسبكتكين ،
وكان غلاما لالبتكين صاحب عزنة ، جلب من تركستان الى
بخارى فنيسابور (١) ، ثم خلف سيده عليها عام ٤٣٦٧ / ٩٦٦ م
واتصف سبكتكين هذا بالطموح وقوة العزيمة ، فأفلق فى
توحيد صفوف الأتراك والأفغان فى إمارته وسيرهم لفتح لمغان

== القرن الرابع الهجرى وتسمى باسم هرون بن سليمان . مقال للاستاذ حزة طاهر عن
السلالة مجلة الثقافة عدد ١٩٤٧ / ٩٦٩

Barthold, W. Histoire des Turcs d'Asie Centrale. Paris
1943. p 80

١ - يذكر بعض المؤرخين ان سبكتكين هو من أحفاد يزد كرد شهر يار آخر
ملوك فارس قبل الاسلام ، وأن أسرته كانت بالتركستان فى عهد عثمان بن عفان
لاجئة فاختلطت بأهلها ، فلم يمس حبلان حتى تركت . وهو قول مرفوض ،
ذلك أن أغلب الموالى الذين بلغوا رتبة الامارة قد ادعوا بدورهم لأنفسهم مثل
هذا الادعاء طلبا لمراقبة النسب وفى تاريخ البيهقى - نقله الى العربية - يحى
الحشاش وصادق نشأت - ص ٢١٦ - ٢١٨ بيان شامل عن أصله

وسيدستان وخراسان ثم استدار بهم من بعد ذلك واندفع عبر
مسالك الهندكوش الوعرة يبغي الجهاد بغزو بلاد الهنادكة .

وحين التقت جنده بجيش چيپال ، راجا بها تنده ، الذى كان
يحكم مملكة واسعة تمتد من سر هند إلى لمغان ، أى من السكنج إلى
الأفغان ، ومن كشمير إلى الملتان ، روع الهنادكة ، فأرسل أميرهم
من فوره ، بظاهر لمغان ، يعرض الصلح على جزية كبيرة مع
اعترافه بسيادة أمير الأمراء الغزنوى . لكن الأمير محمود مازال
بأبيه حتى صرفه عن قبول عرض الهندوكى فلا يشترى به مثوبة
الجهاد فى سبيل الحق .

ولم ييأس چيپال حين بلغه هذا النبأ ، فكتب إلى سكتكين
من جديدة يهدده بأن الهنادكة لا يهابون الموت إذا ما ألت بهم
نازلة ، فهم سيفقأون أعين أفيالهم ويلقون بأطفالهم فى النار
ويخربون بيوتهم بأيديهم ثم يعرضون انفسهم على سيوفهم
ورماحهم فيزهقون أرواحهم بأيديهم ، فلا يجد المسلمون حين
يدخلون ديارهم إلا خرائب ورما .

هناك قبل صاحب غزنة الهدنة على جزية مقدارها ألف
ألف درهم ، وخمسون فيلا من فيول الحرب ، وقدر من
الحصون والبلدان .

ونكث الأمير الهندوكى عهده ، حين زج فى السجن بفريق من رجال غزنه الذين كانوا يصحبونه لمراقبة تنفيذ ما صالح عليه سيدهم ، فجعلهم عنده عوضاً عن رهائنه لدى سبكتكين . وأثارت أخبار الخيانة والغدر ثائرة الأمير الغزنوى فانطلق من فوره إلى أرض عدوه .

وبرغم التفاف أصحاب آچمير ودهلى وكنجرج وقنوج حول جيبال ، وما تهاى لهم جميعاً من جند كشف نيف على مائة ألف من المقاتلة ، فقد أنزل سبكتكين بعصبة الأمراء الراجپوتيين هذه هزيمة حاسمة ، اضطروا من بعدها إلى طلب الصلح على أموال كثيرة طائلة عدا مائتين من الفيول وعشرة آلاف من رؤوس الخيل سقت كلها إلى بشاور^(١) .

هذا وقد أدار صاحب غزنه دقة القتال فى مهارة فائقة . ذلك إذ عبأ جنده القليل فى وحدات قوام كل منها خمسمائة من المقاتلين طفقوا يتبادلون مراكزهم فى الجبهة حتى أرهقوا عدوهم فأجهزوا عليه .

وكان من أثر انتصارات سبكتكين الباهرة هذه أن رجعت

١ - تاريخ الغنى على هامش الفتح الومى القاهرة ١٢٨٦ هـ أول

قبائل الأفغان والخلج عن عصيانها ولزمت طاعته والولاء له .
ولئن لم تكن حروب سبكتكين الهندية هذه إلا مجرد
غزوات ، فهي التي مهدت سبيل الفتح أمام جيوش المسلمين فيما
بعد على كل حال .

محمود الغزنوى

ومات سبكتكين فى شعبان من عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م بعد أن
حكم بلاده عشرين عاما ، تاركا من ورثته مملكة واسعة الرقعة
مرهوبة الجانب .

ولأمر ما ، كان الأمير الغزنوى قد عهد قبل وفاته إلى ابنه
الضعيف إسماعيل برغم ما عُرِف عنه من اعتداده بأبنه الأكبر ، يمين
الدولة محمود ، اعتدادا شديدا حتى كان يروى للناس أنه تمثل له فى
الرؤيا قبل مولده شجرة نبتت فجأة فى بستان داره فأخذت أغصانها
تمتد فى كل اتجاه حتى أظلت العالم أجمع .

على أن محمودا استطاع بعد أشهر قلائل من وفاة أبيه أن ينزع
الملك من أخيه على كل حال وينفرد بالأمر .

وما لبث محمود أن ورث ملك السامانيين كله فى خراسان
وبلاد ما وراء النهر . كما قضى على سلطان البويهيين فى الرى وهزم

السلاجقة والقره خانيين وتوغل في بلاد فارس وملك إقليم قزوين . هذا كما فتح بلاد الغور في الهندكوش ، فيما بين غزنه وهرارة ، ونشر الاسلام بين أهلها على نطاق واسع أول مرة .
واقدر راج محمود يعلن : من بادى الأمر ، أنه قد أخذ على عاتقه الجهاد بسيفه في سبيل نشر تعاليم الإسلام الصحيحه والقضاء على الفرق المضللة من رافضة وقرامطة وغيرهم . وكان يكتب في أثر كل نصر يحرزه إلى الخليفة العباسى ببغداد يزف إليه النبأ فيصل إليه منه التشجيع والتعزيد والدعاء .

وهكذا امتد سلطان محمود إلى آفاق بعيدة ، وذاع صيته في أنحاء بلاد المسلمين . وما لبث هذا الأمير المحارب أن ولى وجهه شطر الهندستان التى رأى فيها ميدان الجهاد الأكبر فغزاه سبع عشرة مرة في مدى سبعة وعشرين عاما ، فيما بين عامى ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م و ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م ، حتى خضع له شمال شبه القارة الهندية من بنارس إلى غزنه ومن الهملايا إلى الدكن .

هذا ومن المعروف أن الهند لم تكن غريبة على محمود فقد سبق له أن شارك أباه في غزواته لها من قبل عما يسر له الاطلاع على أحوالها والوقوف على قدر غير قليل من أساليب القتال عند أهلها .

ولم تعد وأولى غزوات محمود الهندية تملكه بعض الحصون عند الحدود فولأها بعض رجاله . ثم رجع إلى الهند من جديد في شوال من العام التالي ٥٣٩١ / م ١٠٠٠ على رأس عشرة آلاف مقاتل لاقى بهم جيش عدو أبيه السابق ، چيپال راجا بها تنده ، عند بشاور ، وكان الأخير في اثني عشر ألفا من الفرسان وثلاثين ألفا من المشاة معها ثلاثمائة من القبول .

واستعر القتال بين الفريقين في المحرم من العام التالي حتى أئيد من الهناكة خمسة عشر ألفا وسقط أميرهم نفسه وفريق من حلفائه في أسر السلطان الغزنوى .

ورضى محمود آخر الأمر أن يفك إيسار خصومه على أموال طائلة وعدد كبير من فيلة الحرب ، ورهائن كان من بينها ابن اچيپال صاحب لاهور وواحد من حفدائه .

ولم يقنوَ الأمير الهندوكى على احتمال ما لحقه من عار الاندحار ، فما لبث حين آب إلى دياره أن عرض نفسه على النار ، وفق رسوم قومه ، تكفيراً له عما ناله من هزائم متكررة على أيدي غزاة بلاده . واتجه السلطان الغزنوى في غزوته الثالثة عام ٥٣٩٥ / ١٠٠٤ - ١٠٠٥ م إلى بهيرة ، على جهلم أحد روافد السند ، فضمها إلى ملكه ، ثم تركها إلى الملتان مقام أبى الفتح القرمطى

الذى مالبث على أثر علمه بهزيمة حليفه أمير لاهور ، أن سعى إلى محمود يعرض عليه توبته مع طاعته ، على جزية سنوية مقدارها عشرون ألف درهم من الذهب .

وبلغ محمودا وهو بالهند أخبار مهاجمة أمير قشغر لأملاكة ، فأسرع بالعودة إلى بلاده بعد أن عهد بأملاكة هناك إلى حفيد لچيپال كان قد انضم إليه وأسلم على يديه . وهو الذى تعرفه الكتب العربية باسم نواسه شاه حفيد السنسكريتى .

على أن صاحب غزنه لم يسكد يستقر فى عاصمته بعض الوقت ، بعد أن أمن حدوده ، حتى بلغه خروج نائبه بالهند على سلطانة فسارع إليه من فوره ، فلم يرجع عنه حتى اقتدى نفسه بأربعمائة ألف درهم . وتحالف دواد صاحب الملتان مع آنتيچالا صاحب لاهور وابن چيپال سالف الذكر على خلع طاعة محمود من جديد ، واستنضخ الأخير لشده أزره همم الامراء الراجپوتيين ، أشجع من عرفتهم الهند ، وفيهم راجاوات أوجين وكواليار وكليجر وقنوج ودھلى وآچمير . ولم يكن أمراء الهنداكه هؤلاء ليتقاعسوا بطبيعة الحال عن نجدة واحد منهم ، وقد تكشف لهم مدى مايتهددهم من أخطار على أيدي السلطان الغزنوى .

وزحفت جيوش الهند مجتمعة للقاء جند المسلمين بارض

البنجاب ومن ورائها الشعب الهندوكى يتفانى أفراده فى مدها بالزاد والعتاد فى حماس بالغ دفع بالنساء إلى تقديم حليتهن فى سبيل الدفاع عن الوطن . وبرغم كثرة من هلك من جند المسلمين ، فقد واصل محمود القتال برجاله الستة الآلاف فى عنف بالغ وجلد زائد . حتى اذا مالوى آنچالا زمام فيله طلبا للهرب ، أفرع الرعب صفوف الهنادكة السكيفة فراحت الجند بدورها تلمس الفرار . وهكذا قضى صاحب غزنة آخر الأمر القضاء التام على جيوش الهند المتحدة واستولى على ما كان معها من عناد طائل وكنوز . انطلق من بعد ذلك قائداه عبد الله وأرسلان يطاردان فلول العدو المنهزم يومين كاملين .

واندفع محمود إثر هذا الانتصار الكبير إلى حصن نكر كوت ، الذى يعرف أيضا باسم بهيمنكر ، وكان يقوم على تل فى منطقة السهول الفنية بسفوح الهملايا ، وبه كانت تمكس الأموال الكثيرة مما كان يتقرب به الهنادكة إلى آلهتهم . وما لبث حراس هذا الحصن ، وكانوا كهنة مسالمين ينكرون الحرب وإراقة الدماء ، أن استسلموا للغزاة دون قتال . وقد وصف العتبى مؤرخ السلطان محمود ، ما كانت عليه كنوز هذا الحصن من الكثرة البالغة فقال : منقل

منها (أى محمود) ما أقلته ظهور رحاله واستحمل سائرهما أعيان رجاله (١) .

هذا والواقع أن الهند كانت وما زالت إلى قرون قليلة تزخر دور أعيانها وحصون أمرائها بثروات وكنوز طائلة مما لا تكاد الأذن تصدقه . وقد رجع محمود من إحدى غزواته ذات مرة ومعه أربعة آلاف بعير تكاد تنوء بأحمالها من الأموال والغنائم . بل لقد كان جنده كثيرا ما يتركون وراءهم أواني الفضة لثقلها اكتفادا بما كانوا يحملون من ذهب كثير وجواهر . ومن المعروف المشهور أن أدوات المعابد الهندية وأكثر الآنية التي كان يزخر بها دور الأعيان ، لم تكن في الغالب إلا من الذهب الخالص ، وكذلك السكة المتداولة بين الناس .

ولئن كانت فكرة الجهاد التي تسلطت على محمود ورجاله وأشربت بها نفوسهم ، هي التي دفعت بهم إلى توالى غزوهم للهند ، هذا بالإضافة إلى ما كان لا يكتوز هذه البلاد وثرائها الطائل من أغراء ، فقد كان من العوامل البارزة التي ساعدت على انتصارهم كذلك ما كان يغلب على الأمراء الهنالك من تحلل اجتماعي جعلهم أبدا يقدمون مصالحهم الخاصة وآراءهم الشخصية على كل شيء .

فلا يبعون عنها حولا ، ولو حتى بقدر ضئيل ، في سبيل الهند أمهم
الكبرى . وهكذا كانت الثقة والتعاون لا وجود لها
بينهم ، فلم تغن بذلك كثرتهم البالغة عنهم شيئا أمام الغزاة الذين
كانوا على قلة عددهم مجتمعين على إخلاص تام لهدفهم في تعاون
ونظام وثيق محكم .

وضاق محمود آخر الأمر ذرعا بمؤامرات داود القرمطى ،
صاحب الملتان ، فخرج إليه من جديد عام ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م بعد
أن قضى على فتن بلاد الغور ، فما زال به حتى أوقعه في أسره فحبسه
في حصن جوراك ، فلم يرجع عن الهند حتى قضى على دولته قضاء
تاما وخرب المنصورة قاعدته .

هذا كما طارد جند غزنة راجا بهيمبال ، حفيد چپال ، حتى
كشمير . وإلى محمود يُرد الفضل في نشر الإسلام بهذا الإقليم
الجبلى الواسع .

كذلك تمكن السلطان الغزنوى من انتزاع حصن ثيسر من
جموع الهنادكة الحربية التى استماتت في الدفاع عنه ، فخطم ما كان به
من اصنام واستولى على ما وجد به من أموال ونفائس كثيرة .
وهكذا دان للغزاة إقليم البنجاب كله وما حوله ، فأصبح الطريق
إلى سهول الهند نفسها ممهدا أمامهم . وهام أولا . يتضاعف عددهم

يوما بعد يوم بفضل ما كان يفد إليهم من محاربي خراسان والتركستان
وبلاد ما وراء النهر الذين استهوتهم انتصارات محمود الكثيرة
وغنائمه التي لا تدخل تحت حصر فساد بهم وجهته
قنوج، درة ولايات الهند الشمالية وأقدمها . فما إن عبرت جند
المسلمين چمنه حتى برز إليهم هار دانا ، راجا باران التي تعرف
اليوم بيلند شهر ، ومعه عشرة آلاف من رجاله طفقوا ، على حد
قول ابن الأثير ، يناورون بكلمة الإخلاص طالبا للخلاص .

وما لبث حصن مهاون على چمنه أن سقط بدوره في أيدي
الغزاة بعد أن هلك من حُمانه خمسون الفا ابتلعهم النهر . ولم يطق
صاحبه الأمير الهندوكي كلچند وقع الهزيمة على نفسه فقتل زوجه
ونفسه حزنا على ما أصابه .

كذلك لم تُغن فتيلاً مقاومة أصحاب مترا فسقطت مدينة
الهنداكة المقدسة هذه وما بها من أموال في أيدي محمود .

وأشرف محمود آخر الأمر على قنوج عام ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م
وكانت اخبار انتصاراته قد سبقته إليها ، فاستسلم له صاحبها راجا
پياله من فورة دون أدنى مقاومة وفتح له خزان كنوزه .

على أن الأمراء الراجپوتيين الذين ملكهم الغيظ فحقوا على
زعيمهم لاستسلامه لجند المسلمين ؛ ما لبثوا ، غداة رحيل محمود

عنهم ، ان ندبوا قديا هار بن چندله راجا كلنجر يعاونه راجا
كواليار ، فمازالا براجا پياله حتى اوقعاه في الأسر فقتل صبرا
وأثار الخبر نائرة السلطان الغزنوى فارتد من فوره إلى الهند
ليعاقب هؤلاء الأمراء فعلتهم . ولقد همّ محمود حين رأى حشود
الهندكة الكثيفة أن يرجع عن قتالها ، لولا أن مجرد ظهوره في
الميدان ألقى الرعب في قلوب أعدائه فانقرط عقدهم لساعتهم
وانطلقوا هاربين لا يلوون على شيء .

وعاد محمود إلى الهند من جديد في عام ٤١٢هـ / ١٠٢١ / ١٠٢٢ م
فاخضع كواليار لسلطانه ، كما صالح راجا چندله على أموال طائلة
مع لزوم طاعته .

ولئن كان غزو قنوج يُعد من بين وقائع محمود الحربية الباهرة ،
فإن فتح الكُجرات وسومناث هو دون شك أعظم انتصاراته
الهندية جميعا . فقد فاق مالا فاقه محمود مصاعب ومتاعب في هذه
الغزوة ، ما عاناه كل الذين سبقوه إلى دخول هذه البلاد وفيهم
الاسكندر المقدوني نفسه .

وقد انتهت هذه الواقعة التي تعد آخر غزوات محمود الهندية
الكبرى ، الى انزال أكبر ضربة بالأمراء الراجپوتيين ، فضاء
من بعدها كل أمل لهم في استرداد سابق هيبتهم بالهند . وما لبث

خلفاء محمود آخر الأمر أن اضطروهم إلى الهجرة إلى المنطقة الصحراوية الوعرة التي تعرف اليوم باسمهم حيث أفلح فريق منهم في الاحتفاظ باستقلاله هناك إلى حين .

ولقد اقتحم محمود في طريقه إلى الكُجرات عام ٤١٦ هـ — ٤١٧ هـ / ١٠٢٥ — ٢٦ م ، مفازة جرداء قاحلة مترامية الاطراف واسعة المسالك هي صحراء التار أكبر صحراوات الهند ، فكانت قوة جلده واحتمال رجاله وشدة بأسهم منار الدهشة والعجب .

واستولى محمود ، وهو في طريقه إلى هدفه ، على آچمير ونهر واله ، ثم ظهر آخر الأمر أمام سومنات فوجد الأمراء الراجپوتيين قد حشدوا جموعهم الغفيرة لحماية معبد الهنادكة ، الأكبر بها ، وعليهم بهيم ديو صاحب السكجرات ومعه راجا نهر واله وأمرأ بهاتي . والتحم الفريقان في قتال عنيف انتهى إلى مذبح دامية سقط فيها خمسون ألفا من الهنادكة مرّ الغزاة على أسلاهم إلى داخل الحصون .

هذا ولمعبد سومنات قداسة عظيمة عند الهنادكة ، حتى إنهم بادروا من فورهم إلى تجديده غداة قيام جمهورية الهند الجديدة ، أي بعد مضي أكثر من تسعة قرون على تدمير محمود له .

ويصف المؤرخون مصلى الهنود هذا بأنه كان بناء عجيبا ذا

ست وخمسين سارية صفائحها من ذهب مرصع بالجواهر ، وذا ألوف من التماثيل المصنوعة من الذهب والفضة والمحيطه بهيكله ، وذا صنم ضخيم قائم في وسطه وقد رصع بالجواهر والحجارة الكريمة الكثيرة .

ويعتقد الهنادكة أن الأرواح تناسخ في الأبدان عنده ، فهو الذى ينشئها في الأبدان كيف يشاء ، وأن المدّ والجزر إنهما إلا صلاة البحر يوديا لصنمهم الأكبر هناك . هذا وقد كان الناس يحجون إليه في جموع زاخرة لاسيما عند خوف القمر^(١) وكان فيه من السدنة الفنان من البراهمة ، ومن الراقصات المنشدات خسمانه . وكان على هؤلاء جميعا أن يقوموا عند الدُجى ، على جارية سلسله غليظة من الذهب ، فَيَقْضُوا مناسكهم لمعبودهم الأكبر .

ومن البديهي أن محموداً لم يكن ليخطر بعبور صحراء مهلكة مثل صحراء النار هذه لمجرد تحطيم صنم أو الاستيلاء على ما بمعبد هندوكى من أموال . فواقع الأمر أن هذا المعبد كان أخطر مراكز المقاومة والعدوان الهندوكى طُراً ، كما كان يُتخذ في الوقت نفسه مثابة للأموال التى كان يُنفق منها على الأعمال الحربية .

ولم يغفر محمود لراجا نهرواله وأمرأه بهاقى معاوتهم
لراجا كواليار فى الدفاع عن سومنات فهاجم بلادهم وهو فى
طريقه إلى عاصمته عائدا من سومنات واستولى عليها .

وكان آخر غزوات صاحب غزنة الهندية حملة نهريه لتأديب
قبائل الرظ عند الحاجز الملحق بالپنجاب ، وكانت هذه القبائل
قد اشتد نشاطها بعد انقراط عقد إمارة لاهور الهندية فاخذت
تعيث فى الأرض فسادا حتى هاجمت أطراف جيوش غزنة مرات
متكررة إبان زحفها بأرض الهند .

هذا ولو كانت غاية محمود من غزواته الهندية عموما هى مجرد جمع
الأموال فحسب ، كما يقول بذلك بعض المؤرخين ، إذن لقبل
معارضه عليه الهنادكة من افتداء صنم سومنات بالأموال الطائلة ،
ولسارد عليهم بقوله المشهور بأنه يؤثر أن ينعمته الناس بأنه
محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع الآوثان .

وفى هذا يتحدث عنه المؤرخ الهندوكى براساد فيقول (١)
« إن محمودا ليُعدّ فى نظر المسلمين حتى اليوم غازيا ومجاهدا
كبيرا أخذوا على نفسه القضاء على الشرك فى مهاد الوثنية . وهو فى
نفس الوقت عند الهنادكة طاغية مخرب حطم مقدساتهم ودمر

معابدهم وآذنى شعورهم الدينى فى كثير . ولكن المؤرخ المنصف حين لا يسهط من حسابه تقاليد العصر الذى كان يعيش فيه ، وسماته واعتباراته ، لا يسهه إلا أن يقرر أن محمودا كان زعيما بارزا من اخيرة القادة والعلماء وحاكما حازما وجنديا عبقريا من الطراز الاول ، اتصف بالعدالة ورعاية الفنون والعلوم فهو جدير بأن يُعد من بين أعظم الملوك طراً (١) ،

والحق أن محمود الغزنوى كان من أعظم سلاطين المسلمين ، وقد وسع ملكه الاول إلى سلطنة مترامية الاطراف امتدت من بهار فى شرق الهند إلى فارس . وكان مما ساعد على انطلاق عبقريته الحرية اطمثانه إلى تأمين مؤخرته حين أقبل على الهند غازيا ، فضلا عن شيوع الخلاف بين امراء الهنداكة انفسهم . وقد تيسر لمحمود ، إلى جانب ذلك كله ، عون رجال أكفاء تمكنوا من عقيدة الجهاد من انفسهم فتفانوا فى خدمته ، وإن خلوا ، مع الأسف من الخبرة الكافية فى الإدارة والحكومة .

وقد شغف محمود بالهندستان شغفا زائدا وأعجبه جو الكجرات

١ - كذلك يشيد المؤرخ لين بول بمحمود فيقول : إن ذلك السلطان الذى أقام تلك المنافع الفخمة بغزوة وأقام دور العلم ودعى العلماء حتى كان يجود عليهم بالايقله عما يبادل ما تتي القامن الجنيهات كل عام ، فضلا عما كان يحرق على طلبة العلم من الأرزاق ، لا يمكن أن يسلك فى زمرة الطغاة الربابة . Med. India pp 81, 2.

خاصة فمال إلى الإقامة الدائمة هناك ، على أن يذيب ابنه عنه بغزاة .
لكن رجاله عاودهم الحنين إلى منازل قبائلهم ومراعى بلادهم
الخضرَاء وبساتينها ، كما ضايقهم حر الهند وعجزوا عن احتماله .

هذا وقد عُرف محمود ، إلى جانب شهرته الحرية ، برعايته
للعلوم والآداب وعظيم بذله لأربابها والمشتغلين بها ، حتى قصدوا
بلاطه من مختلف الأقاليم الإسلامية . وكان من بين علماء محمود ، البيروني
العلامة الرياضي والفيلسوف الفلكي العالم بلغات الهند وثقافتها
وحضارتها ، والذي تُعد كتبه أعظم ما عرف المسلمون عن حياة
الهنداكذ الاجتماعية والسياسية والعقلية على السواء ، ثم العتي الوزير
صاحب تاريخ اليميني واليهيقي صاحب تاريخ آل سبكتكين ،
والفارابي الموسيقي الفيلسوف .^(١)

أما الشعراء فكان على رأسهم العنصرى الفارسي الذي بايعه
بالزعامة أربعمائة منهم ببلاط محمود ، ثم الفرخي والمسجدى . كما
نزل في بلاطه ، وعاش في كنفه فترة من الزمن ، الفردوسي صاحب
الشاهنامه وأبعد شعراء الفرس صيتا وأخدهم ذكرا . وإن كان
محمود قد خيب رجاء الشاعر فيه فَصَّن ، من أثر الوشاة ، بما كان

يأمله عنده^(١).

ومن أسف أن البناء العظيم الذي أقامه محمود سرعان ما أخذ ينهار بين أيدي خلفائه الذين أبطروهم ما تركه سلاطنتهم بخزائن مملكتهم من ثروات طائلة . فانصرفوا ورجالهم في الغالب عن إتمام ما بدأه عاهلهم العظيم ، أو المحافظة عليه ، إلى الجدل و حياة الترف .

خلفاء محمود

توفي السلطان محمود الغزنوي عام ٤٢١ هـ / ١٠٣١ م بعد أن أوصى بملكه لابنه محمد جلال الدولة دون ولده الأكبر مسعود . وإذ بلغ مسعود الخبر كتب من فوره إلى أخيه السلطان الجديد يطلب إليه أن يقره على البلاد التي كان قد تولى أمر فتحها ، وهي طبرستان وأصبهان وما حولها ، على أن يقدمه على نفسه في الخطبة . فلم يكن من محمد إلا أن أغلظ في الرد على أخيه وقد عزم على الخروج لقتاله برغم نصيح خلصائه له بالجنوح إلى المهادنة

١ - قيل إن محمودا كان قد ندم على ضيقه بمكافأة الفردوسي حين قدّم له الشاهنامه ، فأمر بارسال هداياه إليه . فدخلت المير بإحاطها من باب رودبار في طبران حيث كان يقيم الشاعر ، في الوقت الذي كانت جنازة الفردوسي تخرج فيه من اب رزان بنفسا لمدينة . (جهار مقاله لنظامي السمرقندي ترجمة عبد الوهاب عزام ويعبى الحشاش - القاهرة ١٩٤٩ ص ٥٩)

والسلم^(١).

وماليت جند غزنة أن غدرت بأمرها الجديد في الطريق فألقت به في الحبس وهو في سُكره وسملت عينيه ، ثم كتب قوادهم الى مسعود يستدعونه اليهم ، وكانوا يؤثرونه على أخيه لشجاعته وطموحه .

هذا والواقع أن السلطان محمود اكان قد عهد لابنه الأكبر أول الأمر عام ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م ثم ولاء هراة وبعث به لمحاربة الغوريين . وبرغم حسن بلا مسعود ، فإن أباه ماليت بفعل الوشاة أن غضب عليه وعزله من ولاية العهد ، ثم طابت نفسه من جديد فغفا عن ولده وردده إلى هراة دون ولاية العهد .

وكانت صفات مسعود العالية كفيلة بأن تسير به في طريق المجد الذي سلكه أبوه من قبل لولا ما كان من سرعة استجابته ، في الغالب ، لدسائس الدساسين في بلاطه وإعراضه مرات كثيرة عن الاستماع لنصح وزيريه المجريين ، خواجه أبي القاسم بن الحسن الميمنيدي وخواجة احمد عبدالصمد ، فأدى ذلك كله آخر الأمر إلى التعجيل بنهاية الدولة الغزنوية ، المترامية الأطراف ، وتقويض أركانها .

فلقد بعث السلطان بقائده أحمد بن ينالتكين نائباً له على أملاك الهندية ، فكان من جراء استيلاء هذا القائد على بنارس وماغنه فيها من كنوز وأموال كثيرة أن دب الحقد والحسد في نفس عبد الله قاضى شيراز الذى كان يشاركه الحكومة الهندية ، فطفق يبعث برسائله تترى إلى بلاط غزنة طافحة بالتهم لقائد مسعود بالهند . حتى أفلح منافسوا ابن ينالتكين هناك فى أن يلقوا فى روع السلطان . آخر الأمر ، أن نائبهم بالاستنار بالأمر كله بالهند واستخلاصها لنفسه .^(١)

والحق أن مسعود قد اصطنع التريث طويلاً هذه المرة قبل أن يقطع برأى فى شأن قائده بالهند . حتى إذ خرج من غزنة للقضاء على القلاقل التى نشبت فى ختلان وخراسان وبخارى فبلغ العراق من بعد ذلك ، وافته الأخبار بأشواق قوات ابن ينالتكين مع جند قاضى شيراز عند لاهور ، وكان الأخير قد أفلح فى تأليب سكان البنجاب على منافسه . فخشى السلطان استفحال شأن نائبه بالهندستان فسير إليه هندوكيا من رجاله ، يدعى تلاك كان على قدر

١ - كان الوزير الميمنى يكنى لاقضى كراعية شديدة منذ أن رشح للوزارة بدله أيام محمود . البیهقی ص ٢٩٤

كبير من الشجاعة وعلو الهمة^(١).

وما إن ظهر مبعوث السلطان بقواته عند لاهور حتى انتشر الفرع بين صفوف عدوه ، فانفض أغلب الجند من حول ابن ينالتكين الذى ظل يحارب فى شجاعة خارقة ، مع قلة ثبتت معه ، حتى نالته غيلة سهام فريق من الزط وسيوفهم طمعا فى مكافأة مالية كان قد جعلها تلك لمن يأتيه برأس غريمه^(٢).

وأيا ما كان الحال ، فلأن مسعودا لم يسيء الظن بقائده وسلمك معه سبيل المودة واللين ، دون الاستجابة آخر الأمر لدسائس قاضى شيراز وعصيته ، لما احتاج الى تسييره الجيوش لقتال ذلك القائد الحازم الذين كان كفيلا بتدعيم سلطان الغزنويين فى الهند والوقوف فى وجه السلاجقة الذين كانوا قد طفقوا يهددون بلاد السلطان . واستبد بمسعود الفرع بانتصارات تلك فعقد العزم على الخروج إلى الهند ، غير ملتفت إلى تحذيرات وزيره الشيخ له من حرج الحالة عند حدوده الغربية بسبب الخطر الساجوق^(٣) . وهكذا بارح السلطان الغزنوى عاصمته مستهل عام ٤٢٩ / ١٠٣٧ م

١ - تاريخ البيهقى ص ٤٣٠

٢ - تاريخ البيهقى ص ٤٦٠ ، ٦١

٣ - تاريخ البيهقى ص ٥٧٥ وما بعدها .

لتحقيق حله القديم بالاستيلاء على حصن هانسي الهندوكى الكبير فلم يبلغه إلا أواخر ربيع الأول . ذلك أن الداء أفعده أسبوعين بأكملهما عند جهلم اخذ روافد السند حتى نذر إن رزق الشفاء أن يقلع عن تناول الشراب ويحرمه على رجاله وأهل بلاطه . وقدرت فعلا بعده .

وما إن فرغ مسعود من أمر هذا الحصن ، بعد قتال عنيف ، حتى واصل زحفه إلى سُنْبات عند الشمال القريب من دهلى ، فإذا بأهلها تنطلق منها إلى الغابات القريبة فرارا من وجه الغزاة الذين أصابوا فيها مغام كثيرة .

وانتهز السلاجقة فرصة غياب صاحب غزنة بالهند ، فهاجم بهم زعيمهم طغرل بك بلاد السلطان حتى استولوا على نيسابور وبسطوا سلطانهم على خراسان ضاربين عرض الحائط بما كان بينهم وبين مسعود من موثيق التزموا بها بعد هزيمة جنده لهم .

عام ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م (١)

وحين خرج مسعود للملاقاة هؤلاء الغزاة فى رجب من عام

١ - كان السلاجقة أول أمرهم جند مرتزقة عرفوا بالجرأه والكبرياء والاستهانة بمن سواهم ، حتى اضطروهم إلى سلوك سبيل العنف معهم . حتى إذا ما استعان بهم مسعود لتقوية جيشه فسلك معهم سياسة غير رشيدة ، تفاقم خطرهم ليشتهى أمرهم بالاستيلاء على ملك الغزنويين - البيهقى (المقدمة) ص ٣٤ ، ٣٥

٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م فالتحم بهم عند دندانقان بالقرب من مرو ،
ومنى بهزيمة حاسمة تقرر على أثرها مصير الدولة الغزنوية في خارج
الهند وداخلها .

ذلك أن مسعودا أصر بعد هذه الواقعة على الهجرة إلى الهند
برغم الحاح وزيره أحمد عبد الصمد عليه بالبقاء في غزنة . فخرج
في ركب كبير ، شمل أهل بيته وخلصائه مع كنوزه وأمواله ، وفي
خاطرهم أن يتهموا له بالهند جمع جيش قوى كبير يدحر به السلاجقة .
فلم يكدهم يعبر السند فيبلغ قلعة ماريكله بين أتوك وروالبندى ،
حتى وثب عليه غلبانه من الأتراك والهنود ، طمعا في خزائنه ،
فغلموه وزجوا به في القلعة ، ثم نادوا مكانه بأخيه محمد ، وكان
ناظراه قد سُملا كما ذكرنا من قبل . وحُبِس مسعود في حصن
كبرى فلبث به حتى قتله الأمير أحمد ابن أخيه في عام ٤٣٣ هـ .

وبموت مسعود طُويت صفحة حاكم مسلم نابِه رعى العلم
والعلماء والتفت التفاتا كبيرا إلى الإنشاء والتعمير حتى غصت
ببلاده بالكثير من المدارس والمساجد والرباطات التي أقامها .
ولقد استطاع هذا السلطان الكبير أن يحتفظ مدة غير قصيرة
برقعة ملكه التي امتدت وقتا ما من العراق حتى حدود الهند
الشرقية . لكن القدر ، على حد قول مؤرخه البيهقي ، دفعه إلى

ارتكاب الخطأ الأكبر الذى قرر مصير دولته، وذلك حين أصم أذنيه عن الاستماع إلى مشورة رجاله فقرر الرحيل إلى الهند بعد واقعة دندانقان بدلا من التحصن فى غزنة ومحاولة دفع خطر السلاجقة عن حدوده^(١). ذلك أن الحوادث قد برهنت على قيام مخاوفه على غير أساس، إذ كان هم السلاجقة الأكبر فى التوسع منصرفا فى الواقع صوب فارس، دون التفات جدى كبير نحو غزنة والشرق عموما. فراعى خراسان كانت أحب إليهم وآثر من تلال الأفغان وماوراءها، وناهيك ببلاد فارس الغنية التى كانوا قد استولوا عليها ثم طفقوا يوسعون فى فتوحاتهم حتى بلغوا شواطئ بحر الروم.

ولم يطل الأمر بمحمد على عرش غزنه، فقدم برز إليه من خراسان، مودود بن مسعود يطالب بدم أبيه. فالتقى به عند الدينور، على طريق كابل وبشاور، فهزمه، ودخل غزنة حيث انتقم لمقتل أبيه من عمه وأولاده وجميع من خانوا عهد مسعود. وقوى انتصار مودود من عزيمة الأهلين فى الأقاليم الغزنوية التى كان السلاجقة قد دخلوها، فثاروا فى وجه المحتلين وأجلوهم عن أغلبها.

ومالئط السلطان الجديد أن بوغت بعصيان أخيه
مجدود، وكان أبوه قد ولاه البنجاب فأعلن استقلاله به ثم سار
على رأس قواته نحو غزنة ولكن الأجل وافاه بلاهور .
بعد قليل .

وكان من جراء ثورة مجدود هذه أن ركن بعض أمراء
الهندكة بدورهم إلى الثورة حتى بلغوا لاهور نفسها وحاصروها .
لكن جند الغزنويين ردتهم آخر الأمر عنها وثبتت ما تززع
من نفوذ المسلمين وهيبتهم في شمال شبه القارة الهندية كله .

ووافي مودود أجله عام ٤٤١هـ / ١٠٤٩، وهو يعد العدة لحرب
السلاجقة الذين كانوا قد غدوا يرهبون جانبه ، بعد أن أتيح له
الوقوف في وجههم واسترداد جزء كبير مما بأيديهم من
أملك الغزنويين .

وخلف مودود طائفة من الأمراء الضعاف ، استطاع
السلاجقة في عهدهم اقتطاع أجزاء كثيرة من أراضي الدولة . حتى
رقى العرش إبراهيم بن مسعود فأفلق بحزمه في تنظيم شئون
الدولة ، كما ألزم قبائل الترك والافغان طاعته ، وهادن السلاجقة ،
واقرا الأمور في الهندستان .

وعن الخليفة علاء الدين مسعود أن يسكني نفسه شر السلاجقة

فأصهر إلى سلطانهم سنجر ، ففتح بصنيعه هذا الباب على مصراعية تدخل السلاجقة في شئون الدولة حتى قضوا على استقلالها .

ذلك أن السلطان السلجوقي سرعان ماظهر بجنده في غزنة على أثر وفاة علام الدين فأنزل عن عرشها الأمير أرسلان ، تلبية لدعوة أخته أرملة السلطان الغزنوى ، وكانت على شقاق مع هذا الأمير الجديد الذى اضطر من بعد ذلك إلى النزوح إلى الهند حيث وافاه أجله هناك عام ٥١١هـ / ١١١٧ م .

وارتقى الأمير بهرام عرش غزنة فى ظل السلاجقة ، فعمل على أن يفيد من تحولاتهم صوب فارس بالنهضة بدولته من جديد . وجهد فى إقرار الأمور فى الهندستان ، خصوصا ، فقضى على فتن البنجاب والمملتان ورد عصية الأمراء الهنادكة عن لاهور ، وكانت الآمال قد بُعثت فى أنفسهم من جديد لطرد الغزاة من بلادهم .

وهكذا كاد بهرام أن يستعيد للغزنويين ما ضاع منهم من أراض ونفوذ ، وقد انجلى عنهم خطر السلاجقة وثبتت أقدامهم بالهند من جديد ، لولا ما كان من قيام النزاع بينه وبين ملوك الغورالذين كانوا ينزلون فيما بين غزنة وهرارة .

وكان هؤلاء الغزاة المحاربون من خيرة جند محمود الذين
نصروه في أغلب حروبه وغزواته ، ولكنهم حين بدا لهم
الضعف في خلفائه لم يترددوا في الجهر بالخروج عليهم .

وبلغ التوتر بين الفريقين غايته حين سيق إلى القتل ، بأمر من
بهرام ، زعيم غورى يدعى الأمير سورى . هنالك وإلى الغوريون
هجومهم على غزنة حتى أفلح زعيمهم علاء الدين حسين في دخولها ،
ليستردها بهرام منهم ثانية بفضل قواته الهندية .

ومات بهرام عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م خلفه ابنه خسرو الذى
مالبث أن فر إلى الهند على أثر اقتحام قبائل التركان لعاصمته
بعد هزيمتهم للسلطان سنجر السلجوقى . وانتهاز الغوريون فرصة
الفوضى التى عمت البلاد أثر الغزو التركانى فأنقضوا على غزنة
فأعملوا فيها التخريب والنهب والتدمير حتى نبشوا قبور السلاطين
الغزنويين جميعا إلا مشوى السلطان محمود .

هذا وقد قصد خسرو عاصمته من جديد ولكنه
ما لبث أن أحيط بمقتل السلطان سنجر على أيدى التركان
وضياع مملكته حتى ارتد ثانية إلى الهند حيث قضى بلاهور عام
٥٥٥هـ / ١١٦٢م

وتفاقم خطر الغوريين واشتد ساعدهم فحارب زعيمهم ، غياث الدين

ابن سام ، الغز التركان ، وبسط سلطانه على غزنة التى عهد بها
ولاقليم كابل إلى أخيه مُعِيز الدين بن سام الذى تذكره كتب
التاريخ باسم محمد الغورى .

وما زال الغوريون بخسرو وابنه بهرام شاه الثانى آخر سلاطين
الغزنويين يطاردونهما بالهندستان حتى قتلوهما . وبذلك انتهت
سيرة دولة عمرت قرنين من الزمان ومهدت بفضل فتوحاتها العظيمة
لتوطيد اقدام المسلمين فى أرض الهند .

ولئن كان ظهور الدولة الغزنوية يمثل أول انتصار كبير للعنصر
التركي فى صراعه مع العنصر الفارسى على سيادة العالم الاسلامى
الشرقى على الخصوص اذ ذاك ، فإن هذه الدولة لم تستطع ، على كل
حال ، الا ان تترسم فى الحكم نظم ماسبقها من الدويلات الفارسية
كالصفارية والسامانية . بل إن اصحابها بذلوا جهدا مشكورا فى تشجيع
الثقافة الفارسية ، فقرّبوا اليهم كل من استطاعوا دعوته اليهم من
شعراء الفرس وعلماهم إلى جانب غيرهم من أعلام البلاد الاسلامية
الآخري .

على أن اعتماد السلاطين الغزنويين على قوة السيف وحده فى
المحافظة على ملكهم ، دون النظر ، فى الغالب إلى إقامة الحكومة
الادارة على أساس صالح ونظام سليم ، قد أدى الى تداعى بناء

الدولة كله حين تراخت الأيدي التي كانت تقبض على هذا السيف .
هذا إلى جانب تهالك أغلب الحكام ورجال الدولة أنفسهم
على حياة البذخ والترف بسبب ما أصابوه من ثروات الهند وكنوزها
الطائلة ، حتى تمسكن منهم السلاجقة ثم التركمان وأخيراً الغوريون
الذين ورثوهم .

الغُوريون

ما إن انهارت الدولة الغزنوية على أيدي السلاجقة والغُز، فأخذت الاضطرابات والفتن تجتاح غزنة وكابل وكافة أملاك المسلمين في الهندستان، حتى ظهر أمراء الغور الأفغان وعلى رأسهم زعيمهم معز الدين بن سام المعروف باسم محمد الغوري. وكانوا رجال حرب مبرزين، فسيطروا على غزنه وما حولها ثم انطلقوا بجندهم إلى أرض الهند ليحافظوا على أملاك المسلمين هناك من الضياع.

ذلك أن أمراء الهند الراجبوتيين كانوا، منذ أن لمسوا ضعف الدولة الغزنوية، قد طفقوا، هم وبقياء القرامطة الإسماعيلية بتخطفون أملاكها ويثرون الفتن والاضطرابات بين سكانها؛

ولقد جاب السلطان الغوري الهندستان غازياً من البنجاب إلى البنغال في فتوحات متواصلة خلال ثلاثين عاماً بدأها باستخلاص الملتان من أيدي القرامطة عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م ثم استولى على بشاور وأخضع السند جميعه لسلطانه حتى البحر برغم ما تعرضت

له جيوشه من خسار فادحة على أيدي بهيم ديوا راجا نهرو اله .
واستعصى حصن لاهور ، أول الأمر ، على صاحب غزنة الجديد
فهادن صاحبه الأمير خسرو ملك الغزنوى ثم قفل راجعا إلى عاصمته .
وزينت قبائل السكهكر الهندية ، على أثر ذلك لخسرو أن يزحف
على حصن سيالكوت ويستولى عليه . فما إن علم بذلك السلطان
الغورى حتى خرج إليه من فوره ، فلم يزل في زحفه حتى استولى على
لاهور نفسها وأوقع في أسره الأمير الغزنوى الذى سبق إلى قلعة
فيروز ببلاد الغور حيث أورد الردى عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م .
وقد لاقى ابنه بهرام شاه الثانى نفس المصير من بعد ذلك بقليل .
وبموت هذين الأميرين قضى على كل سلطان لال سبكتكين ، وانتقلت
أملأكمهم ، سواء فى داخل الهند أو فى خارجها ، إلى أيدي الغوريين .
ولئن كان صاحب غزنة الجديد قد أصبح وله السلطان المطلق
على البنجاب والسند ، فقد كان عليه أن يقطع شوطا بعيدا حتى يسترد
كافة الأراضى الهندية الغزنوية التى سقطت على كثير منها الأمراء
الراچپوتيون ، وكانوا قد عقدوا فيما بينهم حلفا حربيا لمداغة من
يقدم عليهم من غزاة المسلمين .

على أن هؤلاء الأمراء ، على شدة مراسهم فى الحروب وكثافة
جندهم ، كانت طباعهم الإقطاعية ومصالحهم الفردية غالباً ما تطغى ،

حتى في أوقات المحن ، على مصلحة الوطن الهندي العليا . هذا كما كان نظام الطبقات الهندوكي وقيوده الصارمة من أخطر العوامل التي كانت تحطم معنويات عامة المحاربين فتزعزع كيان النظام الحربي كله بالتالى . ذلك أن المحارب الهندوكي العادى ، مهما أوتى من الجرأة والبسالة فى القتال ، لم يكن له أن يتطلع إلى مناصب القيادة التي كانت وقفا على أبناء الطبقات العليا ، بغض النظر عن كفاءتهم الحربية . على نقيض الأمر في جيوش المسلمين حيث الباب مفتوح أمام كل جندى للوصول إلى أعلى مراتب القيادة ما اظهر من شجاعة وتمرس بالقتال وكفاءة فى الحرب .

وإلى هذه النقاىص مجتمعة يُرد أغلب السبب فى تقاعس جحافل الهنادكة أمام جند المسلمين الذين كانت عقيدة الجهاد تمكن من نفوسهم تمكنا ثابتا بعيد الغور .

هذا وكان اشهر الامراء الراجپوتيين هم أصحاب قنوج ودهلى ، ويليهم فى المكانة أمراء آچمير وبهارا والبنغال والكجرات وبندلخاند . وجميع هذه الإمارات تقع فى شمال شبه القارة الهندية ، وهو القسم الذى اصطلح المؤرخون على تسميته بالهندستان . وفيه تقع أعظم أنهار هذه البلاد واخصب أراضيها ، واكثف مناطقها السكنية بالتالى .

وخرج السلطان الغورى إلى الهند عام ١٥٩١ هـ / ١١٩٤ م ف قوات كبيرة . فما إن بلغ سر هند ، عند حدود البنجاب الشرقية ، حتى علم بحشود الهندوس التى بلغت مائتى الفامن المحاربين وثلاثة آلاف من الفول .

والتقى الجمعان عند ترين ، على مقربة من ثيسر ، فلم يستطع جند المسلمين الثبات أمام عنف حملات الهنادكة وتدفق قواتهم . ودق مركز السلطان نفسه حتى أصيب بجراح شديدة وهو يقاتل بنفسه . وكاد يضيع فى الميدان من فرط ما بذل من جهود خارقة ، لولا أن بصر به أحد الجند الخلجيين فانطلق به حتى أبلغه مأمنه . ولم يستطع جند غزنة أن يلم شمله من جديد إلا بعد ارتداد طويل بلغ الأربعين من الأميال ، فثبتوا فى مراكزم ، ودفعوا عنهم كل هجوم شُن عليهم .

ولم يكن محمد الغورى ليسكت عن هذه الصدمة العنيفة التى لم يتلقى المسامون مثيلا لها بأرض الهند من قبل ، فعاد إلى إعداداته فى العام التالى على رأس مائه وعشرين ألفا من المقاتلين الأشداء ، من أتراك وأفغان وغيرهم ، كان عليهم أن ينازلوا ثلاثمائة ألف من فرسان الهنادكة ، مع ثلاثة آلاف من فيلة الحرب ، استعدادا للقائهم يقودهم بربتى راجا صاحب دهلى وقنوج .

ولم يفتّ تفوق الهنادكة الساحق في عضد صاحب غزنة ،
فرسم خطته على أن ينطلق من بين صفوفه أربع فرق . قوام كل
واحدة منها عشرة آلاف رجل ، فتوالى مهاجمة العدو من كل
جانب ثم يرتد أفرادها متفرقين على أثر كل هجوم بهينة من يفر
من الميدان .

وإذ أدى نجاح هذه الخطة إلى إرهاق قوى العدو إرهاقا
شديدا وتشثيت جموعه ، برز السلطان بنفسه على رأس اثني عشر
الفا من فرسانه راحوا يشيعون الموت والدمار في صفوف
اعدائهم حتى هلك من الهنادكة ألوف كثيرة وفيهم جملة من
الامراء . أما زعيمهم بربقي راجا فقد اتخذ سبيلا إلى عاصمته
هربا . ولكنه لم يكده يبلغ سرسوتى بإقليم سنهبل حتى لحق به
مطاردوه فقتلوا عليه .

هذا وتعد هذه الواقعة البداية الحقيقية لانهايار سلطان
الامراء الراجپوتيين التام ونهايته الحاسمة في شمال الهند . وقد
استولى المسلمون على اثرها على سرسوتى وسمنه وكهرام وهنسى
ثم آچمير التي أمر السلطان بتحطيم ما بمعابدها من أوثان ، ثم
هدم هذه المعابد نفسها واستخدم اعمدتها وأحجارها في إقامة
مساجد ومدارس للمسلمين .

وعهد محمد الغورى ، قبل أوبته إلى عاصمته ، بإدارة أملاكه إلى قائده قطب الدين أيبك الذى وصل فى فترة قصيرة بفتح سيده إلى دهلى فاتخذها قاعدة لحكومته .

هذا وكان يقع بقلب الدوآب ، فيما وراء دهلى حتى حدود بنارس ، إمارة قنوج اعظم امارات الهند التى ذاع صيتها فى اساطير هذه البلاد وفى تاريخها على السواء .

وبدا اصحابها چايا چندرا أن يجمع حوله شمل الامراء الراجپوتيين من جديد ، بعد هلاك برقيقى راجا دهلى ، فى أمل أن يصير هم سيد الهندستان كلها بعد طرد المسلمين منها .

على أن السلطان الغورى مالبث أن فطن لتدبير عدوه ، فأيقن أن حكومته الهندية ان يُكتب لها الاستقرار إلا بالقضاء على سلطان هؤلاء الامراء ، فخرج إليهم فى جيش كثيف التقى بهم عام ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م فى السهل المنبسط بين چندوار واناوه .

وفضلا عن هزيمة الهنادكة الساحقة ومقتل زعيمهم راجا قنوج . فقد كان أخطر أثر لهذه المعركة هو انسحاب كبار الامراء الراجپوتيين جميعا من وجه المسلمين والهجرة إلى صحراء الراجپوتانا التى حملت اسمهم فيما بعد .

وواصل السلطان الغورى الظافر زحفه بعد فتح قنوج حتى

بنارس فأقام بها مسجدا كبيرا ثم آب الى حاضرتة .
ولم يتردد قطب الدين أيبك نائب الغوريين بالهند فى استغلال
ما أشاعته انتصارات المسلمين القوية هذه من رهبة وفزع فى
نفوس محاربى الهند فغزا آجمير من جديد كما فتح نهر واله واستولى
على بيانه وكواليا وما حوالها ، فى الوقت الذى انطلق فيه محمد
ابن بختيار الخلجى ثانى قواد الغوريين بالهند صوب الشرق ففتح
بهار ونفذ إلى البنغال . ومن عجب أن تجمع الروايات على أن جند
الامير الخلجى لم تسكن تعدد فى هذه الفتوح بضع مئات .
هذا وكان لإقليم بهار (قهار) ، الذى استولى عليه محمد بن
بختيار ، هو الإقليم الهندى الوحيد الذى صادفت البوذية فيه
ازدهارا كبيرا بفضل الرعاية العظيمة التى كان يحبوها بهاملوك
أسرة پالا الهندوكية . وظلت هذه العقيدة رائجة فى هذه الإمارة حتى
اقتحمها القائد الخلجى فخر ب معابدها واستولى على ما كان بها
من أموال وكنوز .

وتابع هذا القائد زحفه من بعد فتح هذه الإمارة فى ثمانية عشر
رجلا من رجاله ، ليس غير ، بلغ بهم نادية عاصمة البنغال
عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ، وكان عليها ملك شيخ من أسرة سينا^(١)

يُدعى لكشمن سنا عرف برعايته العظيمة للفنون والآداب .
وفتح الحراس بوابة المدينة للوافدين وقد خُيِّل إليهم أنهم من تجار
الخيول فلم تخالجهم أدنى ريبة في أمرهم . هنالك اتجهت العصبة
الغازية من فورها إلى قصر الراجا ، فما إن بلغ أذن لكشمن
العجوز صريح الضحايا من رجاله بخارج إيوانه ، وكان يتناول
غذاه ، حتى هب لوقته فاتخذ سبيله إلى دكتا هاربا .

ولم يغادر محمد بن بختيار المدينة إلا بعد أن خر بها تخريبا تاما ،
ومن ثم تركها إلى الكهناتى فاتخذها قاعدة له ، وصلى فيها بالناس
ودعى في الخطبة للسلطان الغورى ، وضرب السكة باسمه .

كذلك خرج قطب الدين أيبك عام ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م لحرب
برمردى ، أمير بُند الخُشد ، فانترع منه حصن كلنجر ، امنع نلاع
الهند اذ ذاك واشدّها بأسا . ثم اردف ذلك بالاستيلاء على بداون
وكالبي .

وبهذا خضع شمال الهندستان كله ومعه اقليم كَو اليار لسلطان
الغوريين خضوعا تاما^(١) .

واطمأن محمد الغورى إلى ترك أملاكه بالهند فى أيدي
قواده الأتماء الأقوياء ، فأخذ يتطلع إلى بلاد ما وراء النهر ومدن

إيران الزاهرة . فاندفع يغزو خوارزم عام ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م ،
ولكنه أصيب هناك بهزيمة شديدة أخذ على أثرها كثير من
الولايات والقبائل الخاضعة لنفوذه تعلن الخروج عليه ، حتى
أقفلت غزته نفسها أبوابها في وجهه .

ولم يقف الأمر عند استيلاء تاج الدين يلدز ، أحد قواده
الذين خرجوا عليه ، على غزته والاستقلال بها ، بل سار أحد
القواد الغزنويين بدوره ، ببراءة مزيفة ، إلى الملتان حاكما عليها ، كما
انقلبت قبائل الكهكر بالپنجاب تعيث في الأرض فسادا .
على أن محمد الغوري ما لبث بمضاء عزمته أن استرد غزته
والملتان بعد قليل ، كما أفلح قواده بالهندستان في إخضاع الخارجين
عليه من جديد .

وراودت السلطان الغوري ، كرة ثانية ، أحلامه بالتوسع غربا
برغم ما أصابه من خسائر فادحة كادت تقضي القضاء التام على
سلطانه . وفيما كان يمهّد لهذا الأمر ويعدّ له عدته ، اغتاله أحد
الهنادكة ، عند نهر جهلم وهو في طريقة من لاهور إلى غزته ، ففقد
في شعبان ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م ^(١) .

١ — طبقات ناصري لنهاج المراج أبي عمرو عثمان (الترجمة الانجليزية لرافرتي)
ص ٨٥٤ ، ٨٥٥ .

ولئن كان محمود الغزنوى قد مهد بغزواته الهندية الطريق
أمام خلفائه من السلاطين وجعل لجند المسلمين المهابة والرهبة
أينما زحفوا وحشما حلوا ، فإن محمدا الغورى هو الذى ثبت أقدام
المسلمين كذلك فى شمال الهند بأكمله ، وأقام الحكم الإسلامى
هناك ، بفضل رجاله ، على أساس ثابت وطيد . وهو أمر لم يتح لمحمود
من قبله . إذ كان الغزنويون عموما ، فضلا عن خلو رجالهم من
كفاءة الإدارة والتمرس بالحكم ، عجائز على إثر كل فتح بالعودة إلى
منازلهم ومعهم من كنوز الهند ما بهرهم وسحر البياهم
وعلى أيدي رجال الغورى بدأ الحكم الحقيقى للمسلمين بالهند .
فقد تحول الغزاة إلى الاستقرار والإقامة الدائمة بالبلاد التى فتحوها ،
وبهذا احتفظت الهند بأموالها وثرواتها فى نطاق شبه القارة نفسها ،
فلم يعدو الأمر انتقال أجزاء منها من أيدي الهنادكة إلى أيدي
المسلمين الذين صار لهم هناك دولة قوية مرهوبة الجانب وسبعة
الرقعة عظيمة السلطان .

دولة المماليك

لم يترك السلطان معز الدين محمد بن سام الغورى وريثا للعرش من بعده ، إذ يذكر عنه الماورخ منهاج السراج أبو عمرو عثمان ، صاحب طبقات ناصرى ، أنه كان يقول ، بأن الله قد عوضه عن الأبناء بمواليه المحاصرين من الأتراك يحافظون على ملكه ويجرون الخطبة بذكره فى كافة أنحاء سلطنته .

ونصب قطب الدين أيبك نفسه سلطانا على الهندستان فى عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م عقب وفاة مولاه محمد الغورى^(١) .

وكان أيبك هذا فى طفولته مملوكا لقاضى نيسابور الذى ضمه فى الدرس إلى أولاده ، فقرأ معهم علوم الكتاب والسنة ، كما نبغ فى الفروسية وركوب الخيل ، واشتهر بالشجاعة والمروءة .

وحين مات القاضى بيع المملوك إلى أحد التجار الذى عرضه بدوره على السلطان محمد الغورى . وكفلت لأيبك خصاله الحميدة أن ينال الحظوة عند سيده الجديد حتى بلغ مرتبة القيادة . وزاد من

قدره عند السلطان عظم وفائه وإخلاصه حين بادر من فوره لنجده على أثر الكارثة التي نزلت بجيوش الغوريين عند أبواب خوارزم وما نتج عنها من انتفاض أمراء وقبائل كثيرة على صاحب غزته . وعرف له سيده فضله هذا كله فكافأه عليه بتشيته نائباً له على أملاك الهندية التي كان له اليد الطولى في توسيع رقعتها حتى صارت تمتد من البنغال شرقاً إلى آخر حدود البنجاب غرباً .

وبادر سلطان الهندستان الجديد من فوره ، إلى إقامة علاقات طيبة مع زملائه من الأمراء والقواد المماليك ، فبنى ، في سبيل تحقيق ذلك ، بأخت تاج الدين يلدز ، وكان أيبك قد استرد غزته منه ثم عاد فردها إليه كراماً منه . كما زف ابنته إلى التيمش وأصهر كذلك إلى قباچه ، وكان كلاهما من زعماء المماليك الغوريين .

واشتهر قطب الدين في حكمه بإقرار الأمن في كافة نواحي بلاده ، وحرصه على قيام العدل بين الناس مع حسن معاملته للهادكة خاصة .

وقد بنى بالهند مسجدين كبيرين أحدهما بدهلي والآخر بآجمير . وسقط به جواده سقطه قاتلة عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م خلفه شمس الدين التمش أحد قواده ، وكان من مماليكه وأصهاره كما ذكرنا من قبل ، في حين استقل قائده قباچه بالملتان والسند ، كما تولى

الخليجيتون الأمر في بهار والبنغال ، وكانوا هم أيضا بدورهم من رجال السلطان محمد الغورى .

على أن أمراء آخرين من رجال الغورى ، ومعهم طائفة من أتباع السلطان الراحل قطب الدين أيبك ، لم يتقبلوا هذا الوضع الجديد بقبول حسن ، فلم يرضوا بأن ينصب عليهم سلطان ذو في الواقع مملوك مملوك .

وإلى جانب هؤلاء الذقين ، كان هناك جملة من أقبال الهندكة ، الذين اغتصب المسلمون أراضيهم ، مازالوا يرون في سيادة المسلمين بلادهم مجرد محنة عابرة ، عليهم ألا يغفلوا أبدا عن انتهاز أى فرصة تلوح لهم للخلاص منها .

لكن التمس بدوره عرف كيف يواجه جميع مصادفه من مشاكل وصعاب في حزم وقوة . فما إن أقر الأمور في سلطنة دهلى وتوابعها بيداون وأوده وبارس وسواك ، حتى خرج إلى البنجاب الذى أغار عليه يلدز ، فهزمه وناصر الدين قباچه حاكم السند واستولى على الإقليم كله .

ذلك أن يلدز هذا كان قد خرج من غزنة ، التي ثبت ملكه بها ، في غزوات ناجحة فيما وراء الهندكوش حتى بلاد خوارزم التي استعصت عليه ، ومن ثم استدار إلى الهند . على أن التمس مازال

يطارده حتى أسره ثم قتله ، كما رد قباجه إلى إمارته المسلوقة بعد أن تعهد بالولاء له

كذلك أفلح التمش في القضاء على جميع الفتن التي أثارها بعض أمراء الهنادكة على إثر وفاة السلطان إيبك سالف الذكر .

ولم يكن جميع ما تعرض له التمش من متاعب ، ليتعد شيئا المذكور بالقياس إلى الخطر الداهم الذي أقبل على الهند في ركاب المغول حين ظهروا عند حدودها عام ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م بقودهم الخن الأعظم چنكيز . وكان هؤلاء قد خرجوا من ديارهم بصحراء جوبي ، فكنسحوا فيما اكتسحوا بلاد ما وراء النهر وخرّبوا أغلب مدنه الزاهرة وقتلوا كثيرا من أهله .

والقد اجتاحوا ، فيما اجتاحوا ببلاد ما وراء النهر ، مملكة خوارزم التي كانت تمتد إذ ذاك من خيوة إلى سمرقند وبخارى ويدخل في دائرة نفوذها هراة وأصفهان . هذا وكان خصام أميرها مع المغول من أسباب تعجيل الأخيرين بزحفهم على البلاد الإسلامية .

ولجأ جلال الدين ، آخر سلاطين خوارزم ، إلى الهندستان هربا من وجه هؤلاء الغزاة ، فتعقبوه وساروا في أثره حتى أنزلوا به

هزيمة حاسمة على ضفاف السند (١).

هذا وكان جلال الدين، حال وصوله السند، قد بادر بالكتابة إلى النش يسأله الالتجاء عنده بدهلي بعض الوقت . لكن الأخير خاف مغبة ما قد يؤدي إليه نزول شاه خوارزم عنده من التفاف الجند الأتراك حوله ، وكانوا في دهلي كثيرين ، فبعث يعتذر إليه متعللاً بما قد يجلبه له حر الهند من متاعب صحية لا قبل له باحتمالها . هنالك لم يجد جلال الدين بداً من منازلة المغول . وحالفه التوفيق أول الأمر فأشاع الاضطراب في صفوف عدوه . لكن جموعهم المتدفقة سرعان ما عاودت حملاتها العنيفة فلم 'تكتب النجاة إلا لسبعة آلاف من الجند الخوارزمي من بين الثلاثين الفا الذين كانوا يحاربون تحت لوائه .

واستطاع السلطان ، في فريق من رجاله ، أن يعبر السند تحت وابل من سهام العدو في شجاعة وجرأة ، فانقض من فوره على قباچه ، وإلى السند من قبل دهلي ، فأسره وحبسه في حصن الملتان ثم أخذ ورجاله يعملون السلب والنهب في الإقليم كله .

على أن الأجل لم يمتد من بعد ذلك بجلال الدين . فقد أنبى باستعداد جند العراق لشد أزره وعونه ، فسار ، على هدى

أمله الجديد ، إلى إيران ليقع في الطريق بأيدي بعض الناقين فيقتلوه .

وكان من حسن طالع الهند أن جيوش المغول لم تطلق حرها فاستدارت صوب الغرب من جديد لتنجو هذه البلاد من جحافلهم وشروهم .

هناك تنفس التمش الصعداء ، فراح يعمل على إخضاع الخارجين على حكمه . ذلك أن الأمير غياث الدين الخلجي ، وكان من أحسن الأمراء المسلمين سريرة بالهندستان ، كان قد بسط نفوذه على چاينكر وكروب وترهوت وجور إلى الشرق من دهلي وأعلن استقلاله بها . وقبل هذا الأمير مهادنة التمش أول الأمر على جزية كبيرة دفعها له ، كما أعاد قراءة الخطبة باسمه . لكن جند دهلي ما كادت ترجع عنه حتى انقض على إقليم بهار فاستولى عليه وسرعان ما سار إليه ناصر الدين محمد شاه ، حاكم أوده من قبل دهلي ، فهزمه وقتله ، كما أوقع في أسره جميع أعوانه من الخلجيين ، وأخضع كافة الأراضي الممتدة حتى السكهاوتى ورتنهور ومندوار .

هذا وكان قباچه بدوره قد استطاع ، بعد زوال الخطر المغولي ، أن يسترد الملتان لنفسه من جديد . ومالبت قواته أن تضاعفت

على أثر هزيمته لجند الخوارزميين والخليجيين الذين كانوا يطمعون في أراضيه وطردهم منها . حتى أوجس صاحب دهلي خيفة منه ، فأوعز إلى نائبه في لاهور بالزحف على الملتان ، في حين خرج هو بنفسه على رأس جيش قوى إلى أوكا مقام خصمه . هنالك لجأ قباچه ، بجنده وأمواله ، إلى قلعة بهكر فتحصن بها . ومالبت أن قضى غرقا في السند بعد قليل وهو يحاول عبوره هربا من وجه عدوه .

وكان أن أعلن الخليفة العباسي المستنصر بالله عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م تهيئته لالتمش ، على عرش الهند ولقبه بناصر أمير المؤمنين ، فكان من أثر هذا الإعلان أن قوى مركز صاحب دهلي بين مسلمي الهند قوة عظيمة وممكن من نفوذه بينهم . وقد قابل التمش صنيع الخليفة هذا بتقديمه في الخطبة عليه وضرب السكة باسمه .

واغتم التمش فرصة تأييد الخليفة له فخرج يبغي القضاء على خصومه وتوسيع رقعة ملكه . فهزم الخليجيين في المناطق الشرقية مرة أخرى ، وكانوا قد سارعوا باسترداد نفوذهم القديم عقب وفاة ناصر الدين محمد شاه في البنغال . هذا كما خرج إلى كواليار فاستردها من الأمير الهندوكي منجال ديوا وأرغمه على الفرار منها . كذلك استولى التمش على مالوه ، فدخل حصن بهيلسا ثم رحل

نه إلى أويان عاصمة فكر ماديتا القديمة فحطم ما كان بمعابدها
من أصنام مشهورة ثم آب إلى عاصمته .

وكان من أثر هذه الحروب ، التي ظل هذا الساطان يمارسها مدى
ربع قرن من الزمان ، أن أنهكت صحته . فقضى بدهلى فى شعبان
من عام ٥٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م بعد أن أرسخ نفوذه فى كافة الأقاليم
لتي فتحها سلفه وسيده قطب الدين أيبك .

هذا والمعروف أن حروب التمش على كثرتها لم تمنعه من أن
يبدى رعايته إلى المشتغلين بالعلوم والفنون . وقد لاقى فى عهده فن
لعمارة بالهند ازدهاراً كبيراً . ومن آثاره الباهرة منارة القطب
دهلى التي يبلغ ارتفاعها ٢٤٢ قدماً والتي تعد من أروع العمار
للإسلامية بالهند قاطبة . وينسبها بعض المؤرخين خطأ إلى قطب
لدين أيبك . وحقيقة الأمر أن التمش قد أطلق عليها هذا الاسم
نسبة إلى ولى بغدادى ، يدعى قطب الدين ، تبركا .

وقد أفاض صاحب طبقات ناصرى فى ذكر فضائل هذا
لسلطان ، وكان معاصراً له ، وذكر الكثير عن شدة تقواه
وعدله وبره برعاياه . وأوصى التمش قبل موته بالملك لابنته رَضِيَّة
ون أبنائه من الذكور الذين لم ير من بينهم من هو جدير بحكم
لهند . لكن رجال البلاط ما لبثوا أن عهدوا بالملك إلى الأمير

رُكن الدين فيروز شاه أحد أبنائه ، لانتهاز شاة ترکان فرصة
انصراف ابنها السلطان الجديد إلى الاستمتاع بمباهج الحياة
وملذاتها فتستأثر بـتصرف شتون البلاد في استبداد أدى إلى إثارة
ثائرة الأمراء في أوده وهنسى وبداون والملتان ولاهور . وجرى في
خاطر أم السلطان المستبدة أن تكون الأميرة رضية من وراء هؤلاء
الأمراء في خروجهم عليها ، فحاولت ، في وسط هذه الاضطرابات ،
أن توقع بها ، لكن تأمرها بآء بالفشل فقضى عليها وعلى ابنها .
هنالك التف الأمراء حول السلطانة رضية من جديد وأجلسوها
على عرش أبيها ، فاستطاعت بما أوتيت من حسن السياسة والحزم
أن ترغم على طاعتها جميع الأمراء ببلادها . ومن غرائب المفارقات
أن عدادف حكمها بالهند تولى شجرة الدر ، قاهرة الصليبيين ،
الامر بدورها في مصر .

على أن هذه السيدة التي قادت بنفسها حملات عديدة ناجحة
للقضاء على عصيان الأمراء من مسلمين وهنادكة ، والتي كانت
تجوب الأسواق في ملابس الرجال وتجلس إلى الناس تستمع إلى
شكاوهم ، غلبتها أنوثتها آخر الأمر فتعلق قلبها بأمر الخيل في
بلاطها ، وكان عبدا حبشيا يدعى جمال الدين ياقوت (١) ، فأثارت

بذلك عليها حفيظة الأمراء جميعا ، فقتلوا ياقوت ثم انقلبوا
يحاربونها بزعامة أخيها بهرام شاه .

وبرغم توصلها بدهاتها إلى كسب بعض القواد إلى صفها ،
إلا أنها أصيبت آخر الأمر بالهزيمة . وفيما كانت تهيم على وجهها
فرارا وقعت في أيدي عصابة من الهنادكة فقصوا عليها .

على أن بهرام شاه ما لبث بدوره أن سلك سبيل الشدة في
حكمه . حتى إذا ما أقبل المغول عام ٨٦٣٩ / ١٢٤١ م على البنجاب
استطاعوا أن يخربوا لاهور ، دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ،
وذلك بسبب نفور القواد المسلمين بالهند من سلطانهم واستبداده
وطغيانه حتى اجتمعوا عليه آخر الأمر فقتلوه .

وولى الأمر من بعده علاء الدين مسعود شاه حفيد التمش .
وفي عهده دخل المغول الهند من جديد ، عام ٨٦٤٣ / ١٢٤٥ م ،
بقيادة مانكو وتوغلوا في السند حتى تصدى لهم بلبسن قائده ،
فردهم عن سلطنة دهلي بعد أن أنزل بهم خسائر فادحة . وإلى هذا
القائد يُرد أيضاً الفضل في القضاء على ثورات الحكام المسلمين في
كواليار وچندرى ومالوة ونروا .

وبرغم أعمال هذا القائد الباهرة فقد أفلحت الوشايات في
إقصائه عن بلاط دهلي بضع سنين .

وخلف ناصر الدين محمود شاه أصغر أبناء التمش أخاه
علاء الدين بعد عزله ، فانصرف إلى مصاحبة العلماء والدرائش
تاركاً حجب الحكم كله على أكتاف وزيره القائد بلبن الذي اضطلع
به في قدرة وكفاءة تامة . وحين وافى السلطان أجله عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م
رقى الوزير العرش مكانه .

ينتسب غياث الدين بلبن هذا إلى قبيلة إلبارى التركية التي كان
من أبنائها التمش نفسه ، وكان أبوه من بين زعمائها وشيوخها
المقدمين .

ولكن حدث أن سقط بلبن بأيدي المغول في إحدى
غزواتهم ، وكان إذ ذاك في صدر شبابه ، فبيع بالبصرة إلى من
يدعى خواجه جمال الدين ، فأحسن مثواه ثم صحبه معه إلى دهلي
حيث باعه بدوره إلى شمس الدين التمش سلطانها إذ ذاك ، فلم يزل
يرقى بمجده واجتهاده حتى غدا من خاصة حرسه المقربين .

وبلغ بلبن مرتبة أمير الصيد عند الملكة رضية . حتى اذا
ما ثلر أمراء الدولة في وجهها لما شاع من أمر كلفها بأمير خيلها
يلتزم الحبشى ؛ — بادر من فوره بالانضمام إليهم وبذل الجهد
لنصرتهم .

واعترف له السلطان بهرام ، حين خلف أخته رضية ،

بصادق عونه وإخلاصه فولاه رِوارى وضم إليها بعد قليل ولاية هنسى ، فانصرف إلى إدارة هاتين الإمارتين إدارة حكيمة استقام معها حال الأهلين وتقدمت الزراعة عندهم وراجت أحوالهم الاقتصادية .

وأقبل المغول بقيادة مانكو على الهند عام ١٢٤٣ هـ / ١٢٤٥ م فغزوا السند وحاصروا حصن أوكا ، فكان بلبن ، دون سائر الأمراء الآخرين ، هو الذى أنبرى لهم وحده حتى أوقع بهم هزيمة قاصمة ، ارتدوا على أثرها من الهند سراعا تاركين وراءهم ما كان بأيديهم من أسرى كثيرين ما بين مسلمين وهنادكة .

وقد لهذا القائد القدير الوزارة فى عهد السلطان ناصر الدين محمود ، الذى عرف بانصرافه إلى أهل التصوف والأدب ، فطفق ينظم شئون الدولة فى حزم بالغ . حتى إذا ما تم له ذلك ، انطلق يبعث تأمين سلطان دهلى ويثبت من هيبتها ، فعبر على رأس قواته نهر راوى ، أحد روافد السند ، إلى منازل الكهكر وغيرها من القبائل النائرة فاقطمها عليهم . كما خرج كذلك مرات عديدة إلى الدواب فقمع الفتن التى كان يثيرها أمراء الهنادكة بها ، واستولى على حصن تلشنده فى قنوج ، وأخضع رانا ملكى مع كافة الأراضى الواقعة بين كالنجر وكره .

هذا كما استخلص كذلك موات ورنتنهور من أيدي هنادكة
الراچوتانا ، في حين أوقع قائده شير شاه في أسره عز الدين زعيم
الثوار عند أوكا . فلم ترجع جيوش دهلي إلى قواعدها في ربيع الأول
من عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م حتى كانت ككواليار ، جندري ومالوه
ونارور قد دانت جميعها للسلطان وناله منها أسلاب وأمول طائلة .
وتنفّس فريق من الأمراء والقواد على بلبن أعماله الباهرة
هذه فاتهبوا فرصة خروج السلطان إلى الملتان وأوكا دون قائده
الأكبر فاقبلوا ، بزعامه القائد عماد الدين ريحان ينصبون شبك
الدرس له عند سيدهم حتى بلغوا غايتهم فأبعد بلبن إلى إقطاعه عند
سولك وهنسي ، واستُبدل به الوزير محمد جنيدى ، في حين رقى
القائد ريحان إلى منصب الحجابة .

ولم يكن أمراء الترك وقادتهم بيلاط دهلي ليقبلوا ، في بساطة ،
الخضوع لهندوكى قريب العهد بالإسلام مثل القائد ريحان . فسرى
التذمر بينهم إلى كافة أرجاء البلاد ، وانهالت رسائل الحكام
والأمراء على مقام السلطان بطلب إقصاء هذا القائد عن شئون الدولة .
وتفاقم الحال بالتفاف أمراء كره وما نيكبور وأوده وترهوت
وبداون وسمانه وكوهرام وسونام وتبار هنداه وإقليم سواليك
حول الوزير المعزول . وما عثم أن انضم إليهم من الأمراء السكبار

أُلُفَّ خان وجلال الدين مسعود شاه فزحفوا جميعا على رأس قواتهم إلى العاصمة .

ولقد كان حربيا بالقائد ريجان أن يبادر من فوره بالتخلي عن منصبه حقنا الدماء ، لكنّه ركب رأسه وحمل السلطان على الخروج بجيشه حيث دارت الدائرة عليه عند تبار هنداه فأرغم على إبعاد حاجبه إلى بداون .

ورُد الوزير القديم إلى منصبه ، فاستقبلته العاصمة ، في ذى الحجة من عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م ، استقبال الغزاة والفاتحين بعد غياب استغرق عامين من الزمان .

وشمّر بلبن عن ساعد جده المعهود فقضى على فتن الدوآب المتكررة وأقر الأمور في أوده والسند حيث كان فُتِلُفَّ خان زوج أم السلطان ومعه القائد عز الدين بلبن قشلوخان وفريق من أمراء الهنادكة قد جنحوا هناك إلى نبذ طاعة السلطان وإعلان العصيان .

وأقبل المغول على السند من جديد ، عام ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م يقودهم نوبين سارى ، فما إن أحيطوا بتدبير الوزير القائد لنزالهم حتى ارتدوا على أعقابهم من حيث أتوا .

وكان آخر وقعة كبيرة ذات خطر خاضها الوزير بلبن هي التي

خرج فيها عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٩ م للقضاء على ثوار الهنادكة الذين راحوا بزعامة أميرهم مملكا يعملون السلب والنهب في قرى سوالك وبياتنه وهربا، إلى جانب إتهابهم لأملاك المسلمين في موات، فلم يردم عن غيهم منازلهم من ضربات شديد قبل ذلك بسنوات ثلاثة على أيدي ألغ بك أحد قواد دهلي . وأفلح الوزير في تطهير المنطقة كلها ثم عاد إلى العاصمة ليقف إلى جانب سلطانه في استقبال مبعوث من لدن هولاكو خان المغولي حفيد چنكيز خان .

وهكذا أظهر بلبن في الفترتين اللتين ولى فيهما الوزارة جدارة فائقة في تصريف أمور الدولة وإقرار النظام فيها والأمن والقضاء على كل ما كان يهددها من أخطار سواء في الداخل ، حيث قضى على عصيان الأمراء في الدواب والسند، أو في الخارج حيث دفع عنها عدوان المغول وحسن حدودها الشمالية الغربية في وجههم . ورقى غياث الدين بلبن عرش الهند على أثر وفاة السلطان ناصر الدين كما ذكرنا من قبل ، فعمل على أن يسترجع لمنصب السلطنة سابق هيئته ونفوذه الذي زعزعه ضعف السلاطين من أبناء التمش من جهة وازدياد سطوة المماليك الشمسين أتباع التمش من جهة أخرى ؛ هذا إلى جانب الخطر المغولي الذي ما برح يطل على السند من آن لآخر .

وفي سبيل تحقيق هذه الأغراض جميعها أعاد بلبن تنظيم قواته وتوحيدها حتى تمكن بها من إقرار الأمن فيها حول عاصمته وفي الدواب والبنجاب . ومن ثم وجها لدفع خطر المواتين ، وكانت عصا باتهم قد تفاقم أمرها بدرجة مخيفة حتى طفت تهدد دهل نفسها ، فلم يزل جنده تطاردهم وتدمع بهم في الأدغال والغابات حتى طهرتها منهم تماما . كذلك عمل بلبن على تأمين الطرق والمسالك في أنحاء بلاده من عبث اللصوص وقطاع الطرق وكانوا من الكثرة بدرجة مخيفة ، لاسيما في الدواب ، حتى كان يستحيل في أغلب الأحيان نقل المؤن والبضائع من موضع إلى آخر بأمان .

ودعم السلطان عملياته الكثيرة هذه بإقامة كثير من المعازل والحصون في مختلف أنحاء البلاد وتعميرها بالجند والسلاح ، كما أمر بشق كثير من الطرق عبر الأدغال والأحراش .

هذا وقد استعان بلبن على ضبط الأمور ، في مملكته المترامية الأطراف ، بشبكة محكمة من الجواسيس كانت توافيه بكل ما كان يجري في البلاد من حوادث وما كان يزع إليه عماله من تصرفات في دقة وسرعة وتفصيل تام .

وبلغ من حرص صاحب دهل على إلزام عماله جادة الصواب والعدل أنه لم يتردد في الاقتصاص من أكثر من واحد منهم في

عذب وشدة حين بلغه قتلهم بعض السكان ظلما .
على أن بلبن ، برغم ما كان له من جند كثيف على التدريب ،
فقد لبث في هم مقيم خوف قدوم المغول . فلزم عاصمته موجهها
كل جهوده إلى تأمين حدوده بإزاء غزوات جحافل هؤلاء البدو
الآسيويين غلاظ الأكباد ، الذين أنزلوا الخراب والدمار بأغلب
بلاد المسلمين . فهام أولاء فداقتهم بهم خانهم هولاء ، حفيد
چنكيز ، بغداد مدينة الخلافة فدكوها على أهلها وقتلوا المستعصم
أمير المؤمنين بها شرقلة . وهام بالهند قد احتلوا إقليم لاهور ثم
راحوا في غاراتهم ترى يكتسحون أرض السند والبنجاب .

وبلغ من فرط تحوط سلطان دهلي وشدة حذره أن أبعد عن
بلاطه كل من كان يخالجه أدنى شك في إخلاصه له ، حتى عزل في
سبيل ذلك جميع الهنادكة عن مناصبهم . وأصبحت موارد الدولة
كلها وجهودها وقفا على تحصين البلاد ووقايتها من خطر المغول .
وكان من ذلك أيضا أن عهد إلى ابنه ، محمد و بؤغراخان ، بالمراطة
في الملتان وسمته أقرب مراكز الحدود الشمالية تعرضا للخطر ،
وأمدهما بجيوش قوية حسنة التدريب .

وجرّ على بلبن لزومه عاصمته ، دون الخروج منها للغزو
والجهاد على سنة أسلافه ، كثيرا من المتاعب في مختلف ولايات

الدولة لاسيما ما كان منها على مبعدة من مقره . بل أن هيئته بدأت تقل في أعين سكان دهلي نفسها الذين لم تعد تهز أسماعهم أبناء الانتصارات السلطانية أو يشاهدوا عساكر المسلمين خارجة للغزو والجهاد .

وأرغمت اضطرابات البنغال بلبن آخر الأمر على الخروج من عاصمته . ذلك أن أميرها طغرل كان قد جهر باستقلاله بعد أن أوقع بحملات دهلي إليه مرات متكررة (١) .

هذا والواقع أن نفوذ دهلي في البنغال كان قد طفق يتضاءل عموما منذ حكم الخلجيين هناك . وساعد أمراء هذا الإقليم على نبذ طاعة دهلي بعود بلادهم الشاسع عنها مع سوء المواصلات معها ورداءة الطرق إليها ، فضلا عن انتشار الملاريا بها انتشارا وبائيا شديدا .

ولقد أتيح لألتمش من قبل أن يقر الأمور في هذا الإقليم قنأ ما حتى نصب عليه ابنه . لكن الأحوال مالبثت بعد موته أن عادت هناك إلى سيرتها الأولى نتيجة للاضطراب والنفك الذي دب إلى الحكومة المركزية في دهلي بما فصاناه من قبل .

١ - رياض السلاطين اوتاديج بنكالة - لغلام حسين سليم . كلكته ١٨٩٠م

وزين لطغرل خان نائب بلبن على هذا الإقليم ، مستشاروه
خلع طاعة دهلي ، وقد خيل إليهم أن السلطان قد شارف على
الهلاك لشيخوخته ، في حين شغل ولداه بقتال المغول فلا قبل
إذن لأحد بالمسير إليهم .

ودفعت بهذا الأمير أطماعه إلى مهاجمة چاچنكر ، فأنهبها
واستولى فيها على أسلاب ثمينة طائلة . ومن ثم راح يجهز باستقلاله
فاتخذ لنفسه لقب السلطان مغيث الدين وأمر بضرب السكة وقراءة
الخطبة باسمه ، ثم راح يفيض على رجاله بما استحوز عليه من
الغنائم جلبا لولائهم ورضائهم .

وبعث بلبن ، أول الأمر ، بقائده آبتكين المعروف بأمر خان
إلى البنغال فأصيب بهزيمة شديدة انفرط على أثرها عقد الجند ،
فنهزم من بادر بالانضمام إلى صفوف المنتصر ومنهم من ركب
طريق الفرار . وبلغ من شدة انفعال بلبن وفرط غضبه ، حين
بلغه خبر هذه الهزيمة ، أن أمر بقائده أمير خان فشئق على أسوار
أوده ، مركز إقطاعه ، فجاءت قسوة هذا الإجراء مذهلة لرجال
الدولة مشيرة لقلقهم .

وسير بلبن حملة ثانية إلى البنغال لم يكن نصيبها بأفضل من
نصيب سابقتها . ذلك أن طغرل كان على أثر انتصاره قد زحف

خارج حدود بلاده حتى بلغ لكهناتوق فانقض على جيش
دهلي فأباده .

هنالك بلغ ارتباع السلطان أشده ، فقرر لوقته الخروج بنفسه
إلى البنغال . فعهد بشتون الدولة إلى ملك نغر الدين ثم قصد إلى
سمانه وسنام فطلب إلى ابنه بُغراخان أن يصحبه فيما اعتزم عليه
من حرب ، في حين أوصى ابنه الآخر محمداً بزيادة الالتفات إلى
مايده من أقاليم ، وأن يرقب الحدود بعين ساهرة حذر المغول .
وبرغم عنف موسم الأمطار وكثافة الوحل وكثرة المستنقعات
فقد جذت السلطان السير . حتى إذا بلغ حاضرة البنغال وجد أن
طُغرل قد غادرها فراراً إلى چاچنكر وقد صحب معه كنوزه
وصفوة من رجاله الأشداء . هذا كما اختفى من لكهناتوق كذلك
أغلب أعيانها خوف بعاش السلطان ونقمته عليهم لتقاعدهم في الحد
من نفوذ الأمير البنغالي .

وأقسم السلطان ألا يبرح البنغال إلى دهلي قبل أن يوقع
بطغرل ، ولو اقتضاه ذلك ركوب البحر وراه . واستطاع رجال
المخابرات السلطانية آخر الأمر الإهنداء إلى معسكر الأمير الثائر
في نجبا يتوسط الغابات ، فسقطوا عليه في غفلة من الحرس .
وأصاب أحد الجند طُغرل بسهامه وهو يحاول عبور أحد المجارى

المائة هربا ، فقطع رأسه وأسرع بها إلى مقام السلطان .
ولم يرجع بلّبن إلى حاضرتة إلاّ بعد أن أنزل بسكان لكهناتوني
مذبحة قاسية لم تعرف الهند لها نظيرا في تاريخها إلا القليل .
وأوصى ابنه بغراخان ، بعد أن ولاه البنغال ، بسلوك طريق العنف
والحزم معهم .

وظل هذا الأمير وخلفاؤه من بعده يحكمون البنغال ماينوف
على نصف قرن ، في حين لم تستطع أسرة بلبن نفسها أن تحتفظ
بعرش دهلي بعد وفاة عميدها أكثر من سنوات ثلاث .

ولم يكتف السلطان بما أراق من دماء غزيرة في الأقاليم
الشرقية ، فبادر حال وصوله حاضرتة إلى القصاص من كل من
ثبت عليه أدنى اتصال بالثائر طغرل ورجاله .

هذا وكان بلبن قد وكل بابنه الأكبر محمد أمر الجهة الغربية كما
قلنا من قبل ، وكان بها حاميتان قويتان إحداهما بالملتان والأخرى
بسماته أقرب المراكز إلى المناطق التي كان يحتلها المغول .

وخرج هذا الأمير عام ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م لدفع خطر المغول
عن لاهور ودبپالپور فنالته رماحهم . وقد حزن أبوه عليه حزنا
شديدا عجل في نهايته بعد قليل .

ويُذكر عن هذا الأمير ميله الشديد إلى مجالسة العلماء .

والأدباء . وكانت ندواتهم عنده تدور على دراسة كتب الشعر والتاريخ والفلسفة كالأشاهنامة وديوان سنائي والخواقاني وخمسة نظامي . وكان من بين كبار رواد هذا الأمير شاعر الهند الكبير خسرو الدهلوي تلميذ نظام الدين أوليا .

وبعث بلبن على أثر هذه الكارثة إلى ابنه الآخر بُغراخان يدعوهُ إليه ليوليهِ عهدهُ ، ليُمكنهُ آثر البقاء بالبنغال بعيداً عن مشاكل الملك بالعاصمة . ومن ثم أوصى السلطان بالملك من بعده لحفيده كيخسرو ابن الأمير الشهيد محمد .

ولقد ولي بلبن عرش الهند أربعين عاماً حكم فيها البلاد بحزم ومقدرة عظيمة ، فدفع جحافل المغول عن حدودها كما قضى على كل ما شاع في ملكه من فتن واضطرابات كثيرة .

وأضفى هذا السلطان على بلاطه تقاليد راقية رفيعة فالزم حاشيته ورجاله دولته بمراسم معينة في لباسهم وفي سلوكهم ومناصبهم على السواء . كما ألزم نفسه ورجاله بالتمسك الشديد بأداب الإسلام وفضائله ، ونشأ أولاده عليها ، ودفع بنى قومه على التحلي بها ، حتى أيرُد المؤرخون صفوة عادات المجتمع الهندى اليوم وتقاليده الرفيعة إلى ما استنه منها هذا الأمير وخلفاؤه من بعده ^(١) . وشهر بلبن ،

إلى جانب ذلك كله، برعايته للعلماء والأدباء مع برّه الشديد بالناس جميعا لا فرق عنده بين مسلم وهندوكى، وإن كانت ظروف البلاد في حربها مع المغول قد دفعته اعتباراتها إلى إبعاد الآخرين عن مناصب الدولة.

وضرب رجال البلاط في دهلى صفحا عن مشيئة سلطانهم الراحل ووصيته لهم، فأجلسوا على العرش الأمير كيتقباذ بن بغراخان، فكان اختيارا غير موفق حمل في ثناياه نهاية هذه الأسرة.

ذلك أن السلطان الجديد لم يكن له من الجدارة ما يليق بسد الفراغ الكبير الذى تركه جده العظيم بعد موته.

ولئن كان هذا الأمير قد نُشئ في الواقع تنشئة طيبة منذ حداثة، وجهد القائمون على تربيته في تثقيفه تنقيفا عاليا وبث الفضائل وحيد الخصال في نفسه :- إلا أن توليه العرش في سن المراهقة، اذ لم يكن يعدو السابعة عشرة، دون وجود نصحاء مخلصين له من حوله، قد أسّس قياده لزمرة من أصحاب الأهواء أخذوا يزينون له الاستماع بمباهج الحياة وعبثها، حتى استجاب لهم وانصرف عن شئون الملك بكليته إليهم،

واستطاع رجل من أصحاب الطموح والاطماع بالبلاط، يدعى

نظام الدين ، أن يستأثر بتصرف الأمور بتعصيد خنته نخر الدين أمير الجند بالعاصمة ، فراح ينتقص من حقوق الأمراء ويقصى عن مراكز الحكم أكفاءهم ، وفيهم أولئك الذين كانوا يخدمون الدولة بوفاء وجد وإخلاص منذ أمد طويل .

ومالبت نظام الدين أن تطلع إلى العرش نفسه . فهاهم أولاء الأمراء والقادة قد ألزمهم طاعته والخضوع لمشيتته ، وهاهو ذا بغير إخوان ، أقوى أبناء بلبن ، يقيم بالبنغال التي تبعد عن العاصمة مئات الأميال فلا سبيل يسيرا له إليه . فرتب خطته على أن يبدأ أولا بالتخلص من الأمير كيخسرو ، وهو الذي كان بلبن قد عهد إليه أصلا بالعرش قبل موته ، فما زال بالسلطان حتى زين له اغتياله وحمله عليه ، فقتل عند رهتان وهو قادم في طريقه من الملتان إلى دهلي تلبية لدعوة السلطان ، وحين أثار مقتل هذا الأمير سخط رجال الدولة ، برز نظام الدين يلقي بالتبعة على خواجه خاطر وزير السلطان ، فذل به شمر تمثيل وطؤف به المدينة على حمار ثم قُتل . ولقى في هذه الفتنة كذلك جملة من رجال بلبن المخلصين نفس المصير بتدبير من هذا الأمير الذي عرف كيف يجعل من السلطان أداة طيعة لتنفيذ مآربه وتحقيق أغراضه وأهدافه .

ونظر نظام الدين ومعه خنته نخر الدين فرأيا معارضيهما

والساخطين عليهم بلوذن بالأمراء الخلجيين ويتطلعون إليهم في هذه المحنة الجارية. فخرما أمرهما على الإيقاع بهؤلاء الأمراء الذين، فضلا عن توابعهم لمنصب هامة في الدولة، كانوا وآباؤهم هم الذين أرسخوا فتوحات المسلمين في البنغال والأقاليم الشرقية .

ولقد حاول بُغراخان صاحب البنغال أن يرد السلطان إلى صوابه فالتقى به في جيش كبير عند أوده ، لكنه لما لبث أن ارتد بعد قليل إلى طريقه القديم حتى انتهى به انغماسه في العبث والمجون إلى الإصابة بالفالج .

وأدى اضطراب الأحوال وتناحر الأمراء فيما بينهم إلى أن ذهب فريق منهم إلى حريم القصر فأتوا بغلام من أبناء السلطان المريض ورفعوه على العرش .

هذا وكان الأمراء الخلجيون بدورهم قد أحسوا بما كان يدبر لهم في الخفاء فخرج بهم زعيمهم جلال الدين فيروز مع أتباعهم وجندهم إلى ظاهر العاصمة .

هنالك حسبها الأمراء الأتراك بدورهم فرصة سانحة لخلاص الأمر لهم . لكن أبناء الأمير فيروز الخلجي سرعان ما أحبطوا خططهم باختطاف السلطان الصبي والفرار به إلى معسكرهم .

وإن هي إلا أيام قليلة حتى أجتاح الخلجيتون المدينة بجندهم

فقصده فريق منهم قصر المرايا، حيث كان كيقباز طريق الفراش،
فقتله رجل منهم انتقاماً منه لأبيه . وألقيت جثته بنهر چمنه في التاسع
عشر من المحرم عام ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م .
وبمقتل كيقباز انتهى أمر سلاطين المماليك وانتقل الملك إلى
أيدي الخيلجيين .

الْخَلْجِيَّوْنَ

يُرجع محمد قاسم هندو شاه ، صاحب تاريخ فرشته ، نسب
الخلجيين إلى الترك ، ويحتج على ذلك بترداد ذكرهم في تاريخ ملوك
غزنة خصوصا أيام حكم سبكتكين وابنه محمود^(١) . في حين
ينسبهم نظام الدين أحمد ، صاحب طبقات كبرى ، إلى قليسج خان
أحد أصهار جنكيز خان^(٢) ، حيث تقول الرواية بأنه نزل بجبال
الغور بعد هزيمة شاه خوارزم ثم حرق اسمه بعد ذلك إلى خلج
الذي ينسب إليه الخلجيون . ويقول بهذا الرأي كذلك ضياء الدين
باراني صاحب تاريخ فيروز شاه محتجا بسكراية الخلجيين للترك .
ومهما يكن الأمر فإن الخلجيين قد تأثروا بالبيئة التي عاشوا
فيها ، فصاروا يعدون أنفسهم أفغانيين أكثر من أى شئ آخر .

١ - تاريخ فرشته لمحمد قاسم هندو شاه — ص ٨٨ ، ٨٩
٢ لا تزال بعض قبائل الهزرا بمناطق بلاد الأفغان الجبلية محافظة على المقومات
الجنسية واللغوية المنولية غالبا حتى اليوم ، وقد نشر الأستاذ جايلنز بحثا
شيقا في هذا الموضوع بمجلة المستشرقين الانايبية XX Bd Zduy
S 326-8

وبدأ نجم هؤلاء الأمراء في الظهور بالهندستان أيام محمد الغورى وقطب الدين أيبك وشمس الدين التمش، فكانوا حكاما على البنغال والأقاليم الشرقية كما ولوا كذلك كثيرا من المناصب الرفيعة الأخرى فى الدولة . والتف الأمراء الأفغان حولهم بيلاط بلبن وخلفائه فى جهة تناهض نفوذ الترك الآخرين وغيرهم، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن ارتقى زعيمهم جلال الدين فيروز شاه عرش دهلى عام ٦٨٩ م / ١٢٩٠ هـ وكان فى السبعين من عمره . ولم يتقبل أهل العاصمة حكم الخلعيين أول الأمر بقبول حسن لفرط ما ارتكبته قواتهم معهم من ضروب القسوة من جهة ، ولإشاعة مقتلهم لسلطانهم المفلوج من جهة أخرى . ولكن السلطان الشيخ ما لبث ، بحسن سياسته وعدله ومودته ، أن تألف القلوب حوله من جديد . فقد أثر عنه أنه ، لفرط بغضه لإراقة الدماء ، كان يسكتنى بنفى قطاع الطرق إلى البنغال دون قتلهم . كما بلغ من تسامحه كذلك أن عفا عن ملك چجو ، ابن أخى بلبن وحاكم إقليم كرتة ، حين وقع أسيراً فى يده ، وكان قد زحف إلى العاصمة فى جيش كبير بدعوى أحقيته فى العرش ، فاكتنى فيروز شاه بخلعه عن إمارته وتنصيب ابن أخيه جلال الدين الخلعى مكانه .

ولم يكن تسامح جلال الدين وفقا على المسلمين دون غيرهم .
فقد خرج من عاصمته إلى جهات ومالوه بعد ما بلغه من انتهاب
راجا رتنهور لها ، فما إن رأى هذا الأمير الهندوكى يحتمى
بأحدى حصونه خوف بطشه حتى رجع عنه حقنا الدماء الرعية .
على أن بغض السلطان الحاجى الشيخ لإراقة الدماء لم يكن
ليقعده بطبيعة الحال عن الذب عن بلاده إذا ما اكتشفها
الاطار أو تهددها الغزو . فما إن عاد المغول إلى الهندستان
من جديد مهاجمين بها حتى تصدى لهم جلال الدين
وأزل بهم هزيمة منكرة أسرفها بضعة ألوف منهم أنزلهم بضواحي
دهلى . وهم الذين عرفوا هناك بالمسلمين الجدد . وقد صارت
محلهم مثابة للتأمر والاضطرابات التى جرت على دهلى كثيرا من
المتاعب فيما بعد .

وأذن جلال الدين لابن أخيه علاء الدين عام ٦٩٤ هـ / ١٢٥٤م
بالخروج إلى الدكن غازيا ، وكان هذا الأمير واسع الإطماع طموحا
فبيت فى نفسه أن يتعد عن دهلى ويقيم لنفسه هناك ملكا .
وبرغم ما كان معه من جند قليل لا يتجاوزون ثمانية آلاف
فارس ، فقد استطاع أن يغزو بهم إمارة ديوكرا الهندوكية الواسعة
ويهزم صاحبها رام چندرا وسنكره ديواثم عاد إلى مقره بكره

محملاً بغنائم طائلة كانت تضم فيما تضم أكدياساً من الجواهر الثمينة وأربعين من القبيلة وبضعة آلاف من رؤوس الخيل .

وطار السلطان فرحاً بما حازهُ ابن أخيه من انتصارات، وكان إذ ذاك في نواحي كوالبار ، فعزم على الخروج بنفسه للقائه .

وكاد جلال الدين يستجيب لتحذيرات بعض خلصائه وارتياهم في نوايا ابن أخيه . حتى إذا ما أقبل عليه الماس بك أمكغخان برسالة من علاء الدين يلوح له فيها بقتل نفسه أو أن يضرب وكنوزه في الأرض على غير هدى إذا ما عدل السلطان عن تشريفه بالقدوم إليه ؛ — أصم أذنيه عن مقالة رجاله برغم مزيد إلحاحهم عليه وتبهيرهم إياه بسوء نواياه ، فعزم على الخروج إليه من فوره .

وهكذا عبر جلال الدين الكنج في فئة قليلة من رجاله . فما إن بلغ مقام علاء الدين فأقبل يحبيه ، حتى انهالت ضربات السيوف عليه وعلى رجاله ثم نودى في الناس من بعد ذلك بالأمير الغادر سلطاناً عليهم .

وروع الخبر دهل فبادر الأمراء ورجال البلاط بالالتفاف حول ملكه جهان زوجة جلال الدين التي بلغ بهم الغضب والحزن

مبلغه لا غتيال السلطان الشيخ الرحيم بهذه الاساليب الوحشية الوضيعة .

وبادرت هذه السيدة ، بحسن تدبيرها ، فغمرت الزعماء بالهبات والعطايا كما نثرت الفضة والذهب على عامة الشعب بالمجانين حتى اجتمعوا جميعاً على تنصيب ابنها ركن الدين إبراهيم على عرش دهلى .

على أن علاء الدين سرعان ما اقتحم المدينة على أهلها وأرغم سلطانها الشاب على الفرار إلى الملتان . وهكذا جلس هذا الأمير المغامر الطموح على عرش الهند عام ١٢٩٥ هـ / ١٢٩٥ م فأجريت الخطبة له وضربت السكة باسمه .

وغزا المغول أرض الهند من جديد فانبرى لهم علاء الدين في حروب طويلة استمرت الى عام ١٢٧٥ هـ / ١٣٠٤ م حتى رد غائلتهم عن البلاد . وكان أكبر عون له في حروبه هذه قائده الكبير غازى تغلق ومعهم ظفر خان وأنغ خان . وكان علاء الدين قد نهج كذلك نهج سلفه العظيم بلبن بإقامة حصون قوية مستديمة عند الحدود الغربية وتزويدها بالجنود المدرب القوى والعتاد الحربى . ولقد بدأت هذه الحروب فى السنة الثانية من حكم هذا السلطان حين خرج الأمير داود المغولى من بلاد ما وراء النهر فى عشرة

آلاف مقاتل يبغي الاستيلاء على الملتان والسند والپنجاب ،
فتصدى له ألغ خان قائد دهلى وأنزل به هزيمة شديدة .

على أن هؤلاء الغزاة لم ينهم عن عزمهم ما أصيبوا به
من خسائر فادحة ، فعادوا إلى الهند بعد قليل ، فالتق بهم القائد
الخلجى ظفر خان فى معركة كبيرة أسر فيها منهم الفين ومعهم
قائدهم فسيقوا جميعا إلى دهلى مصفدين فى الأغلال .

وكان أخطر هجوم مغولى تعرض له علاء الدين هو الذى
وقع عام ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م حين زحف قُتلُق خواجه على رأس قوات
كثيفة صوب دهلى . لكن السلطان ومعه قائده ألغ خان وظفر خان
ثبتوا لهم حتى تم لهم النصر بعد قتال عنيف تضاعفت فيه خسائر
الفرىقين وسقط فى ميدانه القائد الخلجى المحنك ظفر خان .

وظهر فى الميدان على أثر هذه الواقعة جيش جديد من
المغول بقيادة زعيمهم تارجى ، لكن الأمير نظام الدين تصدى
له وشتت شمله .

ولئن كانت حدة الخطر المغول قد انكسرت على أثر هذه
الهزائم المتلاحقة التى نزلت بهم ، إلا أن غزواتهم طفقت مع
ذلك تتوالى على مناطق الهند الغربية حتى تمكن غازى ملك تغلق ،
بفضل حنكته الحربية وشدة مراسه وما أنزله بهم من ضربات

شديدة، من أن يُبْعِدَ خطرهم عن سلطنة دهلي تماما .
وإذ ساد الاستقرار والأمن سلطنة دهلي من جديد ، انصرف
تفكير علاء الدين إلى الغزو والفتوح . فأخذ يمدد لذلك بالعناية
البالغة بأمر الجيش وتقويته مع تهيئة ما يحتاج إليه من مصانع للسلاح
وعمال لها ، إلى جانب إنشاء الحصون لاسيما بمناطق الحدود عند
سمانه ودبيلپور بالپنجاب . وكان يعاونه في ذلك كله نخبة من قواده
الممتازين الذين كادت فتوحاتهم تشمل شبه القارة الهندية بأكملها .
ولقد بعثت فتوحات هؤلاء القادة ، وما جلبوه من كنوز
طائلة ، نشوة مشوبة بقدر من الغرور في نفس علاء الدين حتى
ترأى له أن يسير بهم إلى فتح الدنيا بأسرها على غرار ما فعل
الإسكندر المقدوني من قبل . بل لقد ذهب به الحال إلى أبعد من ذلك ،
ففسدا يصرح بأن قاده هم منه بمنزلة الخلفاء الراشدين من النبي
الأكرم ، فهو قادر بهم على تنظيم الدعوة لدين جديد يخرجون
للتبشير به في أركان المعمورة وسيوفهم مشهورة .

وهنا يقول المؤرخ ضيا باراني صاحب تاريخ فيروز شاهي ، وكان
معاصرا له ، إن القاضي علاء الملك عم السلطان بادر بالاعتراض
على علاء الدين في قوة وحزم حين سأله النصيحة في هذا الأمر .
فقال له بأن الدين إنما هو وحى من عند الله وليس بأمر وضعي

من صنّع البشر، وأن النبوة لم يُختص بها الملوك أبداً أو كانت من نصيبهم
عموماً وإن كان بعض الرسل قد أوتى من الملك نصيباً . وهذا خان
المغول چنكيز ، برغم ما أهرق من دماء في بلاد المسلمين ، لم
يمسكه حمل المقهورين على الدخول في ملته ، بل إن ما حدث هو
العكس ، فقد أقبل المغول الفاتحون أنفسهم يدخلون في دين الله أفواجا .
أما عن مسألة فتح العالم فقد أبان القاضي للسلطان بأن العصر
يغابر تمام المغايرة زمان الإسكندر فلا يقاس عليه ، هذا فضلا عن
أنه كان المقدوني وزير ناصح حكيم هو أرسطو وهو مالا نظير له
عند علاء الدين .

وختم القاضي نصيحته للسلطان بأن أوصاه بقصر جهوده
وتركيّزها في إخضاع الهندستان كلها لحكمه ، وإقرار الأمور فيها
بالقضاء على الثورات والفتن وتأمين الحدود في وجه المغول .

ولقى كلام القاضي أذنا مصغية من علاء الدين فبعث بقائديه ألغ
خان ونصرت خان عام ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م للاستيلاء على حصن
رتننبور فنفذوا إليه في قوات كبيرة عبر صحراء الراجپوتانا بعد
أن استوليا في طريقهما على حصن جهابن .

وفيما كانا يحاصران هذه القلعة ، أصابت إحدى قذائف
المدافعين الحجرية نصرت خان إصابة قاتلة جرته إلى حتفه في

مدى يومين . ومالبث رانا همير صاحب الحصن أن خرج إلى المسلمين في مائتي ألف من الجند اجتمعوا له ، فأرغم بهم ألغ بك على الارتداد إلى قلعة جهابن بعد خسائر كثيرة .

هنالك بادر السلطان بالخروج بنفسه إلى هذا الحصن ، ولما كنه فوجوه في الطريق بتآمر ابن أخيه سليمان شاه اتكخان على حياته ، ومعه أتباعه من المسلمين الجدد ، قصد انتزاع العرش منه على غرار ما فعله هو نفسه بعمه جلال الدين من قبل . على أن علاء الدين ، برغم ما أصابه من جروح شديدة ، أفلح آخر الأمر بالقضاء على المتآمرين جميعا .

وتابع الأمير الخلجي سيره إلى غايته فاكتمسح في طريقه ماله ودهار . حتى إذا ما وصل حصن رننهبور قابله أصحابه بمقاومة عنيفة أطال من أمدها جنوح بعض رجال الدولة بدهلى إلى التآمر على السلطان في غيبته وإشاعتهم الفوضى في المدينة .

وأصر السلطان على ألا ينصرف عن الحصن قبل الاستيلاء عليه فبعث بقائده ألغ خان إلى دهلى فأقر الأمور فيها بعد عناء شديد . واستمات الهنداكة في الدفاع عن قلعتهم في شجاعة خارقة وثبات عظيم فلم تسقط في أيدي علاء الدين إلا بعد عام من المقاومة المجيدة . ومن ثم آب السلطان إلى عاصمته في نهاية عام ١٢٠١/٨٧٠٠م

بعد أن أمر بالحصن فهدم وسويت أسواره بالأرض . وصارت الإمارة كلها لأفغان .

وأغرى هذا الانتصار الكبير علاء الدين على التطلع إلى اقتحام موار أمنع إمارات الراجپوتانا وأعظمها . ولم يفت في عضده ما حصنت به الطبيعة هذا الإقليم من جبال شائخة ودروب وعرة وغابات كثيفة موحشة ، إلى جانب حصونه الكثيرة وفيها حصن چيتور الذى قُدد من الصخر على قمة جبل وعر كفلت له مناعته رد كل فائح أوغازعنه ، فلم يفكر أحد من قواد المسلمين بالهند من قبل فى محاولة النفاذ إليه .

على أن علاء الدين ما علم يدبر لرائاهم صاحب چيتور ما يدبر حتى أفلح فى استدراجه إلى خارج حصونه ثم أوقعه فى أسره . وهنا تقول الرواية إن السلطان عرض على أسيره أن يرده إلى مقامة إن سير إليه ابنته پدمنى . وكانت هذه الأميرة الهندوكية على جمال رائع وفتنة ذاع أمرها فى كافة أرجاء الهند .

وأجمع رجال الحصن ، حين بلغهم الخبر ، على أن يبعثوا إلى سيدهم سرا بقدر من السم يضع به حدا لعذابه فى الأسر وينقذ معه بذلك شرف قومه ، فإذا بالأميرة الجميلة ، وكانت ذات عقل راجح وتدير سديدها ، تنبرى لهم معارضة فتعلن إليهم عزها على المسير إلى مقام السلطان

على خطة محكمة، أسرتها إليهم، فيها الخلاص والسلامة لأبيها ولها معا.
وبلغ ركب الأميرة معسكر السلطان ومعها أحمالها في الهواذج.
فما إن توسطت القافلة مضارب علاء الدين حتى انشقت هواجها
عن سبعمائة من فدائي الهنداكة الأشداء الذين أفلحوا بعد قتال
مرير في إنقاذ أميرهم وردّه وابنته إلى حصنه بسلام.

ولم يكن علاء الدين ليسكت عن هذا الحادث، فافتحم الحصن
بنفسه في الغداة وأعمل ورجاله السيف في حاميته في عنف بالغ،
وإن لم يستطع على كل حال أن يظفر بالأمير الهندوكي وابنته أحياء،
إذ آروا مع جملة من الأعيان إلى بعض الكهوف حيث أهلكوا
أنفسهم (١).

وتبع سقوط هذا الحصن استيلاء قوات السلطان على ما لوه
ثم ماندو وبوجين ودهرا نجرى وچندري. وهكذا لم ينصرم
عام ١٣٠٥ هـ / ١٣٠٥ م حتى كانت ملكة علاء الدين الخُلجي تمتد
من البنجاب إلى البنغال ومن جبال الهملايا إلى تلال الوندهايا،
وهي الرقعة التي اصطالح المؤرخون على إطلاق اسم الهندستان عليها.
واتجهت أنظار صاحب دهلي من بعد ذلك إلى الدكن. وكان

١ — تاريخ فرشته ص ١١٥ — هذا وتذكر بعض المصادر الهندوكية أن الأميرة
كانت زوجة لصاحب الحصن لابنة له.

هذا الإقليم، إلى جانب بعده عن العاصمة، يقوم على حراسته عصابة من أمراء الهند الأقوياء .

وخرج جيش المسلمين من حاضرتهم وعليه القائد كافور ، وكان مملوكا جبشيا قديرا جلبه القائد نصرت خان إلى سيدة من منطقة خليج كمباى .

واخترق الجند مالوه ثم السكجرات ، أعظم أقاليم الهند التجارية وأغناها وأطيبها مناخا ، ليهاجموا راي کران الذى ماعثم أن فر مع إبنته إلى صاحب ديوكر .

هنالك انضم ألغ خان ورجاله إلى قوات كافور فساروا جميعا إلى ملجى غريمها ، فما لبثا أن ظفرا به وبمجيره بعد قتال عنيف . على أن السلطان ، بعد أن زف ابنة راي کران إلى خضر خان ولى عهده ، مالبث أن رد صاحب ديوكرو ابنته إلى بلادهما مكرمين ، فضمن بصنيعه هذا دوام ولاء هذا الأمير الهندوكى ووفائه له .

وعلى أى ، فقد بعثت إنتصارات كافور الرعب فى قلوب بقية أمراء الدكن وما يليها جنوبا . فما عثمت تلنجانا قاعدة لإقليم أورانكل أن فتحت أبوابها للغزاة المسلمين عام ١٣٠٩/٥ م ، وافتدى أميرها ، براتاب رودرا ديوا كما كاتيا ، قومه وعشيرته بكنوز طائله حملها إلى دهلى الف بغير كادت تنوء بها ، عدا مئات من

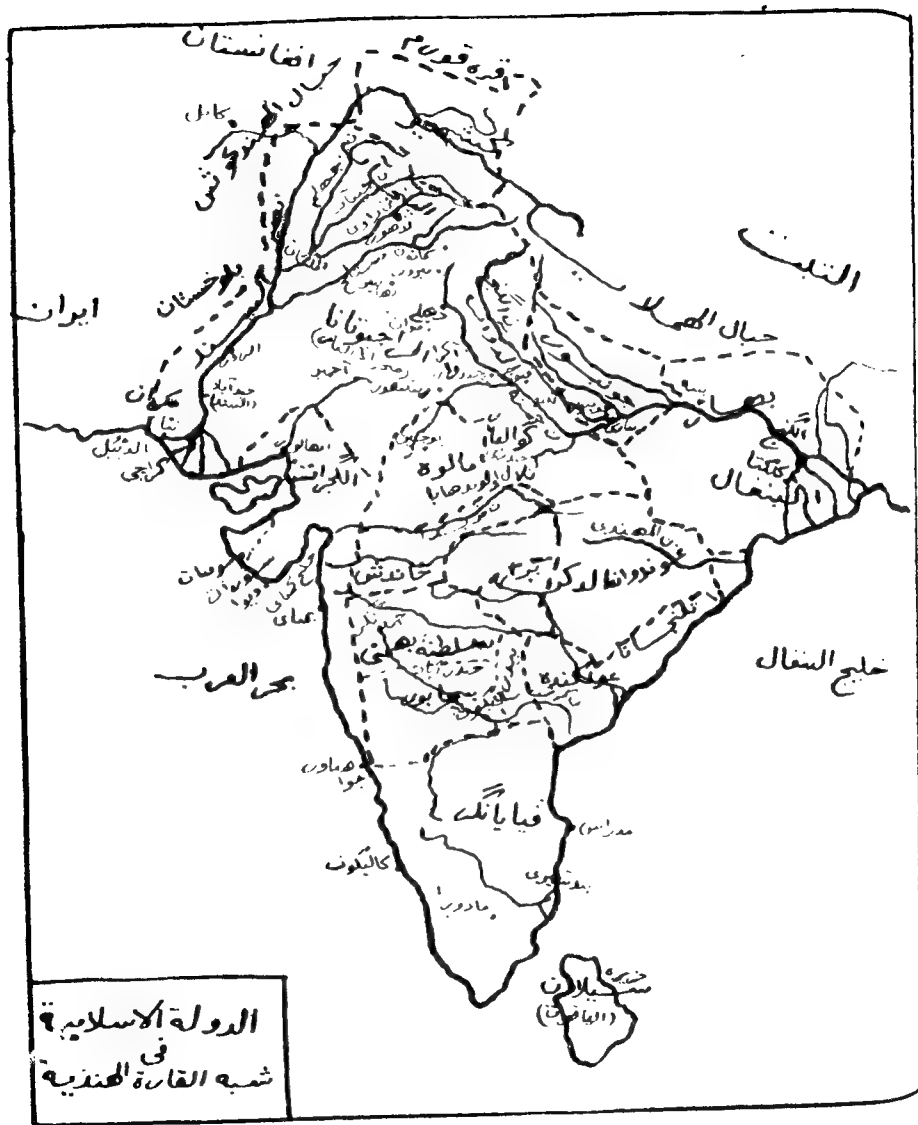
الفيلة وألوف من رؤوس الخيل .

وشجع ما وصل دهلئ من أسلاب وغنائم ، حكومتها على
المضى فى الفتح طلبا للزىء من الأرض والسكنوز . فغادر كافور
بجندة العاصمة من جءىء فى جماءى الآخرة من عام ٥٧١٠ / ١٣١٠ م
فبلغ إقليم مبر ، فى الجنوب الشرقى من الدكن ، ليخرج له
صاحبه ، فىر بلال ، من أكءاس الجواهر والأموال ما لم ينل من
ضخامتها ما وهبه السلطان منها لرجاله وجنوده فى سخاء بالغ .

ولم يرجع المحارب الحبشى الجسور عن الدكن حتى تم له
إخضاع الجنوب الهنىء كله ، فلم يهل عام ٥٧١٢ / ١٣١٢ م حتى
كان سلطان الخلمجيين يظل شبه القارة الهنىءة بأكملها .

واتجه علاء الدين من بعء ذلك إلى تنظيم شئون ملكه الواسع
وتءعيم سلطانه بعء أن تحققت آماله فى الفتح ، وقد صار له جيش
قوى غءت به البلاد فى مأمن تام من الغزو المغولى ، من جهة ،
وساعء على كسر شوكة الأمراء والنبلاء من جهة أخرى .

ولقد قامت سياسة هذا الأمير الخلمجى الداخلية على قءر
غير قليل من الشءة والعنف لءوضع يءه على جمىع الملكىات
الزراعية وأقل كاهل الهناكة خصوصا بالضرائب . كما نهج نهج
سلفه بلبن فى إقامة شبكة قوية من الجواسيس لتتقل إليه أخبار



الناس خاصتهم وعامتهم على السواء .

وتعرض هذا السلطان لنقد رجال الدين الشديد حين راح يستأثر لنفسه ، دون بيت المال ، بأموال الدولة وما حمله جنوده إليه من كنوز الهند الوفيرة ، إلى جانب مغالاته في فرض الضرائب بما يتنافى مع قواعد الشرع الشريف . وقد اعتذر لشيخه هؤلاء بضرورة ما ذهب إليه طلبا لاستتباب الأمن في بلاده الواسعة ولل قضاء على ما ينشب فيها من فتن واضطرابات .

وبهذا كان علاء الدين أول سلطان مسلم بالهند جعل من إرادته المطلقة وحدها دستور الحكم ، فقلده فيها كثيرون بمن جاءوا بعده .

وتشدد هذا الأمير في تحريم الشراب ببلاده ، وجعل من نفسه القدوة لقومه فحطم كل ما كان يبلاطه من أدواته . على أنه اشتط في معاملة الهنادكة فمنهم من اتخذ المراكب أو التزين بشمين الثياب أو السلاح .

وصادفت النظم الإدارية والمالية التي وضعها علاء الدين قدرا كبيرا من التوفيق والنجاح . وأدت رقابته على الأسواق والأسعار مع تشدده في معاقبة مدلسى التجار إلى أن عم اليسر

والرخاء البلاد". وهنا تقول الرواية بأنه كان يأمر بالمططف فيُستكمل الميزان بقطعة تقدُّ من لحمه حيا، عظة لغيره وعبرة .

كذلك لم يهمل علاء الدين تعمير بلاده فأقام بها كثيرا من المنشآت النافعة، كما عني بنشر الثقافة وأصبح رعايته على علماء زمانه وشعرائهم من أمثال الشيخ نظام الدين أوليا والعالم الفقيه ركن الدين والشاعر خسرو الدهلوى .

ومن البديهي أن أمراء المسلمين والهنداكة على السواء، الذين سلبهم السلطان كل ما كان لهم من نفوذ وامتيازات، ومعهم التجار الذين غدت أرباحهم لا تصدو القدر الضئيل الذى تحدده الدولة لهم وتراقب تنفيذه فى صرامة بالغة حرصا منها على رخاء الشعب ؛- هؤلاء جميعا كانت نفوسهم تخزن الغضب وتفيض بالسخط ، فلم يكن يمنعهم من الجهر به إلا ما يعلمونه ، علم اليقين ، من عظم بطش الأمير الخلجى وشدة بأسه .

على أن علاء الدين حين تقدمت به السن ، ذهب فى كثير من شئونه ينقاد إلى آراء قائده كافور الحبشى وعصبته من حثالة القوم ، الذين كان قد أتى بهم ليقوموا على خدمته مكان الأمراء

الذين أبعدهم عن بلاطه ، فما عتصموا أن بلغوا أعلى المناصب .
وبلغ من تأثيرهم عليه أن أهمل تعليم أبنائه بتحريض من
قائده هذا .

وما إن مات علاء الدين في عام ٥٧١٥/١٣١٦م حتى ولى الأمر
كافور وصيا على العرش بعد أن أجلس عليه حدثا صغيرا
من أولاد سبده ، يدعى شهاب الدين عمر خان ، كان قد حمل
السلطان قبل وفاته على البيعة له .

وعلى أى ، فإن علاء الدين الخُلجى يُعد بحق من أعظم ملوك
المسلمين في عصره . فقد توفرت له صفات الجندى الطموح الجسور
والإدارى الحازم الموفق ، فقد جندته حتى دانت له شبه القارة
الهندية كلها ، كما دفع عن حدوده الخطر المغولى الرهيب ، وأقر
الآمن في كافة ربوع بلاده ، ونظم الجهاز الحكومى تنظيما شاملا
مكينا كان من أبرز مظاهره توفير الأقوات لسكان الهند جميعا
بأسعار فى متناول أدنى طبقاتها ، وهو صنيع انفرد به علاء الدين
دون حكام عصره جميعا .

وساق كافور البلاد إلى ما يشبه الحرب الأهلية ، إذ طفق
يعمل على إزاحة الأمراء الكبار من طريقه ، إما بالقتل أو بسمل
الاعين ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فلم يسلم من بطشه أحد حتى ملكه

جهان^(١)، وزوجة علاء الدين نفسه، إذ جردهما من أملاكهما وأموالهما وألقى بها في الحبس. وكُتبت النجاة من هذه المحنة للأمير مبارك خان، الذى ولى العرش من بعد، إذ اكتفى كافور بزجه فى السجن .
كذلك أقصى المغتصب كل من بقى من رجال علاء الدين القدامى بالبلاط وعهد بوظائفهم إلى رجال من أتباعه وبطانته. حتى وفق فريق من مماليك علاء الدين آخر الأمر، بمعاونة أمير يدعى ملك شير، فى الفتك بكافور وتخليص البلاد من شروره وعصبته فعهدوا بالملك إلى الأمير الخلجى مبارك خان^(٢).

وارتقى قطب الدين مبارك شاه عرش الهند عام ٧١٦هـ / ١٣١٦م فبدأ حكمه بداية طيبة، فأطلق سراح المعتقلين ورد الأراضى والأمالك المغتصبة إلى أصحابها ورفع كثيرا من الضرائب عن كاهل التجار .

ثم وجه قائده خسرو إلى الكجرات والدكن للقضاء على الثورات التى نشبت هناك ، فهزم راجا هربال دبوا فى ديوكر ثم سار إلى تلنجانا فباغت فى ثلاثمائة من رجاله أورانكل، وكان يحمىها عشرة آلاف من الفرسان مع عدد كبير من المشاة ،

١ — تعرف بهذه التسمية الزوجة الأولى لكل سلطان ومملكتها «ملكة الهند»

٢ — يختص الأمراء عادة بلقب خان فى حين يلقب السلطان بالشاه .

فأنزل بهم مذبحة قاسية غنم من ورائها كثيرا من الأموال والكنوز. ومالبت أميرها أن يخرج على أثر ذلك من حصنه فأعلن استسلامه له على جزية سنوية طائلة وأموال كثيرة.

على أن السلطان الجديد ما عتم بعد قليل أن انقلب ينغمس في الشهوات والمبازل إلى درجة بشعة حتى اتخذ لباس النساء وخرج به في الطرقات قاصدا دور الأمراء ليواصل مجونة بها. بل لقد كان كثيرا ما يُحرض من في صحبته من بنات الهوى على معاينة كبار الأمراء الذين كانوا يُرغمون على مجالسته بالبلاط.

ووثب عليه آخر الأمر قائده خسرو فقتله وجعله من الأمراء الخلعين. وبموت هذا السلطان انتهى حكم الخلعين بدلهي.

وجلس خسرو من بعده على عرش الهند، عام ١٧٢٠م/١١٣٢١م وتلقب بناصر الدين، وكان من أصل هندوكي وضيع بالكجرات. فمالبت أن أطلق أيدي أتباعه في البلاد يعيشون فيها فسادا، قتهوا الناس واتهكوا الحرمات وأشاعوا الظلم. ولم يترك هو نفسه أى أميرة من زوجات علاء الدين وقطب الدين وبناتهما إلا وقد استجياها ثم خلعها على بعض أصحابه. هذا كما اغتصب أموال الدولة وراح يبذل منها لبعض كبارها بغيه شراء تعضيدهم له وتأيدهم.

وهدف خسرو إلى إحياء الهندوكية من جديد ، واسترجاع
 مجد الهنادكة القديم وسلطانهم بالتالى ، فجمع حوله عصابة من مواطنيه
 عاهدوه على المضى معه فى هذا الأمر ، فراحوا يحطون من قيم
 الإسلام فى استهتار وجرأة بالغة حتى اقتحموا المساجد " فأقاموا
 أصنامهم وأوثانهم بها وجعلوا من المصاحف قاعدة لها . ولولم
 يُشغل الأمراء الهنادكة فى هذه المحنة الجائحة بتحقيق أطماعهم
 وآربهم الخاصة عن الاستجابة التامة لدعوة خسرو هذه ،
 لنزل بالحكم الإسلامى وأصحابه بالهند ضربات قاصمة دون شك .
 وأثار سلوك خسرو وقومه نائرة الأمراء الملاييين وأتباعهم
 فبعثوا من فورهم بأمير منهم يدعى نجر الدين جونه إلى أبيه غازى
 ملك تغلق مستجدين بهذا القائد الحازم صاحب الفضل الأکبر
 فى دفع المغول عن سلطنة دهلئ .
 وخرج تغلق من ديبالپور فسارع جميع الأمراء بالانضمام
 بجنودهم إليه فى زحفه صوب العاصمة .
 ودفعت الكبرياء بمغولتكن أمير الملتان إلى التقاعس عن
 نصرة المسلمين إذ كان يرى فى نفسه ندا لتغلق فلا ينطوى تحت

لمرته ، فبادر القائد بيرم خان بالقضاء عليه وضم قواته إلى الجيش الزاحف .

ولم يغب خسرو ما بذله من أموال كثيرة لشراء الجند والقادة إلى صفوفه، فأصيب بهزيمة حاسمة انطلق على أثرها هائماً على وجهه ليختفي في مقبرة وهو في طريقة إلى چاپت ، ولكن مطارديه ما لبثوا أن قبضوا عليه وعلى أخيه فأوردا ورده الردى في آخر رجب من عام ٧٢١ هـ / ١٢٢١ م .

وهكذا أنقذ غازى ملك تَغْلُك مرة أخرى مُلك المسلمين بالهند من محنة قاسية قاصمة ، كما أنقذه من هول المغول من قبل . واستقبلت المدينة منقذها استقبالا منقطع النظير ثم راحت تعرض عليه عرشها ، فلم يقبله إلا بعد أن تأكد لديه عدم وجود وريث شرعى له من صلب السلطان علاء الدين الخلجى ولى نعمته .

آلُ تَغْلُقْ

أرتقى غازى ملِكُ تَغْلُقْ عرش دهلِى فى شعبان من عام ٧٢٠ هـ / ١٣٢١ م باسم السلطان غياث الدين تغلق . وهو تركى الألب من قوم چغتای زُطْطى الأم من الپنچاب ، بدأ حياته جنديا^(١) بسيطا فظل يرتقى بجدده واجتهاده حتى بلغ مرتبة القيادة . ومالبت أن لمع نجمه إبان حكم السلطان علاء الدين الخلجى حين ساهم بجهود بارزة فى دفع المغول عن الحدود الغربية ، ثم طفق ينزل بهم من بعد ذلك مزيدا من الهزائم حتى انجأ خطرهم عن البلاد .

وجهد تَغْلُقْ فى تدعيم ملكه واستعادة سلطنة دهلِى سابق هيبتها ونفوذها، فبدأ بإحياء تعاليم الإسلام فى حكومته، ورد الأمراء والأعيان ما اغتصب من أملاكهم وامتيازاتهم، كما أحاط بالإكرام والعناية كل من بالبلاد من الأمراء الخلجيين .

كذلك نجح غياث الدين فى استرداد الأقاليم الدكنية والشرقية التى كانت قد ضاعت من حوزة دهلِى . فبعث بإبنه ألغ خان الى

الجنوب فانتزع تلنجانا من أيدي براتاب ديو الثاني راجا أورنكل وضماها إلى ملكه . ذلك أن هذا الأمير الهندوكي كان قد انتهز فرصة ضعف الدولة أيام مبارك شاه الخلجي فنفض عنه طاعة السلطان ورفض إرسال الجزية إليه . وبأسره ختم دور هـام لعبته هـذه الإمارة في تاريخ جنوب الهند . وسار هو بنفسه إلى الأقاليم الشرقية حتى بلغ البنغال فأقرله بالطاعة أمير هانا صر الدين حفيد بغراخان بن بلبن .

ونهج هذا السلطان نهج نلاء الدين الخلجي في الاحتفاظ بجيش نظامي قوى تقوم الدولة بالإنفاق عليه ، كما نظم الاداة الحكومية وطهرها مما لحق بها من فساد أيام مبارك شاه الخلجي وقائده خسرو ، وحرص على إشاعة العدل بين الناس جميعا .

كذلك أنشأ غياث الدين نظاما محكما للبريد لم تعرف له ضربا من قبل في دفته وسرعته ، حتى بلغت العاصمة أخبار الرحالة العربي ابن بطوطة بعد وصوله مصب السند بأيام خمسة قطع فيها البريديون ما يزيد على تسعمائة ميل ، هي المسافة بين المكانين ، في طريق آمن معبد . وقد أشاد هذا الرحالة بما كانت عليه الهند من تقدم ومدنية في عهد هذا السلطان وخلفائه . وسنشير إلى ذلك كله في موضعه بقدر من التفصيل .

وشجع تغلق الناس على تعمير الأرض وفلاحتها فأصلح من طرائق الري، وشق كثيرا من الترع والقنوات وخفّض من خراج الأرض :

ولاقى هذا السلطان حتفه في ربيع الأول من عام ٨٧٢٥/١٣٢٥م على أثر إنهيار أحد قصوره به. وينسب بعض المؤرخين تدبير هذا الأمر لابنه وولى عهده نغر الدين جونه ألغ خان مع الشيخ نظام الدين أوليا الذى كان على خلاف كبير معه ، فى حين يقول آخرون بانقضاء ساعة على البناء فهدمته .

وخلف الأمير نغر الدين أباه وتسمى بمحمد تغلق ، فاستهل حكمه ببذل المال والعطايا لرجالہ ورعاياه فى سخاء بالغ ، حتى قيل إنه حين وفد العاصمة قادمًا من تغلق آباد كان فى ركباه جملة من الفيلة المحملة بالذهب والفضة راح فىا لوها ينثرون أحمالها على الناس . وترامت أخبار هبات السلطان وكرمه إلى خارج حدود الهند فوفد إلى بلاطه جموع من أهل العراق وخراسان وفارس وبلاد ماوراء النهر طمعا فى نواله وعطائه .

وكان من بين الوافدين عليه كذلك طائفة من المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب . ذلك أن محمد تغلق لم يكن من رعاة العلوم والفنون فحسب بل كان هو نفسه من بين طليعة المشتغلين بها

والضليعين فيها في عصره . فنشوراته ومنظوماته الفارسية والعربية على السواء، تشهد له بالذوق الأدبي الرفيع مع حسن السبك وجمال الصورة . هذا إلى جانب عنايته الفائقة بتجويد فن الخط والنقش، وتمكنه المكين في علوم الفلسفة والحكمة والمنطق حتى نبغ في تشخيص الأمراض وقام على علاج الناس بنفسه. ولعل تعمقه في دراساته وأبحاثه الطبية إنما كان استجابة وصدًا لإنسانيته الرقيقة التي دفعته إلى إقامة الكثير من دور الشفاء وملاجئ العجزة وموالاته الإشراف عليها بنفسه .

وقد تحدث ابن بطوطة حديثاً طويلاً عن هذا السلطان فذكر له كثيراً من الفضل والعلم، ولم ينكر ما عرف عنده من غرائب الأطوار والطباع التي كانت تدفعه في بعض الأحيان إلى أن يأتي بأى شحاذ يصادفه على بابه فيرفعه بسنخائه المذهل إلى مصاف الأثرياء المعدودين، أو يسقط على أحد سراة قومه فيذيقه الوان الفاقة والحرمان . وقد عاش الرحالة العربي بالهند سنوات ثمانية ، فولى قضاء دهلِي كما سفلها بالصين . وغادرها عام ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م بعد أن سجل في مذكراته الكثير عن عادات المسلمين والهنادكة هناك في دقة يؤيدها مؤرخوا الهند أنفسهم عن ذلك العصر^(١)

١ - رحلة ابن بطوطة طبع باريس ثالث من ٢١١ - ٢١٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦

وعلى أى ، فقد كان هذا السلطان صاحب مُثل فى تفكيره
خططه . ولو أن الظروف كانت قد واثته فى تحقيق مشروعاته
لعمرانية والإجتماعية التى رسمها لأفادت الهند منها خيرا كثيرا .
وتعرض محمد تغلق بدوره لخطر الغزو المغولى ولما تستقر
بعد أمور الدولة عقب وفاة أبيه . ذلك أن ترمشيرين خان بن
:اودخان زعيم قبائل الأولوس الجفتانيين ، وكان ذا شهرة ذائعة
بين المغول لعدله وشجاعته ، أقتحم حدود الهندستان عام
٥٧٢٧هـ / ١٢٢٧م على رأس جيش كبير بنية فتح هذه البلاد ،
فاستولى على لمغان والملتان عند الحدود الشمالية الغربية ثم اتخذ
طريقه إلى دهلى نفسها .

وبدا لمحمد تغلق أن يتجنب الإلتحام بهذا العدو القوى ، فاحتال
لذلك أن بعث من فوره بوفد من رجاله حملوا معهم قدرا كبيرا من
الأموال والهدايا إلى الزعيم المغولى ، وطفقوا يخطبون ودهو يبالغون
فى تملقة حتى ارتضى آخر الأمر الرجوع عن بلادهم ، فانسحب
منها عبر السند والسكرجات بعد أن انتهبا وأسروا كثيرا من أهلها .
وحين انجابت هذه المحنة ، راح السلطان يدبر الأموال اللازمة
لتحقيق مشروعاته الإصلاحية ، فتعالى فى فرض الضرائب بإقليم
الدوآب ، أخصب مناطق الهند وأغناها ، حتى هجر الأرض أصحابها

إلى الغابات فرارا مما ألزموا به من أموال عجزوا عن أدائها ، فعم الإقليم الخراب واجتاحته المجاعة . ويرد فريق من المؤرخين مسلك محمد تغلق هذا إلى ما عُرف من ميل أعيان هذا الإقليم إلى الجنوج للثورات وإشاعة لاضطرابات على الدوام ، حتى نهج علاء الدين الخلجي معهم مثل ذلك من قبل ، وإن كان احتباس الأمطار الموسمية عنهم في بعض السنوات قد زاد من خطورة الحال هناك . وأعجب السلطان بموقع مدينة ديوكر الطبيعي الحصين ، وكان قد سار إلى جوارها للقضاء على ثورة ابن أخيه بهاء الدين كُشتاسب بالدكن ، فعزم على أن يتخذ منها حاضرة له ، أطلق عليها اسم دول آباد فيما بعد ، ليعتمد بذلك عن مواطن الخطر المغولي من جهة ، ويتوسط ، من جهة أخرى ، دولته الواسعة التي كانت تمتد من الهملايا إلى جنوب الدكن ومن البنغال إلى أرض كابل .

ولو كانت خطة السلطان هذه قد اقتضرت على البدء بنقل دولا ب الحكومة إلى العاصمة الجديدة ثم إجراء هجرة السكان إليها بالتدرج لكان الأمر وأمكن تحقيقه في شيء من اليسر . لكنه شرع من فوره يشق الطرق من الشمال إلى الجنوب ، ثم زود سكان دهلي بالمؤن وأعد لهم وسائل النقل ، وأمرهم جملة

بالرحيل إلى العاصمة الجديدة مع متاعهم . ولقد كان من الطبيعي أن يعم السخط أولئك الذي أرغموا على ترك عاصمتهم ، التي عاشوا فيها أجيالا ، إلى بلد آخر لا يدرون من أمره شيئا ، هذا فضلا عما تعرضوا له من متاعب لا قبل لهم بها في طريق يبلغ طوله سبعمائة ميل ، فنزلت بهم الأمراض وفنكت بهم الأوبئة فتكا ذريعا حتى هلك منهم خلق كثير . وأما الذين كُتبت لهم النجاة فلبثوا العاصمة الجديدة سالمين ، فقد انتابهم شعور من أرسل بهم إلى المنفى^(١) .

ويبالغ بعض المؤرخين في وصف ما ارتكبه محمد تغلق من ضروب القهر لرحل الناس على الهجرة إلى حاضرتة الجديدة ، فيروون أنه لم يتردد في إعدام رجل مكفوف وآخر كسيح تخلفا بدهلي عن الركب . ولئن كان هذا السلطان قد حرص حرصا بالغا على تنفيذ مشاريعه الإصلاحية حتى استقدم إليه في سبيل ذلك جملة من الخبراء وأجزل لهم العطاء في كرم زائد أثار ثائرة من حوله ، هذا كما كان يقسو مع كل من كان يحاول معارضة خططه أو عرقلة تنفيذها ، إلا أنه حين استبان له مدى الكارثة التي حلت بالناس في هجرتهم هذه ، أباح لهم من فوره العودة إلى

دهلى من جديد لمن يرغب فيها . ولم يكتف بذلك فحسب بل شرع يقيم لهم على مقربة منها مدينة جديدة هيا لهم فيها كثيرا من أسباب الراحة والاستقرار . ذلك أن العاصمة القديمة التى كانت تضارع لوقتها القاهرة وبغداد كان الخراب قد دهمها بدورها على أثر هجرة أهلها منها .

واستبان محمد تغلق حاجته الشديدة لجيش كبير يستطيع به إقرار الأمن فى ربوع ملكه الواسع ، فتفتق ذهنه ، بسبيل تدبير الأموال لهذه القوات ، عن خطة انتهى فشلها إلى تصدع كيان البلاد الاقتصادية تصدعا شديدا . فقد أمر بضرب عملة نحاسية تقوم فى التعامل بين الناس مقام الذهب والفضة بضمان بيت المال ، فتدج عن ذلك أن انقلبت أغلب الدور الخاصة إلى مسابك لضرب هذه العملة الجديدة طلبا للثراء . وإن هى إلا فترة قصيرة حتى أخذ التجار المحليون يرفضون التعامل بها إلا على أساس قيمة معدنها ، فى حين طفق غرباء التجار لا يبيعون وارداتهم إلا بالذهب ، ويشترون صادراتهم بالنحاس .

وحين أدركت الحكومة مدى ماعم البلاد من الخراب من جراء ذلك فأعلنت رفع هذه العملة من الأسواق ورد قيمتها إلى أصحابها ذهباً وفضة ، أقبل الناس على بيت المال ومعهم ما كانوا

قد زبّفوه من الأكداس الطائلة النحاسية ، فاستنزفوا الكثير من أموال الدولة .

ولم يكن محمد تغلق على كل حال هو أول من لجأ إلى استعمال العملة المعدنية بضمان الذهب ، فقد كانت هذه الطريقة معروفة بفارس وكذلك بالصين التي كانت تتداول العملة الورقية أيضا ، قبل أن يعرفها العالم بزمان طويل ، بضمان خاتم الإمبراطور . فما أعوز هذا السلطان إنما كان تمام الضبط والحيلة .

واستجاب محمد تغلق لتحريض الممالك المصرية له على غزو خراسان والعراقيين . وشجعه على الإقبال على هذا الأمر ما كان من تحقيق أحد أحلامه الكبرى بالحصول على تأييد الخليفة العباسي له وخلعه عليه ، فأعد لهذا الغرض جيشا قوامه ثلاثمائة وسبعين ألفا من الجنود ، ولكنه ما عدا أن سرحهم بعد أن ظل يؤدي لهم عن ذلك نفقاتهم من بيت المال عاما كاملا ، وذلك حين عدل المصريون عن ذلك إلى محلفة أبي سعيد ميرزا صاحب بلاد ماوراء النهر وإطلاقهم ليده في بلاد الفرس والتركمان .

هذا كما بعث محمد تغلق كذلك بحملة قوية إلى ولايات الهملايا العليا فذهمتها الثلوج فقصت على أكثر أفرادها . وقد ادعى بعض المؤرخين بأن سلطان دهلي إنما سير هذه الحملة لغزو الصين

طمعا في كنوزها ، في حين أنه لم يرم من ورائها في الغالب إلا إلى نشر الاسلام في هذه المناطق وتأمين الدروب إلى خراسان .
وانتهى ماجره فشل السلطان في مشروعاته ، وماتج عن ذلك من محن قاسية ، إلى أن اجتاحت البلاد موجة قوية من الاضطرابات والثورات التي زاد من حدتها جنوح حكومة دهلي إلى مصادرة الكثير من أموال الأعيان والتجار حين الحت عليها الحاجة اليها .

وكان أول من رفع لواء العصيان في وجه محمد تغلق هو الأمير جلال الدين إحسان شاه الذي أعلن استقلاله بمر في الدكن فضرب السكة باسمه عام ١٧٣٥م / ١٢٣٤م . ورغم ما كانت تعانيه دهلي من مجاعة قاسية فقد خرج السلطان بنفسه لقمع هذه الفتنة ، لكنه لم يبلغ تلانجانا حتى أخذ وباء الهیضة (الكوليرا) يفتك بجنده فرجع عن خصمه .

وعمت الاضطرابات البنغال بدورها على نطاق واسع . ذلك أن قائدا هناك يدعى نجر الدين سقط عام ٧٢٧ هـ على أميره قدر خان صاحب الكهناتوق فقتله وجلس مكانه ، ثم ما لبث أن جهر مطمئنا باستقلاله ، إذ كان على علم تام بما يعانيه سلطان دهلي من متاعب لا يستطيع معها أن يزحف اليه .

وارتدت الدكن إلى الثورة من جديد ، فطلب السلطان من قائده عين الملك صاحب أوده وظفر آباد أن يتوجه بقواته إلى دولت آباد ويشرف منها على إقرار الأمور هناك .

على أن هذا القائد الذى كان له وإخوته جهود كبيرة فى معاونة السلطان على تخفيف وطأة الحجاءات والمحن التى اجتاحت البلاد ، ترمى إلى خاطره أن السلطان إنمما يرمى من وراء نذبه لهذا الأمر ، إلى الاستيلاء على أملاكه وأراضيه ، فاعتصم وجنده بإقطاعه حتى أقبل عليه محمد تغلق بنفسه فباغته فى مضاربه وأسره ثم ألقي به فى الحبس ، وإن عفا عنه بعد قليل لسابق خدماته وإخلاصه . وبلغ السلطان من بعد ذلك خبر انقضاى بعض زعماء الزط على لاهور وقتلهم لئانارخان نائبه هناك ، فسير إليهم من فوره قائده خواجه جهان فأسر كثيرا منهم وساقهم إلى العاصمة حيث أعلنوا إسلامهم بها .

والنفث محمد تغلق إلى الدكن من جديد بعد أن أقر الامور فى الشمال . ذلك أن استقلال الأمير جلال الدين إحسان شاه بإمارة مبر قد أغرى بعض الامراء الآخرين على أن يحذون حذوه . وكان من بين هؤلاء الأمير الهندوكى هارى هارا الذى أسس هو وأخوه إمارة فيا يانكر فيما بعد . وما لبث هندوكيو الجنوب بزعامه

كرشاناياك أن شدوا من أزر هذه الإمارة التي اتسعت رقعتها
وازدادت قوتها حتى قامت على حماية الجنوب كله من أى غزو
إسلامى يفد إليه من الشمال .

وسرت الاضطرابات بدورها إلى الكجرات وديوكر التي
غدت تعرف بدولت آباد ، فلم يسكد السلطان يغادرها ، بعد أن
خُيّل إليه استتباب الأمور فيها ، حتى نهض عام ١٣٤٧/٥٧٤٨م
أمير أفغانى شاب يدعى حسن كاندكوى فوضع يده على الإقليم كله .
ويعرف هذا الأمير فى التاريخ باسم علاء الدين أبى المظفر صاحب
سلطنة بهمنى الدكنية التى لعبت دورا هاما فى تاريخ المسلمين بشبه
القارة الهندية .

ووافى محمد تغلق أجله عام ١٣٥٢/٥٧٥٢م إبان إحدى حملاته
فى السند ، وقد انفرط عقد سلطنته ذات الولايات الثلاث
والعشرين إلى عدد من الامارات القوية المستقلة ، فلم يبق تابعا
لدهلى من الولايات الكبيرة إلا الكجرات .

هذا وينسب بعض المؤرخين ما صادف هذا السلطان من
الفشل فى مشاريعه الكثيرة الى سوء طالعهِ وما كان حوله من
مستشارين تنقصهم الخبرة والإخلاص . ويذكر ابن بطوطة لهذا
الملك كثيرا من الفضائل ، كما يشئ المؤرخ ضياء الدين بارانى ، معاصره ،

تمسكه بأهداب السنة وحرصه على إقامة العدل بين الناس. ويشير أغلب مؤرخي الهنادكة المحدثين إلى تسامحه حتى قرَّب إليه كثيرا من الهنادكة وولاهم عدة مناصب في الدولة، وينفون عنه ما أشيع من ميله لاسفك الدماء وتعطشه لارتكاب العنف والقسوة، ويقولون بأن تشنيع بعض المؤرخين عليه بهذه التهم لم يكن إلا لقتله بعض الدراويش والفقههاء. ولعل قياس هذه الحوادث جميعا على ضوء مجتمع القرون الوسطى وتقاليده قد رَّبَّأ بهذا السلطان عن أن يحشر في زمرة جلادى عصره^(١).

ولم يكن لمحمد تغلق ولد فعهد بالملك من بعده إلى ابن عمه فيروز تغلق، وكانت أمه السلطانة كدبانو هندوكية الأصل، فأبوها هو رانا محل بهاقى. وقد قبلت هذه الأميرة الجميلة أن تتزوج من والد فيروز أخى غازى تغلق دفعا للضر عن أسرتها^(٢).

ومعرف السلطان الجديد بميله إلى المسالمة وبعده عن إراقة الدماء مع شغفه الشديد بمخالطة رجال الدين وأهل التصوف. بل

١ — Prasad. India. 227,8

٢ — كان ال تغلق قد وفدوا إلى الهند قادمين من خراسان أيام علاء الدين الخلجى حيث ولي غارى تغلق إمارة ديبالپور. هذا ويرد لين پول في كتابه عن الهند في العصر الوسيط 9 Lane-poole. Medieval India pp. 298. أسباب ضعف المسلمين إلى مصاهرتهم للهنادكة مع أن كثيرا من سلاطين المسلمين العظام بالهند كانت أمهاتهم من الهندوكيات.

لقد قيل إنه أبدى كثيرا من التردد في قبول الحكم ، إذ كان يؤثر عليه الخروج إلى الأراضى المقدسة طلبا للحج والإعتكاف بها متعبدا إلى آخر عمره .

وأيا ما كان القول ، فقد أدى قبول هذا الأمر لمنصبه إلى القضاء على النزاع الذى قام بين قادة الجيش حول ولاية العرش . هذا وكان خواجه جهان ، أحد الأمراء الكبار ، قد بادر بتنصيب طفل بدهلى نسبته إلى محمد تغلق ، لكنه لما إن علم بقدم فيروز تغلق إلى العاصمة حتى سعى إليه معتذرا بطلب الصفح .

وهكذا جلس على عرش دهلى فى رجب من عام ١٣٥١/٥٧٥٢م سلطان جديد اكتسب فى عهد سلفه دراية كبيرة بشئون الحكم وتمرس بأساليبه .

ونج عن الاضطرابات التى شغلت بها الدولة عقب وفاة محمد تغلق أن انتهز حاجى إلياس هذه الفرصة فأعلن استقلاله بالبنغال ولقب نفسه بالسلطان شمس الدين ، ثم ما برح ينشر قواته فى إقليم بهار حتى بلغت بنارس .

هنالك عزم فيروز على الخروج لرد هذا المعتصب عما استولى عليه من أرضين ، فسبق حملته بمنشور ، أذاعه فى أهل البنغال وما حولها ، أعلن فيه أنه إنما يتولى السلطنة بتفويض من الخليفة

العباسي أمير المؤمنين ، فن خرج عليه فقد خرج بالتالي على إجماع أهل السنة . كذلك دعا الأهلين إلى الانضمام إلى صفوفه والخروج على عدوه واعداء أيام بإعفائهم ، مسلمين وهنادكة ، من دفع الضرائب عاما بأكمله مع بذل الأمان لهم .

وأفلح سلطان دهل الجديد آخر الأمر في أن يستدرج خصمه من حصن إكنداله الذي كان يعتصم فيه إلى ضفاف الكنج حيث نشب بين الفريقين قتال عنيف دارت فيه الدائرة على الثوار فارتدوا ثانية إلى حصونهم .

ووجدت ضراعة النساء في حصون العدو طريقها إلى قلب السلطان ، فأعرض عن نصيح رجاله بالتوغل في البنغال محتجا بيده الأمطار الموسمية ، وآب إلى عاصمته قانعا بالصلح مع خصمه . وبُعثت الآمال في النفوس من جديد لاسترداد البنغال حين استنجد الأمير ظفر خان بالسلطان من عسف ختته شمس الدين . فخرج فيروز شاه عام ٥٧٦٠/١٣٥٩م كرة أخرى إلى هذا الإمارة ليجد أميرها الجديد إسكندر شاه يحذو حذو أبيه في الاعتصام بإكنداله ثم يبعث إليه بالهدايا الكثيرة مشفوعة بتوسلاته التي رقق لها قلب السلطان المسلم مرة أخرى ، فرجع عن البنغال للمرة الثانية مكتفيا باصطحاب الأمير ظفر خان معه ، وقد كان في

مقدوره ضمها إلى ملكه في غير عناء كبير .

ونزل فيروز شاه عند أوبته من البنغال بمدينة جونپور التي كان قد أمر بتشييدها تذكارا لابن عمه نخر الدين جونه^(١) ، ومن ثم اتجه إلى إقليم ججنسكر (أوريסה الحالية) الذي يشتهر بخصبه ووفرة الأرزاق فيه من الحبوب والفاكهة والماشية ، فانطلق جنده ينتهبونه ويحطمون معابده حتى أقبل أميره الهندوكي راجا أديساران آخر الأمر يعلن ولاءه للسلطان على جزية كبيرة . ومالبت أن حذا حذوه جملة من الأمراء الهنادكة المتاخمين لحدوده .

كذلك وفق سلطان دهلي في العام التالي في إخضاع حصن نكركت^٢ ، وكان صاحبه قد جنج أواخر أيام محمد تغلق إلى خلع نيردهلي عن كاهله . وصار هذا الحصن يعرف فيما بعد باسم محمد آباد تخليدا لذكرى السلطان الراحل .

ولعل أكبر حملة خرج فيها السلطان فيروز هي تلك التي قصد بها إلى إخضاع الهنادكة من الزط وغيرهم ، وكانوا قد جنجوا بدروهم عندتنا بمصب السند إلى العصيان أواخر عهد محمد تغلق . ونجم عن سد الأمطار الغزيرة للطرق وإتلافها ، شح الأقوات

١ - وهو السلطان محمد تغلق سالف الذكر .

بين القوات حتى اضطر فيروز إلى الارتداد بجنده إلى السكجرات .
على أن قائده ووزيره خان جهـان مقبول ، وكان من مسلمي
الهنداكة ، ما لبث ، مع إمدادات وفدت إليه من الدواب وبهار ،
أن خاض مع الثوار معركة حاسمة انتهت بأسر زعيمهم جام
بابينيا ، ليغفر السلطان آخر الأمر عنه ويجرى عليه معاشا
مجزيا بدهلى ، ويقم أخاه مكانه .

وأدى إهمال السلطان لشأن الدكن أن أمكن لامارقي بهمنى
وفايا يانكر أن يرسخا أقدامهما ويوسعا من رقعتيهما هناك على
حساب سلطنة دهلى التى انحسرت حدودها الجنوبية إلى الشمال
من تلال الوندهايا .

ولئن أدى ميل فيروز تغلق للسلم وتجنب الحروب إلى ضياع
مساحات واسعة من أراضيه ، إلا أنه هـيـ " له على كل حال الفرصة
للانصراف إلى شئون الدولة الداخلية والتفرغ لرسم خطط
الإصلاح والتنظيم التى اتاحت للأهلين قدرا من الحياة الطيبة
المستقرة . وقد طفق كبار سلاطين الهند المصلحين يترسمون مناهج
هذا السلطان الإنشائية ونظمه من بعده قرونا عدة ، وكان من
بين هؤلاء السلطان أكبر المغولى أعظم حكام العالم فى عصره
على الإطلاق .

ذلك أن هذا الحاكم المصلح قسم أراضي الدولة إلى إمارات عهد بإدارتها إلى جملة من الرجال الأكفاء ، كما عني بأمر الزراعة فعمل على استصلاح مساحات واسعة من الأراضي البور ، وأحكم نظام الري ، وجد في حفر الآبار والقنوات حتى توافرت الأرزاق وعم الرخاء إلى درجة كاد الناس معها أن ينسوا قسوة المجاعات الجارفة التي ألمت بهم من قبل .

كذلك النفط فيروز تغلق إلى الضرائب فأحكم نظامها ، ورفع الكثير منها عن كاهل الأهليين ، وأمر ألا تعدو جبايتها حدود الشرع ، وراقب ذلك كله بنفسه في حزم وشدة .
أما غنائم الحرب فقد خص بيت المال بنصيبه الشرعي منها وأطلق الباقي لرجاله وفقراء شعبه .

وأدى تمسك السلطان بقواعد الشرع إلى توفير العدالة لرعاياه وإبطال الكثير من العقوبات والعادات غير الإنسانية التي كان يمارسها الهنادكة على الخصوص ومنها عادة الساق حيث تُقبل الأيتام التي ليس لها ولد على حرق نفسها مع جثمان زوجها . ولم تقف جهود فيروز تغلق عند هذا الحد حيث شاع اليسر والرخاء والعدل بين أوساط الناس وعامتهم خاص ، حتى ذهب في سبيل إصلاحه الاجتماعي ، يأمر بإحصاء العاطلين في بلاده

وحصرهم ، فمن كان منهم يجيد القراءة والكتابة الحقة بخدمة الديوان ، ومن كان منهم على دراية بحرفة أو صنعة هيا له ما يناسبه منها سواء بمشآت الدولة أو بغيرها من المنشآت الأهلية ، ومن بقي منهم من بعد ذلك الحقه بخدمة الأمراء ورجال الدولة .

وإلى جانب ذلك كله أنشأ السلطان ديوانا يعرف بديوان الخيرات ليعين بماله على تزويج الفتيات الفقيرات ، ويرعى المرضى والضعفاء والشيوخ بما يجريه عليهم من أموال وما يقيمه لهم من دور للشفاء ورباطات .

وبلغت دور الشفاء عند فيروز تغلق المائة ، وكان الدواء والغذاء يقدمان فيها للناس بالمجان . وإلى جانبها أقيم دور للعلم عديدة كان من بينها ثلاثون مدرسة جامعة لدراسة العلوم الشرعية والنقلية على السواء .

وأدى شغف هذا السلطان بالعلم إلى قدوم طائفة من علماء المسلمين ببلاده ليضطلعوا بالتدريس في مدارسهم ، وكان من بينهم مولانا جلال الدين الرومي العالم المشهور . وقد دون هذا السلطان سيرته بنفسه في كتابه المعروف « فتوحات فيروز شاهي » .

وعمل فيروز كذلك على إحياء الدراسات الهندية القديمة ، وحض البراهمة على حل نقوش أعمدة آزوكا القديمة ، وكان قد

استخدم جملة منها في منشآته . كما أمر بترجمة جملة من أممات الكتب السنسكريتية ، التي وقعت بأيديه في حصن نكر كُت ، إلى الفارسية^(١) .

ومنشآت هذا السلطان التي بلغت التسعمائة ما بين مدارس ومساجد ودور للشفاء ورباطات وقصور وحمامات ، وإلى جانبها مدن ثلاث كبيرة بالقرب من دهلي ، وهي فيروز آباد وفتح آباد وجونبور ، عدا الحدائق الكثيرة التي بلغت الألف عدا ، استلزمت هذه كلها استخدام عدد كبير من الأيدي العاملة مما ساعد على تخفيف أزمة البطالة بين العمال^(٢) .

وركبت العلل السلطان الشيخ علي كراسين وتوالى الحدثان ، فاغدا أن أطلق يد وزيره خان جهان ظفر خان في تصريف شئون الدولة .

وتراى لهذا الوزير ، في سبيل تثبيت سلطانه المطلق ، أن يزيح من طريقه ولي العهد الأمير محمد فاتهمه عند أبيه بتأمره على العرش هو وجملة من الأمراء الذين عرفوا بكراهية فيروز تغلق لهم .

على أن الأمير حين وقف على ما كان يبني له طفق يصطنع الحيلة حتى لقي أباه ، فآزال به حتى أقنعه بنجث طوية وزيره فعزله وولاه مكانه .

و حين اطمأن محمد إلى إمساكه بزمام الدولة كلها حتى دُعى له في الخطبة مع أبيه ، انصرف إلى مآربه الخاصة ومنتعه لا يلقى بالا إلى مشورة رجال البلاط وكبار الأمراء الذين حدا بهم حرصهم على سلامة الدولة إلى الالتفاف حول ابن أخى السلطان الأميرين بهاء الدين وكمال .

وأدى هذا الانقسام آخر الأمر إلى الصدام الحربى بين الفريقين ، فشهدت شوارع دهلى التحامات بشعة سقط فيها الكثير من رجال الفريقين . ولم يوقف سير هذه المجازر العنيفة إلا ظهور السلطان الشيخ على محفته في الميدان ، فإذا الجند تبادر إلى الالتفاف حوله والانضمام إلى صفوفه مكبرة مهالة ، فى حين بادر الأمير محمد إلى الهرب فتحصن فى تلال سرور .

وعهد فيروز بالملك على أثر هذه الفتنة إلى حفيده غياث الدين ابن فتح خان . وإن هو إلا زمن يسير حتى قضى السلطان الشيخ فى رمضان من عام ١٣٨٨/٤٧٩٠م وكان قد جاوز التسعين من عمره . وبعث السلطان الشاب فور ارتقائه العرش برجاله يطاردون

الأمير محمد الذي استطاع آخر الأمر التحصن في قلعة نكركت
التي امتنعت على المهاجمين .

وما غدا غياث الدين تغلق الثاني هذا أن غلبته فتنة الشباب على أمره
فانصرف عن شئون الدولة إلى مِيتعه الخاصة وملاهيهِ . حتى إذا ماركب
الشطط في معاملة ذوى قرباه من الأمراء ورجال الدولة فسلك
معهم سبيل العنف ، اجتمع عليه ابن عمه أبو بكر ونفر من أفراد
أسرته فأطبقوا عليه في قصره .

ولئن أفلح الأمير في الخروج من باب جهنم ووزيره سالمين ،
إلا أن الثوار سرعان ما لحقوا بهما عند النهر فقتلوهما لوقتهما ، ولم يكن
قد مضى على السلطان الجديد في الحكم إلا شهور خمسة وبضعة أيام .
ولم ترض عصابة الأمير محمد بن فيروز عن جلوس الأمير
أبي بكر على العرش فتربصوا لوزير شاه خوشدل عند سمانه
وهو في طريقه لقتال زعيمهم ، فقتلوه وبعثوا برأسه إلى أميرهم
في حصنه وحرضوه على القدوم إليهم والدفاع عن حقوقه الشرعية
في الحكم .

وبرغم ما جمعه الأمير محمد من قوات الدواب فقد توالى
هزائمه أمام ابن عمه بظاهر دهلي . حتى إذا ما ضاق الناس في العاصمة
ذرعاً بشدة وطأة أبي بكر عليهم وعنفه معهم ؛ - بعثوا يحرضون

ابن عمه على الزحف إليهم من جديد ، فلم يملك أميرهم إلا الهرب
وفتة من أنصاره إلى بهادر نهير صاحب موات لاجئين
وما إن جلس السلطان الجديد ناصر الدين محمد تغلق الثانى على
عرش دهلى فى رمضان من عام ٧٩٣هـ / ١٣٩٠ م حتى عهد
بالوزارة إلى إسلام خان، ثم أمره وولى عهده همايون بالتحروح
فى طلب أبى بكر ، فازا لابه حتى أوقفاه ومضيفه فى الأسر ، ليعفو
السلطان من بعد ذلك عن صاحب موات ويلقى بابن عمه فى الحبس
فيقضى بعد قليل .

كذلك أنفذ ناصر الدين إلى السكجرات قائده ظفر خان ، وهو
الذى استقل بها فى أوائل القرن التاسع الهجرى وأسس بها أسرة
مالكة . وحذا حذوه فيها بعد أمراء مالوه وخاندش فلم تسترد
دهلى نفوذها هناك إلا أيام الدولة المغولية .

وأفلح إسلام خان فى القضاء على ثورات بعض الأمراء
الراچپوتيين فى الدوآب ، فى حين سار السلطان بنفسه الى أتاوه
فهدم حصونها وكان الثوار يتعرضون منها القوفل الحجاج والمسافرين .
وفما كان محمد تغلق الثانى فى طريقه الى العاصمة بلغه تأمر
إسلام خان للاستحواذ على لاهور والملتان لنفسه حتى راح ،
فى سبيل تحقيق مأربه هذا ، يهيم لقيام الاضطرابات بها ، فساقه

حال وصوله إلى حتفه .

وخرج السلطان عام ١٣٩٢/٥٧٩٥ م بنفسه إلى مِوات،
برغم مرضه ، للحد من طغيان صاحبها بهادر نهر الذي غره
عفو صاحب دهلي عنه فاقدم على انتهاب ماحول العاصمة من
أماكن ، فهزمه وأرغمه على الفرار .

وما إن بلغ السلطان حصن محمد آباد بظاهر دهلي حتى أودت
به العلة . ولم يجلس ابنه همايون الملقب بسكندر إلا أياما قليلة
على عرش دهلي حتى فارق الدنيا بدوره .

ورق العرش من بعده أخوه ناصر الدين محمود نخلع على
وزيره خواجه جهان لقب وكيل السلطنة في حين ولي سارنك
خان إقليم ديبالپور .

وأدى تنافس أمراء ورجال الدولة فيما بينهم على مظاهر
النفوذ وانقسامهم شيئا واحزا ، مع ضعف السلطان ، إلى أن جنح
كثيرون من حكام الولايات وأمراء الهنداكة إلى نبذ سيادة دهلي
والاستقلال بما بأيديهم من إمارات وحصون . بل إن الوزير
خواجه جهان نفسه أعلن استقلاله بجونپور وأسس فيها أسرة
حاكمة هي التي تعرف في التاريخ باسم أسرة ملوك الشرق (شاه
شرقي) . وقد امتد نفوذها في أوقات كثيرة إلى البنغال جارتها

الشرقية . هذا في حين لم يكتف سارنك خان باستقلاله بدبباپور حتى سقط على الملتان فهزم السكهكر ودخل لاهور .

ولم يقف الحال بالدولة عند هذا القدر من التفكك . فقد خرج السلطان عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م إلى بيسانه وكواليا وفي صحبته جملة من الأمراء وفيهم سادات خان ، فما إن أحس هذا الأخير بتأمر بعض زملائه عليه حتى سقط على بعض منهم فقتلهم ، ثم قفل راجعا إلى العاصمة ليجد مُقربَ خان نائب السلطان قد سبقه إليها فقبل أبوابها في وجهه .

هنا لك بعث هذا الأمير النائر يستدعى أحد احفاد فيروز شاه ، فنادى به بمدينة فيروز آباد سلطانا على الهند باسم نُصرت شاه . ولئن كان سادات خان قد لاقى حتفه بعد قليل على أيدي أعدائه إلا أن صنيعه هذا قد أدى إلى قيام شيعة قوية ، التفت حول السلطان الجديد ، تناهض حزب صاحب دهلي . وصارم كل فريق منهم القضاء على غريمه دون أدنى التخاذل إلى مصالح البلاد أو إشفاق عليها حذر الهاوية التي كانت تتردى فيها . فها قد أقبل تاتار خان بن ظفر خان صاحب الكجرات ومعه قتلغ خان بجنودهما لشد أزر نصرت خان ، في حين قدم راجاموات ومعه ملو إقبال خان أخى سارنك خان صاحب دبباپور والملتان

فتزلا بقواتهما بظاهر المدينة متربصين بالفريقين اللذين ظلّا يقتتلان طوال أعوام ثلاثة هلك فيها خلق كثير حتى كان يجاوز عدد القتلى بضعة آلاف في اليوم الواحد .

وجاءت الأنباء في هذه الأثناء بعبور پير محمد جها نكير، حفيد تيمور السند في مستهل عام ٧٩٩ هـ / ١٢٩٧ م واستيلائه على حصن أوكا وتوغله في الملتان ؛ والأحزاب المتقاتلة سادرة في غيها .

فهذا إقبال خان يبادر بالانضمام إلى نُصرت خان الذي ما يلبث بعد قليل أن يقف على ما يدبر له من كيد فيتركه إلى باقيّات ؛ في حين ما يزال السلطان محمود يتحصن مع مقرّب خان وبها دُر نهير بدلهي القديمة .

وتمكن إقبال خان آخر الأمر من أن يقضى على مقرّب خان، وبهذا غدا السلطان محمود في قبضته يوجهه كيف يشاء .

ولئن كانت الفتنة قد تكسرت حدتها وطفق إقبال خان يبذل الجهود لتنظيم شئون الدولة وأمورها من جديد ، فإن الأوان كان قد فاته على كل حال . ذلك أن تيمور كان قد أقبل بنفسه على الهندستان فما برح يسوى حصونها بالأرض ويحرق مدنها ويهلك الجموع الغفيرة من أهلها حتى بلغ دلهي التي استعصت

من قبل على المغول وغيرهم من الغزاة قرونا أربعة ^(١) .

الغزو التيمورى وآثاره

تروى د ملفوظات تيمور ، ^(٢) أن هذا المحارب الجبار حين حدثته نفسه بالخروج للغزو والجهاد استشار رجاله إلى أى البلدين يخرج ، الصين أو الهند . فبينوا له أن من يقصد الهند عليه أن يواجه عقبات أربعا كبيرة ، إن اجتازها تغلب عليها دانت له هذه البلاد بكنوزها وثرواتها التى يخطوها الحصر ولا يحصيها العد . أما أولى هذه العقبات فهد السند بفروعه الخمسة التى لا يتسنى اجتيازها إلا بالسفن والجسور ، والثانية آجام الهند وغاباتها كثيفة الأشجار متشابكة الأغصان وعرة المسالك ، والثالثة أمراء هذه البلاد من مسلمين وهنادكة ، وكلهم على دراية تامة بدروب السير فى هذه الآجام والعيش فيها ، والرابعة فيول الحرب المدربة التى يستخدمها أهل هذه البلاد فى مهارة فائقة ، حتى لتنتشر سرعة خفيفة فى حومة الوعى فتطوى الفارس

١ — Lane-Poole India, P 159

٢ — وتعرف أيضا باسم توزك تيمورى ، وهى سيرته التى أملاها بنفسه (وهى بالجنائية) انظر ص ٢٩٤ - ٩٦ من الترجمة الانكليزية لها فى Elliot and

Dowson. History of India. London 1871. vol. 3

وفرسه بخرطومها ثم ترفعهما في الهواء ، وما تلبث تضرب بهما الأرض حتى يقضيا نحبهما . وهذا هو السلطان محمود الغزنوى ، وكان فى قلّة من الجند لا تصل إلى ما فى ركاب تيمور ، قد تغلب على ذلك كله من قبل وآب من هناك بأكداس طائلة من الذهب والفضة والجواهر .

وانبرى من بين الحاضرين شـهـرخ ، أحد أبناء تيمور ، يحرّض أباه بدوره على فتح هذه البلاد حتى يصير سيد الأقاليم السبعة بلامنازع ، فقال له : إذا كان صاحب الروم يسكنى بالقىصر و السلطان التتر بالخاقان وإمبراطور الصين بالفغفور ، وملك إيران وطوران بالشاهنشاه ، أى ملك الملوك ، وذلك لخضوع أمراء الهند وراجواتها له ، وقد صرت ، والمثنت لله ، شاهنشاهها على إيران وطوران فن المؤسف ألا تمت سلطانك إلى الهندستان .

هذا وقد نبه تيمور رجائه بأن عليه عند فتح هذه البلاد ألا يطيل وجنده الإقامة بها . ذلك أن البيئة الهندية من شأنها أن تبعث الخور والضعف فى النفوس ، فتفترهمم الجند على ممر الزمن ويفقدوا بالتدريج صفات الشجاعة ومسئلمات البطولة .

وفى ما كان تيمور يعد العدة لغزو الهندستان وافاه بريد حفيده پير محمد جها نكير ينبئه فيه بأنه ، بعد أن دانت له بلاد كابل وغزنة

وما حولها، استطلع أحوال الهندستان فوجدها بعد وفاة فيروز شاه قد استبد بالامر فيها اثنان من أمرائها أخوان، فأقام اكبرهما، ويدعى، لولاقبال خان، بدهلي إلى جانب سلطانها محمود، في حين استقر الثاني، وهو سارنك خان، بالملتان^(١).

وتقدمت طلائع تيمور وعليها حفيده هذا فعبرت السند في مسنهل عام ١٣٩٧/٥٧٩٩ واستولت على حصن أوكا ثم اتجهت إلى الملتان كما ذكرنا من قبل.

وحاول سارنك خان أن ينقذ هذه المدينة، لكن القائد التركي^(٢) فاجأ قوات هذا الأمير الكثيرة وهي تعبر السند فضاع أغلبها. وكان من غرق من رجالها أكثر من سقطت تحت ضربات السيوف.

وسقطت المدينة نفسها بأيدي جها نكير بعد حصار دام ستة أشهر استطاع سارنك خان إبانة أن ينجو بنفسه منه.

وأقبل تيمور لنك بنفسه على الهندستان فعبر السند بقواته في المحرم من عام ١٣٩٨/٥٨٠١ م فالتقى بقوات شهاب الدين مبارك،

١ - يوحى هذا الحديث كله بأن تيمور لم يكن يقبل على غزو بلد ما قبل الوقوف على أحواله.

٢ - تيمور وأولاده هم من عروق الترك لا المغول وسنبين ذلك تفصيلا في الجزء الثاني من هذه الكتاب في حديثنا عن الدولة المغولية إن شاء الله.

أمیر بهیت ، وكان قد خضع أول الأمر لپیر محمد ثم انتقض عليه . وقضى تیمور على أول قوات اعترضت سبيله ليعبر جینآب ، رافد السند الكبير ، من بعد ذلك إلى حصن تولابه عنده ملق هذا الرافد بأخیر او ی حیث انتشر جنده یتهمون ماحولہ من أرضین طلبا للذون ، و یجمعون الأموال التي لم یُعف من أدائها إلا العلماء والشیوخ . ولم یرح الغزاة المكان إلا بعد أن أعمالوا سیوفهم فی حماة هذا الحصن وكانوا یزیدون على الألفین من الکمکر .

وبلغ تیمور من بعد ذلك دیالپور ، وكان أهلها قد فسكروا بمظفر کابلی نائب جها نکیر علیها ، فوجد أكثرهم قد تزخوا عنها فرقا فاعتصموا بحصن بهتیر القوی المنیع . على أن دفاع رای دل چندورجاله الأشداء عن هذه القلعة لم یغهم فتیلا أمام بأسر الغزاة الذین اقتحموها علیهم فأعمالوا سیوفهم بمن كان فیها من هنداکة ومسلمین ثم سوا الماء بالأرض . وأعجب تیمور ببسالة الأمیر الهندوکی وشدة مراسه فی القتال فعفا عنه وخلع علیه .

وانطلق الغزاة من بعد ذلك إلى سر سوتی فلم یمنعهم استسلام أهلها لهم بعد مقاومة قصيرة . وكان أغلبهم من الهنداکة . من أن یعملوا سیوفهم فیهم ، فلم ینج منهم من القتل إلا من نطق بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص .

ونزل تيمور من بعد ذلك بمدينة فتح آباد ليُنفذ منها فريقان
جندته ليعقب - في مناطق التلال والغابات القرية - قبائل الزُط
التي دأبت على قطع الطريق على المسافرين والتجار والحجاج وإلحاق
الأذى بهم.

ووافى الغازي التركي عند كهنل، على مقربة من سمانه، جيوشه
التي كانت تنتشر في المثلثان ولاهور فانضمت إلى قواته فأخذ يعد
العدة بها جميعا لاحتحام دهلي.

وسارت جموع الغزاة إلى حاضرة الهند فإذا بالبلدان والقرى
على طول الطريق قد هجرها أغاب أهلها هربا من وجه الغزاة، فلم
يتركوا بها من الأرزاق والمتاع ما قد يجد العدو فيه نفعا له أو مددا.
وبلغ تيمور پانی پُست فَنزل في جهانمه، إحدى منشآت فيروز تغلق
الفخمة، لينتقل منها بعد قليل، عبر جمنه، إلى الدوآب فيستقر بملعة
لونی بعد أن أفتى حاميتها على بسكرة أبيها. وقد توفر له في مقامه
الجديد هذا تموين قواته بما تحتاجه من مؤن وأرزاق.

وندب تيمور من فوره، قائديه سايان خان وجهان خان
لاستكشاف الأرض عند مشارف دهلي الجنوبية والجنوبية الشرقية،
في حين عبر هو الزهر في نفس اليوم في سبع مائة فارس ليدررس
موقع المدينة عامة.

هنالك أراد سلطان دهلي ومعه وزيره ملو إقبال أن يباغتوا
عديهما وهو في قلة من جنده فسيروا إليه خمسة آلاف من الفرسان
ومعهم سبعة وعشرون من الفيلة لكنهم باءوا بالفشل وقُتل قائدهم
محمود سيف .

وآب تيمور إلى معسكره ليأمر قواته بالتحرك في الصباح
التالي صوب الشرق من موافقهم . حتى إذا ما أنهى إليه بعض رجاله
بشيوخ الفرع والسرور بين الأسرى في معسكره حين علموا بما غتته
قوات دهلي له في حملته الاستكشافية : — خشي أن يركنوا ، والمركة
دائرة ، إلى تهديد مؤخرته وتخريب معسكره ، فأمر من فوره
بقتل كل من كان منهم فوق الخامسة عشرة ، وتوعّد كل من قد
يتوانى من رجاله في تنفيذ ذلك بضرب عنقه ؛ فكان من بين مرافقيه
من العلماء من اضطر إلى ارتكاب إثم القتل أول مرة في حياته
إبقاء على نفسه . وناف عدد من سقط من الأسرى في هذا اليوم
على المائة ألف (١) .

وعبرت القوات الغازية النهر في مستهل جمادى الأولى من
عام ٨٠١ هـ ، وكان تيمور على قلب الجيش ، في حين قاد الجناح
الأيمن بير محمد جها نكير ويادكر برلاس ، وقاد الجناح الأيسر

سلطان حسين والامير خليل وجهان شاه .

وبرز محمود تغلق سلطان دهلي ومعه وزيره إقبال خان على رأس عشرة آلاف من الفرسان وأربعين ألفاً من المشاة ومعهم مائة وخمسة وعشرون من فيول الحرب المدربة . على أن بعض قوات تيمور سرعان ما أفلحت في التسرب خلف مقدمة عدوهم ماعته ، فقتلت منهم ستمائة في هجمة واحدة ، في حين نجح پير محمد في تشتيت شمال جناح جيش دهلي المواجه له حتى اضطر رجاله إلى الفرار من الميدان .

وبرغم ما نزل بجند دهلي من ضربات شديدة ، فقد استمات السلطان ووزيره في افتال بشجاعة واستقبال ، فاندفعا يهاجمان بقواتهما قلب الجيش الغازي في بأس شديد . حتى إذا ما تصدعت الصفوف أمام شدة وطأة العدو ، انسحبوا من الميدان عجلين قفزلا بحصن جهما نبناه ، ثم ما لبثا أن غادراه في اليوم التالي إلى منطقة الجبال ، فلم تصل إليهما أيدي المطاردين . واستقر المقام آخر الأمر بالوزير في بئرمن في حين سار السلطان إلى الكجرات .

وفي الثامن من جمادى الآخرة كانت بنود تيمور ترفرف بأعلى أسوار دهلي ، وقد وقف العلماء والأعيان تحتها في انتظار قدوم الخاقان الفاتح ليقدموا له فروض الولاء ويسألوه العفو والأمان .

ودخل تيمور المدينة بعد أن تم له اتهام مضارب أعدائه فأجريت الخطبة له ودُعى له على المنابر ^(١) . ولم يكن ما أنزله تيمور بأعدائه من خسائر فادحة في ساحة الوغى ليقاس بما ارتكبه رجاله في دهلي — ولما يرض عليهم أيام قلائل بها — من مذابح رهيبة ونهب وسلب ندر وقوع مثله في التاريخ .

ومجمل الأمر كما يذكره تيمور نفسه في سيرته . هو أن فريقاً من جنده الأتراك كان قد نزل المدينة قصد الترفيه، فما غدا أن استهوت رجاله معروضات التجار فراحوا ينتهبونها . وما لبث الجند الذين بعث بهم تيمور لكف أيدي هؤلاء الناهبين أن انضموا بدورهم إليهم . هذا في الوقت الذي انطلق فيه جند آخرون من الغزاة يجمعون ما فُرض على أهل المدينة من غرم مالي ، في حين كانت هناك فرقة رابعة تجمع التموين للجيش من زيت وحب وسكر ودقيق . وفيما كانت المدينة تغص بهؤلاء جميعاً ، بلغ تيمور تحصن التجار والأعيان في دورهم وامتناعهم عن دفع ما فرض عليهم من غرم ، كما بلغه أيضاً نزول جمع كبير من الهنادكة المدينة

١ — ظفر نامه لشرف الدين يزدي طبع كلكتا ١٨٨٥ - ١٨٨٧ مجلد ١١٥/٢

ومعهم أسراهم وبضائعهم وأحماهم قادمين من المناطق المجاورة ،
فأنفذ قوة أخرى من الجند لتأتيه بهم جميعا من فورهم .
هكذا غدت العاصمة تغص بما لا يقل عن خمسة عشر ألف
جندى كان أغلبهم من المشايخين باعتراف تيمور نفسه ،
فاتخذوا من مقاومة الأهلين لهم ذريعة للفتك بهم ونهب
أموالهم ومتاعهم .

وإذ رأى الهنادكة أموالهم تنتهب ونساءهم تسيى ، بادروا
بإغلاق أبواب المدينة وذبحوا نساءهم وأطفالهم بأيديهم ، ثم
برزوا مع الأهلين لقتال جند تيمور الذين توالى عليهم الإمدادات
بدورهم ، فجرت في المدينة مذبحة شنيعة مدمرة بلغ من هولها
أن سدت جثث القتلى لكثرتها المسالك والطرق . ولم يمنع
استسلام الأهلين الغزاة من متابعة النقتيل في قسوة بالغة . حتى
إذا ما كلت سيوفهم ، سلكوا في أسرهم من كُتبت لهم الحياة
من السكان ، فكان من الجند من ضمت قيوده الخمسين منهم ، ولم
يكن فيهم من قل أسراه عن العشرين ، فضلا عما حملوه معهم
من الذهب والفضة وكل ثمين وغال من المتاع . ويقدر
المؤرخون عدد ضحاياهم من القتلى بهذه المدينة وحدها بما يزيد على
المائة ألف .

ويحاول تيمور في سيرته أن يبرىء نفسه من إثم هذه
المجازر البشعة فيعتذر برد الأمر كله إلى المقدور وفق المشيئة
الإلهية. وإذا كان هو حقا جادا في أسفه على فعلة جنده هذه، فما باله
إذن لم يأمر باطلاق سراح الأسرى على الأقل وردهم إلى دورهم
تكفيرا له ضعيفا عما ارتكبه رجاله من إثم وأى إثم. ذلك أنه
حين دخل المدينة من بعد ذلك فأتى له بكتوزها وغنائمها، أمر
باصحاب المهن والحرف من بين الأسرى نخس بهم عماله وأمرأه،
بعد أن احتجز لنفسه منهم البنائين ورجال المعمار وفيهم أولئك
الذين أقاموا لفيروز تغلق مسجده الذى سجل سيرته على جدرانہ.
وهؤلاء أنفسهم هم الذين بنوا من بعد ذلك للخاقان التركى مسجده
الكبير بسمرقند على نمط مسجد فيروز، كما صوروا مشاهد وقائمه
الهندية كذلك على جدران قصوره، إلى جانب منبشات أخرى
كثيرة أقاموها له^(١).

وأزمع تيمور لنك الإياب إلى بلاده، فعادر دهلې في
آخر جمادى الآخرة بعد أن قضى بها خمسة عشر يوما، فما إن بلغ
فيروز آباد حتى أقبل عليه بهادر نهر صاحب موات ومعه
خضر خان مستسلمين.

وسار تيمور من بعد ذلك إلى ياني پت فبعث منها بعشرة آلاف من رجاله إلى حصن ميرات (ميروت)؛ لكن حسن دفاع أصحابه عنه ، وكان فيهم الياس أفغان وابنه مولانا أحمد تيمسرى ، منعه عليهم ، حتى خرج إليه الخاقان بنفسه فاقحمه على حماته واتهب أموالهم ، ثم أمر بالبناء كعادته فسوى بالارض . ومن ثم تصعد المنتصرون في تلال سواك بالپنجاب حتى بلغوا حصن جامو فاستولوا عليه ، لينطلق فريق منهم من بعد ذلك في أثر شيخا كهكر ، وهو أمير هندوكى كان قد استسلم لتيمور عند قدومه الهندستان فقر به إليه ثم مالبث أن انتهز فرصة ابتعاد قوات الغزاة عنه فطرد رجالهم من لاهور والملتان واستقل بهما . ومالبث رجال تيمور أن استردوا لاهور بعد حصار قصير وجاءوا بالثأر الهندوكى نفسه إلى سيدهم عند جامو فأمر به فأعدم . وفي جامو عهد تيمور لنائبه خضر خان بالملتان ولاهور ودبپالپور ثم تابع سيره إلى سمر قند عاصمته عبر طريق كابل (١) . وكان من أثر الغزو التيمورى ، وما أشاعه في البلاد من خراب ودمار ، أن اجتاحت الفوضى والاضطراب كافة الأقاليم التي

دخلها الغزاة . وبدا أخطر مظهر لهذا كله في العاصمة التي عانت من هذه المحنة مالا يبلغ وصفه بنان أو بيان . فقد هلك أغلب أهلها ونُهِيت دورها ومتاجرها وتفشت فيها المجاعات الطاحنة والابوة الفاتكة . وظل زمام الأمور فيها منفلتا حتى أطبق عليها الأير نُصرت شاه قادما من محبته من ميروت بالدواب في الفين من الفرسان .

على أن إقبال خان ، وكان ينزل في بَيْرْمَن غير بعيد من دهلي ، ما لبث أن استخلص العاصمة لنفسه وأرغم هذا الأمير على الارتداد إلى محبته من جديد . وما إن انصرم عام ١٨٠٣/١٤٠٠م حتى كان هذا القائد قد بسط نفوذه على منطقة الدواب فيما بين لكهناتوق وبيانه .

واستقدم إليه من بعد ذلك السلطان محمود تغلق ، وكان قد غادر بدوره ملجأه بالكجرات إلى مالوه على أثر ما لاحظته من فتور صاحبها ظمير خان نحوه ، فأجرى عليه رزقا حسنا قنع به عن التطلع إلى الحكم .

وبلغ إقبال خان خبر وفاة مبارك شاه شرقي صاحب جونپور ، فبرز بقواته إلى قنوج وفي صحبته محمود تغلق ، وكان إبراهيم شاه شرقي أخى سلطان جونپور الراحل قد شخص إليها بدوره .

وانفلت السلطان محمود إلى معسكر خصمه وقد أمل أن يستعين به على استرداد نفوذه ، لكنه رده عنه خائبا حسيرا . وتفاوض إقبال خان عن فعلته هذه ، وقد نصبه آخر الأمر على قنوج ثم عاد إلى دهلي .

وغزا صاحب دهلي من بعد ذلك كواليار وأتاوه ، وكانت في حوزة عصبة من الأمراء الهنادكة فالزمهم بدفع جزية سنوية له . ثم تطلع لاسترداد الملتان فزحف إليه مع أمراء سمانه وما حولها ، لكن خضر خان نائب تيمور هناك ألحق بهم جميعاً هزيمة حاسمة في جمادى الأولى عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، سقط فيها إقبال خان نفسه صريعا ، فما إن بلغ الخبر دولت خان لودهي حاكم دهلي حتى بادر من فوره باستدعاء السلطان محمود تغلق وأجلسه على العرش .

ولم يلتفت محمود تغلق إلى الخطر الجديد الذي بدا على أثر قضاء خضر خان على قوات إقبال خان وحلفائهم فبعث بقائده دولت خان لودهي لإخضاع بيرم خان في سمانه في حين سار هو إلى قنوج فالتحم مع إبراهيم شاه شرقى الذى رده عنها . وأدى سوء معاملة السلطان لجنده أن انصرف أغلبهم عنه ، حتى كاد إبراهيم شاه شرقى أن يدخل دهلي نفسها فلم يمنعها عنه

إلا ما بلغه من استيلاء مظفر خان صاحب السكجرات على مالوه ومتابعته الزحف إلى جونيور .

وأقبل خضر خان نائب تيمور بدوره آخر الأمر على العاصمة فضرب عليها الحصار في عامين متتاليين فلم يكن يرده عنها في كل مرة إلا نفاذ مؤنه .

ووافى السلطان محمود تغلق أجله بعد ذلك بقليل في ذى القعدة عام ٨١٤ هـ / ١٤١٢ م خلفه دولت خان لودهى .

ولئن كان هذا الزعيم الأفغانى قد أفلح في ضم بعض أمراء البلاد المجاورة للعاصمة إلى صفه فإنه آخر الأمر لم يقو على الوقوف في وجه خضر خان الذى أقبل هذه المرة في ستين ألف فارس دخل بهم دهلى في ذى الحجة من عام ٨١٦ هـ / ١٤١٤ م بعد حصار دام أشهر أربعة .

ملوك الطوائف

لئن كان الضعف قد بدأ يتسرب إلى كيان الدولة الإسلامية بالهندستان منذ أواخر عهد محمد تغلق وبداية حكم خلفه فيروز^(١)، إلا أن الغزو التيمورى كان هو بالأمراء العامل الأكبر الذى أدى إلى تفكك هذه الدولة: ذلك أن أغلب ولاياتها الكبرى الهندية كالوَه والكُجرات وجوْنپور والبنغال والدكن، مالبثت على أثر هذا الغزو أن انفصلت عنها انفصالا تاما وأعلن أصحابها إستقلالهم بها، فلم يفلح سلاطين دهلى فى بسط نفوذهم على هذه الولايات عموما من جديد، إلا فى عصر الدولة المغولية التى أقامها أحفاد تيمور لنك نفسه بالهندستان فى القرن العاشر الهجرى فعمرت قرون ثلاثة شهدت فيها شبه القارة الهندية على أيديهم حضارة رائعة قوية ومدنية مزدهرة بزت، بإجماع الثقافات من المؤرخين، نظارها عند أرقى الدول لذيالك الوقت.

١ - الواقع أن فيروز تملق بإصلاحاته ومشروعاته العمرانية المفيدة وميله إلى ما فيه خير رعاياه قد أفلح فى حمل الناس على التماق به والركون إلى الهدوء، ولكنه لم يصل بذلك إلى تدعيم هيبة الملك إذ غلبت طبيئته ومسالته على حزمه.

على أن أغلب سلاطين هذه الولايات المستقلة التي سنتحدث عنها فيما يلي ، وهم في غمرة كفاحهم لتوسيع رقعة ملكهم أو دفع من عسائه يطمع في أراضيهم ، قد حرصوا كثيرا على العمل على رقي بلادهم والنهضة بها : الكجرات : تعد هذه الامارة ثاني إمارات الهند الإسلامية بعد دهلـي . ذلك أنه فضلا عن خصب تربتها ومانحويه من ثروات طبيعة هي ، أولا وقبل كل شيء ، باب التجارة الهندية الغربية منذ القدم ومنفذها إلى إفريقيا وآسيا . فمن شاطئها عند سورات وخليجها كمباي كانت تبخر السفن بمنتجات الهند من توابل وثمار وعطور وسيوف ومنسوجات حريرية وقطية وأحجار كريمة إلى بلاد العرب والبحر الأحمر فتُنقل من بعد ذلك برا إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط لتجملها فلك أخرى من هناك إلى ثغور أوروبا . لهذا كان هذا الإقليم محط أنظار أغلب غزاة الهند حتى قبل عصر الإسكندر . وكان أول من اقتحم الكجرات من أمراء المسلمين محمود الغزنوي ليحطم معبد سومنات أحد مقدسات الهنادكة العظمى . على أن سلطان المسلمين لم يرسخ فيها إلا على أيدي علاء الدين الخلاجي عام ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م . وقد أعلن مظفر خان ، حاكم هذا الإقليم من قبل سلطنة دهلـي ، استقلاله به عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م وذلك على أثر الغزو التيموري للهندستان .

وخلف هذا الأمير حميده أحمد شاه الذى قضى أغلب حكمه فى حروب متواصلة أتاحت له توسيع رقعة ملكه. وعنى هذا الأمير بتنظيم شئون الحكومة ، كما أقام كثيرا من المنشآت وبنى مدينة أحمد آباد وحض التجار والصناع على النزوح إليها والإقامة بها . هذا كما بذل نشاطا كبيرا فى نشر الدين الإسلامى بين السكان والقضاء على الشرك وعبادة الاوثان وقد هدم فى سبيل دعوته هذه كثيرا من معابد الهندوكيين هناك .

ويُعد السلطان محمود بيكر ، حميد أحمد شاه ، أعظم حكام الكجرات طرّا . وكان مما ساعد على ذبوع صيته وانتشار شهرته ماعقده من عزم فى أواخر حكمه على طرد البرتغاليين من سواحل الهند الغربية وإبعاد خطرهم عنها . وكان هؤلاء المستعمرون قد نزلوا على مقربة من بمباى وأخذوا يقطعون الطريق على سفن التجارة والحجيج .

وعاون الممالك المصرية والسلاطين العثمانيون محمود بيكر وخلفاءه على محاربة هؤلاء الدخلاء^(١) . وبرغم حسن بلاء أساطيل

١ — امتد خطر البرتغاليين الى مدخل البحر الأحمر فبلغ مياه الأراضى المقدسة حتى سارع المصريون الى تحصين موانئهم الحجاز . كذلك لى فتوة النورى سلطان مصر دعوة سلطان الكجرات فبعث بسفنه لمحاربة البرتغاليين الذين

المسلمين فقد انتهى الامر بالبرتغاليين إلى تثبيت أقدامهم في بضعة مواطىء بالشاطئ الغربى للهند، من بينها مقاطعة جوا البحرية التى تلح اليوم الهند عليهم بالجللاء عنها.

وقضى هذا السلطان بعد أن حكم اثنين وخمسين عاما بلغ فيها صيته محافل أوروبا لما كان عليه بلاطه من أبهة بالغة وتقاليد رفيعة، إلى جانب ما أثر عنه نفسه من ميل إلى العدل واتصاف بالحزم والشجاعة.

ولم يأل بهادر خان، آخر حكام الكجرات الكبار، جهدا فى توسيع رقعة ملكه فاستولى على أغلب مالوه واقتحم قلعة چتور بالراجپوتانا. وبرغم هزيمته أمام همايون ثانى سلاطين الدولة المغولية بالهند، فقد أفلح من بعد ذلك فى استرداد جزء كبير من أراضيه، وذلك حين أخرج شير شاه، همايون من الهند. وبذل هذا السلطان جهودا صادقة لطرد البرتغاليين من جزيرة

== أضربا بتجارة البحر الأحمر وكانت من مصادر ثروة الممالك، كما أنت سفن سليمان القانوني سلطان العثمانيين به وره، مساعدة الكجراتيين وتبادل المرفقان الانتصارات مرات عدة حتى كتبت الغلبة آخر الأمر فيما بعد للبرتغاليين. حقائق الأخبار لإسماعيل سرهتک أول من ٥٤٨ وثنان من ١٨٨

Cambridge Hist. of India Vol 3. pp 212, 16, 536, 7.

ديو التي كانوا يتحصنون بها ، وكادت جهوده تسلك بالنجاح لولا أن دبّر أعداؤه أمر مقتله غرقا وهو في طريقه للمفاوضة معهم .

وصار أمر الكجرات إلى أن ضمها أكبر ، ثالث سلاطين المغول وأعظمهم ، إلى ملكة عام ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م .
مالو : وإلى الشرق من إقليم الكجرات تقع إمارة مالو .
وكان علاء الدين الحلجي هو كذلك أول سلطان مسلم ضمها إلى ملكة .

وانتهز أميرها دلاور خان الغوري ، وكان من رجال فيروز تغلق ، فرصة الفوضى التي عمت البلاد عقب الغزو التيموري فأعلن عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م استقلاله بها ، واتخذ من مدينة دهر حاضرة له . وخلفه ابنه ألب خان الملقب بهوشنك شاه عام ٨٠٧ هـ فنقل حكومته إلى ماندو التي زخرت بجملة من المنشآت الفخمة في عصره .

وجر خصب أراضي هذا الإقليم عليه أطماع حكام دهل وجونپور والكجرات وكانت جميعا تتجاوره . حتى إذا ما مني هوشنك شاه بهزيمة شديدة في حروبه مع الكجرات خلفه على

العرش ابنه غازى خان الذى غلبه وزيره محمود الخلجى على أمره
فقتله واتخذ مكانه .

وأعلى السلطان الجديد من شأن مالهو بما أحرزه من
انتصارات كثيرة فى حروبه العديدة مع أمراء الراجپوتانا
وملكه بهمنى الدكنية حتى امتدت حدوده شمالا إلى رِوار
وجنوبا إلى ساتپورا وشرقا إلى بندلخند وغربا إلى الكجرات .
ولم تقعد به همته حتى كاد يدخل دهلى نفسها لولا صمود بهلول
لودهى قائد سلطانها محمد شاه إذ ذاك فى وجهه (١) .

وقد عرف هذا السلطان إلى جانب حروبه الكثيرة باشتغاله
بالعلوم والفنون والآداب مع حرصه البالغ على إشاعة العدل
بين رعاياه جميعا هنداكّة ومسلمين على السواء .

وهان شأن خلفاء محمود الخلجى من بعده بانصرافهم عن
الاهتمام بشئون الدولة من جهة ، واستوزارهم للهنداكّة الراجپوتيين
من جهة أخرى ، حتى انتزع البلاد منهم آخر الأمر بها درخان
صاحب الكجرات عام ٩٣٧ هـ / ١٥٣١ م ليستخلصها همايون ،
ثانى سلاطين المغول ، لنفسه منه بعد ذلك بسنوات أربع .
خاندش : كذلك كانت هذه الإمارة واحدة من بين

الإمارات الهامة التي انسلخت عن دهلí . وموقعها إلى الجنوب من مالوه فيما بين تلال الوندهايا والدكن ، ويمحدها إقليم برار في الشرق ثم الكجرات في الغرب . وقد شجع ثراء الإقليم وخصب أراضيه حاكمه ملك راجا فاروقى على الاستقلال به اقتداء بدلاور خان الغورى أمير مالوه . ودخل هذا الأمير ، على سنة عصره ، فى حروب كثيرة مع جيرانه لاسيما مع مظفر شاه صاحب الكجرات فكسرها ، ليركن إلى السلم من بعدها وينصرف إلى العناية بشئون بلاده . وأفلح ابنه ناصر شاه فى انتزاع بعض الحصون من أيدي جيرانه الهنادكة كان أهمها حصن أسيركاه ، لكن خلفاءه من بعده غلبهم الضعف فصاروا فى الغالب خاضعين لنفوذ سلاطين الكجرات لاسيما فى عهد السلطان محمود يسكر الكجراتى ، حتى ضم السلطان أكبر المغولى هذه الإمارة إلى ملكة عام ١٦٠١هـ / ١٦٠١م .

جونيپور : هو إقليم واسع كبير يقع إلى الجنوب الشرقى من دهلí ويحده فى أراضيه جمته وكوكرا أكبر روافد الكنج . عاصمته ، التي يعرف على الإقليم كله ، تقع عند شاطئ جمته على قرية من ظفر آباد . وقد أنشأها فيروز تغلق عام ١٣٥٩هـ / ١٣٥٩م ند عودته من حملته الثانية بالبنغال . ذلك أن هذا السلطان رأى ،

في سبيل ضمان إقرار الأمن في هذه الولاية البعيدة، أن ينشئ على مقربة من حدودها مركزا حريا تقيم فيه قوات كبيرة كافية تبادر من فورها إلى القضاء على كل ما قد يقوم من اضطرابات في هذه النواحي ، وبهذا يتفادى ما تتعرض له جيوشه في سيرها من دهلي من مصاعب طريقها الطويل لاسيما إبان فصل الأمطار الموسمية ، فوق اختياره على هذا المكان الذي أطلق عليه هذا الاسم تمجيذا لذكرى ابن عمه الأمير نحر الدين محمد جورنه ، ثم لم يأل جهدا من بعد ذلك في تعمير هذه المدينة وتجميلها بالمنشآت الفخمة الكثيرة .

وأراد محمود تغلق أن يكافئ وزيره وقائده خواجه جهان سرور على ما بذل له من حمة في القضاء على قن الخارجين على سلطانه فأنعم عليه عام ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤ م بلقب شاه شرقي (ملك الشرق) . وعهد إليه بحكومة كافة الأراضي الواقعة فيما بين قنوج وبهار . وما لبث هذا الحاكم أن بسط نفوذه على الدواب واتخذ لنفسه مقاما في جو نپور . ولم يمض إلا القليل حتى أعلن أصحاب لکھناؤد و جاجنکر خضوعهم له بدورهم ، فصاروا يبعثون إليه بالجزية التي جروا على إرسالها إلى دهلي من قبل .
واتهز هذا الأمير فرصة تعرض الهندستان للغزو التيموري

فأعلن إستقلاله بما في يده من أرضين . حتى إذا ما انقلب الفاتح
المخرب عائدا إلى بلاده فسار إقبال خان في قوات كبيرة إلى جونپور،
دفعه أميرها عنها ولم يملكته منها .

كذلك لجأ محمود تغلق بدوره إلى إبراهيم شاه شرق خليفة
مبارك شاه ، على أمل أن يعينه على أسترداده لعرشه من أيدي إقبال
خان ، لكن صاحب جونپور كان أحذر من أن يزوج نفسه في
متاعب هو في غنى عنها .

وأفلح إبراهيم شاه شرق في استرداد إقليم قنوج على أثرزيمة
إقبال خان ومقتله في المثلتان ، ثم تابع سيره إلى دهلي ، حتى إذا علم
بزحف مظفر خان صاحب الكجرات بدوره إليه ، بادربالتراجع
إلى موطنه .

وركن سلطان جونپور إلى السلم من بعد ذلك خمسة عشر عاما
انصرف فيها إلى تنظيم حكومة بلاده و الاشتغال بمختلف فنون
المعرفة حتى غدت جونپور من أعظم مراكزها الإسلامية في
زمنه . وساعد على قيام هذه النهضة طائفة كبيرة من العلماء كانوا
قد لجئوا إلى هذه البلاد هربا من وجه الغزو التيمورى فلقوا بها
كل ترحيب وإكرام ^(١) .

هـذا ولا تزال بهذه الإمارة حتى اليوم جملة من العمار
والمنشآت الفخمة التي أقامها هذا السلطان هناك .

وظل ملوك الشرق هؤلاء يحكمون في جوناپور فترة طويلة
تعرضوا فيها لغزوات اللوذهين الأفغان أصحاب دهلي حتى
انتزعوها منهم .

البنغال : ذكرنا من قبل أن فيروز تغلق قد أضاع برده
وضعه هذا الإقليم الذي يُعد أخصب مناطق الهندستان الشرقية
وأغناها ، وإن لبث أمراء هذا الإقليم يبعثون من حين لآخر
بهذا ياهم إلى سلاطين دهلي .

وقد صار هذا الإقليم في أواخر القرن التاسع الهجري
وأوائل العاشر من أقوى الإمارات الهندية وأعزها جانباً (١) .

ويشتهر من بين حكام البنغال حسين شاه أول من استقل به .
ويذاع عنه ابتكاره لدين جديد يجمع بين عقائد الهنادكة ومذاهب
المسلمين ، وهو نفس الأمر الذي نُسب إلى أكبر أعظم سلاطين
الدولة المغولية من بعد . كذلك عني نُصرت شاه بن هذا الأمير
بتوسيع رقعة ملكه وإقامة جملة من العمار الفخمة ببلاده ، إلى

١ - تحدث ابن بطوطه حديثاً طويلاً عما شاهده بهذا الاقليم من رواج وتقدم

جانب حرصه الشديد على رواج الحياة الثقافية في عهده . وهذا الحاكم الذى ظل ممسكا بزمام أمور البنغال من عام ٩٢١ هـ إلى عام ٩٣٩ م قد وصفه ظهير الدين بابر مؤسس الدولة المغولية في سيرته بأنه أحد الأمراء الخمسة الكبار في الهندستان .

وخلف الأمراء الأفغان هذه الأسرة الحسينية بهمهذه الإمارة حتى انتزعها السلطان أكبر من أيديهم أواخر القرن العاشر الهجرى .

الدكن : لم يتيسر لأحد من سلاطين دهلى منذ وفاة محمد تغلق أن ييسط نفوذه فى الواقع إلى ماوراء تلال الوندهايا جنوبا، فقد راح أمير يدعى علاء الدين كانسكوى (جنجو) ظفر بن يتزعم حركة اضطرابات واسعة فى الدكن ، فأعلن خروجه على سلطان دهلى عام ٧٤٣ هـ ثم راح ييسط نفوذه على كافة الأقاليم الدكنية التى كان كل من علاء الدين الخايجى ومحمد تغلق قد انتزعاها من الأمراء الهنادكة فى الهضبة الهندية الوسطى والسهل الجنوبى . وصارت بلاده تعرف بسلطنة بهمنى نسبة إلى جد له كان يدعى هو بهمن ابن اسفنديار أحد ملوك الفرس الأقدمين . وموقعها اليوم هو لمقليم بمباى وولاية حيدرآباد الدكنية (١) .

وحارب سلاطين هذه الأسرة راجا تلنجانا وضمو إلى ملكهم إقليم غولكونده وأوراكل وأجزاء من أوريسه في شرق بلادهم. وبلغت بلادهم أوج قوتها بفضل وزيرهم محمود جوان الذي كان أول من أنزل هزيمة ساحقة براجا إمارة فيا يانسكر الهندية، واستولى على أجزاء من بلاده التي ظلت مدى قرنين من الزمان مصدر متاعب لما كان يجاورها من الإمارات الإسلامية. وبجهود هذا الوزير ازدهرت كذلك الحركة العلمية هناك، فظهرت مؤلفات قيمة في الرياضيات والطب والأدب. واشتهرت مكتبة هذا الوزير بمدرسته في مدينة بيدر بما كانت تحويه من نفائس المخطوطات الكثيرة^(١).

ولقد أجمع جمهرة من المؤرخين على الإشادة بحسن تدبير هذا الوزير وشجاعته وحده على تدعيم أركان السلطنة وتوسيع رقعتها. هذا مع حرصه البالغ على قيام العدل بين الأهلين، وشدة ورعه وزهده إذ كان لا ينام إلا على حشية بسيطة خشنة، ولا يتناول طعامه إلا في آنية رخيصة من الفخار، مع بره الشديد بالفقراء حتى كان يخرج أغلب دخله لهم. على أن عنفه للبالغ في معاملته لمنافسه واعدائه من أمراء الهنادكة والمسلمين على السواء، قد

دفعهم آخر الامر إلى التآمر عليه بهتاناً عند السلطان محمد الثالث الذى أورده حتفه بأيدي جلاده الحبشى جوهر^(١) ؛ فجاء مقتله إيذاناً بانتهاء هذه الدولة الدكنية الكبرى .

وبلغ عدد سلاطين بهمنى أربعة عشر حاكماً ، كانوا فى الغالب على غلظة شديدة وميل بائع إلى سفك الدماء ، وإن لم يمنعهم ذلك من العناية بشئون بلادهم ، فأمنوا الطرق وشقوا الترع والقنوات ، واهتموا بالزراعة والصناعة والتجارة ، ورعوا العلوم والفنون . كما أقاموا كثيراً من المنشآت والمدارس والمساجد ، وإن لم تبلغ العمارة عندهم من الروعة ما بلغت عند غيرهم من الأمراء المسلمين بالهند . ولقد هال جوارى هذه البلاد مارأوه عندهم وعند رجالهم من الثراء الفاحش و"البذخ" البائع ، إلى جانب البؤس الذى كان يقيم فيه أغلب العامة ، وهى سُنّة من أسوء سنن العصور الوسطى التى كانت شائعة فى كل بلد على كل حال .

ولم يمض عامان على مقتل الوزير محمود جوان حتى طفق عقد سلطنة بهمنى بنفرط بالتدريج حتى إذا ما أهل عام ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م أسدل الستار نهائياً على هذه الدولة التى عمرت قرابة قرنين من الزمان ، فقسمت أراضيها إلى خمس ممالك إسلامية مستقلة

متحاربة على الدوام هي برار وبيجاپور وأحمد نكر
وغولكونده ويدّر .

وكانت برار هي أول إمارة انسلخت عن أسرة بهمنى ،
ليستقل بها عام ١٤٨٤/٥٨٩٠ م فتح الله عماد شاه ، وكان في أصله
هندوكيا اعتنق الإسلام . ولبثت أسرة عماد شاه هذه تحكم تلك
الإمارة حتى عام ١٥٧٤/٥٩٨٢ م ليضمها أمراء نظام شاهي
أصحاب إمارة أحمد نكر من بعد ذلك إلى ملكهم .

أما سلطنة بيجاپور فيقال إن يوسف عادل شاه ، أول
سلاطينها ، كان في الواقع من أبناء السلطان العثماني مراد الثاني ،
وكانت أمه قد فرت به من وجه أخيه محمد الفاتح حين بلغها
ما انتواه من قتل جميع إخوته الذكور صرنا لعرشه ، فاحتالت
على تقديم ولد آخر بدل أنها الذي عهدت به إلى تاجر فارسي . ولم يطل
المقام بالأمير العثماني بإيران ، فقصده إلى الدكن مع قوافل الفرس
والأتراك الذين كان يجتذبهم صيت بلاط بهمنى الذائع ، فالتحق
بخدمة الوزير محمود جوان الذي أنزله في نفسه منزلة ولده .

وحين بدأ الضعف يدب في سلطنة بهمنى عمد يوسف هذا
عام ١٤٨٩/٥٨٩٥ م إلى إعلان استقلاله بهذه الإمارة .
وتعرض هذا السلطان لهجوم هنادكة فيا يانكر مع فريق من

جيرانه بتحرّض من قاسم بريد وزير سلطنة بدر فأدى ما أنزلهم من هزائم، مع استيلائه على معسكراتهم، إلى توطيد أقدامه وذيوع صيته. و خان هذا السلطان التوفيق بعد قليل حين أعلن اعتناقه لمذهب الشيعة وراح يحمل قومه على الدخول فيه قسراً، حتى تألب جميع جيرانه عليه، واضطروه إلى الخروج من بلاده. وحين لجأ إلى عماد الملك صاحب برار، نصحه بإعلان رجوعه إلى مذهب أهل السنة والإقامة بخاندش حتى تهدأ الأحوال. وآب يوسف عادل إلى بلاده من جديد، فاتجه عام ٩١٧هـ/ ١٥١٠م على رأس قوة من الجند استرد بهم جوا من أيدي البرتغاليين. ولم يمض أشهر قلائل على موت هذا السلطان حتى استعاد المستعمرون هذا المرفأ الهام فبقى بأيديهم حتى اليوم، ولا مناص من رجوعه إلى الهند صاحبتة على كل حال.

ويثنى المؤرخون على هذا السلطان الذي عرف عنه تمسكه بالفضائل وميله إلى العلماء والأدباء، حتى دعى إليه جملة منهم من التركستان وفارس والدولة العثمانية، كما لم يتسكب طريق الحسنى في معاملته لرعاياه من الهنادكة أو ييخل بمناصب الدولة على الاكفاء منهم. (١)

وحافظ أبناء هذا السلطان على تراثهم سنين طويلة ، حتى إذا
ولى الملك على عادل شاه فى منتصف القرن العاشر الهجرى بادر
بدوره إلى إعلان تشيعه . وأردف ذلك بتحالفه على جيرانه مع
هنادكة فيا يانكر الذين اجتاحتوا إمارة أحمد نكر فانزلوا بأهلها
مذبحة شنيعة نهبت السلطان إلى مدى الخطر الذى يهدد المسلمين
على أيدي هؤلاء الهنادكة فنفض يده منهم .

وقد انتظم أمراء الدكن المسلمون من بعد ذلك فى جهة واحدة
متماسكة استطاعت أن تنزل بهذه الإمارة الهندوكية ضربات
متلاحقة كان أشدها موقعه تاليكوتا عام ٩٧٣هـ / ١٥٦٥ م .

وآخر سلاطين بيجاپور هو إبراهيم عادل شاه الثانى الذى
قضى على إمارة أحمد نكر وضمها إلى ملكه . وقد ذاع صيت زوجته
چند بيبي لدفاعها الباسل عن هذا الإمارة فى وجه قوات الدولة
المغولية عام ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤ م .

أما ولاية أحمد نكر فرأس أسيرة نظام شاهى التى استقلت بها
هو نظام الملك بحرى الذى وزر لسلاطين بهمنى عقب مقتل
الوزير محمود جوان ، وكان له فيه مشاركة . وقضى على هذا الوزير
اطماعه بعد قليل ، فما لبث ابنه أحمد أن أعلن استقلاله بما فى أيديه
من أراضى چونير عام ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م ، ثم انتقل من بعد ذلك

إلى مدينة أحمد نكر الجديدة فجعلها مقبلة للملك. وجهد هذا الأمير من بعد ذلك في الاستيلاء على دولت آباد وتوابعها فبلغ غايته في العام التالى . ودخل خلفاء هذا السلطان فى حروب متصلة مع جيرانهم حتى انتهى أمر هذه الولاية إلى الدخول فى حوزة الدولة المغولية عام ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م

هذا وكان قطب الملك، مؤسس أسرة قطب شاهى بغولكونده، فى أول أمره من رجال السلطان محمود بهمنى المقربين . وأعلن هذا الأمير استقلاله بهذه الإمارة عام ٩٢٧ هـ / ١٥١٨ م، وظل يحكمها حتى اغتاله ابنه جمشيد عام ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م وكان قد بلغ التسعين من عمره .

وإس سلاطين هذه الإمارة ما يذكر إلا مشاركتهم جيرانهم فى محاربة إمارة قبايانكر الهندوكية، حتى صارت بلادهم أوائل القرن الحادى عشر الهجرى من أملاك السلطان المغولى أورنكزيب .

كذلك استبد بالأمركه فى إماره يدّر الوزير قاسم بريد، وذلك فى عهد السلطان الضعيف محمود شاه بهمنى، ثم خلفه فى الوزارة ابنه الأمير بريد وظل يتمتع بنفوذه الواسع هناك . حتى اذا ما فرّ كلّم الله آخر سلاطين بهمنى الى بيجاپور، أعلن هذا الوزير

عام ٩٣٥ هـ / ١٥٢٦ م استقلاله بهذه الامارة . وظل أمراء برید
شاهی يحكمون في بذر حتى عام ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م ليضمها أمراء
عادل شاهی أصحاب بیجاپور من بعد ذلك الى ملكهم .

ومنع أمراء الدکن الاسلامیة الأربعة سالفة الذكر هذه
من التوسع في جنوب الهند ما كان من اقتتالها مما سهل على هذه
الأراضی الهندوكیة الواسعة المحافظة على استقلالها .

ولقد ذكرنا من قبل أن قوات علاء الدین الخلجی كانت قد
اجتاحت الجنوب الهندی كله على أبدي قائده كافور . لكن
اضطراب الأمور في سلطنة دهلی ، وأواخر أيام محمد تغلق ، أضعف
من سلطان المسلمين في الدکن وماورائها مما مهد لقيام إمارة
فيایانكر القویة التي شغلت رقعة واسعة من الارض بأدنى
سلطنة بهمینی .

وأمرأ فيایا نكر الهنادكة هؤلاء هم خلفاء الكولین الذين
ورد ذكرهم في مراسيم آشوكا والذين ورثوا ملك پندیا في الجنوب ،
تلك المملكة التي ذاع صيتها في القرن الاول الميلادی والتي كانت
عاصمتها مادورا تعد من أجمل بلدان الهند .

ومؤسسا هذه الامارة هما هاری هارا وأخوه بوكا اللذان
ينحدران من صلب أمراء یادافا أصحاب دواكر .

ووزر هذان الأخوان أول أمرهما لراجا أنا غوندى بالملبار،
ووقعاً معه فى أسر سلطان دهلى محمد تغلق الذى ارتأى أن يبعث
بهما نائبين عنه بهذه الإمارة فيعاون وجودهما بها على الحد من
ثورات الهنادكة هناك .

لكن الوزيرين الهندوكيين ما لبثا أن عملا بنصيحة حكيم
هندى يدعى فيديارانيا فتزعا إلى الاستقلال بما فى أيديهما من
أقاليم ، وبادرا من فورهم إلى إقامه مدينة فيايا نكر الحصينة على
شاطئ تنجهاردا لتكون لهم من غزوات المسلمين رداً ، فأطلق
اسمها من بعد ذلك على الإمارة كلها .

وانفرد هارى هارا بالملك بعد قليل فعمل على توسيع رقعة
إمارته، فلم ينصرم عام ١٣٤٠م حتى كان سلطانه يظل وادى تونجهاردا
إلى الجنوب من بيجاپور مع أجزاء من كونكان وساحل الملبار
واشتبك هذا الأمير وخلفاؤه فى حروب طويلة مع جيرانهم،
وفيهم سلاطين بهمنى الاقوياء ، مما عرض لإمارتهم الناشئة إلى
خسائر فادحة .

وكان أعظم حكام فيايا نكر هو كرشناديو الذى حكم فى
أوائل القرن السادس عشر الميلادى . وفى عهده ازدهرت عبادة
وشنا ولقيت آداب السنسكريتية والتلنجو رعاية كبيرة

وراجت العمارة والنحت^(١) .

ووسع هذا الأمير رقعة ملكه على أثر انتصاراته المتكررة على حكام الدكن ، فضم أوريסה إلى بلاده مع منطقة مدراس وميسورى الحالية .

وسعى إليه البرتغاليون يخطبون ودة فأقاموا معه علاقات اقتصادية وسياسية هدفوا من ورائها إلى كسبه لصفوفهم فى حروبهم مع الإمارات الإسلامية عند ساحل الهند الغربى . وحين بلغ هذا الأمير سقوط جوا بأيدى هؤلاء المستعمرين لم يكتف بايفاد رسله يحملون إليهم التهنة فحسب ، بل سمح لهم كذلك بإقامة حصون لهم عند بها تكال بشواطئ بلاده الغربية .

على أن خلفاء هذا الأمير القدير لم يستطيعوا الوقوف فى وجه جهة أمراء الدكن المسلمين الذين اقتحموا عليهم بلادهم فأعملوا فيها التخريب والتدمير . ولم تنته انتصارات تليكو تا عام ١٥٦٥ م إلى إضعاف سلطان الهنادكة فى الجنوب فحسب ، بل أدت كذلك إلى القضاء على نفوذ البرتغال الاقتصادى هناك .

وأضاع من ثمار هذه الانتصارات الإسلامية ما كان من قيام النزاع والخلاف بين الفاتحين على الأسلاب . حتى بدأت قوات

الدولة المغولية ، منذ أيام السلطان أكبر، تنوغل في الدكن، فلم ينته عهد أورنكزيب حتى كانت رايتهم تظل شبه القاره الهندية كلها، إلى أن ظهر المراتها فنار عوا المسلمين الجنوب من جديد .

أسرة السادات برهلى

تلك كانت هى حال الهند - على ما قدمناه عن انفراط عقد الدولة الاسلاميه بها - حين استخلص خضر خان نائب التيموريين لنفسه عرش دهلى من أيدي فلول التُغُلُقيين عام ٨١٧هـ / ١٤١٤م، فأسس أسرة حاكمة عرفت في التاريخ باسم أسرة السادات، إذ كان يقول بامتداد نسبه إلى النبي الأكرم . (١)

ولم يكن خضر خان في الواقع غريبا عن الهندستان أو في أصله رجلا من رجالات تيمور، فقد نشأ عند ناصر الملك مردان دوات أمير الملتان، ثم مال به فيروز تغلق أن أقامه عليها بعد موت سيده .

وحين شاع الاضطراب في الدولة عقب موت فيروز تغلق، سقطت الملتان وأميرها في أيدي سارنك خان أخى مالو إقبال

خان . لكن خضر خان احتال على الهرب من أسريه ثم اتصل من بعد ذلك بتيمور انك حين غزا هذه البلاد ، فرضى عنه ونصبه عند رحيله نائبا له هناك .

والئن كان خضر خان قد غدا صاحب دهلې دون منازع ، فإن سلطنته الجديدة لم تكن إلا كُفلك في بحر لجى تحيط به الأمواج العاتية من كل جانب . فالدواب ما فتى منذ أيام بلبن مقيم على الاضطرابات ، وهذه هى أتاوه وقنوج وبداون وكاتهر قد ضؤل شأن دهلې فى أعين أصحابها ، من مسلمين وهنادكة ، فكفوا أيديهم عن مدها بالخراج ، وهؤلاء أمراء الكجرات ومالوه وجونپور ، الذين استقلوا ببلادهم ، لم يمنعهم اقتتالهم من مهاجمة سلطنة دهلې والتطلع الى الاستيلاء عليها ما سححت لهم الفرصة واستطاعوا الى ذلك سيلا . وإلى جانب هؤلاء جميعا كانت قبائل السككر لا تنفك تثير الاضطرابات العنيفة عند الملتان ولاهور .

وبقى صاحب دهلې الجديد على ولائه الإسمى لتيمور وأولاده من بعده ، فكان يجرى الخطبة باسمهم ثم باسمه ، وكذلك فعل بالسكة . كما لم يفته كذلك أن يبعث بين الفينة والفينة بقدر من المال والهدايا الى أصحاب سمرقند .

وبادر هذا الأمير من فوره الى إعادة تنظيم شئون حكومته

مستعيننا في ذلك بطائفة من الرجال الأكفاء، حتى أتيح له أن
يخفف كثيرا من آلام الفقراء والمعوزين الذين كانت تموج بهم
العاصمة من أثر الاضطرابات والأحداث السياسية الطويلة التي
اجتاحت الدولة .

ثم انجهدت همته من بعد ذلك إلى العمل على استعادة هيبة الدولة
السابقة ومحاولة استرداد ما ضاع منها من أراضين ، فبعث بقواته ،
وعلى رأسها وزيره تاج الملك تحفة ، إلى الدوآب وكوالياروچندوار
وأتاود وبارن وجاليسر وكهور وتنبل ، فازالوا بأصحابها حتى ردوهم
إلى طاعة دهلي ومسلمتها . وكذلك صار حال الملتان والسند .

وحين مات خضر خان عام ٨٢٦ هـ / ١٤٢١ بكاه الناس في
العاصمة إذ كان بهم بارا ورفيقا (١) .

ونهج نهجه ابنه السلطان معز الدين أبو الفتح مبارك شاه في
تثبيت الأمراء على إقطاعاتهم وولاياتهم عساه يضمن بذلك ولائهم
ومؤازرتهم له في القضاء على الفتن والاضطرابات التي ما فتئت
تحتاج البلاد . فهذا هو جسرت كهكر ومعه طُغاي ترك مازالا
يعيشان في المناطق الشمالية الغربية فسادا ، حتى سوات الأول أطعماه
بالزحف على دهلي نفسها فعبّر رافد سُتاج السندى واستولى على حصن

سر هند ، فلم يمنعه عن التقدم إلى العاصمة إلا خروج السلطان إليه بنفسه فاسترد منه أغلب الأراضى التى كانت فى حوزته وأقر الأمور فى لاهور وما حولها . على أنه لم يكبد يعود إلى حاضرتة حتى انحدر هذا الثأر إلى لاهور من جديد ، فلم يفلح حاكها فى رده عنها إلا بعد أن وصلته إمدادات السلطان انتفزل بالعدو هزائم قوية أرغمته على الاعتصام بالمناطق الجبلية هناك .

والتفت السلطان من بعد ذلك إلى الاضطرابات التى نشبت فى الدوآب وكتهر وأوده وكواليار وبيانه وچندوار وكالبي فقضى عليها جميعا ، كما هزم قوات إبراهيم شاه شرقى أمير جونپور ليتحول كرة أخرى إلى المناطق الشماليه الغربيه حيث انضم أصحاب كابل هذه المرة إلى السكهكر فاجتاحوا البنجاب كله والمثلتان ونهبوا أراضيه .

ولئن كان السلطان قد خرج من هذه المعارك جميعا ظافرا منصورا إلا أنه لم يفلت آخر الأمر من سيوف فريق من رجاله الذين كانوا بنفسون على وزيره كمال الملك نفوذه البالغ .

وعادت عجلة الثورات ، على سُنّة العصر ، إلى الدوران من جديد ، إذ كف إبراهيم شاه شرقى ورأى كواليار ومعهم طائفه من أمراء الهنداكة عن دفع ما لدھلى عندهم من خراج وأتاوات . وشجع

هذا الإجراء محمود الخلجي صاحب مالوه ، نخرج بجنده زاحفا إلى دهلي ، فلم يرجع عنها إلا حين برز أحمد شاه صاحب الكجرات يهدد عاصمته ماندو . وقد تعقبه في ارتداده بهلول خان لودهي ، حاكم لاهور وسرهند ، الذي كان قد أسرع لنجدة السلطان ، فانهب مؤنه وأسلحته .

وكان مما دفع هؤلاء الأمراء إلى الخروج على سلطان دهلي من جديد ، هو عودة الوزير كمال الملك إلى منصبه كره أخرى . ذلك أن سرور الملك الذي كان قد خلفه في الوزارة راح ، عقب تولي السلطان الجديد محمد شاه حفيد خضر خان الملك ، ينعم على أولئك الذين تأمروا على حياة السلطان السابق وفيهم سيدهو پال الهندوكي ويجزل العطاء لهم مما أثار عليه نائرة كمال الملك وعصيته فبادروا بالقضاء عليهم جميعا .

واستمع بهلول لودهي ، على أثر ما أحرزه من نصر ، إلى تحريض الكهكر الذين زينوا له وبعض الأمراء الأفغان الزحف على دهلي وانتزاعها من أصحابها ^(١) .

ولم يكن صد دهلي للفائد اللودهي على كل حال إلا إلى حين . فما إن ولي العرش عام ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م علاء الدين علم

شاه، وكان أميراً ضعيفاً ، حتى انتقل بيلاطه إلى بيانه ليُدفعه قصر
نظره بعد قليل إلى محاولة التتكيل بوزيره حُמידخان الذى سارع
من فوره إلى الاستنجاد بهلول لودهى ، وكان هذا الأخير قد
بسط نفوذه على البنجاب الشمالية كلها من لاهور ودببا پور
وسرهند إلى هانسى وحصار ويانى پت .

وهكذا وانت الأمير اللودهى الفرصة المرتقة سريعة ميسرة
للجلوس على عرش دهلى ، فلم يلق من آخر سلاطين السادات
أدنى مقاومة ، اللهم إلا رجاء بتأمين إقامته ورزقه فى بداون ،
فبقى بها إلى آخر أيام حياته حتى قضى عام ۸۸۳ هـ ۱۴۴۸ م .

اللّودهيّون الأفغان

لقد أمل الحكام السادات حين صار لهم عرش دهلي أن يستعيدوا السلطان المسلمين بالهندستان سابق وحدته ويستردوا للحكومة المركزية ماضع منها من نفوذ وأرضين ، فبدلوا في ذلك جهودا مضنية ذهبت كلها أدراج الرياح ، فانتكس الحال في أو اخر أيامهم إلى أسوأ مما كان عليه أول عهدهم بالحكم . فالدكن والكجرات ومالوه وجونبور والبنغال ما برحت في أيدي أمراتها الذين كانوا قد استقلوا بها ، وأغلب البنجاب قد صار بأيدي القائد الأفغانى الثائر بهلول لودهى ، كما غدت مهروالى وما حولها حتى سراى لادو القريبة من دهلي فى حوزة أحمد خان موائى . أما سنهبل حتى ضواحي العاصمة فكان يسيطر عليها دريا خان لودهى ، فى حين كان يقسم النفوذ فى الدوآب جملة من الأمراء الآخرين ، منهم قطب خان وعيسى خان ترك . هذا كما كانت بيانه من نصيب داود خان لودهى بشاركه فيها أمير هندوكى ، فى الوقت الذى كان فيه راجا برانات سنغ يسيط نفوذه على

باتيالى وبكيله وما وراهما .

وهؤلاء الامراء اللودهيون ، الذين نراهم مع فريق من
الامراء الهنادكة قد انتشروا حكاما في شمال الهند على اراضٍ
غير بعيدة عن العاصمة ، ينتمون إلى إحدى القبائل الأفغانية التي
كانت تفضّل بالتجارة ونقل السلع بين فارس وأواسط آسيا
والهندستان .

وفي أيام فيروز تغلق النحق جد هؤلاء الامراء الاكبر ،
ويدعى بيرم لودهى وكان من الأثرياء ، بخدمة مردان دولت الذى
سرعان ما عهد إليه بحكم الملتان .

وحين صار أمر هذا الإقليم إلى خضر خان ، عهد بقيادة جنده
الأفغان إلى ملك سلطان بن بيرم لودهى . حتى إذا ما تمكن هذا
القائد من القضاء على حاكم دهلوى إقبال خان كافأه سيده بتقليده
ولاية سرهند وأنعم عليه بلقب إسلام خان . وعهد هذا الأمير
اللودهى ، حين شعر بدنو أجله ، بقواته وأملاكه إلى ابن أخيه
وخنته الفتى البيافع بهلول لودهى وكان أثيراعنده لشجاعته وحزمه
برغم صغر سنه .

ولئن كان الامراء اللودهيون قد انقسموا على أثر وفاة
إسلام خان إلى سبع ثلاثة متعادية ، إلا أن بهلول لودهى أفلح

آخر الامر ، بحسن تدبيره ، في لم شملهم في جبهة موحدة ثبتت
مراكمهم ودفعت عنهم أخطار الكهكر في البنجاب وأخطار
دهلي معاً .

وكان أن استنجد محمد شاه سلطان دهلي بالأمير اللودهي لدفع
خطر السلطان محمود الخلجي صاحب مالوه عن عاصمته ، فأمدّه
بمشرين ألفاً من الفرسان الذين أشاعوا الفوضى في صفوف
العدو ونهبوا معسكراته . وانطلق بهلول لودهي ، بعد هذا النصر
الذي أحرزه ، يطوى تحت نفوذه أراض واسعة كثيرة بالبنجاب
ثم استدار من بعد ذلك يهاجم دهلي نفسها حتى سقطت في يده
على ما فصلناه في موضعه (١) .

ولم يكن بهلول لودهي ، وهو المحارب الطموح ، يرى في
استيلائه على العاصمة إلا وسيلة إلى غايته الكبرى في تحقيق حلمه
وحلم كل سلطان سبقه باستعادة مجد دهلي على الصورة التي كانت
لها أيام الغزنويين والغوريين والخلجيين من قبل .

ولم يتردد زعيم اللودهيين في سبيل تثبيت أقدامه وتدعيم
سلطانه عن سلوك كل سبيل إلى غايته . فتآمر ورجاله على التخلص
من الوزير القوي حميد خان ، وهو الذي كان قد مكّنه بتدبيره من

دخول دهلي وتسليه لمقاييد الامور بها .

وتفصيل ذلك أن بهلولاً عمد ، أول الأمر ، إلى توفير ضروب التبجيل والتوقير لهذا الوزير . حتى إذا ما قصد هذا الأخير إلى مقر الأمير الجديد في إحدى زيارته له أو عز بهلول إلى بعض رجاله أن يُصدروا عنهم من الإشارات ما يوحى إلى من يراهم بترجيح بلا هتيم وسداجتهم ، بما أشاع السرور والبهجة في نفس زائرهم . وخرج الأمير اللودهي يرد الزيارة بدوره للوزير وفي صحبته فريق كبير من هؤلاء الرجال . حتى إذا ما بلغت أسماع حميد خان ما أثاروه من ضوضاء وضجيج عند أسوار داره ، أمر حراسه من فوره بفتح الأبواب لهم مبتهجا ، فما كادوا يستوون بمجلسه حتى رفعوا سيوفهم في وجهه ، وقد قام زعيمهم يعتذر إليه عن قسوة هذا الإجراء بضرورات السياسة . وترك له حرية اختيار المكان الذي يرغب في لزومه بعيداً عن العاصمة ، فقد أعفى من القتل اعتراكا بسابق أياديته على بهلول .

وقصد المتآمرون من بعد ذلك إلى السلطان علاء الدين بمقامه في بيانه يعلنون ولاءهم له ، ولكنه كان فيه من الزاهدين .

وظفق بهلول لودهي يفتدق بدوره على الجند وقادتهم الهبات والعطايا ، لكن طائفة كبيرة من الأمراء الذين لم يرضوا عن

سلوك هذا الزعيم الأفغانى وعصبته ، ما غدوا أن انتهزوا فرصة خروجه إلى الولايات الشمالية الغربية فاتصلوا بالسلطان محمود شاه شرقى صاحب جوناپور وتعجلوا زحفه إلى العاصمة .

وما إن أحيط بهلول بالخبر حتى بعث برسله ترحب بالسلطان الزاحف الذى كان على معرفة تامة بأساليب هذا الأمير الأفغانى وحيله الماكرة ، فلم يلق بالآلى سفرائه وضرب الحصار على دهلى فى مائة وسبعين ألفا من الجند ومعهم أربعمائة من الفيلة . على أن انسحاب الأمراء الأفغان المفاجئ مع قواتهم من جيش الشرق ، أرغم السلطان محمود على التكوّص عجلا إلى جوناپور مع من بقى معه من قوات قليلة . ونتج عن هذا الفوز الباهر الذى أحرزه الأمير اللودهى ، أن اشتدت هيئته بين أعدائه وأصدقائه على السواء ، تخفت أصوات معارضيه فى بلاده ، فى حين سارع كثير من أمراء الأقاليم المجاورة يعلنون ولائهم له ودخولهم فى طاعته .

ولئن كان الأمر قد استتب كذلك للسلطان اللودهى فى إقليم الدوآب ، فإن أصحاب جوناپور من ملوك الشرق ، فيما وراء هذا الإقليم ، لبثوا يرون فى بهلول ، برغم ما قام بينه وبينهم من موافق وعهود ، مغتصبا لعرش دهلى غير جدير به على كل حال . فتوالت

المعارك بينهم وبينه حتى كاد السلطان القدير حسين شاه شرقى أن يوقع بالزعيم الأفغانى ، لولا ما عمد إليه هذا الأخير من الحيلة المشوبة بالغدر على أثر إحدى مرات التصالح والهدنة ، إذ سقط على مقام ملكه جهان، زوجة ملك الشرق، فأخذها فى أسره ، وإن ردها من بعد ذلك مكربة إلى بلادها .

وبلغ بهلول بغيته آخر الأمر على كل حال بالاستيلاء على إقليم جونيور فأقام ابنه باريك عليه ، كما بسط سلطانه كذلك على كالي ودهلپور وبارى وموار وموات .

وفى ما كان السلطان اللودهى فى طريقه إلى عاصمته ، بعد استيلائه على كواليار ، دهمته الحمى فلقى حتفه عام ٨٩٣هـ / ١٤٨٨ م . ولئن لم تترك الحروب المتواصلة التى خاضها بهلول لودهى وقتا كافيا له للاتفات إلى تنظيم شئون حكومته ، فقد أدت انتصاراته إلى استرداد الكثير من هبة الحكم الإسلامى الضائعة بالهندستان . وقد عُرف هذا الجندى الموهوب بإجراء العدل فى بلاده مع الكرم والعطف الكثير على الفقراء ، وتقدير العلماء ، وفرط الزهد والتقوى حتى قيل بأنه أمر برفع اليواقيت والأحجار الكريمة عن العرش .

واختلف الأمراء فيما بينهم حول من يجلسونه على عرش بهلول ،

فمنهم من رشح له همايون حفيد السلطان الراحل ، ومنهم من انتصر لباربك خان أكبر أولاده . حتى أفلحت السلطنة زينة آخر الأمر ، - بحسن تدبيرها ومعونه خان جهان لوحانى وخان خانه فرملى ، - فى تغليب الرأى القائل بإلقاء مقاليد الحكم إلى الأمير نظام خان ، وهو الذى رقى العرش باسم سكندر شاه (١) .

وسار السلطان الجديد سيرة أبيه فى تدعيم ملكه ، فبرز من فوره للقضاء على أولئك الذين أعلنوا الخروج عليه من جديد - وهى ظاهرة إقطاعية كانت تلازم كل سلطان جديد يلى الحكم ، فإن أسس الأمراء فى أميرهم الجديد القوة والحزم بادروا بإعلان ولائهم له ودخولهم فى طاعته ، وإلا فهم يتمادون فى طغيانهم ، ويحاكيهم فى ذلك غيرهم من جيرانهم إلى حد أنهم قد لا يترددون فى تهديد العاصمة نفسها بقواتهم .

وانتزع سكندر شاه قلعة ربرى ومعها حصن چندوار من أخيه الناصر علم خان ، وما زال يطارده من بعد ذلك حتى استسلم له عند أتاو ، كما استسلم له بدوره ابن عمه عيسى خان عند باتيالى .

وسار السلطان اللودهى من بعد ذلك إلى جوناپور ، وكان بها أخوه بربك الذى رفض الإقرار له بالولاء . وقد أدى إلى

انهيار مقاومة هذا الأمير الثائر انضم قائده محمد خان فرملى المعروف بكالا بهار كلى صفوف صاحب دهلى . على أن سكندر شاه ما لبث أن رد أخاه إلى إمارته ، وسير معه فريق من القادة الأفغان لتدعيم تلك الجهة الشرقية التى كان يمكن فيها وراها بهار السلطان حسين شاه شرقى فى انتظار الفرصة المواتية لاسترداد أراضيه .

ولم يرجع سكندر شاه إلى عاصمته فى عام ١٨٩٧ / ١٤٩٢م حتى كانت كالى وكواليا وبيانه قد دخلت جميعها فى طاعته بدورها (١) . ونزع أصحاب الأراضى فى جونپور إلى الثورة من جديد بتحريض من أميرهم السابق ، حتى اضطر باربك خان للفرار إلى محمد خان فرملى فى كالى . وأدى تفاقم أمر العصاة الهنادكة هناك إلى خروج السلطان بنفسه إليهم ، حتى بلغ جنار فأنزل بهم هزيمة شديدة . لكن خسارة الكثيرة فى هذه المعارك وانتشار الأمراض والمجاعة فى صفوف جيشه ما لبثت أن أيقظت الآمال كرة أخرى فى صفوف الثوار ، فبعثوا يحرضون السلطان حسين شرقى على القدوم إليهم . وقد أفلح خان خانان فرملى أن ينزل بقوات هذا

السلطان الشرقى الكبيرة ، ومعها قوات جيرانه من الهنادكة ، هزيمة حاسمة على كل حال عند بنارس ، فر حسين شاة على أثرها إلى بهار ، فمابحت قوات دهلى تطارده هناك حتى لجأ آخر الأمر إلى كلجام من أعمال لكهناتوى فقتضى بقية عمره فى ضيافة صاحب البنغال .

وشجع سقوط بهار فى أيدي قوات دهلى عام ١٤٩٥/١٩٠٠م السلطان سكندر على الزحف إلى البنغال ، فبلغ حدودها بعد أن دخل ترهوت وأخذ الولاء من أميرها الهندوكى . وبرغم مسير دانييل خان فى قوات كبيرة لمدافعة الغزاة بأمر من أبيه علاء الدين أمير البنغال ، فقد تحاشى الطرفان آخر الأمر النزال الجدى على تعهد من علاء الدين بعدم إيواء الخارجين على سلطان دهلى بيلاده .

ورجع السلطان اللودهى عن هذه الأقاليم الشرقية بعد أن عهد إلى درياخان لودهى بإقليم بهار على أن تكون شئون الخراج فى ترهوت وما حولها لأعظم همايون بن خان جهان فرملى . وضاق سكندر شاه ذرعا بمضايقات أمراته الأفغان الإقطاعيين ، بعد أن كشف عن تأمرهم على قتله ، فلم يكف بما أنزله بهم من عقوبات صارمة حتى استقر رأيه آخر الأمر ، فى

سبيل إحكام رقابته عليهم ، إلى اتخاذ مقام حصين يتيسر له منه تضيق الخناق عليهم في أتاه وبيانه وكول وكواليار ودُهاپور ، فأنشأ مدينة آكرا الحالية على نهر جمه إلى الجنوب من دهلي عام ٩١٠هـ / ١٥٠٤م . ومن أسف أن هذه المدينة التي زخرت بكثير من المنشآت الجميلة في وقت قصير ، ما لبث أن اجتاحتها في العام التالي زلزال مدمر خرب أغلبها .

وقضى سكندر شاه بقية أيامه ، حتى لقي ربه عام ٩٢٢هـ / ١٥١٧م ، في مواجهة عصيان أمراءه الأفغان بأغلب نواحي بلاده ، ذلك العصيان الذي دفع بالأمراء الهنادكة فيما بعد إلى الخنوح للثورة بدورهم واقتطاع كثير من أراضي الدولة لأنفسهم .

وبموت هذا السلطان فقدت دهلي أقدر حاكم عرفته من بين اللودهيين وأعد لهم . فقد راقب سلوك عماله نحو رعاياها في حزم وبقظة أعانه فيها شبكة قوية من العيون كانت منتشرة في أنحاء سلطنته (١) .

وبلغ من بره وعدله كذلك أنه كان يجلس للاستماع إلى شكاوى الأهليين بنفسه ، كما عمل على توفير الأقوات لهم ، وضبط أسعارها ضبطاً محكماً . هذا كما كان يأمر من حين لآخر بإحصاء الفقراء والمعوزين ومنح كل واحد منهم من المؤن ما يكفيه لأشهر ستة .

وكان من أثر شدة شغف هذا السلطان بالمعرفة أن نُقلت في عهده إلى اللغة الفارسية — لسان العصر العلمى بالهندستان إذ ذاك — جملة من المؤلفات السنسكريتية المهمة خصوصاً في الطب .

هذا كما قضى كذلك على عصابات اللصوص وآمن الدروب والطرق . وعنى عناية فائقة بروج التجارة ، وشجع الحرف والصناعات ، والتفت التفاتاً كبيراً إلى إشتغال الحند ورؤسئهم بها في أوقات السلم والفراغ .

ولئن أدى اهتمام هذا السلطان البالغ بنشر الإسلام في ربوع بلاده ، إلى هدمه لبعض المعابد الهندوكية وإقامة مساجد للمسلمين مكانها ، أو قتله بعض من رفض اعتناق الإسلام من الهنادكة ، فإن مثل هذا الصنيع ، وإن كنا لا نقره اليوم ، لم يكن إلا ظاهرة من ظواهر العصر العامة التي كانت تنتشر في أوروبا بدورها كذلك . (١)

وخلف سكندر ابنه إبراهيم على عرش الهند ، ولكنه لم يكن له من حزم أبيه وشدة بأسه نصيب . فانطلق الأمراء الأفغان من عقلمهم يحمررون بالعصيان حتى أخذ بناء السلطنة يتصدع لينتهى به الأمر إلى الانهيار التام على يد الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر حين دخل الهند غازياً .

ولقد حاول هذا السلطان اللودهي الجديد أن يخاطب ود الأمراء الأفغانين أول الأمر بالرفق والصلوات وحسن المودة، ولكنهم، وقد كانوا يعتقدون أن إقطاعاتهم وإماراتهم لم تهر إليهم إلا بقوة سيوفهم، ما كانوا ليتركوا إلى السلم إلا إذا استشعروا فوق رقابهم يداً قوية مثل يد سكندر شاه.

وإلى جانب هؤلاء الأمراء الأفغان، كان الأمراء الهنادكة بالراجپوتانا تفيض نفوسهم بالكراهية لبيت اللودهيين، تلك الكراهية التي زاد من رسوخها عندهم سياسة سكندر لودهي الدينية التي أشرنا إليها من قبل.

ومالبث فريق من هؤلاء الأفغان المتآمرين، أن أجمعوا أمرهم على المناداة بجلال الدين بن سكندر شاه سلطاناً على جونپور، على أن يقتصر سلطان إبراهيم على دهلي وما حولها. وبين أفلح خان جهان لوحاني، أحد كبار رجال السلطان سكندر، في حمل طائفة من المتآمرين على الرجوع إلى صفوف سلطان دهلي، إلا أن ذلك لم يشج جلال الدين وطائفة أخرى معه عن الماضي فيما كانوا قد اعزموه من الأمر.

هنالك لم ير إبراهيم اللودهي مناصاً من إلا الخروج لقتال أخيه، فحبس إخوته الآخرين بحصن هانسي فبقوا به إلى آخر

حياتهم ، ثم مازال بجلال الدين حتى انقض عنه فريق كبير من
جنده وقادته وفيهم أعظم همايون شيرواني ، واضطار هو نفسه
للفرار إلى كواليار .

ولم يطل بالأمير النائر المقام في هذا الإقليم ، إذ سير إليه أخوه
قائده أعظم همايون لودهي ، فقصده إلى مالوه التي غادرها بدورها
بعد قليل لما لحظه من فتور سلطانها محمود الحاجي نحوه . وفيما
كان في طريقه إلى راجا كرتته وقع في أيدي عمال غوند فسيروه
في الأغلال إلى أخيه ، ليلاقى مصرعه وهو في طريقه إلى حصن
هانسي (١) .

وضاق السلطان ذرعا بأمرائه آخر الأمر فانقلب يشنط في
معاملتهم ويمعن في إزال ألوان التعذيب والخوان بمن تصل يده
إليه منهم .

وجاء زجه في الحبس بقائده أعظم همايون شيرواني وابنه
قتلغخان بعد استدعائهما من كواليار ، بمثابة إلقاء الزيت على النار .
فالبت فريق من القواد الناقين على مسلكته العاشم ، أن التفوا حول
أعظم همايون لودهي وإسلام خان بن أعظم همايون شيرواني ،
فالتحموا بقواتهم ، التي كانت تنوف على أربعين الفا من الفرسان

وخمسمائه من الفيلة ، مع جند إبراهيم اللودهى فى قتال عنيف عند
أوده ، كاد يكتب لهم الظفر فيه لولا سقوط إسلام خان وأسر
قائد كبير آخر هو سيد خان

وضاعف هذا النصر من قسوة هذا السلطان الذى ذهب يطيح
برءوس أعدائه فى تهور بالغ فكان من بين قتلاه أعظم همايون
شيروانى وحسين خان فرملى ثمميان بهوره وزير والده سكندر .
وسار إبراهيم من بعد ذلك بقواته إلى ميوات فأنزل بجموع
الأمير الهندوكى رانا سنكا ، أعظم أمراء الراجپوتانا ، ضربات قوية
برغم استبسالها الشديد ، فلم يكتب للرانافسه ، وقد أنجته جراحه ،
الهرب من الميدان إلا بمشقة بالغة .

وكرر عدد الخارجين على هذا السلطان السفاك نتيجة لعنفه
هذا ، حتى نادى بهادر خان لوحانى بنفسه سلطانا على بهار باسم
محمد شاه ؛ وانضم إليه كثير من الأمراء فى الأقاليم المجاورة له
فاستقام له قوة عسكرية كبيرة بلغت مائة ألف من الفرسان ، زحف
بهم حتى سنهل حيث أوقع بجيش دهلى هزائم متكررة .

ولم يدر السلطان اللودهى حين أرسل يستدعى إليه دولت خان
لودهى أمير البنجاب — وكان قائدا قديرا قوى الشكيمة مرهوب
الجانب — أن لفتته هذه ستنتهى إلى القضاء الشامل على ملك

اللوهيين كله بالهندستان .

ذلك أن هذا الأمير حين استدعى إلى آكرا، مقر اللوهيين الجديد لزم داره فطنا، حذرا ، وبعث بابنه دلاور خان إلى هناك بدلا منه ، معذرا باشتغاله بجمع الخراج . وعاد الولد إلى أبيه ليروى له ما أطلعه عليه السلطان إبراهيم بنفسه من كبار الضحايا العديدين الذين مازالت جثثهم معلقة على الأسوار جزاء العصيان . هنالك رحل دلاور خان من عند أبيه كرة أخرى ، ولكن كانت وجهته هذه المرة كابل ليحرض صاحبها السلطان ظهير الدين محمد بابر باسم أبيه على غزو سلطنة اللوهيين . وكذلك فعل علاء الدين علم خان عم صاحب دهلي .^(۱)

ولم يكن الأميران اللوهيان يرميا من وراء دعوتهما هذه إلا القضاء على إبراهيم اللوهي وخلاص الأمر لهما من بعد ذلك بالهندستان . لكن أمير كابل مضى يفتح الهند حتى جلس هو نفسه وأولاده من بعده على عرشها ، وذلك بعد أن قضى على السلطان اللوهي في موقعة پانی پت الشهيرة عام ۱۵۲۶م . وبهذا انتقل حكم الهندستان من أيدي الأفغان اللوهيين إلى أيدي الأتراك الچغتائيين .

الدولة الإسلامية في شبه القارة الهندية

كان الفتح الإسلامي للهند بداية عهد جديد مزدهر تجلت آثاره الأولى أيام الحكم العربي في السند بإعادة الاتصال الثقافي بين هذه البلاد ومهاد الحضارة في أرض الفراتين .

وكان الغزاة الأول لهذه البلاد من العرب أشد تمسكا في الغالب بمبادئ الإسلام الرحيمة من الأتراك والافغان الذين وفدوا على الهند من بعدهم ، ومعهم كثرة من الفرس ، فبسطوا نفوذهم على أغلب شبه القارة الهندية ودفعوا بعجلة الحضارة الهندية إلى السير من جديد .

ذلك أن هؤلاء الغزاة كانوا كذلك قد صحبوا معهم جملة من علماء المسلمين وحملوا الثقافة الإسلامية التي كانت قد بلغت بدورها خارج الهند إذ ذاك درجة كبيرة من الكمال ، فكان لهم أياد وآثار بارزة لا تُنكر في رقي الهند وتقدمها وازدهار المدينة والحضارة بها . هذا وكانت الهند بدورها ، على الرغم من تفككها السياسي ، ما تزال للحياة العقلية بها سوق رائجة ، حتى دهش المسلمون لما وجدوه بها من صنوف المعرفة وضروب المدنية والحضارة .

وفىما كتبه أبو الريحان البيرونى ثبت قيم لما رآه بها وشاهده
فى أغلب هذه النواحي (١).

وبرغم اختلاط هذه الثقافات المختلفة وامتزاجها وتأثر
المسلمين والهنداكة ، كل بنصيب من عادات الآخرو تقاليدہ ، بما يُرد
عادة إلى إدمان الجوار فى البيئة الواحدة المشتركة ، فقد ظل كل فريق
منهم على كل حال محتفظا بصفات جوهرية ، تميزه عن الفريق
الآخر تميزا ملحوظا ، منشؤها اختلاف العقائد وأسسها الإجتماعية
من جهة ، وتباين أصول الثقافات المنبثقة عليها من جهة أخرى .
ولم يكن سيف الفتح هو الذى ساعد فى الغالب على انتشار
الإسلام بالهند ، أو ميل بعض القوم إلى تقليد حكامهم
والتقرب منهم ، أو حتى طموح فريق من أهل البلاد إلى تقلد
بعض المناصب الكبرى التى كانت وقفا على المسلمين فى الدولة .
إنما كان العامل الأول فى دخول كثرة من الهنداكة فى الدين
الإسلامى هو ما لمسوه من قيام المساواة التامة بين أصحابه وانعدام
نظام الطبقات عندهم ، ثم الهروب من استبداد البراهمة والتخلص
عما كان يُلزم به غير المسلمين عادة من الجزية .

١ — وأشهرها كتابه « ذكر ما للهند من مقولة للعقل أو مرذولة » وقد نقل
الى لغات أوربية عدة .

ولقد قامت الدولة الإسلامية في الهند على أيدي رجال الحرب في الغالب ، ومن ورائهم رجال الدين يذكون فيهم روح الجهاد لنشر الإسلام في هذه البلاد دون إكراه فيه ، فمن دخله صار له ما لأهله من الحقوق ، ومن أعرض عنه فُرض عليه ما يفرض عادة على غير المسلمين من جزية دون عنت أو إرهاب .

وشهد المسلمون بما سبق عدول من مؤرخي الهنادكة أنفسهم (١) ومعهم طائفة من المؤرخين الأوروبيين ، فذكروا أن أهل البلاد كانوا يعيشون في أمان بكنف المسلمين ، فلم يكن ما تعرضوا له من مضايقات في بعض العهود إلا حالات فردية عارضة لا تمت إلى تعاليم الإسلام نفسه بسبب (٢) .

وأن كان بعض السلاطين من أمثال سكندر لودهي قد حدوا من حرية الهنادكة الدينية فخرءوا عليهم إقامة معابد جديدة أو حتى ترميم القديم منها ، فهناك كثيرون غيرهم من أمثال محمد تغلق ضربوا صفحا عن احتجاج فريق من رجال الدين المسلمين ، فأظهروا تسامحا مطلقا نحو هؤلاء الذين لم يتعمروا بجزية العبادة كاملة في أيامهم فحسب ، بل شاركوا مشاركة فعالة كذلك في أداة الحكم

Prasad Medieval India P 509,10, Havell P 257 — ١

Arnold, Th. The Preaching of Islam P. 420. — ٢

ومناصب الدولة (١).

هذا وكان سلاطين الهند المسلمين عموما مستقلين تمام الاستقلال عن الخلافة العباسية ، فلم يكن ما سعى إليه فريق منهم ، مثل الشمس وآل تغلق ، من خطب ود الخليفة لإلّا من باب التشريف الديني طلبا لمزيد النفوذ بين بني قومهم ، فقد ضربوا السكة باسمهم وأجروا الخطبة بالدعاء لهم وحدهم في الغالب .
ولقد بهرت كنوز الهند الطائلة أنظار غزاتها الأولين فنبغوا بها وبالفتوح عن الالتفات الجدي لتنظيم شئون الحكم وإرساء قواعده . حتى جاء السلطان بلبن فطفق يعمل على إقرار الأمن في البلاد وبذل غاية الجهد في القضاء على قطاع الطرق وعصابات اللصوص في رقعة بلاده الواسعة ، فانتعشت بذلك تجارة الهند وزراعتها .

وواصل الذين جاءوا من بعده عنايتهم بالحالة الاقتصادية ، فوضع علاء الدين الخلجي نظاما ثابتا للضرائب وعنى بالزراعة عناية فائقة حتى توفرت الأقوات في البلاد وعم اليسر والرخاء .

١ - يقول لين بول أن الإسلام يلائم ، ببساطته ، العقلية الهندية أكثر من المسيحية ، وأن الحكومة الإسلامية ، مهما يكن من عيوبها ، كانت أفضل حكومة عرفها الهنود ، وبجمل ذلك من الأسباب التي أدت بالأهلين في الغالب إلى

وكان هذا السلطان هو كذلك أول من أحكم ضبط الأسعار في بلاده الواسعة . وقد شاهد ابن بطوطة بنفسه أهراء الحبوب التي كان علاء الدين قد أقامها بدلهي .

وما برحت هذه المخازن السلطانية أمدأ طويلا تمد السكان بالأرزاق والحبوب إبان المجاعات العنيفة التي كانت تحتاج الهند عادة حين تنحبس الأمطار الموسمية عنها . وهذا كما كانت الخانقاهات والمطابخ السلطانية ، المنتشرة في أنحاء البلاد ، تقوم يوميا بإطعام حشود الأهالي في هذه الأزمات الخفيفة .

ويعرض علينا الرحالة العربي ابن بطوطة صورا مفصلة لألوان الحياة في الهند التي زارها في القرن الثامن الهجري ، ويشيد بقيام العدل وشيوعه ، وانتشار الأمن والطمأنينة بالبلاد . كذلك يتحدث ابن بطوطة عن انتشار الرقيق في الهند ، وقد كانوا على كل حال ينعمون في ظل سادتهم بالكثير من الرعاية حتى رأينا الكثيرين منهم يبلغون مراتب القيادة والوزارة ، بل لقد حكمت الهند يوما ما أسرة كلها من الممالك ^(١) .

هذا ويذكر الرحالة العربي أيضا أن الخانقاهات والحمات والبيمارستانات (دور الشفاء) كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها ،

وكان يُقدّم في الأخيرة منها الغذاء والدواء للفقراء بالمجان .
ولعل من أهم ما تلفت النظر فيما ذكره ابن بطوطة عن
الهند ، أنه وجد بمدينة هناور ثلاث عشرة مدرسة للبنات
وثلاث وعشرين مدرسة للصبيّة ، مما يقوم دليلا على عناية الدولة
بتنشئة أبنائها تنشئة صالحة ، وعدم إهمالها لشأن المرأة بصفة
خاصة (١) .

كما يشير كذلك إلى منع الحكام المسلمين ممارسة الهنادكة لعادة
الساقى البشعة ، فلم يبيحوها لهم إلا في أحوال قليلة نادرة وبإذن
من السلطان نفسه (٢) .

كذلك تحدث ابن بطوطة عن رواج الحركة التجارية بالهند ،
وقد رأى بنفسه التجار الأجانب يزحمون موانئها الغريبة ، لاسيما
بروج وكاليسكوت ، لشراء منتجات هذه البلاد الوفيرة ، أو يبيع
ما كانوا يأتون به من منتجات فارس وخراسان والعراق
ومصر (٣) .

١ - ابن بطوطة رابع ص ٦٧

٢ - عادة الساقى هي إقبال المرأة الهندية على حرق نفسها حية مع جثة زوجها مالم
يكن لها ولد في الغالب

٣ - ابن بطوطة ثالث ص ٤٠٥ ، ورابع ص ٨٩

وكان لإقليم الكُجرات ، أهم مرا كز الهند التجارية منذ القدم ،
ينعم أهله بصفة خاصة بقدر وافر من الثراء ، وكانت أرضه تنبت
أجود أنواع الكروم والقطن .

ومن مينائه كباى كانت تصدر البهارات والنيلة فيقايضها التجار
بالذهب والفضة والنحاس .

هذا كما كانت الصناعات تقوم فى أنحاء متفرقة به ، ومنها النسيج
على مختلف أنواع . واشتهرت الكجرات كذلك بضرب من
المصنوعات الجلدية عليها نقوش الطير والحوان ومكفته بأسلاك
الذهب والفضة (١) .

على أن اقتصاديات البلاد ما عتمدت على أثر الغزو التيمورى
أن أخذت فى الانهيار . ذلك أن هذا الغزو ، فضلا عن استنزافه
لثروات البلاد وتخريبه لكثير من المدن الهندية ، قد أدى إلى
انفراط عقد الدولة الإسلامية فى الهند وتفككها إلى ولايات
صغيرة كثيرة حتى اقتصر سلطان دهلى على ولاية صغيرة كانت
أقل الولايات الهندية جميعا دخلا وثروة .

وقد نعمت الولايات التى لم تتعرض لهذا الغزو وآثاره ، فى

نفس الوقت بكثير ، من الرخاء إذ أوقفت بدورها جميع دخلها ومواردها على نفسها . وكانت البنغال أوفر الأقاليم الهندية جميعا حظا في هذه النواحي .

وبلغ فن العمارة والنقش في عهد الحكم الاسلامي بالهند درجة رفيعة من الروعة والرقى يدل عليها مسجد آجمير ومسجد القطب بدهلي ومنارته ، التي ترتفع إلى ٢٤٢ قدم ويتوجها الممر في أجزائها العليا ، وكثير من المدارس والبيمارستانات التي نجت من تخريب الحروب .

وهذا ابن بطوطة لا يفوته في كتاب رحلته أن يشيد بما كان عليه قصر محمد تغلق ، ذو الآلاف عمود ، بدهلي من الروعة والبهاء (١) .

وكان من الطبيعي أن يستخدم الحكام المسلمون رجال المعمار من أبناء الهند في إقامة منشآتهم هناك ، فقد كان للعمارة في الهند القديمة سوق رائجة تدل عليها آثارها القديمة الخالدة ، فجاءت الأنماط هندية في نواتها ، واللبقاع تأثير في الطابع كما يقول المقدسي الجغرافي . على أن هؤلاء الفنانين حرصوا في تصميماتهم ، بتوجيه من حكامهم ، على أن توائم النهج الإسلامي وتسائر التطور

الفنى فى البلاد الإسلامية ، دون أن يطغى شىء من ذلك كله على طابعها الأصيل ، فأضيفت النقوش والزخارف العربية والفارسية إليها ، كما اقتُبست بعض الطرز بدورها منها (١) .

ولقد رأينا كيف بهرت العمارة الهندية السلطان محمود الغزنوى ثم الغازى تيمورلنك من بعده حتى صحب معه إلى بلاده مئات من رجال المعمار الهنود الذين عهد إليهم بإقامة منشآت كثيرة بعاصمته سمرقند ، من بينها مسجدها الجامع « مزار شاه » الذى بناه حول مقام الصحابى قثم بن العباس فاتح المدينة ، كما سجلوا له كذلك فتوحاته وحروبه الهندية بنقوشهم على جدران قلعته هناك (٢) .

وحين استقر بالهند سلاطين المسلمين ، من بعد الغزنويين ، طفقوا يستخدمون فى الغالب أطلال المعابد الهندوكية ومخلفاتها فى إقامة منشآتهم هناك .

وصادت العمارة الإسلامية بالهندستان رواجاً كبيراً على أيدي السلطان علاء الدين الخلجى ، الذى أنشأ كثيراً من القصور والحصون والخزانات . ويُروى أن كل عمود من عمود قصره الألف بأساسه رأس مغولى من الذين أسرهم فى حروبه معهم . وقد

Arberry, Legacy of Persia. p 94 — ١

٢ — برنامہ ورقہ ٤٥ ب وما بعدها .

أطلق هذا السلطان يد البذخ في الإنفاق على منشآته بفضل كنوز
الدكن والجنوب التي أتى له بها قائده كافور .

وحين تفككت عرى سلطنة دهلي أعقاب الغزو التيمورى ،
رأينا ملوك الطوائف بدورهم يبذلون عناية كبيرة بالعمارة التي
اختلف فيها عندهم الطراز الهندى بالطرز الإسلامية التي كانت
شائعة خارج الهند، وهى التي أتى لهم بها فريق من رجال المعمار الفرس
والترك الذين وفدوا إليهم فيمن وفد من رجال الفنون والعلوم .
ولا يزال كثير من هذه الآثار قائما حتى اليوم في جونپور والكجرات
ومالوه وبلاد بهمنى الدكنية وبيجاپور وأحمد نكر وڤايا نكر .
ولقد رأينا كيف كان يعج بلاط محمود الغزنوى بالشعراء
والعلماء والمؤرخين وفيهم البيهقى صاحب تاريخ آل سبكتكين والعُتبي
الوزير صاحب تاريخ اليمنى (يمين الدولة محمود الغزنوى) ، ثم
العلامة أبو الريحان البيرونى صاحب التأليف المشهورة عن الهند
والعارف بلغاتها وعلومها وعوائدها، (١) والفارابى الموسيقى الفيلسوف

١ — أجمع المؤرخون على أن البيرونى كان يحيد السنسكريتية، وأنه أفاد من الحكماء
الهنود في التاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية . وقد أخذ كثيرا من معلوماته إلى
فيدها في كتبه التي أدرت على المائة ، من أفواه العلماء لا من بطون الأسفار .
(تعليقات الغزنوى على كتاب جمار مقاله لنظامى السمرقندى ترجمة عبد الوهاب
عزام وبجوى الحجاب . ص ٥٣٠)

ولم يكن الذين خلفوا محمود في الهندستان دونه في رعاية العلوم والآداب والفنون ، إذ كانوا قد وفدوا إلى هذه البلاد من أماكن راجت فيها أنواع المعارف والثقافات الإسلامية ، فرحبوا على الدوام بالعلماء والأدباء المسلمين الذين لم ينقطع قدومهم إلى بلاط دهلي وغيرها من الإمارات الإسلامية بشبه القارة .

هذا وكانت لغة التأليف والكتابة عند علماء المسلمين بالهند هي الفارسية . وقد نبغ فريق منهم في الكتابة بالسنسكريتية نفسها كذلك ، وفيهم الشاعر خسرو الدهلوي « غريد الهند » الذى تتجلى في أشعاره دقة الأحاسيس والعواطف وسمو الغزل والوصف فى الحرب والحب على السواء . وقد عاش هذا الشاعر حقبة طويلة من عمره ببلاط السلطان محمد تغلق كتب فيها ديوانه (غرة الكمال) وترجم للولى الزاهد الشيخ نظام الدين أوياس . ويشهد على وفرة محصول خسرو هذا فى كافة نواحي المعرفة ما تركه من منشورات ومنظومات بالفارسية والسنسكريتية والعربية تجدها فى أشهر كتابين له وهما : « إيجاز خسروى » و « خزنة الفتوح » . وعاصر الدهلوى ، من شعراء القرن الثامن الهجرى بالهند ، بدر الدين المعروف ببدر شاخ (نسبة إلى مدينة طشقند) ، والقاضى عبد المقتدر الشانهى صاحب المنظومات العربية والفارسية ثم

عقبة آل تغلق معين الدين عمراني .
أما كتاب النثر فمنهم مولانا خواججو ، واحد تيسرى
صاحب أخبار الأخيار ، والقاضى الشانمى بليغ العربية ، وعين
الملك المتنانى صاحب ديوان الرسائل عند الخلجيين ثم آل تغلق
من بعدهم . وقد ترك هذا الكاتب مجموعة من الرسائل الديوانية
تعرف باسم « إنشاء ماهرى » ، وتعد نبأ لأحوال الهندستان
الاجتماعية والسياسية فى زمانه .

أما المؤرخون فنذكر منهم أباعمر و عثمان منهاج السراج
صاحب « طبقات ناصرى » ، وضياء الدين بارنى صاحب تاريخ
فيروز شاه الذى سجل فيه كثيراً من فنون المعرفة فى عصره ، وقد
أكمله من بعده شمس السراج عفيف فى غناية بالغة . وأخيراً
غلام يحيى بن أحمد صاحب تاريخ مبارك شاه .

هذا إلى كثير غيرهم من المشتغلين بعلوم الحكمة والفلسفة (١)
والفقه ، ومنهم أولئك الذين ذاع صيتهم فى إقليم جونپور ، على
الخصوص ، من علماء دهلى الذين كانوا قد لجئوا إلى هناك هرباً من
وجه الغزو المغولى ، ومعهم فقهاء اللودهيين من أمثال القاضى

شهاب الدين الدولت آبادى صاحب حواشى الكافية والإرشاد،
والفقيه إله داد شارح الهداية، والفيلسوف مُغيث حسنى .
ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن حركة النقل من السنسكريتية
التي كان العرب قد بدؤوها فى القرن الثانى الهجرى لم تتوقف،
وإنما صارت بيلاط دهللى إلى الفارسية بدلا عن العربية . وكان
المسلمون فى الهند هم الذين يقومون على ذلك بأنفسهم فى
الغالب، فقد رأينا فيروز تغلق، حين ظفر بمكتبة سنسكريتية فى
حصن نكركت، بعهد إلى مولانا عز الدين خالد خانى بأن ينقل
إلى الفارسية جملة من كتبها فى الفلسفة والفلك . وتعرف هذه
المجموعة باسم دلائل فيروز شاه . كما نقلت كُتب طبية سنسكريتية
أخرى إلى الفارسية كذلك أيام سكندر لودهى، هى وأقسام
من المهابهارتا وغيرها من كتب الهند الدينية والتاريخية القديمة
والملاحم .

وكما أطلق الحكام المسلمون للهنادكة الحرية الدينية فى أغلب
الأحيان، فكذلك تركوهم يمارسون الكتابة والتأليف بلغتهم فى
حرية تامة حتى فى المذاهب الدينية والفلسفية الخاصة بهم .
ولقد أشرنا من قبل إلى أن اختلاط المسلمين بالهنادكة فى
بيئة جامعة قد نشأ عنه تبادل كثير من التقاليد والعادات . ويظهر

أثر تعاليم الإسلام قويا بادي الوضوح عند بعض المصلحين من الهنادكة أمثال نامديوا كبير ونانك اللذين أنكرا عبادة الاوثان والقول بتعدد الآلهة وتحريم زواج الأرامل وممارسة عادة الساقى وقيام نظام الطبقات بين الناس. وقد نادى هؤلاء جميعا بالتوحيد وقالوا بأن الله هو رب الناس جميعا من مسلمين وهنادكة وغيرهم. بل لقد صرح نانك، مؤسس الستك، باحترام شيعته وتقديسهم لرسول الله وأنبيائه كافة، مع الإشادة بذكر النبي الأكرم والقرآن الكريم خاصة.

هكذا كان الحكم الإسلامى فى الهند عهد ازدهار قوى ومصدر خير وبركة لهذه البلاد، وإن عُدد من وجهة نظر الهنادكة، بدهامة، كارثة قضت على استقلالهم وهدمت الكثير من معابدهم؛ إذ اغتصب الغزاة المسلمون بلادهم وراحوا يعلنون العداء لمعتقداتهم باسم القضاء على الشرك والوثنية.

على أن هؤلاء الفاتحين المسلمين ما غدوا بعد قليل أن استوطنوا شبه القارة الهندية واستقروا بها، فلم تعد السكوز والآوال والنروات التى انتقلت إلى أيديهم تسرب بدورها إلى خارج الهند، ذلك التسرب الذى ينتهى دائما إلى تعرض البلاد المفتوحة إلى هزات اقتصادية عنيفة.

ولقد بهر أنظار الهادكة ، أصحاب التراث القديم ، ما استجلبه المسلمون من ألوان الحضارة والمدنية الإسلامية التي تميزت فنونها على الأخص ببعدها عن التجسيم الذي كان شائعا في كافة نواحي الحياة الفنية الهندية ، هذا فضلا عن التقاليد الاجتماعية الرفيعة التي اعترف مؤرخوا الهنادكة أنفسهم بسمو أصولها الإسلامية الأولى. وإلى جانب ذلك كله شهدت الهند جملة من الأحكام الأكفأ من أمثال علاء الدين الخلجي وآل تغلق الذين عملوا في إخلاص على النهوض ببلادهم وترقية الزراعة والصناعة والتجارة حتى توفرت الأقوات والأرزاق ونعم الناس قرونا عدة باليسر والرخاء . وإلى جانب هؤلاء السلاطين العظام ظهرت طائفة من القواد الأفذاذ الذين دفعوا عن هذه البلاد أخطار الغزو المغولي المدمر مرات عديدة .

وكانت النهضة العلمية والأدبية والفنية التي عرفتها الهند على أيدي هؤلاء الأحكام فسادت هناك قرونا عدة ، هي بمثابة حجر الأساس لحضارة أكبر دولة عرفتها هذه البلاد ، وهي الدولة المغولية التي أرسى دعائمها الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر في النصف الأول من القرن العاشر الهجرى (٩٣٢ هـ / ١٥٢٦ م) فعمّرت قرونا ثلاثة اتسعت فيها رقعتها حتى شملت شبه القارة الهندية بأكملها. وهي موضوع الجزء الثانى من هذا الكتاب . بإذن الله .

مكتبة البحث

مراجع ربية عوفارسية وتركية :

- ١ — بابرنامه ، نشر السيدة أنيت بفريدج . ليدن ١٩٠٥ م
- ٢ — بدء العلاقات العلمية بين الهند والعرب للدكتور محمد يوسف الهندى . (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الثانى عشر مايو ١٩٥٠)
- ٣ — تاريخ البيهقى ، ترجمه إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت . القاهرة ١٩٥٦ م
- ٤ — تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، ترجمة حمزة طاهر . القاهرة ١٩٣٣ هـ
- ٥ — تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى . القاهرة ١٣٢٣ هـ
- ٦ — تاريخ العُتْبى على هامش الفتح الوهبى . القاهرة ١٢٨٦ هـ
- ٧ — تاريخ فرشته لملا محمد قاسم هندو شاه . لكتنو ١٣٢٣ هـ
- ٨ — تاريخ الكامل لابن الأثير الجزرى . القاهرة ١٣٠١ هـ
- ٩ — تاريخ الفلسفة الإسلامية لدى پور ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده . القاهرة ١٩٣٨

- ١٠ - تاريخ المغول لعباس إقبال . طهران ١٩٣٣ م
- ١١ - تاريخ العقوبى . لندن ١٨٨٣ م
- ١٢ - چهار مقاله لنظامى السمرقندى مع تعليقات القزوينى، ترجمة الدكتورين عبدالوهاب عزام ويحيى الخشاب. القاهرة ١٩٤٩ م
- ١٣ - تحفة الأنظار فى عجائب الأمصار (رحلة ابن بطوطة) . فى خمسة أجزاء . باريس ١٨٥٣ م
- ١٤ - حقائق الأخبار عن دُول البحار لإسماعيل سرهنك . القاهرة ١٣١٤ هـ
- ١٥ - حضارة الهند لجوستاف لوبون ، ترجمة عادل زُعبير . القاهرة ١٩٤٨ م
- ١٦ - ذكر ما لا بد من مقولة مقبولة للمقل أو مردولة لآبى الريحان البيرونى . لندن ١٨٨٧ م
- ١٧ - رياض السلاطين أو تاريخ إنكاله لغلام حسين سليم . كالكتا ١٨٩٠ م
- ١٨ - ضحى الإسلام لأحمد أمين . القاهرة ١٩٣٨ م
- ١٩ - طبقات ناصرى لآبى عمر عثمان منهاج السراج (ترجمة رافرتى) . لندن ١٨٧٣-٨٩٧ م
- ٢٠ - طبقات أكبرى لنظام الدين أحمد بخشى . لكتو ١٩١٣ م

- ٢١ — ظفر نامه لشرف الدين يزدى. كلكتا ١٨٨٥-١٨٨٧ م
 ٢٢ — فتوح البلدان للبلاذرى . لندن ١٨٨٦ م
 ٢٣ — مخزن أفعانى وتاريخ خان جهان لودى
 لنعمت الله ترجمة دورن. لندن ١٨٢٩ م
 ٢٤ — مروج الذهب للمسعودى. القاهرة ١٣٤٩ هـ
 ٢٥ — ملفوظات تيمور (المجلد الثالث من كتاب
 إليوت وداوسون عن تاريخ الهند -
 القسم الإسلامى) ١٨٦٧-١٨٧٧ م
 ٢٦ — الهند وجيرانها تأليف بول ديرانت وترجمة
 الدكتور زكى نجيب محمود . القاهرة ١٩٥٠ م

مراجع أوربية :

- 1 — Arberry. J. A. The Legacy of Persia Oxford 1953.
- 2 — Arnold T.W. The Preaching of Islam. London 1935.
 Barthold, W. Histoire des Turcs d' Asie Centrale.
 Adap. Donskies. Paris 1945.
- 3 — Cambridge History of India. 5 Vol.
 Cambridge 122-29.
- 4 — Dunbar, G. A history of India from the earliest
 times to the present day. 2 Vols. London 1943.

- 5 — Elliot, H.M. & Dowson J. The History of India
astold by its own Historians (Moh. Period). 8Vols.
London 1867-77.
- 6 — Elphinstone, M. The History of India. London 1911.
- 7 — Gablentz, H. C. Ueber die sprache des Hazaras
ZDMG Bd. XX. .
- 8 — Garrat, Y. T. The Legacy of India. Oxford 1938
- 9 — Havell, E.B. The History of Aryan Rule in India.
London n.d.
- 10 — Ischwari Prasad. History of Medieval India.
Allahabad 1925.
- 11 — Ischwari Prasad. A. short History of Moslem Rule
in India. Allahabad 1933.
- 12 — Lane-Poole, St. Medieval India. London 1916.
- 13 — Le Bon, Gustav. Les Civilisations de l'Inde. Paris 1887.
- 14 — Marco - Polo. The book concerning the
kingdoms, and marvels of the East.
Translated by H. Yule. 2 Vols. London 1903.
- 15 — Moreland, W.H. & Chatterjee, A. Ashort History
of India. London 1936.
- 16 — Mueller, A. Der Islam in Morgen und
Abendland. 2.Bd. Berlin 1887

فهرس أبجدى عام (١)

أبو الحسن الأهوازی ٧٩	آب تکین ١٤٠
أبو الريحان البيروني ٤٦، ٧٠	آریه بهت ٤٤
٢٥٩، ٩٩	آزوکا (آشوک) ٣٣، ٣٢، ٣١
أبو الفتح القرمطی ٨٨	آکرا ٢١٥
أبو القاسم سن الحسن المصنوی ١٠١	آنجبالا ٥٠، ٨٩
أبو البرید طیفور البسطامی ٧٧	إبراهیم بن صالح ٨٠
أبو عطاء السندی ٧٧	إبراهیم بن مسعود ١٠٧
أبو عمرو عثمان بن نهج المبراج ٢٦٢	إبراهیم الفزاری ٧٩
أبو مسلم الخراساني ١٩	إبراهیم شاه شرقی ٢٧٦، ٢٠٦، ٢٧
أبو معشر نجیح السندی ٧٧	٢٣٢، ٧١٧
أبیلا ٢٤	إبراهیم عادل شاه ٢٢٤
أحمد بن یالثکین ١٠٢	إبراهیم لودهی ٢١٥ - ٢٤٩
أحمد بنیسری ٢٠٦، ٢٠٥	ابن الأعرابي ٧٧
أحمد خان موآبی ٢٢٥	ابن بختیشوع ٨٠
أحمد شاه کجراتی ٢٣٣، ٢١١	ابن حوقل ٤٧
أحمد عبد الصمد ١٠٥، ١٠١	ابن دعله ٨٠
أحمد نسکر ٢٢٤	ابن دمن ٨٠
الإدریسی ٤٧	أبو بکر تطلق ١٩
أرجیه ٧٦	
أرکند ٧٩	

١ - ضبطت الأعلام وأسماء الأماكن وفق ماورد عند جهره مؤرخي الهند المسلمين .

بدیل بن طهفة ٥٨
 براآب رودرا ١٥٩
 برار ٢٢٢
 براها ٢٣
 براها سدهاتا ٧٨
 براها کوتا ٤٤
 برهسکیت ٧٨
 برهنا باد ٦٦، ٢٢
 بریتی راجا ١١٥
 بسال دیوا ٧٩، ٣٥
 بشر بن داود ٧٣
 بطليموس ٣٤
 بغرا خان بن بلن ٦١٤٢، ١٣٨
 ١٤١ - ١٤٣
 بکر مادیت ٢٢
 بلن ١٣١ - ١٤٤
 بله-کسین ٣٧
 بتدبا ٢٢٦، ٣٩
 البنغال ٢١٩، ٢١٨
 البوذه ١٧ - ٢٢
 بورس ٢٨
 بوکا ٢٢٦
 بهاء الدين کتاسب ١٧٤
 بهادر خان لوحانی ٢٤٨
 بهادر خان کجراتي ٢١٤، ٢١٢
 بهادر خان المغولی ٥٠
 بهادر نهير ١٩٢، ٢٠٤

الإسکندر المقدوني ٢٩، ٢٨
 إسماعيل القزنوی ٨٦
 الإسطخری ٤٧
 أغني ١٤
 إقبال خان (ملو) ١٩٤، ١٩٣
 ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧
 ٢٩٩
 أكبر المغولی ١٨٥، ٢١٥
 س خان (هو شنك شاه) ٢١٣
 اليتسکين ٨٣
 الشمس ١٢٣ - ١٢٩
 إله داد ٢٦٢
 إلياس أفغان ٢٠٥
 إندرا ١٤٢
 أوده ١٣٤
 أورانکل ١٥٩
 أوكا ١٩٤
 أيبك ١١٧، ١١٨، ١٢٢، ١٢٣

د ب

بارمل دیوا ٦٦
 بالا ٣٧
 بانی بت ١٩٤، ١٩٩، ٢٤٩
 البید ١٨، ٢٠، ٢٢ - ٢٢، ٢٢
 بدر ٢٢٢
 بدر الدين (بدر شاخ) ٢٦٢
 بدمنی ١٥٧

جام بايينا ١٨٥
 جامو ٢٠٥
 جايبا جندرا ١١٧
 جاي سنك ٦٨
 جسرت كهكر ٢٣١
 جلال الدين احسان شاه ١٧٨، ١٧٩
 جلال الدين لودهي ٢٤٦
 جلال الدين شاه خوارزم ١٢٥، ١٢٦
 جلال الدين فيروز الخلجي ١٤٩ -
 ١٥١
 جلال الدين ياقوت ١٣٠
 جلم بن شيبان ٧٥
 جند بيبي ٢٢٤
 جندرا كبتا ٢٩
 جندري ١٥٨
 جندرابور ٥٥
 جنكيز خان ١٢٥
 جنيد بن عبد الرحمن ٦٨
 جوستاف لوبون ١٨
 جونيور ٢١٥ - ٢١٨
 جيتور ١٥٧
 الجيزة ١٧، ١٨، ٢١، ٢٢

« ح »

حاجي الياس ١٨٢
 الحارث بن كلدة ٥٥
 حبيب بن المهلب ٦٨

بهرام بن التمش ١٣١
 بهلول لودهي ٢١٤، ٢٣٣ - ٢٤٠
 بهمن بن اسفنديار ٢١٩
 بهيم ديوا ١١٣
 بهيمبال ٩٢
 بهجايور ٢٢٢

« د »

داتار خان ١٧٩، ١٩٣
 داج الملك تحفة ٢٣١
 دارجي ١٥٣
 دامل ٢٥
 دبار هنداه ١٣٤
 دشميرين ١٧٤
 دسكسلا ٣٤، ٣٣
 دلسند ١٢٣
 دلك الهندي ١٠٢
 دلتجانا ١٥٩
 دليكو تا ٢٢٨
 دلك الهندي ١٠٢
 ديمورلنك ١٩٤ - ١٣١، ٢٥٠
 ٢٥٨

« ج »

جاجنكر ١٤٠
 الجاحظ ٨٠
 جارجي ٤٢

داود بن یزید ۷۲، ۷۳
 داود القرمطی ۷۶، ۸۹، ۹۲
 داود المغولی ۱۵۲
 داهر ملک السند ۵۷، ۶۰، ۶۱
 الذکن ۲۱۹
 دلاور خان الفوری ۲۱۳، ۲۱۵
 دلاور خان لودمی ۲۴۹
 دولت آباد ۱۷۴
 دولت خان لودمی ۲۰۷، ۲۰۸
 ۲۴۸، ۲۴۹
 دهل (تخریب تیمور لها) ۲۰۲
 دیبالیور ۱۹۳، ۱۹۸
 دیل ۶۰
 دیو سفورس ۴۵
 دیوکر ۱۷۴
 «ر»
 الراماینا ۱۵
 رانا سنکا ۲۴۸
 رانی بای ۶۱
 راور ۶۳
 رضیة ۱۲۹، ۱۳۰
 رکن الدین فیروز ۱۳۰
 رتنپور ۱۳۴
 الرور ۶۳

«س»

سادات خان ۱۹۳

الحجاج بن یوسف الثقفی ۵۵،
 ۵۶، ۵۷، ۵۸، ۶۴
 حسان بن مجاهد ۷۱
 حسن کاندکوی (چنگو) ۱۸۰،
 ۲۱۵
 حسین شاه بنغالی ۲۱۸
 حسین شاه شرق ۲۴۲، ۲۴۳
 الحکم بن عوامة ۶۹
 حکیم بن جبلة العبدی ۵۶
 حمید خان ۲۳۴ - ۲۳۷ - ۲۴۸
 حمید القرمطی ۷۶
 حیدر آباد الذکن ۲۲۰
 حیدر آباد السند ۶۹

«خ»

خاندش ۲۱۶
 خسرو الدهلوی ۱۶۲، ۲۶۰
 خسرو الفزنوی ۱۰۹، ۱۱۳
 خسرو قائد مبارک شاه ۱۶۵ -
 ۱۶۸
 خضر خان الخلیجی ۱۵۹
 خضر خان (السادات) ۲۰۵،
 ۲۰۷، ۲۰۸، ۲۲۹ - ۲۳۱
 ۲۳۶
 حواجی ۲۶۰

«د»

دانیل خان ۲۴۴

شمس الدين التمش : اظفر التمش

شوريا ١٤

شهاب الدين الدولتا بادی ٥٦٦

شهاب الدين مبارک ١٩٧

شيخا کمکر ٢٠٥

شیر شاه ٢١٢

شيو ٢٣

«ض»

ضياء الدين نارني ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٤

٢٩٢

«ط»

طفای ترک ٢٣٠

طغرل بك السلجوق ١٠٤ ،

طغرل شاه بنغال ١٣٩ ، ١٤٠ ،

١٤١

«ظ»

ظفر خان ١٩١ ، ٢٠٦ ،

ظهير الدين محمد بابر ٢٤٥ ، ٢٤٩ ،

٢٦٤

«ع»

عبد الرحمن بن ابي مسلم العبدي ٩٩

عبد الله بن الاشرع العلوي ٧٠ ، ٧١ ،

عبد الله بن عاصر ٥٦

عبد الله قاضي شيراز ١٠٢

سارنك خان ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٢٩

سبأ ٥٤

سبکشکين ٨٣ ، ٨٥

سر هند ٢٢٣

سرسوتي ١٩٩

الصفیح بن عمرو ٧١

سقراط ٤٦

السكا ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧

سکندر شاه ٢٤١ - ٢٤٤ ،

٢٤٦ ، ٢٦٢

سليمان بن عبد الملك ٦٥ ، ٦٧ ،

سمانه ١٣٤ ، ١٩٩ ،

سمية أم زياد ٥٥

سنا ٢٧ ، ١٩٩ ،

سنجر السلجوق ١٠٨

السند هند ٧٨

سواك ٦٦

سوراج ديوا ٦٦

سوري الفوري ١٠٩

سومات ٩٤ - ٩٧

سيد هو بال ٢٢٣

سيستان ٨٤

«ش»

شاهرخ ١٩٦

شجرة الدر ٩٣٠

الشليوكيون ٢٧

شمس السراج غيف ٢٦١ ،

عيسى خان لودهي ٢٤١

عين الملك الثاني ٢٦١

« غ »

غازي خان ٢١٤

غاندي ٢١

غلام عبي بن احمد ٢٦١

غولسكونده ٢٢٢، ٢٢٥

غياث الدين بلين (انظر بلين)

غياث الدين بن سام الغوري ٠٩

غياث الدين تغلق الثاني ١٩٠

« ف »

الفارابي ٩٩، ٢٥٩

فاهيان ٢٨، ٣١، ٣٣

فتح آباد ١٩٩

الفرخي ٩٩

الفردوسي ٩٩

فكر دينا ١٢٩

فايانسكر ٢٢٦

فيد ياهارا ٩٤

فيروز تغلق ١٨١-١٨٨، ٩٠٢

٢٦٢

« ق »

قاسم بريد ٢٢٣، ٢٢٥

قباچه ١٠٣، ١٢٤، ٢٧، ١٢٨

قتلق خواجه ٨٥٢

عبد القندر الشامي ٢٦١

عبيد الله بن نيهان ٥٨

العتبي ٢٥٩، ٤٤٧

عثمان بن عفان ٥٦

عز الدين خالد خاني ٢٦٢

الهمجدي ٩٩

علاء الدين بنغالي ٢٤٣

علاء الدين الحلبي ١٤٠-١٦٤

١٧٠، ٢٢٦، ٢٥٤، ٢٥٨

علاء الدين علم خان لودهي ٢٤١

علاء الدين علم شاه (السادات) ٢٣٣

علاء الدين كاكروي (انظر حسن

كانكروي)

علاء الدين مسمود حفيد الشمس ١٣١

علاء الدين مسمود الغزنوي ١١٨

علاء الملك ١٥٤

علي بن ابي طالب ١١

عمر بن حفص ٧٠

عمر بن الخطاب ٥٦

عمر بن عبد العزيز الأموي ٦٨

عمر بن عبد العزيز الهباري ٧٤

عمران بن موسى البرمكي ٧٣

عمرو بن محمد بن القاسم ٦٩

عمرو بن مسلم الباهلي ٦٨

العنصرى ٩٩

عيسى بن محمد ١٩، ٢

عيسى خان ترك ٢٣٥

کينا ۳۴،۳۲
السكرات ۲۱۰،۲۹
کوتاماده (أنظر أيضا البد) ۱۷
« ل »

لادی ۶۳
لامور ۲۰۰،۱۹۴،۸۹
لکشن ۱۱۹
اللیث بن ظریف ۷۲
لغان ۶۳
لویس الخامس عمر ۵۱

« م »
مارشال ۲۶
ماریکله ۱۵۰
مالو ۲۱۲،۲۹
ماندو ۲۲۴،۱۵۸
ماذ-کو المغولی ۱۳۱
مبارک شاه (السادات) ۱۳۱
مبارک شاه شرقی ۶۲۱۶، ۲۰۶
۲۱۷
مجدود بن مسعود ۱۰۷
المجسطی ۷۹
محمد بن بختيار الخلیجی ۱۴۱۶۱
محمد بن الحارث اللافی ۵۷
محمد بن فیروز تطلق ۱۸۹-۱۹۲

عظم بن العباس ۲۵۸
خدرخان لکهناتوی ۱۷۸
عطف الدین أبیک : أنظر أبیک
عطف الدین مبارک شاه ۱۶۶، ۱۶۵
عطف الملك شاهی ۲۲۵
غنوج ۹۳، ۶۵، ۳۴
« ك »

کابل ۳۲، ۲۹
کایلا ۴۶
کافور ۲۲۶، ۱۶۵-۱۶۳، ۱۵۹
کای-کوت ۲۵۱
کبیر ۲۶۳
کوشنادیو ۲۲۷
کوشنا یاک ۱۸۰
کره ۱۳۴
کلم الله جمنی ۲۲۵
کال الملك ۲۳۴، ۲۳۲
کنشکا ۳۲
کوشان ۳۲
کولا ۳۹
کمند کهادیکا ۷۹
کهنیتل ۱۹۹
کیخمر و حفید بن ۱۴۳، ۱۴۵
کیفبازن بن ۱۴۳-۱۴۷
« ك »

کا-کوی : أنظر علاه الدین

مظفر خان ٢١٠ ، ٢١٧
 معاوية بن ابي سفيان ٥٧
 مهدي الدين عمراني ٢٦٦
 الميرد بن يزيد ٧٢
 المقدسي ٢٥٧
 مقرب خان ١٩٣
 ملك راجا فاروق ٢١٥
 ملك شير ١٦٥
 منصور بن جمهور الكلبي ٦٩
 منو ١٥ ، ١٦ ، ١٧
 منكه ٨٠
 موات ١٣٤
 موار ١٥٧
 مودود بن مسعود ١ ، ٦ ، ١٠٧
 الموريا ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١
 موهنجو دارو ٢٦
 المهاجراتا ٥ ، ٦٦٢
 مهاير ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٠
 مهير هوج ٣٥
 ميروث ٢٠٥
 ميفاستين ٢٨ ، ٣٠
 الميندى : انظر أبو القاسم الميندى
 ن
 ناصر الدين محمود بن التمش ١٣٢
 ناندس ١٤
 نصرت خازن قالي ٥٥ ، ١٥٩ ، ٨٠ ، ٢

محمد بن القاسم ٥٨ - ٦٧ ، ٨٦
 محمد بن هارون ٥٩
 محمد تقي ١٧١ - ١٨١ ، ٢٠٦ ، ٢٢٧
 محمد جها نكبير ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٢٧
 محمد خان فرملي ٢٤٢
 محمد شاه (السادات) ٢١٤ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ - ٢٢٧
 محمد الفزنوى ١٠٠ ، ١٠٥
 محمد النورى (مزر الدين) ١١٠ ،
 ١١٢ - ١٢٢
 محمد الفاتح ٢٢٢
 محمد قاسم هند وشاه ١٤٨
 محمود بهمنى ٢٢٥
 محمود بيكر كجراتي ٢١١ ، ٢١٥
 محمود تظلق ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ،
 ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٦
 محمود جوان ٢٢٠ - ٢٢٢ ،
 ٢٢٤
 محمود الخلجي ٢١٤ ، ٢٢٣ -
 ٢٢٧ ، ٢٣٧
 محمود شاه شرق ٢٣٩
 محمود الفزنوى ٢٧ ، ٣٤ ، ٧١ ،
 ٧٦ ، ٨٦ - ١٠٠ ، ١٠١
 ١٩٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩
 مسعود الفزنوى ١٠١ - ١٠٥
 السعوى ٤٧
 المسيح بن مريم : انظر عيسى بن مريم

هشام بن عبد الملك ٦٨
 هشام بن عمرو التلي ٧١
 هايون تغلق ١٩٢ ، ٢٤١
 هايون شيرواني ٢٤٧ ، ٢٤٨
 هايون فرمل ٢٤٣
 هايون لودمي ٢٤٧
 هايون المغولي ٢١٢ ، ٢١٤
 هو شفق شاه : انظر ألب خان
 هو ميروس ١٥
 هيون تسيانغ ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٣
 « د »
 ياداغا ٢٢٦
 يزيد بن ابي كبشه ٦٧
 يزيد بن غرار ٦٩
 يعقوب بن طارق ٧٩
 يلدز ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤
 يوجين ٤٤ ، ١٥٨
 يوسف عادل شاه ٢٢٢ ، ٢٢٣

نصرت خان (تغلق) ١٩٣ ، ٢٠٦
 نظام الدين احمد ١٤٨
 نظام الدين اوليا ١٦٣ ، ١٧١ ،
 ٢٦٠
 نواسه شاه ٨٩
 نيرون ٦١
 نيكاتور ٢٩
 « و »
 وشنو (وشنا) ٢٣
 الوليد بن عبد الملك ٥٥ ، ٦٥
 الوليدا ٤
 « ه »
 هاري هارا ١٧٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
 هافل ٧٨
 هانسي ١٣٤ ، ٢٤٦
 هانومان ١٤
 هرشا ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧

تم ، بعون الله ، الجزء الأول من هذا الكتاب ،
ويليه الجزء الثانى وموضوعه « الدولة المغولية ،

تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم

الجزء الثاني الدولة المغولية

تأليف
الدكتور
أحمد محمود الساداتي
المدرس بكلية الآداب - جامعة القاهرة

ملزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب وخطبتها بالجماهير : ٤٢٢٧٧

تَارِيخُ الْمُسْلِمِينَ

في شبه القارة الهندية وحضارتهم

الجزء الثاني

إشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمبصر

المطبعة النموذجية

٦ سكة الشاوي بالجمية الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

قامت الدولة المغولية بشبه القارة الهندية في القرن العاشر الهجري، فوصلت بالحكم الإسلامي في هذه البلاد إلى أرقى صورته، وبنفوذ المسلمين إلى أوسع مداه، وبالعقيدة الإسلامية إلى أقصى درجاتها من الذبوع والإنتشار، حتى بلغت بذلك كله إلى تحويل ملايين عديدة من أهل الهند عن معتقداتهم القديمة إلى دين المسلمين، وعن فنونهم ولغاتهم ورسومهم إلى فنون المسلمين ولغاتهم ورسومهم.

عاصرت هذه الدولة، أول نشأتها، دولتين إسلاميتين فتيتين كبيرتين هما: الدولة الصفوية التي قامت في فارس وامتد سلطانها على خراسان والعراق، والدولة العثمانية التي كانت اذ ذاك تحكم في آسيا الصغرى وأجزاء من أوروبا، والتي ما لبثت أن أغارت على الشام ومصر وأجزاء من فارس فاغتصبتها.

كانت الدولة المغولية أحدث هذه الدول جميعا ، وأصحابها
أنوا أكثر ملوك عصرهم تسامحا وأعظمهم كلفا بالحضارة والمدنية ،
لم يدانهم في ذلك عاهل . لا في الشرق ولا في الغرب .

وهم من أصلاب المغول والترك الذين أنزلوا الخراب والدمار
كثير من بلاد العالم الاسلامي ، ثم ما غدوا أن انقلبوا ، بفعل
لحضارة الاسلامية ودخولهم في الاسلام ، إلى بنائين للمدنات ،
إن لم يعدلوا في الغالب عن ميلهم إلى سفك الدماء ، حتى ل ترى
ندم الأكبر تيمورلنك ما يفتو يعمل التقتيل في أعدائه و يقيم
ن همامتهم أ كداسا على هيئة المنائر العالية ، لينطلق من بعد
لك إلى رعاية العلم والعلماء رعاية صادقة وإقامة منشآت الثقافة
المدنية الفخمة . وسار أبناؤه وأحفاده من بعده سيرته في المدنية
لاد ما وراء النهر وخراسان والهند وزادوا عليها ، حتى ازدهر
لى أيديهم كثير من المدائن التي خربها أجدادهم من قبل ، وصادفت
لندن والحضارة في عهدهم رواجا كثيرا (١) .

لم يجر حكام هذه الدولة في تسامحهم على مجرد إطلاق

حرية العبادة لأهل البلاد من الهنداكة فحسب ، حتى فتحوا لهم أبواب المناصب ، وقربوهم منهم ، وأصهروا إليهم ، وحضوا رعاياهم من المسلمين على ذلك ، يستهوى الإسلام من بعد ذلك كثيرا منهم ، بقوله بالمساواة التامة بين معتقيه ، فيقبلوا على الدخول فيه أفواجا ، حتى لرى المسلمين في شبه التسارة الهندية اليوم ، بعددهم الذى ينيف على المائة مليون ويبلغون به إلى أكثر من ثلث مجموع المسلمين فى العالم كله ، هم فى غالبيتهم الغالبة من أبناء هذه البلاد الأصليين .

واقده هدف هؤلاء الأمراء التيموريون ، أصحاب هذه الدولة ، بتسامحهم هذا إلى تألف سكان الهند واتحاد شعوبها لتقوى بهم دولتهم وترسخ أسسها ، حتى كان منهم من تعدى تقرب الهنداكة والإصهار إليهم إلى التفكير فى محاولة ابتداع مذهب جديد يقوم على التوحيد ، وتذوب فيه عقائد الهند كلها ولا يتعارض مع أسسها ، ليبلغ بذلك إلى توحيد هذه البلاد كلها توحيدا حقيقيا فى ظل الدولة .

ومن آيات تسامح هؤلاء السلاطين كذلك : أنهم ، وهم فى كلهم وشغفهم الزائد بالثقافة والمدنية ، لم يفتلوا شأن الثقافة والمندية الهندية ، فلم يكتفوا بالاطلاع عليها بل انطلقوا يحرصون

أهلها ، فى الغالب ، على الاشتغال بترائهم القديم وإحيائه وتطويره ، لينجم عن ذلك كله مزيج عجيب بلغ بالحضارة الإسلامية الهندية إلى أرقى صورها فى كافة نواحي المعرفة .

وأدى الإسلام ببساطته وقوله بالمساواة التامة بين أتباعه إلى تأثر فريق من مفكرى الهنادكة ومصلحيهم بتعاليمه ، فنادوا بمذاهب ومبادئ جديدة خففت كثيراً من غلواء نظام الطبقات ، وأنكرت هراحة عبادة الأوثان ودعت إلى عبادة إله واحد أكرم عباده عنده هو أتقاهم ، بصرف النظر عن العرق أو الطبقة والجنس ، واعترفت للأرملة والأيتام بحق الزواج . وصادفت جهود هؤلاء من التوفيق قدراً غير قليل بين الطبقات المستتيرة ، غير أن سلطان البراهمة بقى عند العامة أقوى من كل حركات المصلحين ، فأقامت شعوب الهند ، فى الغالب ، على خلافاتها المدمرة التى مزقتها شيعاً وطوائف ، فلم يجد المستعمرون البريطانيون ، حين أقبلوا على الهند ، مشقة كثيرة فى إخضاعها لهم ، ليعنوا من بعد ذلك فى إذلالها ويستنزفوا فى يسر تام كل خيراتها ومواردها وثرواتها .

لقد كان للهند فى القديم حضارة رفيعة ومدنية راقية لم

تكن تقل شأنًا عما كان لمصر واليونان في القديم ، لكنها عجزت
عن الصمود أمام الغزاة بسبب انقسامات أهلها الطبقية
والطائفية .

وبلغ بها حكامها المسلمون - بدورهم كذلك - إلى رقي حضارى
ومدى مشهور لم يغنها فتيلًا بأزاء خلافاتها المذهبية المعقدة التي
استعصت على كل المصلحين الذين تصدوا لها ، حتى جثت آخر
الامر أمام المستعمرين البريطانيين ، فقدّمت بذلك الدليل اليقين على
أن الحضارة والمدنية لا يضمن دوامهما والانتفاع منهما إلا السلام
الذى يستلزم المحافظة عليه بقظة شاملة واستعداد دائمًا للذود
عن كيانه .

إن عقائد الهند تقوم عليها نظمها الاجتماعية لسكانها جميعاً .
والمسلمون الهنود يغيرون سواهم من سكان هذه البلاد مغايرة
تامة في عقيدتهم وتقاليدهم ورسومهم ، فلم يكن لهم بذلك مناص
من أن يصبروا على قيام دولة خاصة بهم تضم المناطق التي
يسودونها بشبه القارة الهندية ، فلا تضيع بذلك أقليتهم الضئيلة
في وسط الغالبية الهندوكية ، وتم لهم ما أرادوا ، في الغالب ،
عام ١٩٤٦ م ، بقيام دولة باكستان الخاصة بهم في غرب

شبه القارة الهندية وشرقها .

بهذا الجزء الثانى يكمل تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم . وقد تناول الجزء الاول ، الذى صدر فى العام الماضى من هذا الكتاب ، تاريخ دخول العرب المسلمين لإقليم السند أواخر القرن الاول الهجرى ، وقيام الدول الإسلامية بالهندستان حتى أوائل القرن العاشر الهجرى ، مع فصل وافٍ فى أوله عن الهند القديمة وحضارتها ومدنيتها .

وهذا الجزء الثانى هو تاريخ للدولة المغولية التى أقامها ظهير الدين محمد بابر ، حفيد تيمور لنگك وجنگيز خان ، بشبه القارة الهندية أول الربع الثانى من القرن العاشر الهجرى ، فظلت تحكم هذه البلاد أكثر من ثلاثة قرون حتى انتزعها البريطانيون منها . وبآخره فصل عن الترك والمغول ودورهم فى العالم الإسلامى الوسيط . مع إجمال لتاريخ بلاد ماوراء النهر ووصف بيئتها التى انحدر منها مؤسس الدولة المغولية إلى الهند .

والعماد فى هذا الكتاب ، بجزأيه ، هو ، أساسا ، على مادورته
مؤرخوا الهند فى مختلف عصورها بعامة ، وفى دورها الإسلامى
بخاصة ، وكانت تدويناتهم هذه بالفارسية فى الغالب ، دون إغفال
الإطلاع على ما كتبه المؤرخون المحدثون من أهل هذه البلاد
وغيرهم فى هذا الموضوع ، وما أبدوه من آراء وملاحظات لم
أُقصر فى الإفادة منها ، هى والتوجيهات القيمة التى أدين بها
للعلماء الأجلاء محمد شفيق غربال ومحمد مصطفى زياده
ويحيى الخشاب ،

والله المستعان .

أحمد محمود الساداتى

القاهرة : ضاحية المعادى

رمضان ١٣٧٨ هـ

مارس ١٩٥٩ م

موضوعات الكتاب

١

بابر :

على عرش سمرقند — في أرض كابل وغزنه —
عود إلى سمرقند — فتح الهندستان : غزو بهيرة ،
البادشاه في لاهور ، واقعة پانی پت . على
عرش آگرا — معركة خانوه — القلاقل الشرقية —
شخصية بابر — حكومة الهندستان — وصف بابر
للهندستان — بابرنامه .

٧٢

همايون :

غزو الكجرات — البنغال وبهار — شيرشاه ..
همايون في منفاه — خلفاء شيرشاه .. عودة
همايون .

٩٤

أكبر :

حرب آل سور — نهاية بيرم خان — تقرير
الهنداكه — حروب الشمال والوسط : غوندوانا —
چتور ، رنتنبهور ، الكجرات ، غزو البنغال —

ثورة ميرزا حكيم - فتوح الدكن - المذهب
الإلهي - نظام الدولة - الحياة الفكرية
والثقافية - شخصية أكبر .

جها نكير : ١٦٤

ثورة الأمير خسرو - اضطرابات البنغال -
ملك عنبر الحبشى - ثورة شاهجهان - مهابت خان -
شخصية جهانكير - البريطانيون عند جهانكير .

شاهجهان : ١٨٥

ممتاز محل - ثورات الدكن - المجاعة والقحط -
البرتغاليون - حروب الدكن - بلخوبدخشان -
قندهار - أورنگزيب فى الدكن -
فتنة الأمراء - شخصية شاهجهان .

أورنگزيب عالمكير : ٢١٣

آسام والبنغال - البطمان والأفغان - الجات
والستناميون - السك - الراجپوتيون -
الشيعة والمرهتيا - شيواجى - ييجاپور
شبهوجى - شخصية أورنگزيب - البريطانيون
عند أورنگزيب .

٢٥٠ خلفاء أورنگزيب :

بهادر شاه - الراجپوتيون والسك - جهاندار -
فرخ سير - السك والمرهتھا - محمد شاه -
الغزو الفارسی : نادر شاه الفرس - الغزو الأفغانی :
أحمد أبدالی الدرانی - عالمگیر الثاني - پانی پت -
البريطانيون في البنغال و بهار - موقعة پلاسى -
شاه علم - موقعة بکسر - المرهتھا في دهلي .

٢٧٨ الإحتلال البريطاني :

طرد المنافسين - سلطان ميسور - حرب
المرهتھا - حرب الأفغان - إخضاع السك
والبلوخ - خاتمة سلاطين الدولة المغولية
(أكبر الثاني - بهادر شاه الثاني) - الثورة
الوطنية . دولة پاکستان

٣٠٣ حضارة الدولة المغولية :

نظام الحكم - المجتمع - الصناعات - العمارة -
النقش - حدائق المغول - الموسيقى - الحركة
الفكرية - اللغة الأوردوية - حركة
الإصلاح الديني .

--ع--

الترك والمغول : ٣٢٧

منازل الترك -- حضارة الترك وإسلامهم --
المغول في أوطانهم -- تيمور لنگ و خلفاؤه --
البيئة في بلاد ما وراء النهر .

مكتبة البحث ٣٦٥

فهرس أبجدى عام ٣٧٣

بَابَرُ

في السادس عشر من شهر المحرم عام ٨٨٨ هـ / ١٤ فبراير ١٤٨٣ م بعث عمر شيخ ميرزا صاحب فرغانة برسله إلى مغولستان لتزف إلى صهره يونس ، خان المغول ، بشرى مولد حفيد له من ابنته قتلغ نكار خانيم ^(١) .

وأطلق الزاهد الولي ، مولانا منير مرغيناني ، على الوليد اسم ظهير الدين محمد ، حتى إذا ما صعب التلفظ بهذا الاسم على عشيرته من الأتراك والمغول الجغتائيين ، وكانت عامتهم ما تزال على عجمتها ، أطلقوا عليه من عندهم لقب بابر ، وهو الذي اشتهر به في التاريخ وعرفه الناس به .

وفي عروق بابر امتزجت دماء الأتراك بدماء المغول ، فأبوه عمر شيخ ميرزا ، حفيد تيمورلنك التركي ، وأمه هي ابنة يونس

١ — بابر نامه ورقة ١ . هذا ولقب خانيم معناه ابنة الخان أو زوجته . وقد عرف هذا اللفظ إلى كلمة « حاتم » الشائعة في الشرق . وتظيره لقب يكييم أي - الأمير (الملك) أو ابنته ، واللفظ ييجوم الشائع بالهند هو تحريف له .

خان مغولستان وحفيد چغتای ثانی أبناء چنگیز خان (١) .
ولقد أدت بصاحب فرغانة أطباءه إلى قضاء أغلب عمره في
محاربة جيرانه، حتى انتهى الأمر إلى تحالف أخيه أحمد میرزا صاحب
سمرقند ، مع صهره محمود ، خان طشقند، على غزوه في فرغانة نفسها .
وحدث أن هوى عمر شيخ میرزا إلى الأرض من أعلى
حصن له بأخشي حيث كان يتفقد حامم له هناك ، فلم يصرف
موته المفاجئ . هذا خصومه عن فرغانة حيث خلفه بها ابنه الصبي
بابر الذي لم يكن يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، فاستيقنوها
فرصة موأنية لانتهاب الميراث كله .

ولم ينفع الفتى الصغير ما بذل رجاله من جهود لحمل خصوم
أبيه . من ذوى قرباه، على الرجوع عن بلاده ، لكن الأقدار
اسعفته من بعد ذلك إذ غرق كثير من دواب صاحب سمرقند

١ — ينفر بابر من ذكر المغول نفوراً شديداً أبنته بأكثر من موضع ببيته
التي كتبها بنفسه (بارتنامة ورقة ٩٠) ، ويعتز بتركه اعترافاً شديداً ، ومع
هذا فقد نسبت دولته الهندية إلى المغول ، إذ كان الهنود قد درجوا منذ قدم
جنگیزخان إليهم على إطلاق اسم المغول على كل الفزاة الذين وفدوا إليهم من بلاد ماوراء
النهر من بعد ، كما صار هذا اللفظ ببناءء مدلولاً على الأبهة وضخامة الأجسام بصرف
النظر عن الجنس . هذا وقد ألفتنا بآسكتاب فصلاً عن الترك والمغول يجعل تاريخهم
ودورهم في العالم الإسلامي .

انتهاز أحد جسور نهر قبا وتفشى الوباء في خيوله ففزع بالهدنة مع
ابن أخيه وآب إلى دياره . وكذلك فعل خاله صاحب طشقند حين
حاصر مدينة أخشي فاستعصت عليه ، واعتلت صحته فقرر بدوره
الرحيل إلى بلاده .

ودفع جند فرغانة عن أراضيهم كذلك الأمير أبا بكر ، صاحب
نيسابور وخُشن ، وكان قد قدم بدوره ينشد غنما .

ومات السلطان أحمد ميرزا بعد قليل خلفه على عرش سمرقند
أخوه محمود ميرزا الذي كان قد وسّع من رقعة أراضي ياقليم
حصار حتى بلغت حدوده الهندكوش وضمت الصاغانيان وبلاد
الختل وبدخشان .

وبرغم أن الحياة لم تطل بسلطان سمرقند الجديد ، فإن
الأهلين عانوا كثيرا في حكمه لما اتسم به من الظلم وما ذهب إليه
جُنْدُه من انتهاب الدور وسلب الأموال وانتهاك الحرمات .

انقشع عن السلطان الفتى بابر أكبر خطر كان يتهدهده بموت
عميه أحمد ميرزا ومحمود ميرزا ، فلم يسكد يسترد جانباً كبيراً من
أملك أبيه الضائعة حول فرغانة ، حتى ضم إليه كذلك سمرقند ،
حاضرة جده تيمورلنك القديمة ، بعد أن انتزعها من أيدي
بايسنغر ميرزا ابن عمه محمود في مستهل عام ٩٠٣ هـ .

وبقي بابر مائة يوم بسمرقند أعظم مدن بلاد ما وراء النهر
التي تزخر بآثار التيموريين الفخمة ، ومنها مسجد مزار شاه الذي
أقيم حول مقام الصحابي قثم بن عباس ، فاتح المدينة في خلافة عثمان
ابن عفان ، والذي جلب له خيرة الصنائع ومواد البناء من فارس
والهند ، والقلعة التي تزدان بتصاوير حروب تيمور في الهند ، ثم
مدرسة الخبغ بك ومرصده اللذان ذاع صيتهما في العالم الإسلامي^(١) .
ثم خرج بابر من سمرقند ليقضي على ما أثاره أخوه جهما نكير
ورجائه من الفتن بفرغانة ، فانتز على ميرزا صاحب بخارى هذه
الفرصة وزحف إلى سمرقند فحزم حاميتها واستولى عليها .
وإذ أتيح لبابر أن يستولى على سمرقند من جديد ، وكانت
وقتذاك في حوزة الأوزبك الذين كانوا قد دخلوها بعد أن
غزروا بسلطانها وأمه ، فإن شيباني خان الأوزبك لم يسكت
عنه حتى أخرجه منها بعد شهر قليلة .
وتمكن من بابر اليأس حين رأى أغلب جنده ينفض عنه

١ — يصف بابر في سيرته إنثير سمرقند وصفا دقيقا مفصلا . فيتحدث عن
موقعه الجغرافي وما يغلبه من حاصلات وما به من صناعات ، ويشير إلى تاريخه وأول دخول
الإسلام فيه ومن ظهر به من العلماء ومشاهير الرجال ومن حكمه من آباء تيمور .
بابر نامه ورقة ٤٤ ب وما بعدها .

نوى قريابه يعرضون عنه حين استنجد بهم . فعقد العزم على
هجرة إلى إقليم خطان عند الصين الشمالية ، مبتعدا عن بلاد
، راء النهر كلها وما أصابه بها من أهوال ومتاعب .
ولم يُغن بابر فتيلًا ما أمده به خاله المغوليان : أحمد ، خان
بغوستان ، ومحمود ، خان طشقند ، من جند ، حتى قدم إليه كل منهما
نفسه . ذلك أن خان الأوزبك لم يكتف بما أنزله من هزيمة بهذا
الجند عند الجنوب من طشقند ، حتى أوقع الخانين المغوليين ^(١)
في أسره ثم انتقل من بعد ذلك يطارد بابر في عنف متواصل حتى
حمله على النزوح من بلاد ما وراء النهر كلها آخر الأمر .

في أرض كابل وغزنة : ظل بابر بعد أن أفلت من أيدي
شيباني خان الأوزبك ، يضرب مدة على غير هدى في منطقة
تلال أسفرا ، التي تفصل فرغانة عن إقليم حصار ، حتى تغلب
طموحه على نوازع اليأس في نفسه فحزم أمره على المسير إلى
خراسان لعله يصيب حظا طيبا عند ابن عمه السلطان حسين
بيقرا . لذا فادر فرغانة في المحرم من عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وهو
في مستهل العام الثالث والعشرين من عمره ، ورجاله دون الثلاثمائة ،

فما إن بلغ إقليم حصار وتخطاه صوب الجنوب حتى أقبل عليه خسرو شاه صاحب حصار بقواته وجموع من عشائر الأبل والأولوس الهاربين من وجه الأوزبك فانضموا جميعا إليه .

ورأى بابر القوم من حوله في رعب وهلع خوف الأوزبك ، وتردد شديد في المسير إليهم ، فأثر أن لا يغامر بما اجتمع له من الجند والمال بالاشتباك مع عدوة من جديد .

ولئن غدت بلاد ما وراء النهر كلها بأيدي الأوزبك ، وهذى خراسان يحكمها سلطان قوى هو حسين بيقرا ، وهو محط أنظار شيباني خان ، الأوزبك ، وهدفه التالي في الغالب ، فإن أرض كابل وغزنة — فضلا عن بعدها عن مواطن العراك وقتذاك — قد أخذت الفوضى تعمها حين توفي سلطانها الخبغ بك بن السلطان أبي سعيد ميرزا . ويسر اضطراب الأحوال في هذه البلاد لباير امتلاكها عام ٩١٠ هـ ، دون إراقة دماء ، بعد أن ضمن لال أرغون ، أولى الأمر فيها إذ ذاك ، الأمان في قندهار (١) .

وهذان الإقليمان ، أى كابل وغزنه ، كانا يشغلان مساحة كبيرة من بلاد الأفغان الحالية (٢) . وتقوم مدينة كابل به وسط

١ — حبيب السير رابع ٣٠٨

٢ — هذه التسمية من مصطلحات العصور الحديثة فكان هذه البلاد ==

حدائق ومروج خضراء ، وإقليمها صعب المسالك والدروب ،
إلا أن توسطه بين الهند وخراسان قد ساعد على رواج
مركزه التجاري .

ويشتهر الإقليم بوفرة الفواكه والحاصلات ، وطيب المناخ
في المنخفضات في الوقت الذي يكسو الثلج فيه مرتفعاتها شتاء
وفيها قامت دول إسلامية قوية مهمة مثل الغزنويين والغوريين .
وأدت ضآلة رقعته بالنسبة لأراضي جيرانه الفسيحة إلى طمع
أصحابه في الغالب فيما يجاورهم من أراضين ، فاندحدروا إلى سهول
الهندستان ومراعي خراسان وفارس مرات متكررة في التاريخ .
خيّل لباير أن الأمر قد استقر له في مقامه الجديد حتى
انطلق ، بعد أن فرغ من تنظيم شئون دولته الجديدة ، في غزوات
خفيفة لمشارف الهندستان ومنازل الخليجيين لينتهي من بعد ذلك

== كانوا ينتمون في الواقع إلى قبائل وأجناس مختلفة من فرس ومنول وترك وعرب ، ومن
هذا القبائل الخزب والكودري ، ثم الأفغان ، ومنهم يوسف زى والأفريدي والبطاهز
الذين كانت مواطنهم بمنطقة التلال فيما بين كابل وبشاور . والمعروف من تاريخ هذه
البلاد ، على غموض ماضيها ، أن السلوقيين الأغريق والمهون والهنود والفرس ثم العرب
والصفاريين والسامانيين والغزنويين والنوريين تداولوا الحكم فيها ، كما استولى عليهم
تيمور لنگ فلبثت في حوزة أبنائه عدة قرون .

إلى الاستيلاء على قندهار .

على أن الأخبار وافته بخروج شيباني خان من سمرقند في
خمسين ألفا من الجند أواخر عام ٩١٢هـ / ١٥٠٧ م ، اقتحم بهم
خراسان على أبناء السلطان حسين بيقرا فأعمل السيف في نفر
منهم وسبي نساءهم . وأطلق لجنده بلادهم كلها فانتهبوها وقتلوا
كثيرا من أهلها وفيهم صفوة من العلماء والوجوه^(١) ، ثم استدار
بهم من بعد ذلك فطاردهم من مرو حتى بلغ قندهار وأخذ يطرق
على بابر أبواب ملجئة بأرض كابل طرعا عنيفا حتى ظن أن
لا عاصم له منه إلا أن يلوذ بالهند ، فأجمع ورجاله أمرهم بينهم على
الالتجاء إليها .

فهاهم الأمراء التيموريون قد أخرجوا جميعا من بلاد ما وراء
النهر ، وهاهم الأتراك الچغتائيون قد صاروا جميعا في نطاق
دولة الأوزبك خوفًا أو طمعا . ولئن كان بابر قد قُدر له أن
يُفْلِت من براثن الخان الأوزبكي ، فإنه وهو في عزلة بكابل
أضعف شأنًا وأقلّ جنودًا من أن يواجه هذا العدو القوي الذي
لا يرتضى مهادنة أو يقبل مسالمة .

وشاءت الأقدار أن تهدي من روع بابر، إذ اضطُر الأمير
الأوزبكي شيباني إلى الارتداد عن قندهار سريعا، على أثر ما بلغه
من مباغتة بعض الثوار في خراسان لحصن نيره تو عند هرات
وكان فيه نساؤه وأمواله^(١). ليشترك من بعد ذلك في صراع عنيف
مع شاه الفرس .

ذلك أن شيباني خان كان قد بعث في عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م
إلى الشاه إسماعيل الصفوي يهدده باجتياح بلاده إن هو
لم يعدل عن مذهب التشيع ويمسك عن حمل الناس عليه قهرا .
حتى إذا ما بعث إسماعيل صاحب فارس إلى خان الأوزبكي
يسأله في لطف أن يمنع جنده من التسرب إلى أراضيّه عند الجنوب
من خراسان وكرمان ويوقف اعتداءاتهم وما يمارسونه من أعمال
السلاب والنهب، فردّ عليه الأخير برسالة ملأها بالتعريض به حتى
يخز منه في ادعائه ملكا لم يرثه، وطواها على عكازة وطبق كميز من
البوص هما عُدة الدراويش^(٢)، فكانت الحرب .

١ — لم يمض بابر إلا القليل بكابل بعد عودته إليها حتى رزق بابنه هايون في
أواخر عام ٩١٣ هـ — ٥٠٨ م . وفي هذه الأثناء اتخذ لنفسه لقب البادشاه الذي لم يحل
أحدهم الأمراء التيموريين من قبله إذ كانوا لا يعرفون إلا لقب ميرزا . بابر نامه ورقه ٢١ ،
٢ — أراد بذلك أن يعرض بابي إسماعيل إذ كان درویشا، وقد رد عليه الشاه =

وتوغل الشاه الصفوى فى خراسان ودخل مشهد واقتحم هرات ،
حتى إذا بلغ مرو فامتنع بها شيبانى خان عليه ، عمداً إلى خدعة كان
فيها هلاك الخان الاوزبكى وقواته . فقد استدار بجيشه فى اتجاه
العراق حتى ظن أنه الرحيل والجلأ ، فكمن على مسيرة عشرة
أميال من المدينة ، وحين خرج فى أثره شيبانى خان فى عشرين ألفاً
من الجند ، مطارداً ، وقع فى الكمين الفارسى ولاقى وقواده حتفهم فيه .
ولم يرجع إسماعيل الصفوى عن قتال أعدائه حتى خضعت له
جميع خراسان وصار نهر جيحون هو الحد الفاصل بينه وبينهم .

عود إلى سمرقند : بعثت هزيمة الاوزبكي وانحسارهم على أيدي
الفرس الآمال العريضة فى نفس بابر ، وبات يبنى النفس
باسترداد بلاد آباءه والعودة إليها . وقوى من عزيمته دعوة البدهشانيين
له بالسير إليهم ، وقدوم سفراء الشاه الصفوى إليه ومعهم رسالة
ودّ من سيدهم وفى صحبتهم خازناده ييگم أخت بابر ، وكانت قد
وقعت . يدى شيبانى خان بسمرقند . وأمدّ شاه فارس نفسه من
بعد ذلك بابر بجيش قوى فتوغل به فى بلاد ما وراء النهر حتى

== الصفوى ، الذى كان يعتز بانتسابه إلى أبناء فاطمة البتول ، بأن الرفعة لا تورث وأن
الملك لا ينتقل كذلك بالوراثة فى اطراد ، وإلا صار من البهتاديين إلى الكيانيين
ولما أوتيه جنكيزخان . . . تاريخ فرشته أول ص ٢٠٠ .

سقطت بأيديه بخارى ودخل سمرقند فخطب له من منابرها
منتصف رجب من عام ٩١٧ هـ / ١٥١١ م .
على أن بابر لم يكده يمضى أشهر قلائل بسمرقند ، بعد أن
صرف عنه جند الفرس ، حتى تمكن محمود تيمور بن شيبانى خ
من استرداد بخارى وإنزال هزيمة قاصمة بجنده بظاهر سمرقند
فاستصرخ من بعد ذلك الشاه اسماعيل الصفوى من جديد ، فبع
إليه بقائده أمير يار أحمد اصفهانى الذى باغ من عنفه أن أ
بإنزال مذبحة مروثة بسكان مدينة قرشئى ، حين وقع
بأيديه ، فقتل منهم خمسة عشر الفا فيهم نخبة من علماء الس
والأعيان . (١)

هنالك تراهى للأوزبك ومعهم الأهلون مدى ما يتهددهم .
الخطر فى توغل جند القزلباش (أصحاب القلانيس الحمراء
الفرس ، فجمعوا جموعهم عند غجديوان واشتبكوا مع أعدائهم
قتال مرير انتهى فى رمضان من عام ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م بهزيمة الفرس
ومقتل قائدهم أحمد اصفهانى المعروف بنجم ثانى (٢) .
وبرغم ارتداد بابر إلى إقليم حصار من بعد ذلك دون خسار

١ — تاريخ فرشته أول من ٢٥١ .

٢ — مآثر الأمراء أول ٤٠٩ .

تذكر ، إذ كانت الصدمة كلها من نصيب الفرس ، فقد رأى أن سكان هذه البلاد الذين رحبوا به بالأمر ، حتى أمكن له استرداد أكثر أراضيه السابقة ، وفيها بخارى وسمرقند ، قد انقلبوا اليوم فأصبحوا له جسد كارهون لارتهائه في أحضان الفرس الذين لم يتورعوا في سبيل نشر مذهبهم وحمل الناس عليه قسرا ، عن إنزال المذابح بالسكان والقضاء على فريق كبير من الفقهاء والعلماء السُنيين في قرشي على الخصوص ، " فانهارت آماله ببلاد ماوراء النهر كلها ، وقفل راجعا إلى كابل ، ليولى وجهه بعد قليل صوب البنجاب والهندستان التي سار إليها أجداده من قبل ، والتي غدت مسرحا للاضطرابات والفوضى في ظل

١ — يشيد مؤرخو الفرس عموما بالشاه الصفوي ولكنهم ينكرون عليه عطفه في سبيل نشر مذهب التشيع . (تاريخ عمومي إيران ص ٢٥٨) . والمعروف أن بابر حاول جهده أن يجعل القائد الفارسي على المدول عن هذه المذابح ولكنه لم يوفق . وكان مما أخذه الناس على بابر ارتدائه لزي الفرس العسكرية . هذا وقد بلغ الأوزبك من النفوذ وسعة الرقعة أن صار دوق موسكو يابن إبراهيم ويترم يدفع الجزية لهم ، فلو لا تآمر أمراء المسلمين فيما بينهم إذ ذاك — من الفرس والعثمانيين الأوزبك والمصريين — لتأخر قيام روسيا التي أدى ظهورها إلى إضعاف قوة المسلمين في الدولة العثمانية وفارس ، وانتهى بضياع بلاد الأوزبك كلها وفيها بخارى وسمرقند والتركستان . وخضوع أربعين مليوناً من المسلمين لجسوروت قياصرة الروس واستبدادهم .

حكومة ضعيفة مقطعة الأوصال ، وهى بثرواتها واتساع رق
أصلح مكان لتحقيق حلمه الكبير فى إقامه دولة كبيرة له على كل حا

فتح الهندستان : لم يكن للهندستان حين أقبل عليها بابرغا
أوائل القرن العاشر الهجرى شىء من تلك الوحدة المتماكة
شهدتها أيام كبار الغزنويين ومن خلفهم عليها من أمثال ش
الدين الغورى وقواده وعلاء الدين الخلاجى وغيث ال
تغللق .

ولقد حاول السلاطين اللودهيون الأفغان ، فى أعقاب ال
التيهورى ، أن يستعيدوا هذه البلاد سابق مجدها . فصادف
منهم التوفيق ، فأتيج لاهول لودهى - مثلاً - أن يسترد حدود
دهلى القديمة وييسط نفوذه على كافة الرقعة الممتدة بين إقليم
فى الشرق وأقصى البنجاب فى الغرب : ثم خلفه ابنه اسكند
بعده فأضاف إلى بلاده منطقة الدوآب وأخضع لسلطانه أ
الراجپوتانا ووثق من علاقته بحكام البنغال .

وكان عمال دهلى على ولاياتها ، عند اللودهيين ، من الأ
الأفغان من قبائل لودهى وفردولى ولوحانى . وكانوا جميعا يدر
أن الدولة إنما قامت بسيوخهم ورجالهم ، فناصرهم ، والحالة

ليست بمنحة من سلطان دهلí أروبة منه ، ففى حقهم الثابت الطبيعى معه بعد أن نصره وأقرو له بزعامته عليهم ، وفيما دون ذلك فهم أنداد يتساوون معه فى الحقوق والواجبات .

وحين خلف السلطان إبراهيم أباه سكندر قال إلى امتهان أمرائه والانتقاص من حقوقهم حتى ركب طريق العنف معهم ، فجمعوا أمرهم على التراجع عن بلاطه إلى ولاياتهم ليثيروا فتنة عارمة عليه بأوده وجونپور وبهار ويصرحوا بخروجهم على سلطانه .

وما غدت البنغال وما لوه والگجرات أن قطعت بدورها علاقاتها مع العاصمة ، وراح رانا سنگا ، صاحب اُدایپور ، وأقوى أمراء الهادكة فى زمنه ، ينزعم أمراء الراجپوتانا على حاف عقده فيما بينهم بغية القضاء على سلطان المسلمين فى الهند كلها واستعادة آجناد أجدادهم الغابرة (١) .

وانتهى استبداد إبراهيم اللودهى بأمرائه إلى أن انطلق فريق

١ — كانت امارات الدكن الإسلامية بدورها مستقلة عن نفوذ دهلí ، فى حين استطاع آل أرغون ، بعد أن أخرجهم باير من قندهار ، أن يضعوا أيديهم على ولاية سند والمثلان ويتزعروها من أيدي أصحابها الخليجين . Prasad. Muslim Rule . pp 258-60

من كبارهم ، وفيهم دولتخان لودهى أمير البنجاب وعلاء الدين علم خان عم السلطان ، يستنجدون ببابر فى كابل ويحرضونه على دخول الهند ومعاونتهم فى إنزال سلطان دهلى عن عرشه .

ما يفتأ ظهير الدين محمد بابر يردد القول ، فى سيرة ته أنه منذ أن استقر به المقام فى كابل كان يعتزم التوجه إلى الهندستان ، وذلك قبل أن يشرع فى فتحه الحقيقى لها ، فتمضلا عما كان لجده السلطان أبى سعيد من أملاك عند أطراف البنجاب والسند ، كان يرى فى نفسه الوريث الشرعى لها حتى بعث إلى السلطان اللودهى إبراهيم صاحب دهلى يطالبه بها . فقد تحقق لديه استحالة استرداد بلاد ما وراء النهر عليه بعد أن ثبت الأوزبك أقدمهم بها ، وبات التسفويوز أعدائهم وحلفاؤه يسيطرون على خراسان وما حولها .

ولقد أتى بابر أن ينحدر من الهند كوش إلى مشارف البنجاب وسهولة القرية فى غزوتين ناجحتين بلغ بهما بهيرة وآب منها بكثير من الأسلاب والغنائم وبقدر طيب من المعلومات المفيدة عن الهند وأهلها وشاربها ، وأحوال حكومتها قبل كل شىء . حتى إذا ما استعداه بعض أمرائها على سلطانهم خرج إليها فى غزوتيه أخريتين بلغ فى أولاهما لاهور قصبة البنجاب ودخل فى الثانية

أُكْرِيَ جُلُوسٌ عَلَى عَرْشِ الْهِنْدِ وَأُقَامَ بِهَا دَوَاتُهُ. (١)

غزوه هيرة : خرج بابر من حاضرتة كابل في المحرم من عام ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م فسلك طريق بشاور فاجتاح حصن بچور على حاميته برغم استبسائها الذي كلفها اثلاثة آلاف من الأرواح (٢) حتى إذا ما عبر نيلاب وجهلم من روافد السند أقبل عليه زعماء القبائل هناك يعلنون ولائهم له ، فبسط بذلك نفوذه على مناطق جيتاب وخوشاب جينوت ، وكانت جميعها من أملاك التيموريين السابقة ، ثم عبر الحاجز الملحي إلى هيرة فاستسلم له أهلها على جزية كبيرة دون قتال .

هنالك نصح له رجاله أن يصالح سلطان دهلي على ردّ جميع أملاك التيموريين بالهينجاب إليه ويعود إلى بلاده .

وحمل بابر على قبول هذا الرأي ما لا حظ له من ضيق رجاله بحرّ الهند اللافح ، وإن كان أمير الهينجاب قد حبس : سوله إلى دهلي

١ — يقدر بعض المؤرخين غزوات بابر الهندية بنحو ١٠ ، فمنهم من يدخل في حسابه محوله عند مشارف الهينجاب الاستثنائي عام ٩١٠ هـ ، ومنهم من يضيف إليه خروجه إلى بشاور ليؤديب القبائل الخارجة عليه .

٢ — انتهى رجاء هذا الحصن النياتق لأول مرة فراحوا يسخرون من أعدائهم وهم يشعلونها . حتى إذا ما انطلقت القنابل الكثيرة منهم بلغ الخوف منهم مبلغاً . بابرنامه ورقة ٢١٧ .

عنده فلا هو أطلقه إلى غايته ولا هو رده إلى بلاده .
على أن بابر لم يكذب يمضى بكابل شهرا واحدا، بعد أن عاد إليها ،
حتى ارتد إليه نائبه على بهيرة ، وما حولها لخروج الهنود ^(١) والافغان
عليه وعجزه في قواته القليلة عن القضاء على عصيانهم .

وأدى إلى تعويق خروج الپادشاه إلى البنجاب من جديد ما كان
من خروج بعض قبائل الافغان عليه ببلاده حتى انتهى إلى تعزيز
حصون بشاور ، بحاميات قوية تستطيع السيطرة على منازل الأفریدی
والوزيری ^(٢) وخضمر خيل فيما حولها . على أنه لم يكذب يباغ مشارف
بهيرة من جديد عام ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م حتى بلغه انقضا ض شاه بيك
أرغون على قندهار وإعماله السلب والنهب فيما حولها من أرضين ،
فارتد إليه من فوره فأخرجه منها ونصّب عليها ثانی أبنائه كامران ،
كما تم له كذلك الاستيلاء على بدخشان فأقام عليها ابنه الأكبر همايون .
حتى إذا ما تم له ذلك كله وتوطد الأمن في ربوع بلاده . فوفد
إليه رسل بعض الأمراء الافغان اللودهيين يستنجدون به من طغيان

١ — نطلق لفظ الهنود في هذا الكتاب على المسادين من أهل البلاد ، غير الهنادكا
الذين بقوا على ملة آبائهم .

٢ — لهذه القبائل صفحات بطولة مشهودة حين ردت البريطانيين عن دخول بلادهم
بطريق الهند . حاضر العالم الإسلامي ثان من ١٩٨ — ٢١٤ .

سلطانهم صاحب دهلي (١) طفق يعد العدة لغزوة هندية كبرى انتهت با. قتلته على أجزاء كبيرة من البنجاب ودخول عاصمته لاهور. الپادشاه في لاهور : لم يكن بابر ليتردد عن المسير إلى أرض الهند من جديد وقد تكشف له في غزواته السابقة مدى ما عليه هذه البلاد من الثراء الكثير وما يتيسر له ترامي رقعتها وضعف حكومتها من فرصة موالية لإقامة دولة كبيرة له ، وها هم بعض أهلها يدعونهم إليهم ويخالفونه على سلطانهم .

هكذا خرج بابر من كابل في مستهل عام ١٥٢٠م / ١٥٢٤م . فما إن أشرف على لاهور حتى التقى بجيش قوى لدهلي فهزمه ودخل المدينة الكبيرة من بعد ذلك فأباحها لجنده أربعة أيام وأشعل النيران في أبنيتها وأسواقها (٢) ، ثم اتجه من بعد ذلك إلى دپالپور فاستولى عليها بعد أن أزل بحاميتها مذبحه بشعة .

ولحق بالپادشاه في دپالپور دولتخان أمير البنجاب ، الذي كان استنصره على السلطان اللودهي من قبل ، فما له ما استبان له من سعيه لتثبيت أقدامه فيما استولى عليه من أرضين حتى أقام فريقا من رجاله على شتونها ، وكان الظن أنه ما يلبث ، حين يتم له دحر

١ — منتخب التواريخ لبدواني ص ٣٣ .

٢ — Lane - Pool . India p 209

عدوه ، أن يؤوب قريبا إلى بلاده ويترك الهند لحلفائه من أهلها ،
فما غدا حين لمس إهمال بابر له أن انطلق وأولاده يتآمرون
بصاحب كابل وقواته حتى كادوا يوقعون بهم . وقد انتهى أمر
المتآمرين جميعا إلى الحبس بعد أن انكشف أمرهم .

واتخذ بابر من بعد ذلك طريقه إلى دهلي . حتى إذا ما انتهى
إليه خبر فرار دولتخان وابنه غازي خان من محبسهما ، بادر
من فوره بالارتداد إلى لاهور خوفا من قطع خط الرجعة عليه وعلى
قواته . ليرغمه ظهور الأوزبك عند بلخ من بعد ذلك على العودة
إلى كابل ، وإن ترك بالپنجاب حامية قوية من رجاله كملت له إقرار
الأمور هناك ودفعت عن عاصمة الإقليم قوات دولتخان
وأنزلت بها هزيمة شديدة .

وغازط دولتخان ما رآه من حفاوة بابر بعلام الدين علم خان
عم سلطان لودهي حتى ولّاه دپالپور ، ثم أمده بالجند الكثير حين
قصد إليه في مقامه بكابل وأمر قواته بلاهور أن يسيروا معه إلى
دهلي فإذا دخلوها أجلسوه على عرشها ، فما زال يَحْتال على الأمير
اللودهي حتى انقاد له وقبل صحبته في زحفه إلى عاصمة الهند ضاربا
عرض الحائط بتحذير قادة الپادشاه في لاهور له منه . وقد تصدى
لهم السلطان اللودهي عند ظاهر دهلي وأنزل بهم في الليل هزيمة

حاصمة تشقت على أثرها شملهم حتى التمس فريق كبير من القادة مخبأ لهم في الجبال في حين أثر فريق آخر المبادرة بالانضمام إلى قوات دهلي .

واقعة بانى پنت : لم يكذب أبير يؤمن مؤخرته عند بانخ من خطر الأوزبكت ، حتى طفق بعد العدة ليتم ما بدأه من فتوحه الهندية معتمدا على قواته وحدها هذه المرة ليس غير .

نفرج من كابل في صفر من عام ٩٣٢هـ / ١٥٢٥ م في غزوة الفتح آخر غزاه الهندية وأظامها ، فقد تم له في القضاء على ملك اللودهيين والجلوس على عرشهم في آگرا ليمسقط نفوذه من بعد ذلك على الشمال الهندي ويمارس حكمه حتى توافيه المنية به .

واجتمع لبادشاه كابل اثنا عشر ألفا من الجند عبر بهم السند ، حتى إذا بانخ شاطىء جهلم بعث إلى قواده بلاهور ليؤفوه بمقامه ، بعد ما بلغه من أمر دولتخان مع الأمير اللودهي علاء الدين علم خان وزحمتها معا إلى دهلي وهزيمتهما من بعد ذلك . ولم يشأ أبير أن يواصل زحفه إلى غايته قبل أن يؤمن خطوطه من أى غدر قد تتعرض له ، فبعث بفريق من قواته ، فما زالت بدولتخان وأولاده حتى أوقعتهم في الأسر ، ليدخل أبير من بعد ذلك معقل هدوة في حصن « ملوت » ويستولى على ما له به من

أموال وذخائر^(١) .

وما غدا أمير البنجاب السابق أن قضى فى محبسه بقلعة بهيرة
بعد قليل .

وحين اطمأن الجيش الفاتح إلى تأمين خطوطه فى البنجاب
واصل به قائده السير حتى بلغوا نهر چمنه فنزلوا فى مواجهة
بلدة «سرساوه» وبعثوا بكثافتهم ليستطلعوا لهم مواقع العدو
وينسقطوا أخباره .

هناك استقر رأى بين القادة البارزين على دخول المعركة
الفاصلة مع عدوهم ، فعبأوا قواتهم وفق تشكيلات العثمانيين^(٢) ،
فربطت عربات الحرب بالسلاسل وأربطة الجلد جنباً إلى جنب
تخللها التورات^(٣) ، واصطف حملة البنادق من ورائها ، ثم
زحف الجمع إلى پانى پت حيث معسكر السلطان إبراهيم اللودهى
فنزلوا بظاهرها فى آخر جمادى الثانية من عام ١٢٣٢ هـ ، فجعلوا
المدينة إلى يمينهم وألقوا بعربات الحرب فى الجهة ومن ورائها

١ — استولى بابر فى هذا الحصن على مجموعة كتب قيمة كبيرة ، فاحتفظ لنفسه
بقسم منها وأهدى الباقي ابنه هايون . أكبر شاه ورقة ٣٩ ب

٢ — بابر ٢٦٤ (١) .

٣ — التورة هى جنة دروع تصنع على هيئة نسج السلا من الحسك والنصون لتق
رجال البنادق من السهام .

المدفع وحلة البنادق والفرسان ، فى حين حُفرت الخنادق وأقيمت المتاريس إلى مبصرة الجهة وقد تركزت بها ثغرات . تسمح لمائة من الجند ، أو ما يزيد عليهم ، بالبروز للقتال منها .

وهكذا كان على بابر وقواته ، التى لم تكن تعدوا اثنى عشر ألفا ، أن تنازل ، فى هذا الميدان الذى طالما تقرر فيه مصير الهند من قبل ، جيش السلطان اللودهى الذى كان يصل إلى المائة ألف من الجند ندًا ومعها ألف من الأفيال .

ولم يمض على هذه القوات بهذا المكان أيام ثمانية حتى التحمت معا فى قتال عنيف أفاحت فيه فرق المناوشة عند جناحي الجيش المهاجم . آخر الأمر ، فى أن تفصل مؤخرة عدوها عن ساقته ، ثم ما زالت تقذفها بوابل من سهامها حتى أخرجتها من الميدان ، فى حين أطبق رجال الجهة الوسطى ومعهم حملة البنادق وأصحاب المدافع ^(١) على قلب جيش دهلى ، فلم يفته اليوم حتى قضى الپادشاه على قوات عدوه قضاء بهرما ، وسقط فى الميدان خمسون ألف قتيل توسطهم السلطان إبراهيم اللودهى

١ — لم يكن عند بابر أول أمره إلا مدفع واحد وكان لا يحق إلا مرتين قتيلا فى اليوم الواحد ، ويستغرق ثمبته مدة طويلة . بابر نامه ٣٣٧ .

صريعا (١) .

هنالك بادر الپادشاه المنتصر بتسبير فريق من رجاله إلى دهلى ومعهم قاضيه الشيخ زين الخرافى فدعوا له على منابرهما فى منتصف رجب من عام ٩٢٢/١٥٢٦ م ، ووصلوا فقراءها بقدر من المال هبة منه إليهم ، فى حين وجه ابنه همايون مع نفر آخرين من قاداته إلى آگرا مقر اللودهيين ومثابة أموالهم وكنوزهم .

على عرش آگرا : دخل بابر قلعة آگرا وجلس على عرش اللودهيين بها فى التاسع والعشرين من شهر رجب عام ٩٢٢ هـ ، فكان ثالث غاز مسلم يتوغل فى أرض الهند ويعبد من بين أعظم سلاطينها .

وأول هؤلاء السلاطين الغزاة هو «محمود الغزنوى» ، وثانيهم هو «شهاب الدين الغورى» . ولم يكن الحكام المسلمون الذين خلفوا هذين العاهلين فى حكم هذه البلاد إلا من أبنائهم وقوادهم ومواليهم فى الغالب .

ويتميز بابر عن سلفيه بفرط الجرأة والإقدام . ذلك أن

عمود الغزنوى ، حين أقبل على الهد غازيا ، كان له ملك سمرقند وبلاد ما وراء النهر كلها وخراسان وفارس ، كما كان له من الجند ما يتجاوز عددهم المائة ألف بكثير ، ومن الهبة ما ضمن له تأمين مؤخرته وحدوده وأوقع الرعب فى قلوب أعدائه قبل لغائه . كذلك كان للسلطان الغورى فى زحفه على الهند مائة وعشرون ألفا من الجند . كما كان حكم خراسان كذلك فى أمرته .

فى حين لم يتيسر لبابر فى عزوة الفتح الهندية إلا أنسا عشر ألفا من الجنود ، وموارده ضئيلة . وأرضه ضيقة الرقعة ، والأوزبك مايزالون ببلاد ما وراء النهر عند مؤخرته يترهبون به . فواجه جموع الهند الكثيفة ذات الثراء العريض فى طموح وإصرار وعزم ليسجل بانتصاره عليها . من بعد ذلك ، صفحة من أروع صفحات المغامرات فى التاريخ .

وإلى جانب سلطة دهلوى التى تربع بابر على عرشها فى آكرا ، والى كانت تمتد من البنجاب إلى بهار وتضم معها إقليم جوبنور ، كان بالهند أربع إمارات كبرى إسلامية وأخرتان هندوكيتان ، عدا إمارات عدة أخرى صغيرة متناثرة هنا وهناك . وأول هذه الإمارات هى الكنجرات باب التجارة الهندية الألبى ،

يُكُنَّ يَحْكُمُهَا بَيْتُ مَظْفَرِ شَاهٍ . وَبِلَيْهَا إِمَارَةُ بَهْمَنِ الدَّكْنِيَّةِ وَهِيَ الَّتِي
نَسَّأَهَا الْأَمِيرُ حَسَنُ كَنْجَوِي بَهْمَنِ شَاهٍ ، ثُمَّ إِمَارَةُ مَالُوهُ أَوْ مَانْدُو
يُكُنَّ عِنْدَهَا أُمَرَاءُ مِنْ بَيْتِ الْخُلَاطِيَّةِ ، وَالسُّغَالِ وَقَدْ حَكَمَهَا نَصَرَتْ
شَاهُ وَأَوْلَاذَهُ (١)

أَمَّا الْإِمَارَاتُ الْهِنْدُوكِيَّةُ فَكَانَ أَكْبَرُهُمَا اثْنَتَانِ هُمَا قِيَا يَانَا نَكِر
وَمَسُوَار . وَكَانَ يَحْكُمُ الْأَوَّلَى رَاجَا كَرَشَنَدُوا . فِي حِينِ
كَانَ يَقُومُ عَلَى الثَّانِيَةِ رَامَا سَنَكَا أَعْظَمُ الْأُمَرَاءِ الرَّاجَهَرِيِّينَ بِالْهِنْدِ
فِي وَقْتِهِ وَأَعْلَاهُمْ قَدْرًا وَأَوْسَعُهُمْ نَفَرًا .

أَخَذَ الْبَادِشَاهُ فِي آكْزَا يَغْدُقُ عَلَى رَجَالِهِ عَمَّا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِ مِنْ
أَمْوَالِ الْوُدْهِيَّةِ الطَّائِلَةِ وَكَتُوزِ الْهِنْدِ ، فَلَمْ يَكْتَفِ بِأَنْ جَعَلَ لِكُلِّ
جَدِي سَارِ مَعَهُ قَدْرًا وَأَفْرًا مِنَ الْعَطَاءِ حَتَّى بَعَثَ بِهَا مَالِيَّةً وَفِيرَةً
إِلَى عَمَالِهِ وَذَوِي قَرْيَادٍ فِيمَا وَرَاءَ حُدُودِ الْهِنْدِ ، وَوَصَلَ الْعُلَمَاءُ
وَالْفُقَرَاءُ فِي كَابَةِ الْمَزَارَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِخِرَاسَانَ وَبِلَادِ مَا وَرَاءَ
النَّهْرِ وَالْعِرَاقِ وَالْحِجَازِ (٢) .

١ - فصلنا الكلام عن هذه الإمارات في الجزء الأول من هذا الكتاب من

٢٠٩ وما بعدها .

٢ - تاريخ فيشته أول . ص ٢٠٦ .

وأبى فاتح الهندستان الجديد إلا أن يكون المدينة التى يزغ فيها نجمه وعلا بها طامع سعده من اللطاء نصيباً ، فأرسل بقطعة من العملة الفضية (شاهر خيصة) إلى كل قاطن بكابلى ، رجلاً أو امرأة ، طفلاً أو حدثاً ، عبداً أو حُرّاً .

ولم ينس . وهو فى غمرة توزيع هذه الكنوز الطائلة ، أن يلتفت إلى أسرة غريمه السابق السلطان إبراهيم ، فأجرى على أمه وزوجاته وأولاده رزقا حسنا ، وأوصى رجاله بالسهر على راحتهم (١) .

وكان مما عرض على بابر من جواهر الهند بآگرا ماسة وكوهينور ، الشهيرة التى تزن ثمانية مثاقيل ، والتى قدر الپادشاه قيمتها فى سيرته بما يوازى نصف ثقات الدنيا فى عصره . وكان قد أهدى هذه الماسة لهمايون بن بابر أميرة بكر ما جيت راجا . گواليار لحسن رعايته لها بآگرا بعد أن هلك وإيها مع السلطان إبراهيم فى حرب باني پنت .

ورد بابر هذه الماسة على ابنه حين قدمها له فما زالت أيدى السلاطين المغول بالهند تتداولها حتى سقطت بأيدى البريطانيين

١ ... برعم ذلك فقد احتال أم السلطان اللودهى على دس نساء بابر فى خفاءه .

بابر نامه ورقة ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

حين دخلوا الهند فزينا بها تاج ملكتهم فكتوريا^(١) .

على أن استيلاء بابر على هذه السكوز الكثيرة وجلسه على عرش آكرا لم يكن يعني خضوع سلطنة دهلي لحكمه برغم قضائه على السلطان اللودهي وجيوشه . ذلك أن الأمراء الأفغان عن حكم الولايات اللودهيّة أدركوا تماما أن البادشاه إنما قد قدم إليهم ليغتصب بلادهم لنفسه . وأنه إن بسكت حتى يقضى على جميع نفوذهم وسلطانهم . فإذا كانوا بالأمس قد دفعهم اعتداءهم إلى الوقوف في وجه السلطان اللودهي ، وهو كبيرهم وابن جلدتهم على كل حال ، فكيف يرضون اليوم بالخضوع لقادم غريب عليهم . فمنهم من شاع أهير بهار جلال الدين بن درياخان فالتفوا حوله ونادوا به سلطانا عليهم . ومنهم من سار إلى الراجپوتانا فانضم إلى جبهة الأمراء الهنداكة بها . وسهل لهؤلاء النافرين تحصين مراكزهم ما تهيأ لهم من وقت كاف . كان فاتح الهند مشتغلا فيه بتقسيم ما وقع بأيديه من الأموال والأسلاب . حتى إذا ما فرغ من أمر غنائمه ، وجد ما حول آكرا من دساكر وقرى قد هجرها أغلب أهلها وتركوها خرابا .

يباها حتى كاد لا يجد الطعام الكافي لجوده والملف لدوا .

وأشاعت قصود الصيف الهندي روح القلق والتذمر بين صفوف القوات الغازية فقد حسبوا . بعد أن أصابوا من الغنائم والأموال فوق ما كانوا يأملون . أن أميرهم ما يلبث أن يعود بهم إلى ديارهم بعد أن تم له هزيمة عدوه والاستيلاء على ما وجدته عنده من أموال طائلة وكنوز .

ولم يكن بابر ليخضع لرأى رجاله فيرتد عن أرض الهند ، كما ارتد الإسكندر ويحمود الغزنوي وتبمور عنها من قبل ، والفرصة بواقبة له لإقامة دولة كبيرة قريبة له هناك . لما زال بقواده وأمرأه جيشه يذكرهم بمبالغ ما صادفهم من متاعب وصعاب تغلبوا عليها آخر الأمر فجنوا ثمار جهودهم بالفوز والغلبة . كما بين لهم أن الدول لا تقوم إلا على ركوب الأخطار ومواجهتها ، وأن الملك لا يكون إلا بالرعيّة المخلصة والأقطار المفتوحة ، وهام قد تيسر لهم ، بعد كفاح طويل وجهاد شاق ، الاستحواذ على بلاد عريضة ، فليس للمتاعب والصعاب مهما كان من شأنها أن تغلبهم اليوم على أمرهم فينكسروا عن الهدف الذي غدوا على قلاب قوسين أو أدنى من تحقيقه وبلوغه ويرتدوا على أعقابهم

وكانهم جند منهزم طحنته المعركة وأذلته الإنكسار^(١) .

هكذا تم لبار بشجاعته وقوة عزمته وإصراره القضاء على روح التمرد والتدمير بين جنوده ليوجه فريقا كبيرا منهم ، يأمره ابنه همايون ، إلى الولايات الهندية الشرقية ويتجه هو بنفسه من بعد ذلك إلى بيانه وگواليار التي تجاور عاصمته فيضمها إلى ملكه .

ذلك أنه برغم قدوم كثير من شيوخ القبائل الأفغانية في الدواب إلى السلاطان الجديد ومعهم قواتهم وانضمامهم إلى صفوفه ، فقد ذهب أميران من كبار الأفغان ، هما نصير لوحاني ومعروف فرمولى ، يجمعان الجند حتى صار لهما أربعون ألفا منهم فاستولوا بهم على قنوج ثم اتخذوا طريقهما إلى آگرا . وطلق همايون بطارد قوات الثوار فانتزع منهم جونپور وغازپور وكالى وخير آباد . حتى إذا ما شرع يتعقبهم بإقليم خريد ، عند حدود البنغال ، بعث إليه أبوه يأمره بالعودة إليه على عجل ليعاونه بقواته على دفع خطر الراجپوتين الذى كان قد استشرى حتى امتد إلى كافة المناطق القريبة من دهلى .

معركة خانوه : انتهز الأمراء الراجپوتيون فرصة الضعف الذي أصاب الدولة أيام السلطان إبراهيم اللودهي فعدوا بينهم حلفاً لمناهضة الحكم الإسلامي في الهند زعمه رانا سنگرام سنگت المعروف رانا سنگا صاحب مواري وراجا أداپور . وكان نجم هذا الأمير الهدوي قد بدأ يعلو أيام السلطان سكندر اللودهي حين فرّ من أمامه صاحباً مالود والكجرات وبلغت قواته مشارف دهلي . وما يزال القصص بالهند بروى عن طولته حتى اليوم .

وعظم شأن هذا الأمير أواخر أيام الدولة اللودهي حتى اتسعت رفته أراضيّه ودخل في نطاقها بهليّة وسرنكپور وچندري ورتنپور ، وحتى صار له من الجند مائة وعشرون ألفاً ومعهم خمسمائة من الأفيال (١) .

وانتهز رانا سنگا فرصة اشتغال صاحب آگرا الجديد بالقضاء على الفتن في المناطق الشرقية وفيما حول عاصمته ، فاستولى على حصن گهندار وراح يهاجم بيانه ودهليشپور وكالبي من جديد ، ثم شرع يؤلب الأمراء الأفغان على فاتح الهندستان ويدعوهم للانضمام

١ — Prasad Muslimi Rule, pp 258, 71, 74 . هذا وقد سبق لهذا

الراجا الاتصال بيار بدوره في كابل قبل زحفه على الهند وتعهد له بمساندة . p 272

في جهته ، حتى استجاب له فريق منهم ، وفيهم حسن خان صاحب
بيات ومحمد خان أخو إبراهيم اللودهي الذي نودي به سلطانا على
نومه . فأخذوا جميعاً يعدون العدد لالزحف على آكر (١) .

ولم يكن بابر نيسكت عن هذا الخطر الداهم الذي قد ينتهي
بالتقصاء على كل ما جنى من فتوح ، فبرز من عاصمته في جمادى
الأول من عام ٩٢٣ هـ حتى بلغ سيكري فأقام بها معسكره ،
وأخذ يحصن مواقعه . فمبشت عربات الحرب والمدفعية وحفرت
الخنادق وأقيمت المتاريس .

وفي هذا المكان أذاع الپادشاه في قومه وكافة أنحاء بلاده
مشورا أعلن فيه عزمه على الجهاد في سبيل الله بمحاربة الهنادكة ،
ورده ضريبة التبعة عن كامل رعاياه ، وإقلاعه عن مقسارية
الشراب توبة إلى الله وتقربا إليه منه ، فأغرق ما بالمدائن من
النبيذ على الأرض وخطمت أدوات الشراب من ذهب وفضة
إلى قطع صغيرة كانت من نصيب الفقراء والمساكين صدقه (٢):
« نحمد توأبا يحب التوابين والمنطهرين ونشكر ديتانا يهدي

١ — منتخب التواريخ أول ص ٣٣٨

٢ — بابر نامه ٣١٢—٣١٤ وقد أذيع هذا المنشور في سيرة بابر الجنتائية
بواسطة النارية لأنها كانت اللغة النالفة في هذه البلاد .

المذنبين والمستغفرين... وبعد فإن طبيعة الإنسان على مقتضى
الفطرة تميل إلى لذات النفس البشرية، فهي ليست بمنجاة عن
ارتكاب الآثام، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا
ما رحم ربِّي إن ربِّي غفور رحيم.

« وما هي التوبة عن الشراب قد آن أراها في هذه الأوقات
المباركة التي أعدت فيها للجهاد في سبيل الله، وقد اجتمع
عساكر الإسلام لحرب الكفار... أم يأن للذين آمنوا أن
تخضع قلوبهم لذكر الله، (٢) فانتفعنا أسبب المعصية بقرع أبواب
الإثابة - زمن قرع بابا وليج - واجتهدوا هذا الجاد بالجماد
الأكبر، هو مجاهدة النفس، « ربنا ظننا أنفسنا، (٣) » وإني
تبت إليك وإني من المسلمين، « فأعلننا جميعاً توبتنا عن
الشراب وأمرنا بأدواته من كؤوس البضة والذهب... زينة
مجلس الضلالة... وألقيت إلى الفقراء والمساكين والمعموسين
صدقة... »

١ - سورة - ٥٣/١٢

٢ - سورة - ١٦/٥٧

٣ - سورة ٢٣/٧

٤ - سورة ١٥/٤٦

، هذا ولما كان الناس على دين ملوكهم فقد أقبل كثير من
مؤمنين لدينا فالوا في المجلس شرف الإنابة والتوبة عن تعاطى
الشراب مطيعين للأوامر معرضين عن النواهي . ولما كان الدال
على الخير كما عمله ، فترجو الله أن يكون لنا من ثواب هذه
الأعمال نصيب ، وأن تكون لنا فإلا طيبا يتزايد بسعادة الفتح
والنصر يوما فيوما .

وغايتنا من هذا المرسوم أن يقابل بالطاعة والخضوع ،
فيمنع ما ينص عليه من تحريم تعاطى الشراب وصناعاته في كافة
أماكن بلادنا المحروسة ، حرسها الله من الآفات والمخوفات
، فاجتنبوه لعلكم توفى بحقوق ، (١) .

وشكراً لله على هذه الفتوح وتصدقا بالقبول ، قد جاد الپادشاه ،
من فيض كرمه ، برفع النخعة [المكوس] عن كاهل المسلمين جريا
على ضوابط شريعة سيد المرسلين . وصدرت الأوامر بمنع
جمعها أو تحصيلها في أى بلد أو ثغر أو طريق أو درب . فمن
بدله من بعد ما سمعه فإنما إثم على الذين يُسبدلونه ، (٢) .

١ — سورة ٥ / ٩٠

٢ — سورة ٢ / ١٨١ . هذا وتعد منشورات بابر عموما من الشواهد القوية
على تمكنه وكثير من خاصته من الآداب العربية والفارسية والتركية .

وعلى الجند الذين يعيشون في ظل العطف الشاهاني : من ترك
وتاجيك. (١) وعرب وعجم وهنود : وعلى المدنيين والعسكريين
وأبناء كل ملة ودين، أن يقوموا جنداً لله الحى القيوم على تنفيذ
ما جاء بهذا المرسوم دون انحراف عن مقاصده ، مبادرين إلى
ذلك حال وصوله إليهم مهوراً بالخاتم الرفيع الأشرفى الأعلى .
كُتِبَ بالأمر العالى... فى ٢٤ جمادى الأول من عام ٨٩٣٣ هـ .

ورأى بابر الخوف يشيع فى رجاله من قتال الهنداكة ولم يكن
لهم بلقائهم عهد من قبل ، وقد تصدى لقيادتهم راناسنكا أعظم
أبطالهم ، وتشهد على جرأته وبطولته عين فقاتها السهام وذراع
بترتها السيوف ومانون طعنة تنائرت آثارها فى جسده . وهاهو
فريق من أمراء الأفغان المسلمين أنفسهم يؤثر الانضمام إليه على
جانب سلطانهم ، فى حين طفق فريق آخر منهم بالدواب ، وما حولها
يرتد إلى حصونه القديمة فينتزعها عنوة من أيدي حماة الجدد .
هنالك أخذ الپادشاه يستنفض همم رجاله . ويقوى من روحهم
المعنوية ، فخطبهم قائلاً بأن المرء مهما طال به الأجل فصيره إلى
الفناء ، فما أشرف له أن يستشهد فى ميدان الجهاد فيخلد ذكره
عن أن يموت خاملاً حثف أنفه .

« ولقد أراد الله القدير أن يمتحننا بهذه المحنة ، فإن نسقط في ميدان الجهاد فقد كُتبت لنا الشهادة وإن نتصر فقد أعـلينا كلمته تعالى » .

وجيء بالكتاب فأقسم كل فرد منهم على ألاّ يلوى وجهه عن القتال أو يتخلى عن أصحابه طالما كان فيه نفس يتردد بين حبيبه (١) .

لم يفتّ في تضد الجند الباري مارأوه من انسحاب كثير من أمراء البلاد من صفوفهم ، وما بلغهم من مهاجمة الهنادكة لـكـوالبـار ، ونشوب القتـن في « الدوآب » ، فزحفوا إلى أرض خانوه عند مشارف الراجيو تانا يتقدمهم أصحاب آلا تهم الحربية من رجال المدفعية وحملـة البـادق حتى يقيموا من نيرانهم ، إذا لزم الأمر ، ستاراً يهيء لهم الفرصة لتشكيل صفوفهم للقتال في اطمئنان .

والنقى الجمعان قبيل ضحى يوم السبت الموافق ١٣ جمادى الآخر ١٣٣٣ هـ / ١٦ مارس ١٩١٥ م ليخوضوا غمار حرب تعدّ من أهم الوقائع الحاسمة في تاريخ الهند كلها .

وتحوى سيرة بار وصفها دقيقاً قيّماً لهذه الواقعة ننقل عنه

ما يلي (١)

« الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم
الاحزاب وحده... وصلى الله على خير خلقه محمد سيد الغزاة
والمجاهدين... وبعد؛ فما من نعمة تستوجب الشكر أعظم من
النصر على الكفار، فهى فى نظر أهل البصيرة أعلى درجات
السعادة . والمنّة لله وحده الذى حقق لنا من مكنونات نعمه ،
النصر والغلبة ، فكتبنا عنده فى سجل المجاهدين لإعلاء كلمته... ،
« وتفصيل الأمر فى مصدر هذه السعادة وظهور هذه الدولة ،
أنه لما أضاءت ومضات سيوف فرسان الإسلام من جودنا
بلهعات أنوار الفتح والظفر ، وأتت أياذى التوفيق الربانى على
رفع رايات النصر فى ممالك دهلّى وآگرّا . وجونپور وخرېد وبهار
وغسېرها من البلدان بما سبق تفصيله ، سارع بالانضواء تحت
لوائنا والخضوع لسلطاننا كثير من طوائف القوم من أصحاب
الكفر وأرباب الإسلام على السواء .

أما رانا سنگا فقد تظاهر بطاعتنا بادىء الأمر ثم ما لبث أن

١ — باير نامه ٣١٧ ب — ٣٢٤ ب . وهو المنشور الذى عهد باير بصياغته إلى
فاضيه زين الدين خوافى ، غوى بالفارسية أدق تفاصيل التتال وخططه وتأتبه ،
ليذاع فى كافة أنحاء المملكة .

أظهر ما بطن : فأبى واستكبر ورفع رأس الفتنة وقاد جيوشها ،
 واجتمع حوله طوائف فيها من تمنطق بالزناز وفيها من ارتدى
 ثياب الكفر والافتراء (١)

« هذا وكان سلطان ذلك الكافر اللعين قد اتسع بالهند قبل أن
 أن تبزغ شمس دولة الپادشاه بها ، ولكن لم يحدث قبل هذه الحرب
 أن شاركه أحد من الراجاوات والحكام حروبه أو خرج معه فيها .
 أما السلاطين الأقوياء من أمثال أصحاب دهلى والگجرات
 ومالوه ومن إليهم . ممن كانوا فى حالة تسمح لهم بمعارضته
 والوقوف فى وجهه ، فقد عجزوا عن أن يتكلموا ضده دون اتفاق
 الكفار وإياهم ، فعدوا لذلك يداهنونه بدورهم ويدارونه اتقاء
 لخطرة ودفعا لشره .

« وهكذا باتت بنود الكفر ترفرف على قرابة مائتى مدينة
 من مدن الإسلام التى خرب ما بها من مساجد وسبى ما بها من
 نساء المسلمين وقتل أطفالهم فيها .

« أما مدى قوته ومباغ عدته ، فعلى حساب أهل الهند وجريا
 على قواعدهم ، فإن كل إقليم خواجه لكا (أى مائه ألف) يستطيع

١ — أصحاب الزناز هم الهنادكة ، أما المرتدون فهم الأمراء المسلمون الذين ظهروا
 فى صفوف الهنادكة .

أن يقدم مائة فارس ، وما يكون خراجهم كرور آ (عشرة ملايين)
يقدم عشرة آلاف فارس . ولما كان خراج ولاياته جميعا يصل
إلى عشر كرور فقد كان في وسعه أن يجتمع له مائة ألف من الفرسان ،
هذا وقد أقبل عدد من أمراء الكفار يقدمون العون له
لأول مرة ، بدافع من عداوتهم للمسلمين . وكان هؤلاء إقطاعات
واسعة ؛ فهذا صلاح الدين أمير بهيلسه ورازن وسارنگبور ، كان
له ثلاثون ألفا من الفرسان ، وهذا راول أودى سنك ، صاحب
دنگر پور ، كان له اثنا عشر ألفا ، ثم حسن خان ميواتى وكان له
اثنا عشر ألفا ، وبارمل عدرى وكان له أربعة آلاف ، ونربت
هارة ، وكان له سبعة آلاف ، ومندنى راى ، وكان له اثنا عشر ألفا ،
وستروى كچى ، وله ستة آلاف ، وهرم دوى ، وله أربعة آلاف ،
وبرسنگ دوى وله مثلهم ، وأخيرا محمود خان بن السلطان
سكندر خان ، فبرغم أنه لم يكن له من الملك نصيب فقد تم له
جمع عشرة آلاف فارس أمل أن يصل بهم إلى العرش ^(١) .

١ — لم تزد عدد قوات هؤلاء الحلفاء في هذه الوقعة على مائة وعشرين ألف
فارس Prasad 274 في حين لم تكن قوات بابر تزيد على ما اشترك به في واقعة
بانى بت . هذا وقد كشفنا في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١١٤ عن السر
الغالب في انهزام جوع الهنادكة على كثرتهم أمام الفزاة المسلمين على قلمهم ، وإن زاد
على ذلك استخدام بابر المدفعية والبنادق التي لم تكن الهند تعرفها من قبل .

« هكذا ائتملت جموع أولئك الكفار معاً ، كظلمات بعضها
فريق بعض ، في حرب أهل الإسلام والعمل على هدم شريعة
سيد الأنام . لكن المجاهدين انقضوا عليهم طلباً للشهادة في جهاد
الكفار والمنافقين .

« وفي يوم السبت المبارك الثالث عشر من جمادى الثانى
من عام ٩٣٣ هـ أقام جيش الإسلام المظفر مضارب خيامه على
تل بجزار خانوه إحدى مناطق بيانه . حتى إذا ما قدم الكفار
بأفياهم - كأصحاب الفيصل - برز لهم عساكر المسلمين - رياحين
الجنة - يقاتلون في سبيله صفاً صفا كالبنيان المرصوص .

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ، (١)
« هنالك أجمع أهل الخبرة على تغطية ووضع حملة البنادق
وستر مكانهم ، وكانوا في الجهة ، فنهجوا في ذلك نهج مجاهدى
الروم (٢) ، فصفت العربات أمامهم وقد شُدد بعضها إلى البعض
الأخر بالسلاسل . »

« وكانت جيوش الاسلام تنتظم في إحكام تام ، والحرس
الشاهاني قد تد توسط الجناحين منها ، وقامت فرق المناوشة

بأقصى الجناحين . .

« وحين تقابل الجيشان، وكأنهما الليل والنهار، بدأ الاشتباك عند الجناحين، واشتد أوار الحرب حتى كأنما الأرض قد زلزل زلزالها، وبانغ ضجيج قعقة السلاح عنان السماء . حتى إذا ما اقتحم جناح الأشقياء الأيسر ميمنة المسلمين . سارعت نجاتنا إليهم، فلم تكف بردهم حتى ظلت تطاردهم إلى قلب جيشهم .
« وألهم بالتوفيق، نادرة عصره « مصطفى الرومي » وكان في القلب في إمرة ابننا محمد همايون، فتقدم، بمدفعه، وبناقه وقذائفه، فخطم صفوف الكفار .

« حتى إذا ما زحفت أفواجهم من جديد ترى لنجدة رجالهم فكروا على جناح المسلمين الأيسر في عنف وشدة . طفق الغزاة ذوا نجا . يستقبلونهم في كل مرة بالسهام فيبعثون بهم إلى دار البوار، أو يرغمونهم على الفرار، وهم يرددون قوله تعالى « قل هل ترَبُّون بنا إلاّ إحدى الحسنيين » (١)

« وحين حمى وطيس الحسرب صدرت الأوامر إلى رجال الحرس الشاهاني بالبروز للقتال، وكانوا في مواقعهم من وراء المدفعية كالأسود في أقفاصها، فاندفعوا من يمين القلب ويساره

«طلعة صبح صادق أطلّ من وراء الأفق ، فضرجوا الكفار في
ماء بلون الشفق وأطاحوا برءوس الكثيرين منهم .»

«هَذَا كَمَا طَفِقَ ، نَادِرَةُ الْعَصْرِ ، الْأَسْتَاذُ عَلِيْقَى يَقْذِفُهُمْ^(١)
وَأَتْبَاعَهُ مِنْ وَسْطِ الْجَبْهَةِ . بِقَذَائِفِ تَحْمِيلِ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ
تَالْعَهْنِ الْمَنْفُوشِ . وَلَوْ كُوفِي ، الْوَاحِدُ مِنْهُمَا بِثِقَابِهَا أَعْمَالاً طَبِيبَةً لَمُنْقَلَتِ
سَوَازِينُهُ ، فَهِيَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ، فَخَصَّهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْكَفَّارِ
حَصْداً ...»

«كَذَلِكَ سَقَى حَمَلَةَ الْبِنَادِقِ - مِنْ وَرَاءِ الْمَدْفِيعَةِ - كَثِيرًا
مِنَ الْأَعْدَاءِ كَأْسَ الْحَمَامِ فِي الْمِيدَانِ ، وَظَهَرَ الْمَشَاةُ مِنْ
ضُرُوبِ الْخَاطِرَةِ مَا يَخْتَلِدُ أَسْمَاءَهُمْ مَعَ أَسَدِ الْغَابِ الصَّيْدِ وَالْأَبْطَالِ
الْصَّنَادِيدِ.»

«وَفِيهَا الْحَالُ يَجْرَى عَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ ، صَدَرَتْ الْأَوَامِرُ بِتَقْدِمِ
الْمَدْفِيعَةِ مِنْ مَوَاقِعِهَا إِلَى الْأَمَامِ ، وَبَدَأَتْ الْحَضْرَةُ الْخَاقَانِيَّةُ
بِدَوْرِهَا فِي تَقْدِمِهَا ، وَالْفَتْحُ فِي رُكَابِهَا وَالظَّفَرُ وَالْيَمْنُ ، فَزَحَفَتْ عَلَى
فِرْقِ الْكَفَّارِ .»

«وَاخْتَلَطَ الضَّارِبُ بِالْمَضْرُوبِ ، وَالْغَالِبُ بِالْمَغْلُوبِ ، وَانْعَقَدَتْ

١ - ... كَانَ الْيَابَرُ إِلَى جَانِبِ مَدْفِيعَةٍ قِصْعٍ صَغِيرَةٍ أُخْرَى يُسَمِّيهَا فَرَنْكِيَّةَ عَدَا بِنَادَةٍ
لَتِي تُعْرَفُ بِاسْمِهَا الْتَرَكِي « تَنَكْ » . هَذَا وَكَانَتْ عَرِيَّتُهُ الْحَرِيْبَةُ تَصِلُ إِلَى ثَمَانِيَةِ .

تحب الغبار فوق الرؤوس وقد حُجبت الشمس عنهم حتى توارت
المرئيات . فلم يكن يضيء هذا الليل الألمعات السيوف وومضاتها،
وما ينبعث من الشرر حين تضرب الخيل الأرض بحوافرها في
الكركر والقرقر .

« وهتف الهائف بالغزاة المجاهدين أن ، لا تنهوا ولا تحزبوا
وأنتم الأعلون » (١) وأنه « نصر من الله وفتح قريب » (٢).
فاقبلوا فرحين مستبشرين يقاتلون في طلب الشهادة . وبلغت
المعركة أوجها بين الصلاة الأولى والثانية . ليفلح المسلمون
من بعد ذلك في تطويق جيوش الكفار وحصرهم بمكان
واحد .

« حتى إذا ما رأى هؤلاء الأشرار الملاحدون أنه قد
أحيط بهم ، انطلقوا مستبشرين يهاجمون من جديد على طول
الجهة حتى كاد النصر يواتيهم عند الخناج الأيسر ، لولا أن
أطبق المجاهدون عليهم فافتلعوهم من أماكنهم وألزموهم طريق
الفرار قسرا .

« هنالك أقبلت نسائم النصر على بستان حظنا ومعها مدد من

١ — سورة ٣ / ١٣٩

٢ — سورة ٦١ / ١٣

قوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » (١). وتجلى لأعيننا الإقبال والسعادة في كلامه عز وجل « وينصرك الله نصراً عزيزاً » (٢)

« وهكذا انفرط عقد الهنادكة فتناثروا كالعين المنفوش ، فمنهم من سقط في حومة الوغى ، ومنهم من هلك في تيه الخراب فصار طعاماً لجوارح الطير ، حتى تكدست أجسادهم بعضها فوق بعض كالهضبة الرابية وتكوّمت رؤوسهم كالمنائر العالية . (٣) »

« وكان من بين القتلى حسن خان ميوانى وكثيرون من أمراء الكفار وأصحاب الشوكة والأعيان الذين بعثت بهم السهام ونيران البنادق إلى سقر .

« أما دار الحرب فقد غصت بالجرحى منهم ، فكانت كجهم حين يتلقى خزنتها المنافقين فتمتلئ بهم ، كما لم يكن هناك موطن . لقدم الا وفيه صرعى من عليائهم . « وما النصر إلا من عند الله

١ — سورة ٤٨ / ١

٢ — سورة ٤٨ / ٣

٣ — من تقاليد التيموريين أنهم كانوا ، على أثر كل نصر ، يقيمون من رؤوس القتلى من أعدائهم على هيئة أهرامات ومنائر .

العزیز الحکیم ، (١)

هكذا استمرت معركة خانوه من الضحى حتى الغروب لتنتهى
بهزيمة عصابة الراجپوتيين هزيمة حاسمة ، وهروب رانا سنگازعيمهم
إلى أحد حصونه بالجبال منفلا بجراحه ، فلم يمتد به الاجل
إلا عاما وبعض عام (٢) .

وبهذا أتيح للغازى (٣) التيمورى أن ينزل بأعدائه بالهند ضربتين
حاسمتين : فى مدى عام واحد، ضعفتا من كيانهن وقضتا على قواتهن .
واثن مكن للبادشاه انتصاره عند پانى پت من الجلوس على عرش
آگرا ، فقد تم له فى وقعة خانوه القضاء التام على الخطر الراجپوتى
الذى ظل يهدد سلاطان المسلمين بالهند قرونا كثيرة فلم تقم لهم
قائمة من بعد ذلك أبدا (٤)

وبهذا النصر، الذى لم يؤته أحد من سلاطين الهند المسلمين منذ أيام

١ - - سورة ١٢٦/٣ . حافظنا فى نقل هذا الوصف إلى العربية على أسلوب
الأصل وصورته الأدبية ما وسعنا ذلك ، ولم نرفع منه إلا أسماء القوادى الكثيرة .

٢ - Havell, p 425

٣ - اتخد باير نفسه هذا القالب على أثر انتصاره فى هذه الوقعة . تاريخ

رشيدى ٤٠٩

٤ - Lane - Poole 210

محمود الغزنوى ومحمد الغورى ، طارصيت بابر ، وازدادت هيئته ببر المسلمين فى الهند ، وتوطد مركزه على عرش آگرا ، وأرسى الأساس الذى قامت عليه الدولة المغولية ، فلم يعدي حارب دفاعا عز عرشه وثبिता له ، فصار خروجه لتوسيع رقعة ملكه وبسط نفوذ وسلطانه فى الغالب .

الغلاقل الشرقية :

كان على بابر لىكى يغدو سيد الهندستان كله ، بعد أن تم له القضاء على عصبة الراجپوتيين وأمنت أراضيه حول دهم وآگرا ، أن يستولى على بعض الحصون الكبرى التى مايزا يعتصم بها أمراء من الهنادكة . ويقضى على نفوذ الأمراء الأفغا فى الماطق الشرقية ، ويخمد ما يشيرونه من فتن هناك فقد كا يعلم أنه لا سبيل إلى مهادتهم فى الغالب ، وهم الذين أدى به كبرياتهم إلى تقويض عرش السلطان اللودهى ، زعيمهم وإجلدتهم ، من قبل .

وسارت جند آگرا صوب الشرق بطريق قنوح ، فى حين قه البابا شاه ، على رأس فريق آخر من قواته ، حصن چندرى ء أقصى الجنوب من گواليار ، وكان عليه أمير هندوكى قرى ، ميسدنى راو .

وبرغم امتناع أسوار الحصن على مدفعية المسلمين ، إذ كانت من الحجر الصلب ، فضلا عن موقعها بأعلى التلال ، فإن الجند استطاعوا تسلق هذه الأسوار والتسرب إلى داخلها ليشتركوا مع الحامية في قتال وحشي عنيف رُدّ فيه فريق منهم عن أماكنه .

ذلك أن رجال الحصن حين أيقنوا بضياغ قلعتهم من أيديهم ، قتلوا نساءهم بأيديهم ، ثم انطلقوا يعرضون أنفسهم على سيوف الغزاة مقاتلين في ضراوة وشدة بأس ، في حين كان أميرهم ونفر من خلصائه يتبادلون فيما بينهم الطعنات حتى قُتِل أولئك وهؤلاء جميعا عن آخرهم (١) .

وكان في خطة بابر ، بعد الفراغ من الاستيلاء على هذا الحصن ، أن يخضع بعض حصون أخرى بمالوه ثم يسير إلى الراجپوتانا من جديد ليقترح حثور عاصمة مواري ومقر خصمه المهزوم رانا سنگا ، لولا ما بلغه من ارتداد قواته في الشرق إلى قنوج بعد أن أرغمت على إخلاء لكتاوا ، فسارع إليها بنفسه .

وبانح بابر قنوج ليعبر بحاله حِمته تحت ستار من نيران

التي فعية والبنادق فيلتحموا في قتال عنيف مع ثوار بهار الذين قد عاد
 إلى توعمهم السلطان محمود بن سكندر لودهي بعد هزيمته في خانوه .
 ونولا تريت الپادشاه في مطاردتهم لآمكن له من فوره القضاء
 عليهم قضاء تاما .

وعوق حلول فصل الأمطار القوات الغازية من الاستيلاء
 على إقليم بهار كله بعد ما بلغت أوده ، مما أناح الفرصة للثوار
 ليعودوا إلى إشعال نيران فتنة عارمة في العام التالي استنفد
 القضاء عليها كثيرا من جهود بابر وكادت تقضى إلى اشتباكه في
 الحرب مع البنغال .

ذلك أن محمود لودهي كان قد اجتمع له مائة ألف من الجند
 استخلص بهم إقليم بهار كله وبعض الأراضي المحيطة به : حتى
 إذا ما سير إليه الپادشاه ابنه وعسكري ، أول الأمر ثم لحق به من
 بعد ذلك بنفسه فدخل د الله آباد ، وچنار وبنارس فأقبل عليه
 الأمراء الأفغان مستسلمين بعد أن انفضوا من حول الثائر
 اللودهي ، رابه التجاء بقية الثوار إلى إقليم خريد برغم تأكيد
 نصرت خان ، صاحب البنغال ، له بنزوعه إلى المسالمة وحرصه
 على اليرلاء (١) .

هنالك رأى بابر أن يحزم أمره مع قوات البنغال التي تشد من أزر الثوار ، إذ كانت في موارعها ، عند التقاء الكنج برافده كسكر ، تعوق من تحركات جند آگرا في مطاردتها للثوار .

وتيسر ولعسكري أن يعبر ببعض قواته الملتقى الأعلى لكسكر والكنج ، فطفق يناوش البنغاليين ويشاغلمهم ، حتى تم عبور المدفعية ورجال البنادق مع بقية الجيش عند الملتقى الأدنى للنهرين ، فوق الأعداء بذلك بين فسكى الكماشة ، فلم يغنهم فنيلا تفوقهم العددي وإحكامهم في التصويب ومهارتهم في استخدام الأسلحة النارية إذ دارت الدائرة عليهم فركنوا إلى الفرار . وهكذا انتهت معركة كسكر إلى القضاء التام على الثوار الأفغان وإعلان صاحب البنغال ولائه للإدشاه .

وبهذه الواقعة التي تعد ثالث معركة حاسمة خاضها بابر في الهند ، بعد معركة پانى پت وخانوه ، غدا ذلك الأمير التيمورى صاحب السلطان المطاق فى الهندستان ، وغدت دولته تمتد فى رقعتها المترامية الأطراف من جيحون إلى البنغال ومن الهملايا إلى چندرى وگواليار (١) .

وآب بابر إلى عاصمته في شوال من عام ٩٣٥ هـ فلبث بها
 قسراً ، ليخرج منها من بعد ذلك إلى البنجاب وفي نيته أن يواصل
 سيره إلى بدخشان ، فيدفع عنها الأوزبكي الذين استفحل
 خطرهم من جديد برغم ما أنزله بهم طهباسب ، شاه الفرس ،
 من ضربات قاصمة .

ولعل خوفه من قيام القلاقل بالهند في غيبته ، وبداية
 انهيار صحته نتيجة للجهود المضنية المتواصلة التي بذلها في
 حروبه ، قد منعه حتى من الشخوص إلى كابل ، وكان غير بعيد
 منها ، وهي التي طالما ردد اعتزازه بها وشوقه إليها .

وقدم على بابر ، بلاهور ، ولده الأكبر همايون فصاحبه إلى
 آگرا ، وكأن القدر قد استجاب للبادشاه حين اشتد الداء بابنه
 هذا ، فتمنى على الله أن يجعله فداءه ، فلم يبرأ همايون من
 علته حتى رقد بابر مكانه فلم يغادر فراشه من بعد ذلك إلا
 إلى لحده (١) .

١ — كان مما عجل في نهايته في الغالب إيمانه كذلك على تعاطي المجنون
 (الأفيون) وإن أقم عن تناول الشراب تماماً عند حربه مع راناسنكا في معركة
 خانوم . تاريخ رشیدی ٤٦٩

حين شعر بابر بدنو أجله دعا إليه رجال دولته ، فأخذ منهم البيعة لولده همايون بعد أن أوصاه بهم وبأهل بيته وإخوته ونصحه باصطناع الحلم والتذرع بالخزم في حكمه .

وحاول بعض رجال الدولة ، والبادشاه يعاني سكرات الموت ، أن يعدلوا عن وصية أميرهم فيعهدوا بالملك إلى أحد أنسباء بابر ، وكان يدعى سيد مهدي خواجة ، لتكشف لهم المصادقات عندئذ عما كان ينتويه لهم مرشحهم هذا من أذى وشر فيعودوا إلى سيرتهم الأولى .

ومضى بابر في السادس من جمادى الأولى من عام ٩٣٧ هـ ١٥٣٠ م وهو في الخمسين من عمره والعام الثامن والثلاثين من حكمه ، فنوى في بستان نور أفشان على چمنه . ثم نقل جثمانه من بعد ذلك إلى كابل فدفن بربوة تطل على هذه المدينة التي كانت أحب بقاع الدنيا إلى قلبه ، والتي خرج منها فتم له إقامة ملك عريض شمل الشمال الهندي ، وماغدا أولاده يُزيدون فيه حتى خضعت لهم شبه القارة الهندية كلها .

شخصية بابر : لا يعد ظهير الدين محمد بابر أعظم حكام المسلمين في عصره حسب وفيهم اسماعيل الصفوي شاه العرس وسليم الأول

سلطان العثمانيين ، بل هو كذلك من أقدر الرجال الذين عرقتهم العروش في مختلف المصور ، وأحد أعاجيب الزمان همة وطموحا وصبرا على المكاره .

وَلِيَّ عرش فرغانة ، تلك الأرض الصغيرة عند سيحون ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، وليس له من بين جيرانه أو ذوى قرباه ناصح أو صديق ، إذ كانوا جميعا بين طامع في ما يملكه أو على عدااء سابق مع أبيه ، فلولا بقية نفر من خلصاء أبيه القدماء لَقُضِيَ عليه من بادية الأمر وضاع ما ورثه من الملك .

تعرض بابر منذ شبابه للحن ومتاعب جارفه عنيفة ، فلم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا أبداً ، فكم من مرة انفض عنه أنصاره وأغلب رجاله حتى وقف وحيدا شريداً لا أرض له ولا مال ولا رجال ، فعاود جهاده من جديد ومضى في مغامراته ، حتى رأيناه يذكر في سيرته أنه منذ ولي العرش عام ٨٩٩ هـ حتى عام ٩٣٣ هـ ، أى في مدى خمسة وثلاثين عاما ، لم يقض شهر رمضان عامين متتاليين بمكان واحد . (١)

ولي بابر عرش فرغانة ، كما جلس على عرش جده الأكبر تيمور لنگك في سمرقند ، فإذا الدوائر تدور عليه فيفقد جميع

أملاكه ببلاد ما وراء النهر ويغدو شريدا طريدا يسير أغلب ليله ويختفي معظم نهاره ، ولا يأمن أن يبيت بمكان واحد ليلتين متعاقبتين حذر الوقوع في يد غريمة شيباني خان الأوزبكي الذي أخذ على نفسه القضاء على البيت التيمورى الذى آواد وآباهه من قبل^(١) . ويظل بابر يضرب فى الصحراوات والجبال عاما وبعض عام حتى يلتقى ، وهو فى طريقه إلى الخروج من بلاده ، بمجموع من عشائر المغول والأتراك ببدخشان فتسير فى ركابه هربا من وجهه الأوزبكي ومعها الكثير من أموال حصار وبدخشان فيدخل بها أرض كابل وغزنة ويجلس على عرشها وكان فى حوزة التيموريين لسنين طويلة خلت .

ويكسر اسماعيل الصفوى ، شاه الفرس ، شوكة الأوزبكي ويقضى على زعيمهم شيباني خان . فتتجدد الآمال عند بابر لاسترداد بلاده ولاد آباهه بما وراء النهر بمعونة الشاه الفارسى ؛ حتى إذا مارذ عنها بعد توغله فيها حين نقض السكان عهدهم معه ، لما أذاقهم حلفاؤه من ويلات لإرغامهم على اعتناق المذهب الشيعى ، ولجوجه قبل الهندستان التى سبقه إليها آباؤه من قبل ، فى عزم وقوة أتبع له فيها أن يقيمها دولته التى خلدت ذكره فى التاريخ .

وكان لضالة قواته في بدء حياته ، ثم تدرجها في الزيادة ، بعد ذلك ، أثر كبير فيما تدرس به من خبرة عسكرية واسعة أفاد منها برائده في حروبه الكبرى بالهندستان .

هذا كما مكنته خبرته الطويلة المكيئة بنفسية جنده ، على اختلاف أجناسهم ، من مغول وترك وأفغان وغور ، من أن يسيطر عليهم سيطرة تامة ويبد كل تذر أو قن تشيع بينهم في مهدها ، حتى قضى بقوة شخصيته على تمردهم حين ضاقوا بجرّ الهند وفاض بهم الحنين إلى ديارهم بعد ما أصابوا الكثير من غنائم الفتح في آكرا عقب دخولهم فيها ، وأستهض همهم فأعاد الثقة إلى نفوسهم حين شاع فيهم الخوف قبيل لقاء الراجپوتيين في معركة خانوه .

على أن بابر ورث عن أجداده ، من المغول والأتراك على السواء ، إلى جانب صفات الجنديّة ، ميلهم إلى الأمعان في تقتيل أعدائهم وتفآخرهم بعظم الأكداس التي كانوا يقيمونها من رءوس القتلى على هيئة المنائر والاهرامات ، وانتهاهم لديار أعدائهم إشعال النار فيها مالم يبادروا إلى الاستسلام لهم والاعتراف بسلطانهم .

وثمة خصال غير حميدة ورثها بابر عن آبائه وورثها

وكان لصالّة قواته في بدء حياته ، ثم تدرجها في الزيادة ، بعد ذلك ، أثر كبير فيما تمرس به من خبرة عسكرية واسعة أفاد منها فوائد جمة في حروبه الكبرى بالهندستان .

هذا كما مكنته خبرته الطويلة المكيّنة بنفسية جنده ، على اختلاف أجناسهم ، من مغول وترك وأفغان وغور ، من أن يسيطر عليهم سيطرة تامة ويبد كل تذر أو قتن تشيع بينهم في مهدها ، حتى قضى بقوة شخصيته على تمرّدهم حين ضاقوا بجزّ الهند وفاض بهم الحنين إلى ديارهم بعد ما أصابوا الكثير من غنائم الفتح في آكرا عقب دخولهم فيها ، وأستهضهم همهم فأعاد الثقة إلى نفوسهم حين شاع فيهم الخوف قبيل لقاء الراجپوتين في معركة خانوه .

على أن بابر ورث عن أجداده ، من المغول والأتراك - على السواء ، إلى جانب صفات الجنديّة ، ميلهم إلى الأمعان في تقطيل أعدائهم وتفاخرهم بعظم الأكداس التي كانوا يقيمونها من رؤوس القتلى على هيئة المنائر والأهرامات ، وانتهابهم لديار أعدائهم وإشعال النار فيها مالم يبادروا إلى الاستسلام لهم والاعتراف بسلطانهم .

وثمة خصال غير حميدة ورثها بابر عن آبائه وورثها

أبناءه من بعده ، كالإدمان على تناول الشراب الذى لم يقلع عنه عند
 حربه مع راناسنگا إلاّ ليدمن تعاظى المعجبون ذلك المخدر القوى
 الذى عجل فى الغالب فى نهايته ولمّا يبلغ الخمسين من عمره ، برغم
 ما اشتهر عنه فى شبابه من قوة جسدية خارقة حتى كان يطوى
 ذراعيه على الرجلين ويتخطى بهما الخنادق قفزا فى تتابع سريع ،
 ورغم ممارسته كافة ضروب الرياضة المعروفة فى عصره ، حتى
 ليذكر فى سيرته أنه سبح فى كل نهر صادفه فى حياته ، وقطع نهر
 الكنج فى أعرض مواضعه فى ثلاثة وثلاثين ضربة ، وهو ما لم
 يتيسر لغيره من رجاله .^(١)

وعُرفَ هذا السلطان التيمورى ببغضه للتعصب الدينى
 وبعده عنه ، ونهج أبنائه فى الهند نهجه ، فمارس الهنادكة طقوسهم
 الدينية فى حرية تامة إبان حكم الدولة المغولية فى الغالب .^(٢)
 وبلغ من تسامح هذا الجندى الموهوب أنه تغاضى عما أنزله به
 بعض رجاله وأقاربه من أضرار سالفه ؛ بل لقد عفى عن هؤلاء ،
 حين وفدوا عليه بالهند ، برغم أن منهم من أبى أن يضيفه وأمه
 حين ضاق به الحال بيلاد ما وراء النهر ، فقد كان يهدف أبدا إلى

١ — بابرنامه ٣٦٣ ب

٢ — Havell p 426-Prasad pp 286 . 87. —

وإثن أبقي البادشاه على هيكل الإدارة الهندية فقد أدخل عليه ، على كل حال ، بعض النظم التيمورية ، فجعل على كل إقليم نائبين له ، يقود أحدهما الجند ويراقب جمع الضرائب ويرعى مصالح السكان ، ويتولى الآخر الإشراف على الإيرادات والمصروفات ويوازن بينهما ، ويدفع للجند والعمال أجورهم ^(١) . كذلك كان من مبادئ التيموريين التي ساروا عليها بالهند ألا يتراخى العمال في جمع الخراج والمكوس ، دون إلحاق الأذى بالناس ، وحض نوابهم على إجراء العدل بين السكان جميعا لا يفرقون في ذلك بين مسلم وهندوكي ^(٢) .

على أن بعثرة بابر لما وقع بأيديه من أموال طائلة وكنوز بآگرا ، وما ذهب إليه من بذخ في العطاء والبذل حتى أطلق عليه أصحابه لفظ « قلندري » ^(٣) ، ثم رفعه التمغه عن رعاياه قبيل

١ --- يقدر بابر في سيرته دخل الهندستان بما يوازي المليون ونصف المليون من الجنيهاًت بابرنامه ٢٩٢ — ٢٩٣

٢ — The Indian Moslems pp 23 . 24

٣ --- تاريخ فرشته أول ٢٠٦ . وقيل إن « قلندر » كان صاحب طريقه تدعو إلى الزهد في المال والنساء ، والقلندري هو الزاهد في حطام الدنيا حتى ليجود بكل ما تنصل إليه يده

حرب رانا سنكا ، أدى ذلك كله إلى اضطراب ماليته فذهب يفرض على الناس الضرائب من جديد .

هذا ، كما أمر بمسح كثير من الأراضى وشق كثير من الطرق ليربط بها بين مختلف أجزاء بلاده ، وكان أعظمها تعبيد الطريق الطويل فيما بين كابل وآگرا ، وإقامة منائر به ليتهدى بها السابلة ، ومنازل للمسافرين والدواب ^(١) .

ولقد زار بابر بگواليار أشم دور الهند فى عصره وهى قصر بكرماجيت وابنه ما نسنك . وبرغم ما ذكره عن التأتق فى بنائهما ونقوشهما ، فقد ضاق بعدهما عن التنايق مع سوء التهوية و توزيع الضوء بهما

ونسى بابر ، وهو يظهر امتعاضه من هيئة مائى الهند ، ما نزله على الأخص جدّه تيمور من تخريب ودمار بهذه البلاد أدى إلى انهيار كثير من منشآت الغزنويين والغوريين وآثار خلفائهم — الفخمة ، وما ساقه كذلك معه من صفوة رجال المعمار الهندود ليقيموا له منشآته الفخمة ببلاده ، تلك المشآت التى طالما أشاد بذكرها فى سيرته وعظّم من شأنها .

وبلغ من ولع بابر بالعمارة أنه كان يستخدم بضع ألوف (١) من مهرة النحاتين والبنائين ليقيموا له منشآت من قصور ومساجد وحمامات ونافورات وخزانات للمياه، في آگرا وسيكري وبيانه ودهولپور وگواليار وكول .

ومنشآت بابر الباقية حتى اليوم بالهندستان هي مساجده الثلاثة في پانی پت وسنبيل وحسن اللودهيين بآگرا .

ويقال أن شغفه بالعمارة ، مع ضيقه بمعماري الهند ، قد دفعه إلى أن يسأل سنان ، معمار العثمانيين الشهير ، أن يمدّه ببعض تلاميذه . والغالب أنه لم يجبه إلى طلبه ، وآية ذلك عدم ظهور أى أثر لطابع المدرسة السنانية هناك .

وأدى كلف بابر بالطبيعة وما تبذره إلى إقامة طائفة من البساتين والحدائق حاكي ببعضها ما غانى كابل التي طالما ترنم بذكرها ، ومنها بستان چار باغ بظاهر آگرا الذي جعله نظير سمية الكابلي ، وقد جلب إلى رياضته هذه كثيرا من النباتات وأشجار الفاكهة التي لم تكن تعرفها الهند من قبل (٢)

ونهج أبنائه من بعده نهجه الفنى هذا وزادوا عليه ، حتى

١ — بابرنامه ٢٩١ ب

٢ — المصدر السابق

لترى اليوم نمط الحداثق المغولية الهندية تقوم بطائفة من مدن
إيطاليا وبريطانيا على الأخص (١) ، كما تزخر متاحف العالم
الكبرى بروائع نقوش الهند وتراثها الفنى لعهدهم .

وصف بابر للهندستان : وصف بابر هذه البلاد فى سيرته
التي كتبها بنفسه وصفا دقيقا مفصلا استوعب كل ما وقع عليه
نظره فيها . فقال عنها إنها عالم قائم بذاته يختلف اختلافا تاما عن
كل الأقاليم التي عرفها ، سواء فى طبيعة أرضه أو مناخه وزرعه
وأنواع الحيوان فيه وعروق السكان وطباعهم وعاداتهم وأسنهم
وعقائدهم (٢) :

« إن الإنسان ما يكاد يعبر حدود الهندستان فى ناحية الغرب
حتى يرى معالم هذه البلاد واضحة قوية توحى من فورها بعظم
تباينها عما عند جيرانها . »

« وتعتمد أراضيها وزراعاتها فى السقى على الأنهار وروافدها ،
فلا قنوات عندهم أو ترعا أو مصارف . وقد صدمهم عن إنشاءها طول
الأمطار التي تأتي بها الرياح الموسمية ، فهي عماد سقيهم فى أماكن
شتى ، وهم يختزنون من مائها الكثير . »

ولم يرق بارهية مدن الهند ومظهر ريفها ، ولا حدائقها ، التي لا تنسيق فيها ولا أسوار لها ، فلا وجه لقياسها ببساتين كابل ورياض فرغانة والماء ينساب بين خنائها ،

ولاحظ بابر كذلك وجـود آثار كثيرة لقرى ومدائن مهجورة ، ذلك أنه كان من عادة أهل الهند ، حين يفقد الغزاة على أرضهم ، أن يفرّوا من وجههم ويهجروا بلدانهم .

كذلك وصف بابر صنوف الحيوان والطيور وأنواع الثمار والفواكه بالهند في دقة وتفصيل ، ليتحدث من بعد ذلك عن التقويم الشائع بها وأسماء الشهور وأيام الأسبوع وأقسام الليل والنهار هناك :

« إن حساب الليل والنهار عند الهنود يختلف عن نظيره عند غيرهم من بقية الأمم ، فالشعوب ، فيما عداهم ، يقسمون الليل والنهار إلى أربع وعشرين قسما ، أما هم فيقسمونها إلى ستين قسما ، يُدعى كل واحد منها « غرى » ، وتقدرُته أربعة وعشرون دقيقة . كذلك يقسمون اليوم إلى أقسام أربعة يُعرف كل قسم منها باسم « پهر » وهو الساعة الزمنية الهندوسانية . »

« وفي كل مدينة من مدن الهند الكبرى طائفة تدعى

« غريالى ، وهم الميقاتيون ، وعدّتهم صفحة من النحاس ومطرقة من الخشب . وهم يلزمون ساعة مائية بمكان عال مخصوص ، فيقرعون غريالهم ، كلما امتلأ كأس الساعة أو فرغ قرعا سريعا متتابعاً تنبئها للناس ، ثم يردفون ذلك بدقات بطيئة تبين الوقت لهم . »

« ووحدة الوزن فى الهندستان هى « الماشة » ، وكل خمس منها تعادل مثقالاً واحداً . أما معيار الجواهر والأحجار الكريمة فهو « نانك » ، ويعادل أربع ماشات . »

« وملكة الحساب عند أهل الهندستان قوية واضحة . فكل مائة ألف عندهم هى « لك » ، وكل مائة « لك » هى « كرور » ، وكل مائة « كرور » هى « أرب » ، وكل مائة « أرب » هى « كرب » ، وكل مائة « كرب » هى « نيل » ، وكل مائة « نيل » هى « پدم » ، وكل مائة « پدم » هى سنك . وضخامة هذه الأرقام تقوم فى الغالب دليلاً على ضخامة ثرواتهم ، »

« وأهل الهندستان تنفر النفس منهم ولا تطيب إلى معاشرتهم ، ولا تقوم فيما بينهم صداقة أو يضمهم مجتمع . وهم ليسوا على شيء من صفاء العقل أو حميد العادات والخصال ، فلا إنسانية عندهم ولا أثار من عبقرية أو ميل للاختراع

أو مهارة في المهن والحرف أو خبرة بالمعمار والنقش
والزخرفة . .

« كذلك تراهم لا يعرفون الخيل المطهمة ، والطعام الطيب
والفواكه الجيدة والماء المثلج ، وليس لديهم حمامات أو مغاسل
أو مدارس . ولا يعرفون الشموع ، فيستضيئون بمسارج
الزيت القذرة فتعج بيوت كهرائهم وسرراتهم بمئات منها »
« أما أبنتهم ، ففضلاً عن رداءة تصميمها وتجردها من الجمال ،
فهي لا تتواءم مع بيتها أبداً . وهم لا يمدون الماء إلى دورهم في
القنوات ولا يجرونه كذلك إلى الحدائق ، نخلت قصورهم
وبساتينهم من ذلك كله ،

« ويسير عامة الفلاحين ورجال الطبقة العاملة شبه عراة ،
إلا مما يستر عوراتهم ، وهو « لنگوتى » يشدونه حول
وسطهم ويعملو عند النساء حتى يستر الصدر فيُسدعى
« لنگى » . .

« وفيما عدا ذلك فيزة الهندستان الكبرى أنها بلاد مترامية
الأطراف ، يتوفر الذهب والفضة فيها بكثرة »
« ومناخ الهندستان في فصل الأمطار لطيف . وأما أمطارها
فغزيرة جداً ، حتى لتفيض سيولها كالأنهار وتجري في الأراضي

التي ليس بها للماء عيون أو مجار . وتتكشف الرطوبة في هذا الفصل فصيَّب كلَّ ما تصادفه بالتلف ، سواء في ذلك الأبنية أو الأثاث والملابس والأوراق .

« ويتخلل فصل الأمطار هبوبٌ شديدٌ يحمل بالأتربة يسمونه « آندهى » ، وتؤدي شدته في بعض الأحيان إلى تعذر الرؤيا . »

« ولا يخلو الشتاء والصيف من أوقات لطيفة . إلا أن حر الصيف الهندي ، حين يشتد ، لا يطاق ، ولا يقارن بغيره في البلاد المجاورة »

« والأيدى العاملة العادية متوافرة في كل مهنة وحرفة إلى درجة بعيدة ، وهم يتوارثون الحِرَف والمِهَن عن آبائهم ويورثونها أبناءهم بدورهم .

وقد استخدم تيمور لنگ فئة كبيرة من النحاتين الهنود في بناء مسجده الكبير بمدينة سمرقند .

كذلك تحدث بابر عن حدود الهندستان وموقعها الجغرافي ، وما بها من ولايات ، فذكر ما هو منها بأيدي المسلمين وما هو بأيدي الهنادكة ، كما فصلَّ خراج كل ولاية ونصيب صاحب دهلي منه .

والغالب أن الأجل لو كان قد امتدّ به فطالت حياته بالهندستان ، لعدّل كثيرا فيما كتب عنها ، ولم يقصر ميزاتها على أنها إقليم كبير فيه فضة وذهب كثير (١) .

بابرنامه : خلف بابر وراءه ثروة أدبية في الشعر والنثر ضمنت له شهرة الأديب المطبوع ، إلى جانب صيت الجندي الموهوب (٢) .

وفضلا عما حوته سيرته بين دفتيها من شعر تركي كثير، كان ينشده في مناسباته ، فقد ترك ديوانا له بالتركية (٣) وأشعارا أخرى كثيرة فارسية وأصواتا في الغناء والموسيقى (٤) وتعدّ سيرته المعروفة باسم « بابرنامه » أعظم آثاره الأدبية على الإطلاق ، وهي كتاب النثر التركي التقليدي بحق حتى اليوم . وقد كتبها بنفسه في لغة تركية (چغتائية) سهلة وأسلوب يدل على ذوق أدبي رفيع ، ويتم عن تمسك صاحبه من أصول

١ — ذكر بابر نفسه في ختام حديثه عن الهندستان أنه لا يخل أن يثبت من جديد ما قد يسمعه أو يلاحظه من أمور هذه البلاد .

٢ — تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١١٢ ، ١١٣ .

٣ — نشر ما عثر عليه منه دنيون روس J. R. A. S. B. 1910

٤ — أكبر شاه ٥٢

ثقافة الإسلامية وآداب العربية والفارسية تمكنا تاما .
لم يذكر لنا بابر في سيرته التاريخ الذي بدأ عنده كتابته لها .
على أن إشاراته في أوراقها الأولى . إلى رجاله ، من كانوا معه
بهندستان ، وإلى زيج كان يستخدم بالهند ، يقطع بمراجعته لها
« هناك » ، حتى ذكر في أوراقها الأخيرة أنه أمر بنسخ أجزاء منها
وإعادتها إلى بعض الأمراء الذين طلبوها منه .

وأغلب الظن أن الأجل لو كان قد امتد به لنقح فيها كثيرا
وإصاغ أجزاءها الأخيرة على الخصوص في أسلوب يتمشى مع
رصانة الأسلوب في أقسامها الأولى ، فلا تبقى أشبه بيوميات
نبعث الملل عند قارئها .

ومن أسف أن الأصل الأول لهذه السيرة قد فُقد . وأكمل
مخطوطاتها التي بين أيدينا والتي يرجع تاريخها إلى عام ١١١٢هـ ،
١٧٠٠م (١) به ثغرات خمس تتضمن حوادث تسع عشرة عاما
بهاها كالآتي :-

١ — من أواخر عام ٩٠٨هـ إلى نهاية عام ٩٠٩هـ .

٢ — من أوائل عام ٩١٤هـ إلى نهاية عام ٩٢٤هـ .

١ وهو المعروف بمخطوط حيدرآباد ، وقد نشرته السيدة أنيتا بفريدج في
مجموعة كتب التذكارية عام ١٩٠٥ .

٣ -- من أوائل عام ٩٢٦ هـ إلى أوائل عام ٩٣٢ هـ .

٤ -- من رجب عام ٩٣٤ هـ إلى آخر هذه السنة .

٥ -- من المحرم عام ٩٣٦ هـ حتى وفاة الپادشاه في جمادى الأول

من عام ٩٣٧ هـ .

وقد نقلت هذه السيرة إلى الفارسية في عهد أكبر ، حفيد بابر ، في نهاية القرن العاشر الهجرى ، كما نقلت إلى بعض اللغات الأوروبية في العصر الحديث . ونرجو أن يتهياً لهذه السيرة القيمة الممتعة من ينقلها بدوره إلى العربية .

إن التقارب الكبير عند الذين أرخوا لبابر وعصره وما وصل إلى أيدينا من سيرته ليجعلنا نميل إلى تصديق حديثه حين يقول بأنه لا يهدف في كتابته إلا إلى الصدق ولا يجرى قلبه بغير الحق ، فهو حين يذكر بالخير أو السوء عدواً أو صديقاً ، أو يشيد بفضائل واحد منهم أو يعيب عليه رذائله ، إنما يبغي إقرار الواقع فحسب دون ميل أو هوى ^(١) .

والحق أنه في حديثه عن نفسه أو غيره لم يحاول أن يخفى رذيلة أو ينكر فضيلة ، فصور النفس الإنسانية على طبيعتها بما فيها من خير وشر .

فهو لا يتردد مثلاً عن أن يذكر كلفه ذات مرة بغلام حسن الصورة صادقه بمسكره ، وقد بلغ به الوجد يوماً أنه كاد يسقط عن دابته حين طلع عليه في طريقه فجأة . ولكنه يقف عند هذا الحد فلا ينغمس في هذه الرذيلة التي شاعت عند عمه السلطان محمود ميرزا صاحب سمرقند ورجاله حتى كثرت اعتداءاتهم على الأهلين بسببها ^(١) .

وهو حين يحمل على عمه هذا ، لفرط عنفه مع رعاياه ، لا ينكر حسن إدارته لشئون بلاده وحرصه على أموالها .

كذلك نراه لا يخفى ولعه بالشراب ، حتى كان نبيند كابل يحمل إليه بالهندستان ، ويفصل لنا ما كان يجري في مجالس شرابه من عبث وهو وتطارح بالأشعار . ولم يترك هذا كله ، وهو مقدم على حربه مع الراجپوتين ، إلا ليقبل على تعاطي المعجون في إدمان شديد ، حتى لا تكاد الصفحات الأخيرة من سيرته تخلو من ذكر تناوله له كل يوم .

وهو إلى ذلك يتفاخر في سيرته بأكداس القتلى في معاركه الكثيرة التي خاضها ، فوصفها وصفاً دقيقاً حتى فصل من ضروب

الشجاعة التي كان يظهرها كل فرد من أبطاله. ولا يكتفى بذلك حتى يقارن بين فتحه لسمرقند وفتح السلطان حسين بيقرا المدينة هرات ، كما يقارن كذلك بين فتحه للهندستان وفتوحات من سبقوه إليها من الغزنويين والغوريين وغيرهم ، مع ضآله قواته بالنسبة لعظم جيوشهم فضلا عن كثافة جند الهند نفسها .

وهو إلى جانب تفصيله لانتصاراته يذكر هزائمه في صراحة تامة، ويبين ما صادفه من محن ومتاعب شردته في الأرض وقد انصرف رجاله عنه وتنكر أفراده له . حتى إذا ما أقبلت الدنيا عليه لم ين عن وصل هؤلاء جميعا ، وفيهم من ركن إلى التآمر عليه من جديد برغم إحسانه إليه ، وفيهم من قتل ذوى قرباه وسمل عيونهم بل وتعرض لآله وآله بالمهانة والسوء . وهو حين يذكر ذلك كله تفيض عليه مسحة من التواضع فيقول بأنه إنما يثبته تقريراً للحقيقة والواقع فحسب ^(١) .

ويذكر بابر في سيرته جدّه الأكبر تيمور شجوراً بأعماله ومنشأته وآثاره ، كما يفصّل من سيرة أغلب أبنائه وأحفاده ورجالهم . حتى إذا ما بلغ بحديثه السلطان التيمورى حسين بيقرا

إفاض إفاضة عليم متمكن في العلوم والفنون والآداب ، فذكر
من كان يزدهمهم بلاط هذا الأمير ، بهرات ، من الفقهاء والمحدثين
والشعراء والموسيقيين ، حتى البهلوانيين . عرّف بكل واحد منهم
في إلهاب . فصور للناس بصنيعة هذا صورة شاملة لما كان
لفرع المعرفة من ازدهار كبير يا حدى مراكز الثقافة الإسلامية
الكبرى في عصره . (١)

وأدّى ببابر سعة اطلاعه ، التي تشيع في سيرته ، إلى اقتناء
مكتبة قيمة خاصة به ، كان عليها قيم له يدعى عبد الله كتابدار .
وقد ضم إليها كذلك قسما من مكتبة غازى خان لودهى حين
استولى على حصنه بابلنجاب ، وبعث بالقسم الآخر إلى ابنه
شايون الذى كان يحرص على تنشئته تنشئة طيبة . (٢)

هذا كما كان يرسل أساطين العلماء في عصره ويستقبل الكثير
منهم ببلاطه ، وكان من بينهم الشاعر المشهور على شير نوائى
والقرخان خواند أمير ، صاحب حبيب السير ، وميرزا محمد حيدر
دوغلات صاحب تاريخ رشيدى .

أما وصف بابر لبلاده والبلاد التي دخلها ، فحسبه أن يذكر

فريق من المؤرخين ، الذين زاروا هذه الأماكن ، أن أغلب ما أورده عن بلاد ما وراء النهر وكابل على الخصوص يصدق عموماً على حالها اليوم . (١)

وهو في وصفه للبلدان لا يدع شيئاً عرفه أو وصل إلى عنه إلا وذكره ، ففي حين يعدد لنا أسماء الرياح التي تهب على كابل ، ويقرر أنه هو أول من أدخل زراعة قصب السكر بها ، إذا هو يذكر لنا أن أهل الهند يطلقون على كل أرض خارج بلادهم اسم خراسان ، مثلما يعرف العرب غيرهم من الأمم باسم العجم . (٢) وعلى هذا جرى وصفه لسمرقند . فتحدث عن أصل تسميتها وتاريخها ، ووصف واديها وأسواقها وتجارتها وصنائعها وما بها من منشآت ومدارس ومساجد ، كما تحدث عن حكاهما وسكانها وما ظهر بها من العلماء والفقهاء ومذاهبهم وفرقهم .

وكذلك ساق الحديث عن خراسان وحاضرتها هرات مقر آل بيقرا ، وفرغانة مسقط رأسه ، ثم الهند التي ذكرنا له قدراً من وصفها تفصيلاً فيما سبق .

ولم يكن ظهير الدين بابر في تدوينه لسيرته بدءاً بين أفراد

أسرته على كل حال، فقد سبقه إلى ذلك جدّه الأكبر تيمور، كما
نهج أبناؤه نهجه من بعده .

على أنه يتميز عنهم جميعا بتدوينه لسيرته بنفسه . فلم يكن
ليتأتى لكُتّاب البلاط بداهة ، وهم يدونون سير سلاطينهم ،
أن يذهبوا مذهبه في صراحته التي جرى عليها وِحدة الذي
التزمه في الغالب .

إن بابرنامه قد خلّدت ذكر صاحبها في عالم الأدب والتاريخ ،
كما خلّدت حروبه وفتوحاته في عالم الغزاة والمحاربين . وما من
شك في أن هذه السيرة لتعد من المثل الصالحة التي يستلهمها
أصحاب الطموح على الدوام .

همايون

لم يكن عرش آگرا حين اعتلاه نصير الدين محمد همايون ابن بابر في التاسع من جمادى الأول من عام ٩٢٧هـ / ١٥٣٠ م ، تحوطة الأزهار والرياحين ، ولم تكن سماء الهند التي تظله تنبئ عن صفو وصفاء .

فقد ترك له أبوه خزانة خاوية استنفدت هباته وعطاياه من أموالها أكثر مما استنفدته حروبه وغزواته . كما ترك له جيشا من أجناس مختلفة ، من الجفنائيين والأوزبگك والفرس والمغول ؛ أثارت كثرة الغنائم التي أنجمتهم ، مع اختلاف العرق ؛ شغناء الحسد والخصومات فيما بينهم . أما الأمراء ، أصحاب النفوذ بالبلاد ، وكانوا مابين خوانين من المغول وميرزاوات من الترك ، فقد ذهبوا بدورهم يؤثرن منافعهم الخاصة على صالح الدولة العام ؛ في حين لم يقنع أبناء بابر الآخرون وأقرباؤه بما أصابوا من ملك حتى ثاروا على أميرهم الجديد فجبرّوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كثيرا من المتاعب والمحن .

ولم يكن ذلك هو كل ما تعرض له سلطان الهندستان الجديد

من مشكلات : فقد كان الهنداكة بدورهم ، وهم غالبية السكان .
يرتفع في الحكم المسلمين عموما معتصمين بلادهم وغزاة دخلاء
عليهم . كما كان هناك بقية من الأمراء الأفغان مازالوا بأطراف
البلاد يتربصون بغزاة الهنداكة في انتظار الفرص المراتية ليثبوا
عليهم ويخرجوهم من أرضهم .

وأقوى مراكز هؤلاء الأمراء الأفغان كانت بالأقاليم الشرقية ؛
وأبرز زعمائهم كان السلطان محمود لودهى الذى انطلق يجمع شتات
بنى جلدته من جديد بهار ، وكان بابر قد هزمه من قبل فيمن
هزم من عصابة رانا سنگا بالراجپوتانا ، ثم شير خان سورى
ذلك الداهية المجرب الذى سنراه فيما بعد ينزل بالدولة ضربات
فاحشة .

وكانت البنغال ما تزال بعيدة عن متناول أيدي سلاطين دهلى ؛
وكان يلوذ بها أعداؤهم بالمناطق الشرقية فى الغالب . وكذلك كان
تأان الكيجرات التى طفق أصحابها ، وهم سدنة باب التجارة
الهندية الأكبر ، يبدلون من فيض بلادهم الغنية لتقوية جيشهم
ريستمدون الأسلحة الحديثة من البرتغاليين الذين كان لهم
تمه أنطهم منازل أشرفنا إليها من قبل ، حتى باتوا يتطلعون إلى
تبرش الهند ، ولم يبدلوا عن مديد العون لأولئك الذين

يتهاضون الدولة المغولية الجديدة .

وإئن كانت المدة القصيرة التي استقر فيها بابر بآگرا لم تيسر له القضاء التام على الخارجين على سلطانه وتدعيم أسس دولته الهندية الجديدة : فإن همايون ، وهو الذي تمرَّس بأعباء الحكم حين أتى اليه بمقاليد بدخشان وشارك في بعض وقائع أبيه الهندية فأظهر من ضروب البسالة والفروسية التي اشتهر بها الأمراء التيموريون " . كان كفيلا بترسم خطا أبيه وإتمام ما بدأه من عمل ، لولا تراخيه في كسب ود رجال بابر وخلصائه ، ثم فتور همته وخور عزيمته ، فتراه لا يكاد يمتضى في الإجهاد على أحد خصوصه والقضاء عليه حتى ينصرف عنه فجأه إلى عدو آخر غيره . وهو حتى حين يباغ غايته في القضاء على واحد من أعدائه ، كان يستخفه الطرب فينصرف إلى متعة عابرة غير منتبه إلى وجوب تدعيم ما أحرزه من توفيق أو مستمع إلى نصيح القادة المجريين الذين قادوا جيوش أبيه من نصر إلى نصر .

بهذا أتيحت لأعدائه فُرَص متكررة لجمع صفوفهم وضم

لهم من جديد حتى بلغوا إلى إخراجهم من الهند كلها والقضاء على ما بذله أبوه من جهود .

عمل همايون بوصية أبيه ، فولى أخاه كامران إقليمى كابل و قندهار ، كما أقطع أخاه عسكرى ولاية سنهـل ، فى حين أعطى أخاه هندال أوار وموات (١) . أما إقليم بدخشان فقد جعل عليه ابن عمه سليمان ميرزا .

على أن كامران لم يقنع بأرضه ، فاستخلف أخاه عسكرى عليها ثم اقتحم مشارف البنجاب بدعوى سيره لتهنئة همايون . ولم يثـنة عن غايته ماعرضه عليه أخوه السلطان من ضم لمغان وبشاور إلى حوزته ، حتى انقض على لاهور واعترف له همايون بسيادته على البنجاب كله .

وأدت سيادة كامران على البنجاب إلى قطع كل صلة بين دهلي وبين البلاد الواقعة فيما وراء الهندكوش ، وهى التى كانت تمد حكام الهند المسلمين دوما بإمدادات لا تنفد من أشداء المقاتلين .

وتدبر همايون موقفه بين أعدائه من بعد ذلك ، فرأى أن يبدأ بثوار الأفغان الذين عادوا إلى عصيانهم السابق بإقليم

بهار . حتى إذا بلغ لسكرهناوتى اكتفى بضرب قواتهم عندها دون أن يكلف نفسه عناء مطاردتها ، وقد كان ذلك فى متناول يده .
وسلك شبه هذا المسلك مع شيرخان سورى صاحب حصن چنار إذ قنع منه بالولاء الإسمى ، مؤثرا أن ينصرف عنه إلى حرب السكجرات ، دون أن يُلْقى بالا إلى خطورة هذا الشئ .

غزو السكجرات : وكان بهادر خان ، أحد سلاطين السكجرات الكبار ، قد أخضع لسلطانه أصحاب أحمد نگر وبار وگواليار ، ووثق علاقاته بالبرتغاليين الذين كانت لهم مستعمرات بشواطىء بلاده ذات المركز التجارى الممتاز ، هذا كما اقتحم إقليم مالوه مع رانا موار بدعوى استضافة صاحبه محمود الخلقى لأخيه جندخان وكان ينافسه العرش ، فصار بذلك يتآخم سلطنة دهلى فى مواضع كثيرة ، وغدت آگرا نفسها غير بعيدة .

وأدى ازدياد نفوذ هذا السلطان إلى أن لجأ إلى بلاده فريق من الخارجين على صاحب آگرا الجديد ، وفيهم علم خان عم إبراهيم آخر سلاطين اللودهيين ، وزمرة من رجال بابر السابقين الذين زينوا له التطلع إلى عرش الهند والسعى

بـتـخـلاصـه لـنـفـسـه^(١)

وحين كتب همايون إليه يسأله إخراج هؤلاء اللاجئين من بلاده فرفض الاستجابة إلى طلبه، لم يكن من الحرب بينهما عند ذلك مناص .

هنالك بادر صاحب آگرا بالارتداد سريعا من المناطق الشرقية ، ولما يَجْنِ بعدُ ثمارَ انتصاراته هناك ، حتى إذا ما بلغ مالوه فوجد بهادر خان منهمكا في حربه مع صاحب چتور ، أبت عليه شهامته إلاّ أن يمهّل خصمه فلا يهاجمه حتى يفرغ من اشتباكاتهِ مع الأمير الراجپوتی^(٢) .

وبرغم ما كان عند بهادر خان صاحب الكجرات بدوره من مدافع أمده بها أصحابه البرتغاليون ، فقد أرغمته قوات همايون على الامتناع في حصونه ليتسلل من بعد ذلك منها في نفر قليل من رجاله حين أيقن بانهايار مقاومة قواته لطول الحصار وعنف المجاعة التي بدأ شبحها يخيم عليهم .

وظفق البادشاه يطارد خصمه بنفسه فتبعه إلى ماندو ، ثم چمپنير فأحمد آباد حتى بلغ كمباى فوجده قد لاذ بجزيرة ديو

١ - منتخب التواريخ أول ٣٤٦

٢ - طبقات أكبرى ١٩١

يُحْدِى حصون البرتغاليين حتى اليوم .

وما غدا بهادر خان أن تم له ، بعون من البرتغاليين ، جمع قوات جديدة استطاع بها أن يسترد أغلب أراضيه . ويسر له بلوغ هدفه ما كان من فشل ميرزا عسكري نائب همايون هناك في تصريف شئون حكومته وانغماسه في الدس والتآمر ، وانصراف أغلب رجاله إلى حياة الترف التي كفلها لهم ما وقع بأيديهم من غنائم هذا الإقليم ذى الثراء الفظائل .

على أن سلطان الكجرات لم يكتب له الاستمتاع بثمار انتصاراته هذه ؛ إذ سقط في البحر غدراً بتدبير من البرتغاليين ، وهو في طريقه للتفاوض معهم ، برغم شدة حذره وفرط نحوطه .

وما غدا أصحاب الكجرات أن أعادوا مالوه بدورها إلى حظيرتهم ، وذلك حين خرج همايون من جديد للقضاء على لقلقل الشرقية التي طففت تهدد ملكه تهديداً خطيراً .

البنغال وبهار : كان شيرخان سوري ، وهو من أقدر الزعماء الأفغان وأوفرهم شجاعة وعلماً ، قد استخلص لنفسه إقليم بهار . توغل بقواته في البنغال من بعد ذلك فلم تصادفه بها مقاومة تذكر (١)

وما إن توجه همايون إلى البنغال فاسترد إقليم غور حتى
أُرتد هذا الشائر الأفغانى إلى إقليم بهار فطفق ورجاله
ينتهبون كافة الأراضي التي تمتد بين بهار وقنوج وجونبور .
وقضى السلطان شهوراً ستة بالبنغال وقد ظن أن الأمر قد دان
له في الغالب بالأقاليم الشرقية ، ولم يكن يدرك ، وهو
يطيل فترة استجهامه هناك ، أن عدوه إنما تركه يوغل فيها
ليقطع خط الرجعة عليه ويقضى على ملكه قضاء تاماً بالتالى . حتى
إذا ما تنبه إلى هذا التدبير ، بعد فوات الوقت ، فاستدار إلى
حصمه والأمطار الموسمية على أشدها ، استطاع شيرخان
بدهائه ومناوراته المحكمة أن ينزل بقوات دهلى ضربة حاسمة
أنت عليها جميعا .

فقد جاءت الأنباء إلى همايون ، وهو بالبنغال ، بخروج أخيه
هندال عليه بتحريض من بعض أعيان الأفغان حتى دُعِيَ له
مساجد العاصمة ، فبادر فزعا بالارتداد إلى آگرا في طريق
طويل تعرض فيه جنده لعنف الأمطار الموسمية وأوبئتها حتى
هلك منهم خلق كثير .

هنالك عمد شيرخان إلى خداع السلطان ، وقد علم بتمرد
إخوته عليه ، فأوفد إليه من يؤكد له طاعته وولائه له حتى

إذا ما اطمئن همايون إلى تلك العهود فعرض على عدوه إمارتي البنغال وبهارثما لخضوعه له ، إذا بذلك القائد الأفغانى يهبط في الفجر على معسكره بأرض چوسا ويحيط برجاله . فمنهم من لفظ أنفـاسه وهو يغط في نومه ، وعنهم من لقي حتفه في اليم غرقا . ومنهم من وقع في الأسر . وبرغم ما بذله الساطان همايون نفسه من جهد وما أظهر من جلد في القتال شديد فقد كاد هو نفسه يبتله المـاء لولا سقـاء يدعى نظام أبصر به فـمله على زقته (١) .

واتخذ هذا الثائر الأفغانى لنفسه ، على أثر انتصاره في معركة چوسا هذه ، لقب شاه وأمر أن تضرب السكة باسمه وتجرى الخطبة بالثناء له . (٢) وأردف ما أحرزه من فوز بتحالفه مع أصحاب السجرات ومالوه على محاربة همايون .

تدبر همايون موقفه فاستبان له أنه لن يكون له قبل بالقضاء على خصمه حتى يمد له أخوته يد العون ويلتف رجاله حوله مخلصين . وعما أمر أن لم تحالفه الظروف على تحقيقها .

١ - تذكرة الوفاات أو همايوننامة جواهر ص ١٤٣ - وقد وقعت زوجه همايون أسيرة بأيدي شيرشاه في هذه الحرب .

٢ - ريان السلاطين ١٤٧ وما بعدها

من ذلك أن أخاه كامران حين انتوى العودة من آگرا إلى
لاهور ، فعزم على ترك أغلب قواته لتشد من عضد أخيه ، أصابه
مرض مفاجئ ، ليُسَلِّقَ أحدهُ رجاله ، عند ذلك ، في روعه باحتمال
دس أخيه السم له ، فيعدل عن وعده ، فلا يسير بأغلب جنده
خشب ، حتى طفق يحرّض فريقا من جند دهلي نفسها بالذهاب معه .
ولم يكن شيرشاه ليعلم ذلك كله ، من أحوال غريمه ، فلا يفيد
من هذه الفرصة التي سنحت له ليقضى عليه . فعبر السكنج في
خمسين ألف من الجند لاقي بهم مائة ألف من جند همايون عند
قنوج . وادّى تراخي جند السلطان في القتال ، حين رأوا كثيرا
من الأمراء الكبار ينسحبون بقواتهم من الميدان مع بدء الأمطار ،
إلى انتصار جموع الأفغان انتصارا ساحقا كان من أثره أن
أُخرج همايون من الهندستان كلها ، وبهذا ذهبت كل الجهود التي
بذلها أبوه بابر في فتوحاته أدراج الرياح .

وكاد همايون أن يلقي حتفه في هذه الوقعة غرقا كذلك ، لولا
أن بصر به قائده شمسُ الدين محمد غزنوى الذى وزر لابنه أكبر
من بعد ، فانقذه (١) ليعود إلى الهند من جديد بعد خمسة عشر عاما

قضاها في المنفى .

شير شاه

هذا الزعيم الأفغاني، الذي استطاع بشدة مراسه
وقوة عزيمته أن يخرج الأمراء التيموريين من الهند، والذي
ينتسب إلى بيت سور الغوري، كان جده إبراهيم قد قدم
الهندستان في عهد السلطان بهلول اللودهي فنال الخطوة عنده حتى
ولى ابنه حسن إقليم سهرام .

وكان أن أهمل حسن هذا شأن ابنه الأكبر فريد بتحريض
من صُغرى زوجاته، لينفر الولد من بعد ذلك إلى جونپور، منتدي
الصفوة من رجال المعرفة بالهندستان إذ ذاك، ثم يتركها إلى
آگراف فيصادف قبولا وترحيبا ببلاط السلطان إبراهيم اللودهي
الذي وهبه إقطاع أبيه عقب وفاته .

ولجأ فريد عقب دخول بابر الهندستان إلى بهار فالتحق
بخدمة صاحبه محمد بن درياخان لوحاني . وفيما كان الأمير في
المصطاد إذ وثب عليه نمر فائق كاد يقضى عليه لولا شجاعة فريد
الذي بادر بالقضاء عليه بسيفه ليشتهر من بعد ذلك باسم شير شاه^(١)

وما غدا طموحه أن دفعه إلى الالتحاق بخدمة جنيد برلاس نائب بار على جونپور ، ثم أتيح له من بعد ذلك أن يظهر بيلال بابر فاتح الهندستان الجديد وينال الحظوة عنده .

وحين عهد بابر إلى جلال خان لودهى بأقليم بهار ، سار معه شير شاه ، ولكنه ما لبث أن انضم إلى عصبة الثائرين التي كان يتزعّمها السلطان محمود لودهى . حتى إذا ما هُزم هذا الأخير بأقليم خريد ، على ما ذكرنا من قبل ، أقبل ذلك القائد السورى يستتيب بابر من جديد فعفا عنه ، ليسقط على بهار من جديد عقب وفاته ويستخلصها لنفسه ، ثم ما يزال بهمايون حتى يخرجّه من الهند كلها .

ورأى شير شاه ، بعد أن جلس على عرش آكرا ، أنه لا سبيل إلى تأمين حدوده إلا بالقضاء على الأمراء البابر بين الذين ما برحوا يحكمون بأرض كابل وكشمير . فلم يبلغ البنجاب حتى اضطرتّه ثوره حاكم البنغال إلى الارتداد مسرعا إلى دهلى بعد أن عهد إلى خمسين ألف من جنده بإقرار الأمن عند حدوده الشمالية الغربية متفذا الغزاة إلى سهول الهند منذ القدم .

وأتيح لسلطان الهندستان الجديد هذا أن يثبت نفوذه في البنغال ويخضع السند والملتان وما لوه له ، كما أنزل ضربات

شديدة كذلك بالأمراء الهنادكة وبالراجپوتانا برغم استيانتهم في القتال ورغم الخسائر التي لحقت بالجند الأفغان . وتم له كذلك انتزاع حصن كلنجر من أصحابه الراجپوتيين ، لكنه أصيب في معمرعان المعركة بشظية من قذيفة ، لم يكتب له النجاة من أثرها ، فمضى بعد قليل في عام ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م بعد أن حكم الهند قرابة سنوات خمسة ^(١) . ولبثت أسرته من بعده تحكم هذه البلاد عشر سنوات استطاع همايون من بعدهما أن ينتزع الملك منهم مرة ثانية بمساعدة طهماسب شاه الفرس الذي آواه في محنته .

هـذا وبعد شير شاه من بين أمراء المسلمين العظام الذين عرقتهم الهند . فقد التفت بهمة عالية إلى تنظيم أداة الحكم ، ونهض باقتصاديات البلاد وتعمير الأرض ، وأصلح نظام الضرائب بعد أن أمر بمسح الأرض الزراعية وحصر زراعاتها على اختلاف أنواعها . وقسم أراضي الدولة إلى سبع وأربعين ولاية تضم كل واحدة مراكز عدة جعل عليها عمالا له الزمهم بالسهر على مصالح السكان وجمع الخراج دون تعسف أو حيف .

كما اهتم بأمر الجيش اهتماما بالغاً مسترشداً بما سبقه إليه

علاء الدين الخالجي من نُظُم في ذلك. فجعل تحت إمرته المباشرة جيشاً قويا قوامه مائتي ألف من الجند التزم بدفع نفقاتهم من بيت المال. وكان العرف يجري من قبل على أن يمد الأمراء وزعماء القبائل السلطان برجالهم في الحروب على إقطاعات واسعة تقطع لهم وأنصبه من الغنائم والمتاع. وبهذا أراح الناس في الغالب من تسف أصحاب الإقطاعات وابتزازهم المتواصل لأموالهم وما يملكون.

ونشر شير شاه جنده في كافة أنحاء البلاد، وعهد إليهم بحراسة الحقول والمحافظه على أرواح الناس ومتاعهم من اعتداءات اللصوص وقطاع الطرق الذين كان لهم في بعض العصور نشاط ملحوظ وخطر شديد.

وامتدت يده كذلك إلى النهوض بالبريد وتنظيمه، وتحسين الطرق حتى أنشأ منها ما يزيد طوله على الألفين من الأميال المعبدة، وأقام على جانبيها الأشجار ذات الظلال، وأنشأها الكثير من محطات المسافرين ومنازل الدواب، وأباحها للمسلمين والهنادكة على تسواه.

وأدى قيام محطات المسافرين هذه إلى تجمع ما يشبه الأسواق الصغيرة من حولها، مما ساعد على رواج أحوال أواسط

التجار وعامتهم^(١).

ولم تكن عناية هذا الأمير السورى (٢) بالعلم والعلماء بأقل من عنايته بتعمير بلاده والنهوض بحكومتها. فقد أنشأ كثيرا من المدارس والمساجد، ورتب الأجور للطلبة والمعلمين على السواء، وحرصهم تحريضا شديدا على طلب العلم والاستزادة منه. كما فتح كثيرا من المطاعم في أنحاء متفرقة بالهند وأباحها بالمجان للفقراء والمعدمين من أهل البلاد جميعا، مسلمين وهنادكة، فساهم بذلك، في الغالب، في تخفيف وطأة المجاعات المعروفة التي كانت تحتاج بعض مناطق الهند من حين إلى حين.

وبلغ من برّه برعاياه والتزامه إقامة العدل في ربوع دولته، أنه كان لا يتردد في إنزال أشد العقاب بمن تحدّثه نفسه من رجاله وجنده بالاعتداء على الأهلين أو السطو على حاصلاتهم وأملاكهم، فلا تشفع له عنده مكانة المعتدى أو حسبه ونسبه (٣).

همايون في منفاه: طفق همايون، بعد أن دحره شيرشاه، يُطوف بالسند في حالة شديدة من البؤس والشقاء، وإخوته

١ — Prasad Muslim. Rule pp 301,2

٢ — نبة إلى آل سور

٣ — Lane-Poole 233-36.

ما زالون يكدون له ، وأغلب رجاله تد تخلوا عنه . بل إن صديقه القديم مل ديو ، صاحب جُده هپور ، حاول وفريقه من أمراء الهنادكة أن يوقعوه في أسرهم ، حين دعوه للنزول عندهم . على اتفاق سابق فيما بينهم وبين شير شاه .

وبنى همايون في تجواله هذا بحميدة بانو ابنة الشيخ على أكبر جامي فرُزق منها بابنه أكبر (١) .

وانتهى المطاف به إلى قندهار فترك بها ابنه الذي لم يكن يعدو العام الأول من عمره إذ ذاك ، وقد عقد العزم على السير إلى العراق ومعه قائده بيرم خان الذي وفد إليه من الكجرات فلازمه مخلصا طول محنته .

وبلغ همايون سيستان فاستقبله نائب طهماسب ، شاه الفرس ، بها في ترحيب وتوقير . وكذلك فعل محمود ميرزا أكبر أولاد العاهل الفارسي حين بلغ العاهل النعموري مقر حكمه بهرات . وظل نواب طهماسب يبالغون في الحفاوة بسلاطان الهند الشديد على طول الطريق حتى بلغ مقام سيدهم داحي قزوين .

وكان أن أفاض همايون في بيان ما لقيه من محن ألمت

به بسبب تذكر إخوته له ، حتى خشي بهرام أخو طهماسب أن
أن تذهب الظنون بالشاه بديره إلى القضاء على إخوته .
هنالك حاول بهرام هذا أن يزين لأخيه العاهل الفارسي قتل صفيه
التيمورى ، بحجة الانتقام منه لتقاعس أبيه بابر عن نصرة
جند فارس فى قتالهم الأوزبكيك عند نخشب أيام إسماعيل
الصفوى ، لولا أخت طهماسب ، تدعى سلطانة خانيم ،
استطاعت بحكمتها ونفاذ كلمتها أن تحبط هذا التدبير كله (١) .
وأكره همايون على التظاهر بالتشيع جلبا لمعونة الشاه
الفارسي الذى أمده بأربعة عشر ألفا من الجند ليغزو بهم
بخارى وكابل وقندهار ، على أن يصبح إقليم قندهار بعد فتحه
من أملاك الدولة الفارسية .

واقترح همايون بجنده القزلباش أراضى أخيه كامران ،
فبعد فتحه لقندهار كثيرا فى عزمته ، وبُيعت بذلك الآمال
العريضة فى نفسه من جديد .

وصدق همايون ما عاهد عليه الشاه طهماسب فسلم المدينة
إلى ابنه مراد خان . على أنه حين طلب أن يأويه وجنده
القليل إبان الشتاء فرفض ، دفعته قسوة البرد ورجاله إلى

اقتحام المدينة على صاحبها عذوة على أن يردّها له ثانية إذا ما تمّ لهم دخول بدخشان وكابل . وما غدا الأمير الفارسي أن وافته منيته بعد قليل ، فبقيت المدينة بيد همايون .

وظنق جند كثير من قوات كامران تفد إلى همايون في مقامه هذا بعد أن هجروا مضارب أميرهم ، فدخل بهم كابل حبت التقي بابنه أكبر ، وقد بلغ الخامسة من عمره ، وكان قد تركه دون الفطام بقدهار كما ذكرنا من قبل .

وتبادل الأخوان المدينة مرات عدة حتى انتهى الأمر بكامران إلى الفرار منها ليلتجأ من بعد ذلك عند السلطان سليم شاه سور خليفة شيرشاه . حتى إذا ما اضطره ما قوبل به من جناء عنده للزوح إلى السند فاستقر بمنازل البجكر ، بادر شبيبهم بتسليمه إلى أخيه . ومنع همايون من التذكيل بكامران ما يرصده به أبوه بابر ، من قبل ، من الرق بباخوته ، فسمح له تنسیر إلى مكة المكرمة والاعتكاف بها ، بعد أن سمحت عيناه . وما لبث عسكري أن سار في أثر كامران إلى الحجاز كذلك ، أن وقع بدوره في الأسر ، لكن الأجل وافاه ، في طريقه ، عن الشام . أما هندال ، فكان قد لقي حتفه بأرض كابل حين

كانت قوات همايون تطارده وأخاه كامران (١) .
وهكذا نفّض همايون يده من إخوته جميعا الذين أدوا ،
بتخليهم عن نصرته ومداورتهم على الكيد له ، إلى أخرجه
من الهند وضياع كافة الجهود المضنية التي بذلها أبوهم من
قبل في فتح هذه البلاد أدراج الرياح .
وحين أطل على سهول الهندستان من جديد ، آثر أن
يترث قليلا فلا ينحدر إليها قبل أن يطلع اطلاعا صحيحا على
ما صارت إليه أحوالها .

خلفاء شيرشاه : غدت سلطنة دهملى تضطرب أمورها
اضطرابا شديداً عقب وفاة شيرشاه . ذلك أن ابنه جلال الذي
خلفه باسم السلطان سليم (إسلام) شرع منذ مستهل حكمه
يسلك طريق العنف مع الأمراء الأفغان ، فقتل فريقا منهم
وألقى بفريق آخر في الحبس ، وبث عيون وجواسيسه في طول البلاد
وعرضها لينبثونه بكل ما يحدث فيها ، فيتخذ من إنبائهم ، دون تحرّ
أو روية وتدقيق ، وسيلة للعسف بالقوم والتنكيل بهم .
وهكذا أعاد هذا السلطان سيرة إبراهيم اللودهي مع رجاله من

جذبته . حتى إذا ما ثار عليه عظيم همايون نائبه على البنغال ، لما بلغه من إيقاعه بالقائد القدير شجاعت خان نائب أبيه على مالوه ، فغلب البنغالي على أمره ، خرج السلطان من نصره هذا ليعين في ارتكاب المظالم ، حتى صار يتصرف في أموال الدولة وفق هواه المطلق ويعطل أغلب السنن الحسنة التي جرى عليها أبوه من قبل .

وخلفه ابنه الصبي فيروزشاه فوثب عليه خاله مبارز خان ، ولما يئس إلاّ أياماً قليلة على العرش ، ليقته وبسطع بشئون الحكم باسم السلطان محمد عادل شاه (عدلى) .

واستوزر هذا السلطان هندوكيا على الهمة يُدعى هيمو (هيمون) . لكن كفاءة هذا الوزير لم تستطع أن تُحدّ من ثورات الأمراء الأفغان التي أخذت تحتاح البلاد في عنف بالغ ، وكان من أخطر نتائجها استيلاء إبراهيم شاه سور على دهلي وآگرا ليطرده منها بعد قليل سكندر شاه سور ويضع يده على الأقليم الواقع بين السند والگنج كلّه .

وما غدا هيمو أن استرد آگرا لسيّده ، فصارت الهندستان ذلك نهبا لسلطين ثلاثة . فهذا عادل شاه بحكم آگرا ومالوه و جونپور ، وإلى جانبه سكندر شاه تخضع له دهلي والبنجاب ، في حين كان إبراهيم شاه يسيطر على رقعة من الأرض تمتد من

بيانه إلى حدود گواليار^(١).

عودة همايون : رأى همايون في هذه الاضطرابات الفرصة المواتية لاسترداد بلاده ، فانتقم لاهور في ربيع الأول من عام ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م دون مقاومة تذكر . ليهزم من بعد ذلك جيوش سكندر شاد سوري عند سرهند هزيمة حاسمة^(٢) ويدخل دهلي بعد أن اتخذ أميرها سبيله إلى جبال البنجاب فرارا .

ويرد الفضل في انتصارات همايون هذه كلها إلى قائده بيرم خان التركماني الذي أبى دون أغلب رجاله أن يتخلى عنه في محنته ، وقد كافأه أميره على وفائه هذا بأن ولاه البنجاب مع ابنه أكبر وعهد إليهما بمطاردة ذلك الأمير السورى .

ولم يطل الأجل بهمايون ليجنى ثمار جهاده الطويل الشاق ، فقد انزلت به عصاه وهو يصعد درج مكتبته بدهلي ، وكان من المرمر الخالص ، ففضى بعد قليل في ربيع الأول من عام ٩٦٣هـ / ١٥٦٦م ، وهو في الحادية والخسين من عمره ، ولما يمض بالهند ،

١ — تاريخ سلاطين أفغانى ٤٥

٢ — طبقات أكبرى ٢٣٨ — وفي هذه الواقعة ، التي بلغت فيها قوات اسكندر سوري أربعة أمثال قوات همايون . شارك أكبر أباه الحرب الأولى مرة .

وقد آب إليها بعد غياب طويل ، سوى شهور ستة .
لم يكن همايون دون أسلافه التيموريين في الشجاعة
والجرأة ، فقد شارك أباه أغلب حروبه وترسم خطاه في التجميل
بالصبر واحتمال الشدائد ، فلم يفارقه جـأـدُهُ وثباته طيلة محنة المنفى ،
التي بلغت خمسة عشر عاما ، لولا ما كان يداخله من الغرور
وينقصه من مضاء العزم الذي قعد به في الغالب عن الماضي في
مطاردة أعدائه والإجهاز عليهم ، فكان يقنع بأول ضربة ينزلها
بهم ولا يزيد .

كذلك عُرف عن همايون شغفه ، كآبيه وأجداده ، بالفنون
والعلوم والآداب . وقد ترك ، فيما ترك ، مكتبة عامرة بالمؤلفات
القيمة لا يزال بناؤها قائما بدهلى حتى اليوم . ولولا المنية التي
عاجلته لأتمّ بناء المرصد الذي كان قد شرع في إقامته هناك .
ومن أسف أنه ورث عن أبيه عادة تعاظم المعجون
(الأفيون) الذي بكسر بنهاية الأب وهدّ من كيان الإبن .

أكبر

وصلت أخبار وفاة همايون إلى ابنه أكبر وهو في كلاثور
بالبنجاب يطارد الثائر سكندر سوري ، فبادر مرافقه القائد الشيخ
بيرم خان إلى المناذاة به سلطانا على الهند، باسم جلال الدين محمد
أكبر (١) ، ولم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة من عمره .
ويُقسَّم المَؤرخون مدة حكم أكبر إلى امتدت من
عام ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م حتى عام ١٠١٣ هـ / ١٦٠٥ م إلى فترات
ثلاث : فالفترة الأولى هي التي كان زمام الحكم الفعلي فيها بأيدي
الوزير الشيعي المجرَّب بيرم خان الذي كان خير معين لهمايون
في منفاه . وأما الفترة الثانية فهي التي حاول فيها بعض نساء القصر
إملاء رغباتهن على السلطان الشاب، وذلك بعد أن أفلحن ، بالدس
والوقعة والخداع ، في إبعاد بيرم خان من منصبه بسبب تشييعه
وتفويض ما كان له من نفوذ بالغ . وكانت الفترة الثالثة ، وهي
التي انفرد فيها أكبر بالأمر كُلِّه ، أطول هذه الفترات

١ — كان ذلك في يوم الجمعة الثاني من ربيع الأول عام ٩٦٣ هـ /
مارس ١٥٥٦ م . منتخب التواريخ ثلث ص ٨

جميعها إذ امتدت من عام ٩٦٩ هـ / ١٥٦٢ م حتى وفاته
عام ١٠١٣ هـ / ١٦٠٥ م .

وتشمل هذه الفترة الثالثة كذلك من أزهر عصور الهند
التاريخية . ومن أجلها اعتبر المؤرخون القدامى من هنادكة وغيرهم ،
السلطان أكبر أعظم عاهل عرفته الهند منذ أيام آشوك (آزوكا)
حامى البوذية فى القديم ، كما سلكه المحدثون من كتّاب التاريخ فى
مضاف أعظم الملوك الذين عرفهم العالم فى عصره طُوراً .^(١)
وكما يقسّم المؤرخون مدة حكم هذا السلطان إلى فترات ثلاث
نذلك يسلكون غزواته وفتوحاته فى أدوار ثلاثة :

الدور الأول ، ويبدأ من عام ٩٦٥ هـ / ١٥٥٨ م حتى
عام ٩٨٣ هـ / ١٥٧٦ م .

وفيه بسط أكبر سلطانه على الهندستان كلها .

الدور الثانى ، ويبدأ من عام ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م حتى

عام ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦ م .

وفيه تم له تأمين حدوده الشمالية الغربية ومناطقها التى تعدد

أخطر أبواب الهند ، فهى منفذ الغزاة الفاتحين إلى سهول السند

والسكنج منذ القدم .

الدور الثالث ، ويبدأ من عام ١٠٠٦هـ / ١٥٥٨م حتى عام ١٠٠٩هـ / ١٦٠١م وهو الذى طفق أكبر يتوغل إبانته بالدككن حتى تم له ضم أغلب مناطقه للملكة .

والواقع أن الهندستان ، حين جلس أكبر على عرشها ، كانت تفيض بالاضطرابات . فأمرأ أسرة سوري ، خلفاء سيرشاه ، كان منهم سكندر شاه بالپنجاب يتحفز للأنقضاض على دهلي وآگرا واسترداد الأراضى التى أخرجهم همايون منها ، فى حين استقر محمد عادل شاه سوري فى چنار بعد أن أخرجهم ابراهيم خان سوري من دهلي ، وبعث بقائده الهندوكى هيمون على رأس قوات كثيفة وقف بها غير بعيد من العاصمة فى ارتقاب الفرصة المواتية لاستردادها من جديد ، هذا كما كان هناك أمراء آخرون من آل سور يستأثرون كذلك بالأمر كله فى البنغال .

ولم تكن أسرة سور هذه هى وحدها التى تهدد سلطان أكبر بالهند ، فإن ميرزا حكيم ، أخا أكبر ، كان قد أعلن استقلاله بكابل ، أرض الرجعة لسلاطين المسلمين بالهند وطريق الإمدادات إليهم التى كانت تمدهم بحاربى بلاد ماوراء النهر الأشداء ، ثم أخذ من بعد ذلك يرنو ببصره إلى أرض الهند نفسها

ويستأج إلى الجلوس على عرشها .
 وكانت ولايات السند والملتان وكشمير قد انفصلت عن
 سجن دهلئ بدورها لسنتين خلت ، فى حـين راح الأمراء
 الـجـيـوتـيـون ، فى موار وحـسـالمـير وبوندى وجنـد هـبـور ، يـغـتـمـون
 ما أتاحه لهم اضطراب الأحوال من فُرص لاستعادة الكثير
 من سلطانهم القديم ونفوذهم ، واستردت مالوه والكـجـرات
 استقلالها الضائع وثبَّت أمراء الدكن المسلمون أقدامهم فى
 بلادهم من جديد ، فى خاندش ، وبرار ويدير وأحمد نـگـر
 وبـيـجـا پور وغولكونده .

ومن وراء أولئك وهؤلاء جميعاً كان الأمراء الهنادكة ،
 أصحاب إمارة ثيايانـگـر فى الجنوب ، يـجـهـدون فى المحافظة على
 استقلالهم من إعتداءات جيرانهم أمراء الدكن المسلمين .

وكان البرتغاليون بدورهم يقيمون فى حصونهم القوية فى جـوـا
 وبـوـرا على شاطئى الهند الغربى بعد أن خاضوا غمار معارك
 بـيـة عنيفة ضد سلاطين الكـجـرات المسلمين وأعوانهم من
 سـلاطين المـالـيـك المـصـريـين والعـثمـانـيـن .

ونـتـج عن انتصار هؤلاء المستعمرين أن اشتد خطرهم وتفاقم
 شأنهم فى مناطق الخليج العربى وبحـر العرب والمحيط الهندى

وعند منافذ البحر الأحمر حتى اقتربوا من شواطئ الحجاز
وراجوا يهددون طرق التجارة الهندية والحجَّ الإسلامي إلى
البيت الحرام (١).

حرب آل سور : رسم أكبر ورجاله خطتهم على أن يعملوا
أولا على التخلص من آل سور ، خلفاء شير شاه ، الذين كانوا
يجهدون لاسترداد عرش الهند . وفيما كان جند الدولة يجهز في
في مطاردة سكندر شادسور بالپنجاب هاجم هيمون قائد محمد عادل
شاه سور مدينة آگرا في خمسين ألف من الخيل وخمسمائة من
الفيول .

وكان هذا القائد الهندوكي ، الذي يشتهر في كتب التاريخ باسم
البقال (٢) ، قد تم له من قبل دحر إبراهيم شاه سور ، بالقرب من
دهلي ، وكاد يقتحم عليه مقله في بيسانه لولا ما كان من زحف
سكندر خان صاحب البنغال على أملاك عادل شاه في جونپور

١ — انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢١١ ، ٢١٢ .

٢ — كان هيمون في أول أمره بقالا بمدينة روارى باقليم موات ثم عهد إليه
بمراقبة الأسواق حتى صار مديرا لإمدادات الجيش ، غير أن لقب بقال لصق به طول
حياته . ومازك يرتقى حتى بلغ مرتبة القيادة وصار وكيلا (وزيرا) للسلطان محمد
عادل شاه الذي كان يشتهر بين العامة باسم عدلي (طبقات أكبري ص ٢٤١)

وكالبي . وما إن تم هيمون دفعُ قوات البنغال عن أراضي أميره حتى اقتحم حصن آگرا وأرغم سكندر أوزبگك قائد أكبر هناك على الارتداد إلى دهلي .

هنالك بادر أكبر من فوره بتسيير قائده عليقلي خان زمان إلى دهلي لمؤازرة تردى ييگخان ورجاله في الدفاع عن هذه المدينة . وصد جحافل هيمون عنها ، فلم تبلغ الإمدادات مكان المعركة إلا بعد فوات الفرصة .

فلقد تمكن رجال الميمنة المغولية من دفع جناح العدو المقابل لهم أول الأمر ، إلا أن هيمون استطاع بقواته الرئيسية في القلب أن يدحر القائد المغـولي تردى خان حتى بادر بالانسحاب من الميدان دون أن يفتن إلى عدول خصمه عن مطاردته ، فقد فتَّ في عضده تأخر وصول الإمدادات إليه من جهة ، وعظم قوة عدوه من جهة أخرى .

واتخذ هيمون لنفسه على أثر هذا النصر لقب بكرماديت (فكرماديت) (١) الهندوكي القديم ليعلن بذلك عزمه على

١ — وهو من الأبطال الذين يعجدهم تاريخ الهند القديمة وأساطيرها على السواء . وكان قد أخرج البيت والسكا من الهند ووحدها تحت حكمه (الجزء الأول ص ٣٢ ، ٣٣)

إحياء أجداد أمته القديمة ومناهضته للإسلام والمسلمين . فلم
يكتفِ بإهمال شأن سيده عادل شاه، حتى راح يضرب السكة
باسمه ويولى خاصته ورجاله مناصب الدولة وشئون الولايات .

وبرغم عنف المجاعة التي كانت ما تزال تجثم على دهلي وآگرا
وبيانه وماحولها حتى طعم الناس الجيْفَ وهلك خلق كثير ، فإن
هيمون لم يتردد عن مطاردة قوات أكبر حتى ميدان پانى پت ،
وهو الميدان الذى انتصر فيه ظهير الدين محمد بابر بقواته القليلة
على حشود الهند الكشيفة لثلاثين عام خلت .

وهال رجال أكبر كثرةُ قوات هيمون ، التي كانت تبلغ مائة
ألف من الجنود وخمسمائة من الفيول ، بالقياس إلى ضآلة قواهم
التي لم تكن تعدو عشرين ألفا مابين فرسان ومشاة ، حتى أشار
أغلبهم بالارتداد إلى أرض كابل . لولا إصرار الساطان ووزيره
بيرم خان على القتال .

هنالك عهد أكبر إلى صهره خضر خان بمواصلة قتال سكندر
سور ثم خرج هو على رأس قواته للقاء الأمير الهند وكى وعصبتة .
استطاع هيمون أول الأمر أن يكتسح جناحَيْ جيش أكبر ،
برغم سقوط مدفيعته بأيدي عدوه ، غير أن سهما أصابه فألقى
به من فوق فيله الذى كان يُدعى « الهوا » ، لحقته حركته البالغة .

وحين طلب إلى قيّاله أن يسير به وبدابته إلى خارج الميدان توهم
خطه وقوع الهزيمة بهم ، فانقرط عقدهم لساعتهم وتفرق شملهم
بوقع هيمون نفسه في الأسر . وفي هذه الوقعة لقي كثير من
الأمراء الأفغان حتوفهم .

وأبت على أكبر شهادته أن يستجيب لوزيره بيرم خان ، حين
أشار عليه بقتل أسيره ، محتجا بأنه ليس من المروءة التنكيل
بأعزل جريح " ، غير أن الوزير وثب على هيمون وقتله ، ثم بعث
برأسه إلى كابل وبجنته إلى دهلي ليرى العصاة في مسير صاحبها عبرة
لهم وعظة .

ودخل السلطان المنتصر دهلي من جديد ، فاستقبله الأهليون
على اختلاف طبقاتهم بحفاوة بالغة . وما غدا أن أقبل عليه
پير محمد شرواني ومعه أموال هيمون وما كان بخزائنه في مِوات
من نفائس ، وفي ركابه خاصة أتباعه وأهل بيته .

وفتت هزيمة ذلك القائد الهندو وكى الكبير ومقتله في عضد
أمراء أسرة سور ، ونال اليأس من نفوسهم منالا شديدا ، فما
إن خرج أكبر إلى لا هور فبلغ جالندهر حتى رجع سكندر سور
من تلال سيوالك إلى حصن ما نكُت فاعتصم فيه . حتى إذا

ما قدم أكبر ومدفعيته فشدد الحصار عليه ، لم يجد بُدّاً من طلب الصلح ، مع التعهد بالولاء التام للسلطان ، على أن يُسمح له بالمسير إلى البنغال في أمان .

وحفظ أكبر على هذا الأمير كرامته فولّاه بهار وخريد في الشرق ؛ فلبث بها حتى وافته منيته بعد عامين .

أما عادل شاه سور فقد اقتحم عليه مقرّه في چنار ، خضر خان وإخوته فدحروا قواته وقتلوه انتقاماً منه لمقتل أبيهم محمد خان بنغالي بظاهر آگرا .

وحاول شیر شاه الثاني بن عادل شاه هذا أن يستحوز على جونپور بعد مقتل أبيه ، لكن خانزمان قائد أكبر تصدى له ودحره وضم كل أراضيه إلى أملاك الدولة .

أما إبراهيم شاه سور فقد زينت له بعض القبائل الأفغانية الإستيلاء على ولاية مالوه . حتى إذا أخفق في هذا الأمر انطلق إلى ولاية أوريسه في إقليم البنغال فبقى بها حتى عام ٩٧٥ هـ / ١٥٦٨ م حيث اتى مصرعه على أيدي القائد المغولي سليمان كيراني . (١)

وعرف الپادشاه لوزيره بيرم خان همته وحزمه في القضاء على آل سور . خلفاء شیرشاه ، على الخصوص ، فأنعم عليه بلقب خان

حانان (أمير الأمراء) وجعله وكيلا للسلطنة وزوجه
بأبنة أخته .

والحق أن هذا الوزير المجرّب بذل جهدا صادقا في تصريف
شئون الدولة على أحسن وجه ، كما نظم الإدارة ، وبعث بالجند
فتحت كراچي و آچمير واقتحمت جونيور وأمنت الحدود
الشمالية الغربية ، فأمكن بذلك لسلطنة دهلي أن تستعيد أغلب
الأراضي التي كانت لها أيام بابر . وعمل كذلك ، وهو في
غمرة مشاغله الكثيرة ، على تنقيف السلطان الشاب ، وحثه
دواما على طلب العلم والتزود بالمعرفة .

غير أن هذا الوزير الشيعي طفق يحايي أبناء مذهبه ويخصهم
بالمناصب الرفيعة في الدولة ويعين في اضطهاد السننيين جملة أصحاب
الغالبية بين مسلمي الهند ، مستغلا في ذلك حادث اندحار القائد
السنني تردى بگنخان أمام القائد الهندوكي هيمون في معركة دهلي ،
حتى فاضت النفوس بالسخط الشديد عليه .^(١)

واستغل نساء القصر ، وعلى رأسهن حميدة بانوييگيم

١ — ليس هناك ما يؤيد مذهب إليه بداوني « منتخب التواريخ نان ص ١٤ »
حصول بيرم خان على أمر صريح بقتل تردى بك بسبب هزيمته . وقد أثارت قلة بيرم
خان هذه نفوس رجال البلاط Muslim Rule. 316

أم السلطان وما هم أنكم مرضعته ، ما كان من تضييق الوزير على السلطان في النفقات وما أشيع من ميله سرّاً إلى أبي القاسم ابن كامران ^(١) ، الذي كان يطمع في الجلوس على عرش الهند ، فرّحن بحرّضن أئبر على إبعاد مستشاره الداهية عن منصبه .

وأحسنّ بيرم خان بدوره بنفور أكبر منه ففقد النيّة على الابتعاد عن البلاط بالسير إلى البيت الحرام . حتى إذا ما بلغه تسيير السلطان الجند في أثره ، خافه أن يستحوذ على البنجاب ، على مادمس الدساسون ، استبد به الغضب فأعان عزمه على مناهضة قوات الدولة ، غير أنه وقع في الأسر . وقد عفى عنه أكبر على كل حال وذلك لسابق أياديه وعظيم خدماته ، وسمح له بالانطلاق إلى الحج .

وفيما كان بيرم خان يحتفل بالكجرات عام ٩٦٨ هـ ، في طريقه إلى البيت الحرام ، اغتاله أفعانى ، يدعى مبارك خان لوحانى ، كان أبوه قد لقي مصرعه على يديه . وعلى أثر مقتله

١ - هو ابن عيلا أكبر

٢ - منتخب التواريخ ثان ص ٣٣

احتضن أكبر ابنه عبد الرحيم بيلاطه وكان إذ ذاك في الرابعة من عمره ، فإزال يرعاه حتى بلغ أكبر مناصب الدولة .

هكذا تخلص أكبر من نفوذ وزيره الشيخ ليتع تحت تأثير حاضنته الداهية ، على الأخص . حتى كان لا يبرم في الغالب أمرا دون رأيها . وطفقت هذه السيدة تعهد بمناصب الدولة إلى أتباعها وفق هواها وترفع من مقام ابنها أدهم خان ، وإن لم تستطع أن تباع به الوزارة على كل حال .

على أن أكبر ما غدا أن تكشف له خطورتها بمد قليل عليه فأخذ يراقب ساوكها وعصبتها بعين اليقظة والحذر . فحين بعث بأدهم خان ومعه پير محمد شروانى لفتح مالوه فدخلها عام ٩٦٧ هـ / ١٥٦٠ م ، بعد أن هزما بازيمادر بن شيناعت خان خاصة خيل نائب شيرشاه السابق عليها ، فلم يصل إلى آگرا من غنائم الفتح إلا القليل ، دفعته الريبة في سلوك قائده هذا إلى أن يفاجئه بظهوره هناك ليطالع بنفسه على ما بحوزته من أسلاب ضخمة ، ولم يملك أدهم خان عند ذاك إلا أن يدعى بأنه كان بسبيل إرسالها إلى العاصمة .

وانفرد پير محمد شروانى بالحكم في مالوه على أثر استدعاء أدهم خان إلى آگرا لينطلق من بعد ذلك إلى أعمال السلب

والنهب والتخريب في كافة المناطق المجاورة لإمارته حتى شواطئ نهر زربدا الجنوبية ، فلم ينج من أذاه مسلم أو هندوكي أو مسجد أو معبد ، حتى اجتمع الأهلون عليه ليتاح لأميرهم السابق وأصحابه استرداد بلادهم بمعوتهم من جديد ، وما زالوا يطاردون نائب أكبر هذا حتى اقي حتفه غرقا في نهر زربدا وهو في طريقه إلى ماندو فرارا (١) .

وما غدا الپادشاه أن بعث بقائده عبد الله خان أوزبگك بعد قليل فاسترد هذه الولاية من جديد . وقد لاذ باز بهادر بيلاط اُدای سنغ ، أحد امراء مروار ، ثم ما لبث أن سعى إلى التماس الصفح من الپادشاه فأجيب إليه .

كذلك لم يمنع حرّ الهند أكبر من أن يسير إلى جونپور فيفاجىء عامله هناك عليقلی خان الاوزبگى بدوره ، كما فاجأ أدهم خان بمالوه من قبل ، ويردّه إلى طاعته .

ذلك أن هذا القائد ، بعد أن تم له رد جموع الأفغان التي التفتت حول شيره شاه الثانى بن عادل شاه سور بمحصن چنار تفرجت تبغى الاستيلاء على جونپور ، بدا من تصرفاته وعصبته من الاوزبگك ، الذين كانوا في رعاية بيرم خان من

بئبل ، ما أثار الريب في نفس الپادشاه حتى خرج إليهم بنفسه .
ثما إن غادر كالبي فبلغ قره حتى جاء إليه عليقلی خان وأخوه
هادر خان فجدد له الولاء وإن عاود العصيان بعد ذلك
يبضع سنين .

بلغ أكبر في هذه الأثناء مبلغ الرجال ، وغدا يدرك مدى
خطورة المسؤوليات التي يلقيا عليه منصبه ، فاتخذ له وزيرا من
رجال أبيه الأكفاء المخلصين ، هو شمس الدين محمد أتسكه . حتى
إذا ما ثارت عصبة ما هم أتسكه ، مرضعة الپادشاه ، لهذا الإجراء ،
ورأت فيه ما يحذر من نفوذها ، فبرز أدهم خان بن ما هم أتسكه
في زمرة من رجاله فوثب على الوزير وهو يؤدي فريضة الصلاة
بالبلاط فقتله ، باغت أكبر القاتل وقبض عليه بنفسه ثم أمر
فقُذِف به من حائق حتى هلك ، وماغدت أمه أن لحقت به كمدا
بعد قليل .^(١)

تقريب الهنادكة : هكذا قضى أكبر القضاء التام على
دسائس نساء القصر ومن سار سيرتهم إثر مقتل وزيره ليبدأ

بذلك عهداً جديداً في حكم الهند . ذلك أن بصيرته قد هدته إلى وجوب العمل على توحيد سكان الهند جميعاً مسلمين وهنالك تحت رايته ، فطلق في سبيل تحقيق هذا الأمر ، يقرب زعماء الهنداكّة وأمرأهم منه ويفتح لهم أبواب بلاطه ويعهد إليهم بالمناصب الرفيعة مدنية وعسكرية على السواء : فكان من أشهر إليهم من كبارهم راجا بيهر مل أمير جايبور الراجبوتي ، كما كان من قديم المناصب الهامة راجا تندر مل ، الذي خلف خواجه ملك اعتماد خان ، فسار في شئون الدولة المالية على الخطّة الحسنة التي كان اختطها شير شاه في إصلاحاته . من قبل ، بعد أدخل عليها قدرا من التعديلات والتحسينات .

كذلك رفع أكبر الجزية ، التي كانت تُفرض على الهنداكّة والرسوم التي كانوا يلزمون بها عند الحجيج إلى مقدساتهم ، فغدا رعاياه جميعاً على قدم المساواة فيما يلزمون به من واجبات وما يتمتعون به من حقوق . وكان صنيعه هذا كله هو البداية العملية لتحويل الهنداكّة وأمرأهم من أعداء للدولة إلى خدام لها وحياة لأراضيها .

حروب الشمال والوسط : التفت أكبر إلى الفتوحات على نهج أجداده ، فاندفع في حروب وغزوات تكاد حلقاتها

تتصل حتى عام ١٠٠٩ هـ / ١٦٠١ م لينتهى بذلك إلى تدعيم ملكة من جهة وتوسيع رقعة دولته من جهة أخرى :

غوندوانا : تبدأ هذه الفتوحات بغزو غوندوانا إحدى إمارات الوسط ، وكانت تحكمها ملكة هندوكية تدعى راني درگاوتي وصية على ابنها الصغير برزايان ، وقد اشتهر اسم هذه المملكة في التاريخ لاستماتها في الدفاع عن بلادها حتى سقطت في ميدان الشرف .

و حين استبان لابنها الصغير بدوره استحالة الوقوف في وجهه .
آصاف خان قائد القوات المغولية آثر تناول السم (الجواهر) على التسليم لأعدائه فلحق بأمه .

وعوق من خطة أكبر في الفتوح ، بعد ما أصابت قواته أسلابة كثيرة في غوندوانا ، ما كان من انتفاض الأوزبك ، رجال ييرم خان القدامى عليه . ولئن انتهى الأمر سريعا بعبدالله خان الأوزبكي إلى طرده من ماله بعد هزيمته حتى لجأ إلى الكجرات ، فإن عصيان أخيه عليقلي خان زمان في جونپور وما حولها ، حتى جهر بخلع طاعة أكبر والدعاء لأخيه حكيم مكانه ، قد اقتضى من السلطان الكثير من الوقت والجهد لئلا له القضاء عليه .

ذلك أن أكبر لم يكبد يمضى فى مطاردة قوات الثائر
الأوزبكي ، حتى بلغه مهاجمة أخيه للنجاب ، بتحريض من
الأوزبكيك بعد أن طرده سليمان شاه صاحب بدخشان من
كابل ، مستعينا فى ذلك بالقوات التى كان أخوه قد بعث
بها إليه لتجده .

ولم يكن الپادشاه ليغفل عن أهمية المركز الاستراتيجي لمنطقة
الحدود الشمالية الغربية التى تعتبر باب الهند ، فبادر من فوره برد
أخيه وقواته عنها كلها بعد أن كانوا قد دخلوا لاهور .

وما غدا حكيم خان أن استرد حاضرتة كابل من أيدي
سليمان شاه واستقر بها ، ليعود أكبر من بعد ذلك مسرعا إلى
المناطق الشرقية ثانية ، فايزال يطار دالثائر الأوزبكي وعصبة حتى
التجم بهم عند ما نيسكپور حيث سقط خان زمان فى الميدان ، فى
حين استسلم أخوه بهادر خان وفريق كبير من بنى جلدتهم فأوردوا
جميعا مورد الردى ^(۱)

واستبان لأكبر أنه لن يصير له السيادة على الهندستان كله
إلا إذا تم له إخضاع حصونه الكبرى التى ما يزال فريق من

الأمراء الراجپوتين يسيطرون عليها ويعتصمون بها .
 چتور : يُعد حصن چتور أَمْنَعَ هذه المعاقل جميعا ، إذ
 كان يقوم على سلسلة من الاستحكامات القوية تمتد لمسافة أميال
 ثمانية على نِمْنُوء من الصخر يبرز على ارتفاع شاهق في السهل .
 وكان صاحبه أوداي سنغ رائا موار قد غدا يأوى عنده فريقا
 من الخارجين على سلطان أكبر من أمثال بهادرخان أمير مالوه
 السابق ، فضلا عما كان يسديه من العون ويذله من التضديد
 لأبناء عمومة الإيداشاه من الطامعين في ملكه .^(١)

ولم تمتنع هذه المعاقل على جند الدولة برغم وعورة إمساكها
 واستماتة جاي مل وفتح (بتا) سنغ قائد الأمير الراجپوتي
 ورجاله في الدفاع عنها بعد أن لاذ سيدهم وأسرتهم بالجبال . فقد بلغ
 من عزم المدافعين حين رأوا زمام الأمر يقلت من أيديهم ، أن
 عمدنساؤهم وشيوخهم إلى قتل أنفسهم بأيديهم ، فهمم من جرع السم ،
 ومنهم من عرض نفسه على نيران المواقد . ثم فُتحت أبواب
 الحصن من بعد ذلك لتتطالق الحامية منه فتشتبك مع مهاجميها في قتال
 وحشي عنيف قى فيه أغلبها .^(٢)

١ — تاريخ إلى ١٧٠ — ١٧٤

٢ — منتخب التواريخ ثان ١٠٤

وأثار ما أظهره الراجپوتيون من ضروب البسالة إعجاب أكبر حتى احتفظ بتمثالين قيل إنهما للقائدين الهندوكيين (١) . والحق أن هذا البادشاه المغولى كان ممن يقدرّون شجاعة الشجعان حق قدرها حتى رأيناه في مواقف كثيرة يحفظ على الأبطال من أعدائه ، حياتهم ويحيطهم بالرعاية والإكرام .

وكان من أثر حسن صنيع أكبر هذا ، لا سيما مع الأمراء الراجپوتيين ، أن طفق كثير منهم ينضم إلى صفوفه ويوثق من صلاته معه . وكان من بين هؤلاء راجا بيسكانير وجيسلمير ثم بها رمل راجا أمبر وابنه بهگوان داس وحفيده من سنغ وقد صحبوه جميعا إلى آگرا وأصهر إليهم فيما بعد .

على أن رأى براتاب ، حين خاف أباه أودای سنغ في إقاييم موار ، عاد يرى في توثيق الصلات بين الأمراء الراجپوتيين وسلاطان المغول خطرا شديدا قد يؤدي إلى القضاء التام على أمجاد بني جنسهم وما بذله أسلافهم من أمثال جدّه رانا سنكا من تضحيات وما خلّده من صفحات البطولة الرائعة دفاعا عن شرف عنصرهم . فنصّب نفسه للدفاع عن تراث الهنداكة وماضيهم التليد ، ومن ثم طفق يستنهض من همم أقرانه ويعمل على إثارتهم

وتحرى بضهم على مناهضة الدولة . وقد بنى خطته على تحصين حدوده و حدود حلفائه ثم إطلاق عصباتهم جميعا من بعد ذلك لتقض من مضاجع صاحب آگرا .

ولئن كان أكبر قد سير قوات كثيفة من جنده لتكتسح إقليم موار كله ، فإنه لم يتيسر له تحقيق غايته على التمام برغم ما أحرزه من انتصارات متكررة على رانا براتاب وابنه أمر سنغ .

رنتنبهور : لم يكد الپادشاه يفرغ من حرب چتور عام ٩٧٥هـ / ١٥٦٧ م حتى أخذ يعد العدة لاقترحام حصن رنتنبهور ثانی قلاع الهندستان الكبرى ، فسارت قواته إلى هناك في العام التالى ليلاحق هو بها بنفسه في رمضان من نفس السنة .

وحين رأى راي سورجانا ، صاحب الحصن ، أعداءه يبلغون بمدافعهم أعلا تل يواجه معقله المنيع فتنهال قذائفهم عليه ، بادر ، بوساطة من بهگوان داس ومن سنغ اللذين كانا في صحبة الپادشاه ، إلى إعلان خضوعه واستسلامه ، فخلع أكبر عليه وعلى ولديه ، وما غدا بعد قليل أن أقامه على إقليم بنارس ، كما عهد إليه بقلعه چتور .

وأدى سقوط حصنى چتور ورنتنبهور إلى تيسير مهمة الحملة التى كان السلطان قد بعث بها للاستيلاء على حصن كلنجر في

بند لخاند وهو في طريقه إلى ثانی القلعتين سألقي الذكر . وصار أمر راجا چندرا صاحب هذا الحصن إلى أن أقطع إقطاعا على مقربة من أحمد آباد .

وباستيلاء أكبر على هذه الحصون الثلاثة المنيعة رست أقدامه وتعززت حدوده . وأدى ما سلكه مع أصحاب هذه الحصون، حين استسلموا إليه ، من طريق المودة والرفق، فصحبهم إلى بلاطه في الغالب وأجرى عليهم رزقا حسنا وعهد إليهم بقدر من مناصب الدولة ، إلى أن ركن أغلب الامراء الهنادكة إلى السلم وطفقوا يساهمون معه في بناء الدولة بهمة بالغة وإخلاص (١).

وفي ذلك الوقت رُزق أكبر بابنه وولى عهده الامير سليم ، الذي يُعرف في التاريخ باسم جهانگیر ، من أم هندوكية هي ابنة بهار مل راجا جيبور وكان قد بنى بها عام ٩٦٩هـ / ١٥٦٢ م .

وعلى أثر مولدهذا الأمير عام ٩٧٧هـ / ١٥٧٩ م انتقل الپادشاه بحكومته إلى مدينة سِكرى ، عند حدود الراجپوتانا من ناحية آگرا ، فاتخذها حاضرة له وسماها فتحپور ، فلم يجرها إلى آگرا

إلا حين انهار خزان المياه بها عام ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م
فغمرها الماء .

وكان مما حجب إلى أكبر النزوح إلى هذا المسكان ، قيام
ولى صالح به يدعى سليم چشتى كان قد بشره وتنبأ له بمولد ابنه
هذا بعد أن مات له الأطفال كثيرون من قبل . وبلغ من تعلق
السلطان بهذا الشيخ أن بعث بزوجه هذه حين أظهرت عليها بوادر
الحمل فأقامت إلى جواره ، حتى إذا وضعت حملها أطلق على
المولود اسم الولى تبركا . وفى رحاب هذا الشيخ ولد أكثر
نولاد البادشاه .

وعنى أكبر بتعمير هذه المدينة عناية بالغة حتى لتعد
منشآته بها من أروع نماذج العمارة الهندية الإسلامية . وكان من
بين هذه المنشآت الفخمة المسجد الجامع ، الذى أقيم على طراز
البيت الحرام ، ثم ضريح الولى سليم چشتى ، وجملة من القصور أجاد
المعماريون فى تصميمها كما أبدع النقاشون فى زخرفها وترصيعها
بمختلف الزخارف والتصاوير (١) .

وأعظم آثار أكبر بهذه المدينة هى بُلنددروازه (البوابة

الكبيرة) التي أقامها تذكارا لانتصاراته في الكجرات ، ذلك الإقليم الذي تم لآييه همايون إخضاعه لسلطانه قبل إخراجِه من الهند ، والذي يعد ، إلى جانب خصب تربته ووفرة زراعته ، عظم مراكز التجارة الهندية . فن موانيه ، بروج وسورات وكبای ، كانت السفن تبخر وعليها منتجات الهند التي كان يتهافت عليها سكان العالم منذ القدم ، حتى لم يقتحم غاز من الغزاة أسوار الهند إلاّ وكان في حسابه دخول هذا الإقليم . ومن بين هؤلاء كان محمود الغزنوى الذي أغراه موقعه وطيب هوائه حتى جرى بخاطره أن يتخذهُ مقاما دائما له وقاعدة يدير منها دولته الهندية الجديدة .

فتح الكجرات : كان مظفر شاه الثانى آخر سلاطين الكجرات ، الذى خرج إليه أكبر فى ربيع الثانى من عام ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م ، ضعيفا خاملا ، اجتمع عليه نفر من رجاله فسلبوه كل نفوذ ، ثم ما غدا نفر منهم أن انتهز فرصة الفوضى التي كانت تسود الدولة فى عهدِه فراح يسعى إلى الاستقلال بما بأيديه من إقطاعات .

واستسلم سلطان الكجرات من فوره للبادشاه الذى أجرى عليه رزقا حسنا . وحذا حذوه كثير من رجال الكجرات ،

لينطلق أعظم عزيز كوكا قائد أكبر ، من بعد ذلك ، ومعه إمدادات من مالوه وچندري ، فبطارد إبراهيم حسين ميرزا ابن عم الپادشاه وفريق من الأمراء التيموريين العصاة الذين كانوا يقيمون هناك ، فما زال بهم حتى أخرجهم من سورات . على أن أكبر لم يكده يعود إلى سيكري فتحپور حتى ارتد الكجراتيون إلى العصيان من جديد ، فلم يرجع عنهم هذه المرة إلا بعد أن استخلص من أيديهم مدينة أحمد آباد ودخل كباى وبارودا ، كما افتحم حصن سورات المنيع الذى طالما استعصى على البرتغاليين ودفع خطرهم عن المنطقة كلها .

وفى هذا الحصن ، الذى كانت أسواره يصل سمكها إلى ما يزيد على أمتار أربعة مسلحة بالحديد ، عثر الپادشاه على قطع من المدفعية تحمل اسم السلطان العثمانى سليمان القانونى ، فهى بقايا من آلات أسطوله البحرى الذى كان قد بعث به لمعاونه سلاطين الكجرات فى دفع خطر البرتغاليين عنهم ^(١) .

ورجع أكبر من هناك فى منتصف عام ٩٨١ / ١٥٧٣ م بعد أن عهد إلى وزيره تدرمل ثم شهاب الدين احمد خان من بعده بتنظيم شئون هذا الإقليم الغنى الذى كان خراجة يُعَدّ

من أهم موارد الدولة .

وظلت الأمور في هذا الإقليم تميل إلى الاستقرار حتى أتى مظهر خان أن يجمع قوات جديدة سقط بها عام ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م على أحمد آباد فدخلها كما استولى على كمبای وباردوا وتم له بذلك السيطرة على أغلب السجرات ، حتى سیر إليه الپادشاه قائده عبد الرحيم خان خانان بن بيرم خان فردّه عن كثير مما وقع بأيديه من أرضين ، وما زالت قوات آگرا تطارده من بعد ذلك حتى استسلم إليها عام ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٢ م ليقتل نفسه من بعد ذلك بموسى كان يخفيها في ثيابه .

وقد عهد أكبر إلى ثاني أبنائه مراد بشتون هذه الولاية التي صارت جزءا من أراضى الدولة وبقيت في حوزة السلاطين المغول قرابة قرنين من الزمان .

هذا وكان البادشاه قد صادف بالسجرات البرتغاليين لأول مرة . وكانوا فئة قليلة قد مدت لشد أزر مظهر خان في حربه معه ، فلم يتعرض لهم بسوء ، واكتفى بأن أخذ عليهم موثقا بالآلة يتعرضوا لحجاج البيت الحرام حين يخرجون من موافى الهند التي كانوا يسيطرون على مسالك أغلبها (١) .

وقد أشرنا من قبل إلى صلة البرتغاليين بالسكجرات وكيف
نُسربوا إلى بعض موانئها بعد معارك بحرية شديدة ساهم فيها
ناصريون والعثمانيون بنصيب كبير (١).

غزو البنغال: يَدِّنا فيما سلف كيف اتخذ شير شاه من البنغال وما
جاورها قاعدة لحملاته التي انتهت إلى إخراج همايون شاه من
الهند. ولبت هذا الأقليم في حوزة أمراء من الأفغان حتى انتزعه
من أيديهم سليمان خان كراني صاحب بهار في عهد سليم شاه
سوري. وجرى هذا الأمير على إعلان ولائه الإسمى للدولة
المغولية، حتى إذا ما خلفه ابنه بايزيد فقتله وزراؤه بعد قليل،
جاء أخوه وخلفه داود ليغريه ما بخزائنه من أموال كثيرة وما
تهياً له من جند كثيف على مهاجمة أراضى الدولة المغولية الشرقية
وتخفيفها حتى بلغ بقتة وخرّبها.

ولئن كان أكبر قد خرج إلى هذا النائر بنفسه عام ٩٨٢ هـ /
١٥٧٥ م حتى بلغ بنارس فافتحمها على صاحبها كما استولت قواته
بدورها على بقتة، فإن قائده منعم خان رضى آخر الأمر بالصلح
مع خصمه بفعل ما كان بينه وبين أبيه من صداقة قديمة، وأقطعه

إقليم أوريסה برغم معارضة زميله تدرمل . وما غدا داود ، حين بلغه وفاة نائب أكبر هناك بالهيفة ، أن انطلق يسترد أراضي السابقة ، حتى أوقع به خان جهان نائب السلطنة الجديد فقضى عليه في ساحة راجا محل في ربيع الثاني من عام ١٥٧٦ هـ / ١٥٧٦ م . وبمقتله قضى على استقلال البنغال الذي لبثت تنعم به قرابة قرنين ونصف القرن .

على أن خان جهان لم يكذب يقضى عام ٩٨٧ هـ / ١٥٧٩ م . حتى خلفه مظفر خان تربي ليؤدي ما فرضه على أصحاب الأراضي من ضرائب عالية لصالح بيت المال إلى ثورة هؤلاء الملاك . وأدى إلى اتساع نطاق الفتن ، حتى شملت البنغال وجوهور كلها ، نفور أغلب العلماء ورجال الدين المحافظين هناك من الدراسات الفلسفية واللاهوتية التي كان البادشاه يمارسها وما بلغهم من انصرافه إلى التفكير في ابتداع مذهب جديد يذيب فيه عقائد الهند كلها ويجمعها على التوحيد ؛ حتى لم يتردد مولا محمد يزدى ، قاضى جوهور ، أن يفتي بوجوب حرب السلطان لما استجدته من بدع ترزع بناء الإسلام في الهند .

وبلغ من عنف الثورة هناك أن قُتل ظفر خان نفسه نائب أكبر هناك كما اضطرت قوات البادشاه التي كانت قد قدمت من

يهي إلى الاعتصام وقائدها تُدرمل في حصن منقرف ، حتى جاء
ميرزا عزيز كوكا ففضى على تمرد باب خان وعشاره الجغتائية
بالبنغال ، لينطلق من بعد ذلك قائده بازخان إلى بهار فيرغم معصوم
في نخودی زعيم الثوار هناك على الفرار إلى تلال سوا لك بالبنجاب
ثورة ميرزا حكيم : كان من نهج ثوار المناطق الشرقية من
افغان وأوزبك أن يعمدوا في الغالب ، وهم في غمرة العصيان ،
إلى إثارة القلاقل والفن بأيدى أبناء جلدتهم عند حدود الدولة
العربية والشمالية الغربية تخفيفا لضغط قوات السلطان عليهم .
ولم يكن ميرزا حكيم خان ليقعد بدوره عن الاستجابة لهؤلاء
الثوارين ، وهم الذين دأبوا على التاويج له بعرش آگرا إذا
ماعاونهم على التخلص من نير أخيه الجالس عليه . وقوى في
تضد هذا الأمير هذه المرة . على ما عرف وعنه من خور في
التميمة وانكباب على الشراب . ما كان من انضمام فريق من
ثقة أكبر من طلاب المغامرات إلى صفوفه ، حتى خرج عام
١٥٨٣ م . إلى البنجاب فدخل لا هور وانهب ما حولها
من أرضسين .

وما غدا أكبر أن أسرع إلى هناك في خمسين ألف من الفرسان
وخمسة مائة من فيول الحرب وجموع كثيفة من المشاة ومعهم ولداه

سليم ومراد؛ فتقدم سليم إلى جلال آباد بعد أن عبر مر خير ،
في حين اتجه مراد إلى كابل فالتجم بقوات عمته وأرغمه على الفرار .
على أن الپادشاه ما لبث أن ردّ أخاه إلى إمارته بعد أن عفى عنه
خوف انضمامه إلى أعدائه الأوزبگك بيلاد ما وراء النهر (١) .
وهلك في حملة الپنجاب هذه خواجه شاه منصور ، ديوان (٢)
السلطان وأحد مستشاريه الذين ساهموا مساهمة قوية في إقرار
الأُمور في الجهة الشرقية من قبل ، إذ دسّ عليه راجا مان سنغ
بضع رسائل قيل أنه كان يتبادلها مع ميرزا حكيم فأمر أ كبر من
فوره بشنقه دون تثبت من أمره ، وقد ندم على فعلته هذه من بعد . (٣)
ولئن كان من المعروف أن منطقة الحدود الشمالية الغربية
هي منذ القدم باب الهند الأعظم الذي ينفذ منه الغزاة إلى هذه
البلاد ، فإن اهتمام سلاطين الهند الجدي بتحصين هذه المنطقة
لم يبدأ الاغداة غزو چنگيزخان وأبنائه من بعده للهند ؛
حتى رأينا آل بلبن والحلجيين ثم آل تغلق من بعدهم
يقيمون بها سلسلة من المعازل والحصون القوية حبسوا بها

١ — طبقات أکبری ٢٥ ٤

٢ — الديوان هو التميم على شؤون المال ، وهو وزير عادة

٣ — Muslim Rule 432-33

توات كثيرة العدد والعُدد .

وأتيح لتيمور لنگك اجتياح أغلب هذه الحصون حين
فتر الإهتمام بها ودب الإهمال إليها لما كان عليه آخر
سلاطين آل تغلق من الضعف . حتى جاء أكبر
فعمرها من جديد لتدفع عنه أخطار الأوزبك ، أصحاب بلاد
ماوراء النهر والد أعداء الأمراء التيموريين وأشدهم مراسا ،
ومعهم القبائل التي تقطن أرض كابل وغرنة من الأفغان وغيرهم
الذين طالما أغراهم ثراء الهند جارتهم ، بالقياس إلى جذب أراضيهم
وفقر بلادهم ، بالسقوط عليها وتخطف أراضيها وانتهاك أرزاقها ،
بل والتوغل فيها ما سنحت لهم الفرصة بذلك وغفلت عنهم
أعين نواب دهلي على البنجاب .

وكان من أثر مبادرة البادشاه إلى إرسال قواته لاحتلال إقليم
كابل عقب وفاة أخيه ميرزا حكيم في شعبان من عام ٩٩٢ هـ .
١٥٨٥ م وضمه إلى أراضيه ، وما أنزله قواده من أمثال راجا من
سنغ وزين خان وراجا بيربل ، بعبد الله خان الأوزبك وقبائل
يوسفزاي الأفغانية من الهزائم الحاسمة ، أن أمنت حدود الدولة
في المناطق الغربية والشمالية الغربية ، لتتجه قوات آكرا من بعد
ذلك بقياده راجا بهكوان داس لغزو كشمير فتضمها إلى أملاك

الدولة عام ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م .

كذلك دخلت جيوش الپادشاه إقليم أوريسه كما سيطرت على
السند والمثلتان ومنازل البطهان لتطل من بعد ذلك على قندهار التي
كان أكبر معنى النفس منذ أمد بعيد باسترجاعها من الفرس ، فهي
مفتاح الطريق إلى حدوده الشمالية الغربية .

واتهمز السلطان الهندي فرصة اشتغال عباس الصفوى شاه
بالفرس بحروبه مع العثمانيين والأوزبك فدفع بقواته عام ٩٩٨ هـ /
١٥٩٠ م إلى هذه الآيالة ، فلم يهلّ عام ١٠٠٣ هـ حتى صارت في
حوزته دون قتال ، إذ وصل إلى غرضة في مهارة سياسية فائقة
أثقت على علاقات المودة بينه وبين جارة (١) .

وهكذا صار لا أكبر ، ولما انصرم القرن العاشر الهجرى بعدئذ
ناسكة متسعة الأرجاء امتدت من آخر حدود البنغال الشرقية
إلى ماوراء الهندكوش وأرض كابل وعزنة وقندهار في الغرب ،
ومن جبال الهملايا في الشمال إلى نهر نربدا في الجنوب . ولما تلتته
نقطة بعد

منحرج الدكن : لبث سلاطين المسلمين في الهندستان يرون ،
في الدكن وماورائها جنوبا بلادا غريبة عنهم ، في الغالب ، بأهلها

وبماداتها ورسومها . على أن أطعمهم ، حين كان يستتب لهم الأمر في الشمال الهندى كله ، كثيرا ما أغرتهم بالنفوذ إلى ذلك الجنوب الذى كشفت لهم حملات علاء الدين الخلجى عما به من قوة . والذى قامت به دويلات وإمارات إسلامية أبى أصحابها بترى اعتراف بسيادة دهلى عليها طواعية .

وكان من الطبيعى أن يتطاع أكبر بدوره إلى هذا الجنوب ، وهو المحارب الطموح ، بعد أن ساد سلطانه الشمال وعظم شأنه بأمنت حدوده .

واستعصت إمارة أحمد نگر أول الأمر على الأمير مراد بن أكبر وقائده عبدالرحيم خان لحسن دفاع الأميرة الشجاعة چندبى عنها ، فلم تسفر جهود هذين القائدين بالدكن إلا عن ضم إماره رار إلى أملاك الدولة (١) .

١ - هذه الأميرة هى ابنة حسن نظام شاهی وأرملة إبراهيم عادل شاه . الذى صاحب بيجابور . وقد رجعت إلى مسقط رأسها في أحمد نكر بعد موت . جيا لتنف إلى جانب الصغير بهادر نظام شاهی صاحب الحق الشرعى في الإمارة . لما أدى بالوزير میان منجهو ، وكان ينصر أمير آخر يدعى محمد خدابنده ، إلى الاستجداء بمراد بن أكبر الذى كاث يحكم بالكجرات . وبزغم نجاح هذه الأميرة في إقرار الأمير بهادر على بلاده ، فما غدا انتصاره من الاحباش .

كذلك لم يفلح قواد البادشاه في حسم موقفهم مع قوات أحمد نگر وبيجاپور وغولكونده بمجتمعة حين التقوا بهم من جديد، حتى جاء الوزير أبو الفضل بن المبارك بنفسه إلى الدكن في جند كثيف، وما غدا أن لحق به أكبر بنفسه بعد أن عهد بأمر حكومته إلى ابنه سليم.

وكان مما أدى بالسلطان إلى السير بنفسه إلى هناك، موت ابنه مراد من جهة وأنضمام أمير خاندش إلى الخارجين عليه من جهة أخرى.

وسير أكبر ابنه دانيال إلى أحمد نگر في حين قصد هو إلى خاندش، فما إن دخل عاصمتها برهانپور ثم شرع من بعد ذلك في حصار عسير، أقوى حصونها، وكان يمتنع فيه صاحبه ميران بهادر، حتى وافته الأنباء بخروج ابنه سليم عليه وتنصيبه لنفسه سلطاناً في مدينة الله آباد بأدنى الدواب (١)، فلم يشنه ذلك عن المضي في خطته حتى سقط الحصن في يده وتبعه استسلام إمارة أحمد نگر

والدكتيين أن انقلبوا عليها حتى ضيعوها وضيعوا إمارتهم معها.

هذا وفي الجزء الأول من هذا الكتاب س ٢١٩ — ٢٦ تفصيل لنشأة إمارات الدكن جميعاً.

١ — عن أكبر عن ابنه حين عاد إلى آكرا فوذه البنغال وإن لبنت العلات متوترة بين البادشاه وابنه إلى آخر أيامه.

تبدورها .

وبسقوط هذه الإمارات في مستهل القرن الحادى عشر
المجرى ، وختام القرن السادس عشر الميلادى ، تم لأكبر
السيطرة على الدكن التى استمرت حروبه بها سنوات خمسة (١) ،
وصارت الدولة المغولية ، أعظم الدول لعصرها وأقواها وأكثرها
زاءً وغنى (٢) ، بما دخل فى حوزتها من أرضين وما انطوى
تحت لوائها من الأمراء وما عمرت به خزائنها من أموال
الفتح وغنائمه وكنوزه .

ولم يطل الأجل بأكبر حتى يتم فتح جنوب شبه القارة
الهندية بأكمله بعد أن شرع فيه ، وقد كان بوسعه تحقيق هذا
الامر فى أمد قصير بعد أن أقر الأحوال فى الشمال كله بقضائه
على أسرة سور وكبحه جماح الأوزبكيك وفتح لبنيغال واقتحامه
حصون الراجبوتيين الكبرى وتأمينه حدوده كافة ، لولا
ما تعرض له من ثورات وقتن عنيفه بسبب ما ذاع عنه من

١ - كان من أثر طول مقاومة أمارات الدكن الاسلامية للمغول ، ابتعاد
الخلفاء إلى حين عن أمارة فييانكر الهندوكية التى كانت تقع إلى
ما وراءها جنوباً .

أفكار وآراء فلسفية أدت به إلى استنباط مذهب ديني جديد .

المذهب الإلهي :

برغم أن أكبر ينحدر من أسرة امتازت بالثقافة المتوارثة فيها . فقد أدى اضطراب حياة أبيه في الغالب إلى حرمانه من قدر وافر من التعاليم في الصغر ، فشب ولم يكن يحسن القراءة والكتابة . ومع ذلك فقد فاضت حياته الطويلة بالمشاط المقتل . إذ كان قوي الملاحظة كلنا بالمعرفة ، فتعلم عن طريق التلقين مكشفا بالإصغاء والتأمل . وكانت ذاكرته القوية تستوعب كل ما كان يقرئ في حضرته من الكتب القيمة التي جاوز عددها في مكتبته الخاصة أربعاً وعشرين ألفاً . ولقد ولد أكبر عن أب سني المذهب وأم شيعية ، وبني بوضع أميرات من الهنادكة . وطفق لا يشغل نفسه إلا بعلوم أهل السنة حتى التقى بالشيخ مبارك ناگوري وولديه فبضى وإلى الفضل . وكان ثلاثتهم من المشتغلين بعلوم الحكمة ، ففتحت ، عيناه على كثير من المسائل الفلسفية والأسرار الصوفية ، ودفعوه معهم في طريقهم ، طريق البحث عن الحقيقة ومحاولة الوصول إلى الحق المجرد .

وأدى به شغفه بهذه المسائل إلى إقامة دار للعبادة

« عبادتخانه » ، بمدينة فتحپور حاضرتة الجديدة . تم بناؤها عام ١٥٨٣ هـ / ١٥٧٥ م لتكون منتدى للفقهاء والمتصوفة ورجال الدين وصفوة رجال الدولة يتدارسون فيها كتاب الله الكريم وعلوم التفسير والحديث ومسائل الفقه والتصوف والفلسفة .

ودرج أكبر على الحضور إلى هذه الدار عقب صلاة الجمعة عند انصرافه من خانقاه شيخ الإسلام . هذا كما كان يتعبد كذلك في كهف غير بعيد من قصره ويضئ ليلًا بكلمها يناجي ربه برموز الصوفية واصطلاحاتها .

كان هذا السلطان يرى في الملوك نعمة من نعم الله العظمى ، يتجلى العرفان بها في حسن إدارة الحاكم لحكومته على وجه يجعل رعاياه جميعا يتفانون في طاعته وتلجج السنتهم بالثناء عليه .

وعلى هدى هذه الغاية حاول أن يمزج نفسه بالهند وشعوبها من مسلمين وهنالك مزجاً عميقاً لينقلب هو وبلاده آخر الأمر إلى وحدة لا تنقسم أو تتجزأ . فضى يعمل على انضواء سنادة جميعاً تحت راية الحكم الإسلامى عن رضى وقبول بتألف قلوبهم ، وفتح أبواب بلاطه لهم حتى بلغ كثير من منهم أعلى

مناصب الوزارة والقيادة (١) ، كما أصهر إلى كثير منهم كذلك ، وإن أدى سلوكه هذا إلى نفور طائفة من العلماء ورجال الدين الذين كانوا ينكرون قيام المساواة بين المسلمين ومن خالفهم في دينهم .

وكان من ثمرة نهجه هذا الذى انتهجه أن طفق فريق من الأمراء الراجپوتيين يوالونه حتى ساروا معه بقواتهم لتحقيق أهدافه فى الفتوح والقضاء على الفتن التى كانت تشب من حين لآخر فى أنحاء بلاده الواسعة .

وكان من بين هؤلاء راجا بهگوان داس وابنه مَن سَنَغ اللذان ظاهراه فى حصاره لحصن چتور أقوى قلاع الهند ، ثم راجا پيرمل الذى لاقى حتفه وهو يدافع عن حدود الدولة الشمالية الغربية .

ولعل تدر مل هو أبرز هندوكى قام على خدمة أكبر فى إخلاص بدت آثاره العظيمة واضحة جليّة فى تاريخ الهند . فهذا الوزير الذى كان قد نشأ عند السلطان القدير شيرشاه

١ - بلغ عدد المناصب الكبرى فى الدولة أيام أكبر ١٥٠ ، كان الهنادكة يشغلون منها ٥١ منصباً .

بالم بالكثير من اتجاهاته السديدة في شئون الإدارة والحكومة ،
شارك بنجاح في حملات البادشاه البنغالية ، كما أظهر كفاءة
إدارية كبيرة حين عُهد إليه بتنظيم شئون حكومة الميجرات ،
أنقذ إمارات الهند ، وتنسيق مواردها المالية ، حتى صار من
جد ذلك خير مشير لا كبر فيما شرع فيه من إصلاحات شملت
إقامة نظم الحكم وشئون الدولة (١) .

لقد أدرك أكبر أن بلاده الواسعة لا يمكن حكمها وإقرار
الأمور فيها أقراراً حقيقياً إلا بقيام المؤاخاة والألفة بين أهلها على
اختلاف مللهم وتباين عروقهم ونحلهم . وهو حين قرّب إليه
المناذكة ، دفعه شغفه بالمعرفة إلى التطلع إلى ما عندهم من
ثقافات ورسوم قديمة ومعتقدات ، فعهد إلى فريق من العلماء
بنقل عيون الكتب الهندوكية القديمة من السنسكريتية إلى
إلى الفارسية ، لسان العصر بالهندستان ، ومن بينها الرامايانا (٢) ،

١ - 62 - 260 Lane-Poole

٢ - قام المؤرخ بداوني بنقل الرامايانا إلى الفارسية فأنجزها في أربع سنوات ،
هي تحوي خمس وعشرين ألف بيت ، يتركب كل بيت منها من خمس وستين
حرف وبطلها رام جند ، وكان مسقط رأسه مدينة أوده . وقد زينت هي
بأبهاارتا التي قام فريق من علماء المناذكة وأدباء المسلمين بنقلها إلى الفارسية
نقوش كسار النقاشين في بلاط السلطان . منتخب التواريخ ثان ٣٢٠ ، ٣٣٦ .

ثم المهابهارتا ، كتاب الهند القديمة الأقدس ، التي يُعد قراءة قدر منها مجلبة للرحمة والمغفرة ، كما يقرء المسلمون القرآن . وأتباع المسيح الإنجيل ، وتحوى ربع المليون بيت من الشعر ، في حين لا تعدو إلاذاة هو ميروس ، نظيرتها عند اليونان القديمة ، خمسة وعشرين ألف بيت .

ولم يكتف البادشاه بقراءة هذه الأسفار حتى راح في سبيل دراساته ، يستدعى إليه ، في دار العبادة وفي قصره شيوخ . العقائد من برهمية وبوذية وجينية وويشية وزرادشتية ونصرانية (١) ، ليعرضوا عليه بضاعتهم — له يبلغ إلى علة الفروق بينها حين تكفر كل فرقة اختها وتحرم على أتباعها أن يطاعوا غيرهم أو يخالطوهم .

ولم يكن أكبر ، وهو المفكر المسلم الحرّ ، ليحجم عن إعلان إعجابه بما يُعرض عليه من نواحي الخير والمبادئ الإنسانية في هذه العقائد ؛ بل لقد بلغ من تلمظة مع أصحاب هذه الملل وحدّه على استمالتهم إليه أن ارتدى مسوح الهنداكة وجرب معهم طقوسهم (٢)

١ — قل الإنجيل إلى الفارسية كذلك على يد الوزير أبي الفضل بن المبارك
مستخب التواريخ ٣٦٠هـ

٢ — من ذلك أنه رتل معهم الإتهالات الدينية البرهمية التي زعموا له بأنها

ويُكتب عن استخدام الثوم والبصل في أطعمته وتقديم اللحوم
تحت مائدته .

ولقد كان أكبر في الواقع لايهم أبداً بأصناف الطعام ، فنشأ منذ
صغره على غير ميل إلى تناول اللحم حتى حرّمه على نفسه محتجاً
بأنه لا يليق بالإنسان أن يجعل من جوفة مقبرة للحيوان ، وإن
لم يحرّمه على رعاياه .

كذلك كان يمكن كراهية شديدة للقصاصين والصيادين الذين
كان يرى فيهم أناساً وقفوا حياتهم على قتل الحيوان (١) . هذا كما
مع اقتناء الطيور وأطلق ما كان منها جيبس الأقفاص .

لجعل الشمس وفق هواه . ولم تقف تجاربه عند هذا الحد حتى راح يحاول اختبار
مقدرة الإنسانية في أطفال عزلهم بقصره عن الناس بعد أن رتب لهم المراضع ،
وعلى مبادئ الأديان كلها حين يشبوا عن الطوق ويرى ما عسى أن تهديهم
لكنة فشل في تجاربه إذ استبان له بكمهم جميعاً بسبب عزلتهم
التي يجب التواريخ ثمان ٢٨٨ » .

لا يتفق تحريم اللحوم هنا ومقاطعة الجزارين ومن إليهم بما ادعاه بداولي
من جهة السلطان للحوم الثمرة وأقنائه للخنازير والكلاب بقصره . وقد أفصح هذا
المرح عن وجه الحق في إتهاماته هذه وغيرها بما كان يحز في نفسه هو ومن كانوا
حوله حين كانوا يرون السلطان يقرب الهنادكة إليه ويعاملهم بالتسامح والتكريم
مصدر السابق ٣١٤ »

ولم يكن أكبر كذلك يتناول سوى الماء القراح ، وإن كان قد عكف في شبابه على تناول النبيذ بعض الوقت .

كذلك اجتبي الپادشاه اليسوعيين الذين وفدوا إلى بلاطه ليستمع إلى بيان النصرانية من أفواههم لا من بطون كتبهم ، فأكرمهم ، وكانت لهم بعوث تبشيرية تئشر في مستعمرات البرتغاليين بالهند ، حتى حملوا على تحمل رعبته في التنصير ما أظهره من التبجيل والتوقير للإنجيل حين رفعوه إليه ، ولأيقونة المسيح وأمه البتول حين أطلعهوه عليها ، وما كان من رده المذهب عليهم ، حين عرضوا عليه الدخول في ملتهم ، فقال لهم بأن الأمور كلها تجري وفق المشيئة الإلهية . وقد تجاهلوا موقفه منهم حين كانوا ينجحون إلى التحامل على الإسلام فيردهم عن ذلك بما أثر عنه من رفق ولطف .

استمع أكبر إلى هؤلاء جميعا في حرية وتساح ديني مطلق وقت أن كانت أوروبا تحتاجها موجات مدمرة من التعصب ، فالكاثوليك كانوا يفتكون بالبروتستانت في فرنسا ، والبروتستانت كانوا يذبجون الكاثوليك في إنجلترا ، ومحاكم التفتيش كانت تنكل ببقايا المسلمين واليهود في إسبانيا ، ورجال الكنيسة بإيطاليا كانوا يحرقون بشهمة الهرطقة جمهرة من العلماء

تدين لهم المدنية والحضارة الحديثة بالكثير .
 والمعروف أن هذا الأمير التيمورى الذى كان يعمل ، فى
 سبيل بلوغ الحقيقة ، على استخلاص الحسن من الآراء المختلفة
 التى قد تنتهى به إلى غايته ، هداه تفكيره الفلسفى وبصيرته النفاذة
 إلى أن يرى الديانات عموما ، بعد اطلاعه عليها ، كأنها رموز
 مختلفة تمثل الأسرار التى تحيط بالكون وأهله . لذا ودّ لو أنه
 استطاع إزالتها فى مذهب جديد يقوم على التوحيد ، ويجمع ما فى
 هذه العقائد من فضائل ، ويقضى على الخلاف بينها . ويزيل ما بين
 الناس من فوارق ، ويدعم أخوة الإنسان لأخيه الإنسان
 ليبلغ بذلك كله إلى قيام التجانس التام فى مجتمع بلاده .
 إلا أن مسعاه لم يتكلل بالنجاح فى مؤتمر الأديان الذى عقده
 فى « عباد تخانه » ، وحشد له الصفوة من رجال الأديان وشيوخ
 للعقائد على اختلاف مللهم ونحلهم . ذلك أن هؤلاء الأعلام لم
 يتبادلوا فيما بينهم إلا أفطع التئهم وأخش الشتائم (١) .

١ — اقترح أحد الناظرين ، وكان يدعى شيخ قطب جيسى ، أن تختبر المسيحية
 بزاء الإسلام بمحنة النار ، وذلك بأن يخوض وأحد القساوسة اللهب ، فمن خرج منه
 سالما كانت فرقته صوت الحق فى الأرض ، لكن اليسوعيين رفضوا ذلك وخافوه
 « منتخب التواريخ ثلث ٢٩٩ » .

وعلى ذلك فقد أدرك أكبر ، قبل أن يأتى الفلاسفة المحدثون
بمن طويل ويقرروا ، على وجه التحقيق ، أن المعتقدات مستقلة
تمام الاستقلال عن العقل الصرف ^(١) .

ورغم سخريه البادشاه من هؤلاء جميعا فقد راح أصحاب كل
مذهب وعقيدة يدعيه بدوره لنفسه في غير تورع ولا استحياء
ادعاه الزرادشتيون حين وضع علاماتهم على ثيابه ،
وادعاه الهنداكة حين رأوه يمتنع عن أكل اللحم ويحرم الصيد
واستخدام البصل والثوم في طعامه ، ويحض الناس من حوله على
ذلك . ونسوا تشدده المطلق في محاربة عادة الساقى الخاصة بهم -
حيث تقبل الأيتم التي ليس لها ولد على حرق نفسها مع جثمان
زوجها - حتى تدخل بنفسه لإنقاذ إحدى نساء الأشراف ومنع
عشيرتها من إرغامها على ذلك ^(٢) . كما أباح زواج الأرامل
وحض عليه ، على خلاف شرائعهم .

وادعاه النصارى حين أمر وزيره أبا الفضل بترجمة الإنجيل

١ — اختلان التوازن العالمي لجوستاف لوبون ص ٣٥١

٢ — هي ابنة أداى سنغ وأرملة جاي مل أحد أبناء عمومة راجا بهكوان داس
من زعماء الهنداكة المقربين من البادشاه . وقد ركب أكبر بنفسه لإنقاذ هذه الأميرة .

وَأَدْخَلَ دراسة النصرانية في تعليم ابنه ، ولم يمانع — على حد قولهم — في تنصير أحد من أهل الهند ، على الاختيار .
 رزعموا أنه ، بفضل تعاليمهم ، أحوال المساجد في حاضرتهم إلى
 سيطرات للخيل والبقيلة ، بدعوى الاستعداد للحرب ، وأمر بحرق
 المصاحف وحرّم ذكر النبي الأكرم بيلاطه واقتصر على زوجة
 واحدة ، وحرّم على أتباعه المسلمين ختان أولادهم الذكور حتى
 يبلغوا الخامسة عشرة من عمرهم فتسكون لهم الخيرة فيما يعتقدونه
 من الأديان (١) .

وعلى هدى نشأه اللغة الأوردوية في الغالب - وهي مزيج
 من لغات الفاتحين المسلمين ولغات الهند ، نشأت نشوء
 عزيزاً من اختلاط هؤلاء الشعوب بعضها ببعض ، حتى غدت
 بالكاد لغة الهند القومية - هدت أكبر قريحته ، بمعاونة وزرّه أبي
 تفضل وأخيه فيضى ، إلى ابتكار مذهب جديد يتألف كل ما هو
 حسن في سائر العقائد على وجه يقضى ، فيما ظنه ، على تناحر الفرق
 والأديان ويهيئ السلام للناس والأمن للدولة .

وهذا المذهب الذى يُعرف في التاريخ باسم « دين إلهى »
 والذى يقوم على تمجيد الله وينادى بوحدة الوجود ويمتزج فيه

التصوف والفلسفة بالعبادات : فيه البادشاه هو الإمام العادل^(١) ظل الله على الأرض ، والمجتهد الأكبر ، من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد خسر الدنيا والآخرة .

وكان من رسوم هذه العقيدة الجديدة ، التي رمى أصحابها فيها إلى تمثيل عقائد الهند كافة أحسن تمثيل ، أن يقر المؤمن بها باستعداداته لتضحية أملاكه وشرفه وحياته وعقيدته في سبيل البادشاه ، وأن يقتصر في غذائه على النبات ، ويمتنع عن تناول اللحم أياما كثيرة مرسومة ، ولا يجالس الجزارين والصيادين وغيرهم من قتله الحيوان ، ولا يحبس حيوانا أو طيرا عنده ، ويتجنب البصل والثوم ، وأن يبذل الصدقات للفقراء والمعوزين البهل والثوم ، وكانت تحيتم فيما بينهم هي : « الله أكبر » وجوابها : « جلّ جلاله » ،^(٢)

١ — فكرة الإمام العادل هي عند أكبر بتأثير المذهب الشيعي ونظرية 'شبهى المنتظر' ، حتى اضطلع له تقويما جديدا يبدء من عام ارتقائه للعرش . وهو ما حدث به كذلك في الغالب إلى أن يوحى لفريق من المؤرخين ، وعلى رأسه مولانا أحمد دود بن قاضى تان . بكتابة « تاريخ أنى » الذى يضم تاريخ المسلمين وسلاطينهم إلى العام الألف من تاريخ انتقال النبي الأكرم إلى الرفيق الأعلى .

٢ — لم يقل أحد من المؤرخين بدعاء أكبر الألوهية أو النبوة . وما يذكره بداونر في هذا العدد (منتخب التاريخ ثان ص ٢١٠) — وكان من أشد الناقين على هذا —

وقرن أكبر إعلانه لمذهبه هذا بإصدار طائفة من التشريعات الاجتماعية المفيدة . فمنع عادة الساقى ، وأباح لأرامل الهنادكة الزواج ، وحض الناس على الاكتفاء بزوجة واحدة والابتعاد عن البناء بالأقارب الأقربين لما ينجم عن ذلك من ضعف النسل وفقر في الميل ، ومنع زواج الأطفال دون البلوغ (١) . وزواج النساء المتقدمات في السن بشبان يصغرهن بكثير .

وفرض كذلك عقوبات صارمة على مثيرى الشغب والشجار ، كما منع تعاطى الشراب وتداوله ، وأمر بعقاب شارب الخمر وبأنعها ومشتريها وصانعها ، وقصر بيعها للتداوى على متجر خاص بمقربة من قصره وجعل به سجلاً يثبت به اسم كل مريض يتعاطاها واسم أبيه وجده وترخيص الطبيب له بها (٢) .

== المذهب الجديد — أن البادشاه رغب عام ٩٨٣ هـ في ضرب عبارة « الله أكبر » على السكة والغاتم الشاهاني ، فنصحه أحد رجاله بأن يستبدلها بقوله تعالى « وتذكر الله أكبر » حتى لا تحمل الأولى على ادعاء الألوهية ، فاحتج عليه السلطان بأن كل ما في الأمر هو موافقة مقتضى الحال ، فكيف للإنسان أن يرقى إلى ادعاء الألوهية وهو على ما هو عليه من العجز والضعف .

١ — نص هذا التشريع على أنه لا يقل سن الشاب عن ستة عشر عاماً وانفاذ عن أربعة عشر .

٢ — يرى بداوني في هذا الإجراء تنظيمياً غير مباشر لتعاطى الشراب فخب وترخيصاً مقنناً به ، وبلغ من فطر تحامله هنا أن صرح بأن النيذ يدخل لحم الخنزير ==

وأمر كذلك بجمع البغايا في دار تدعى « شيطانپور »
أى محلة الشيطان ، ووكل بهن عاملاً خاصاً يقوم على شئونهن ،
ثم أخذ من بعد ذلك يستدعى إليه كل واحدة منهن فيستوضحها عن
أغواها ودفع بها في طريق الشر والفساد ، لينتهى من ذلك إلى قتل
كل من ثبتت هذه التهمة عليه .

ولم يكتف بتعميم هذه الدور في مناطق كثيرة ببلاده حتى
أمر بأن يساق إليها كل زوجة يثبت إدمانها على الخصاص
والشجار مع زوجها .

هذا كما منع من استرقاق أسرى الحرب ^(١) واختلاط النساء
بالرجال في الأسواق وعند شواطئ الأنهار طلباً للسقى
أو الإغتسال .

وأعفى الهنادكة من ضريبة الرؤوس ورفع عنهم رسوم

== في صناعته « مستخب التواريخ » ثامن ٣٠١ »

١ — هذا الإجراء يعد ، على ضوء ملائمت القرن السادس عشر الميلادى ،
من أنبل ما شرعه ملك ، فضلاً عن تحقيقه لهدف من أهداف الإسلام الإنسانية الكبرى
في الدعوة للتعمير وفك الرقاب . ولا ننسى أن الهنادكة كانوا يسقطون عن الأسرى
قيمتهن الإنسانية فيسلكونهم في عداد المنبوذين . هذا وتجد بيان هذه التمريمات جلياً
في الجزء الثالث من آيين أكبرى لآبى الفضل بن المبارك بمواضع عديدة
متفرقة منها .

الحج (١) ، حتى يشعروا بقيام المساواة التامة بينهم وبين مواطنيهم من المسلمين . ولم يكتف بأن يصرح للذين أجبروا في صباهم على الإسلام أن ينظروا متى بلغوا سن الرشد ، في البقاء على إسلامهم أو الرجوع إلى دين آبائهم ، حتى راح ينادى بحرية الناس جميعا في تخيير ما يروقهم من الأديان والعقائد ، ويسدى لهم النصيح بالألا يتعرضوا للذين يخالفونهم في عقيدتهم بسوء أو أذى ، وأن يسلكوا معهم سبيل المودة والرحمة حتى يصلوا وإياهم إلى معرفة الحق .

والحق أن أكبر لم يحاول أن يحمل الناس أبداً على الدخول في مذهبه الجديد هذا . ولم يلق بالآ إلى رفض راجا بهگون داس وراجامن سنغ (٢) الاستجابة إلى دعوته ولا إلى احتجاج قائده عزيز ككا برغم أنه كان بوسعه . بطبيعة الحال - أن يحمل كثيرا من رجاله على الانتظام في حزبه .

١ — كان ينبغي من الهنادكة رسوم معينة نظير السماح لهم بالحجيج إلى أماكنهم المقدسة ، وهذه هي التي رفعها أكبر عن كاهلهم — هذا وكان أكبر هو كذلك أول من سير المحمل الهندي إلى الأراضي المقدسة.

٢ — كان من رد مان ستغ على البادشاه أنه يعرض حياته دائماً للموت في سبيل السلطان ، وأنه على دين الهنادكة ، فإذا ما طلب إليه أن يسلم فقد يفعل ذلك ، وهو لا يعترف بشير هاتين الملتين على كل حال .

وإثن التف فريق من الناس حول المذهب الجديد جلبا
للنفع وطمعا في اكتساب الحظوة في الغالب ، فإن الفشل التام
قد أصاب الپادشاه في ،شروعه هذا الذي لم يكن ليقوى أبدا على
هدم التقاليد الموروثة ، فلبثت الغالبية العظمى على استمساكها
بعقائدها ومذاهبها .

ولم تكن حركة أكبر هذه إلا واحدة من المحاولات
القوية التي اضطلع بها نفر من المسلمين والهنداكة ، من قبله ومن
بعده ، للتقريب بين الإسلام والهندوكية وتضييق شقة الخلاف
بينهما وإحلال التفاهم وتحقيق الوحدة بينهما .

وهذه التعاليم ، التي اضطلع بها كيتانيا ونانك وكبير
وداراشكوه ، يلاحظ فيها تأثير التوحيد الإسلامي تأثيرا
كبيرا ، حتى أترى فرقة السيک الهندوكية تجهر صراحة بتعظيم
النبي الأكرم على الخصوص ، وتمجيد القرآن الكريم .

وأدت هذه الحركات في الغالب إلى إضعاف روح التعصب
الديني والعِرقي وأوهنت من ضغط نظام الطبقات إلى
حد كبير .

وبنح أكبر بتسامحه الشديد على كل حال إلى كسب ولاء
الهنداكة حتى أولئك الذين لم يعتنقوا مذهبه الجديد ، واستطاع

عموما أن يحقق لبلاده الوحدة السياسية التي كان يهدف إليها
ويعمل في سبيلها (١) .

نظام الدولة : لئن كان أكبر بوصفه البادشاه هو صاحب
السلطان المطلق في الدولة الذي يوجه أمورها وفق هواه ، إلا
أنه سار في حكمه على مقتضى العدل والتسامح المطلق ، فنظر إلى
رعاياه دون أدنى تفرقة في الدين أو الجنس ، فمارسوا جميعا
حقوقهم الدينية على اختلاف مللهم ونحلهم في حرية تامة ، في
الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبا ينسكتلون أصحاب المذاهب

.....

١ - لم يصرح أكبر في الواقع بشكره للإسلام أو خروجه عليه وإن انشغل
حملة من شيوخ المسلمين . ومع ذلك فلا نستطيع أن نقول بتمسكه بدينه ، فقد
كانت السياسة هي دينه ، ووحدة أهل الهند تحت سلطانه هي عقيدته . وما
ذهب إليه السيد أمير علي ، العلامة الهندي ، من أن أكبر « لم يفل في حياته
تعاليم الرسون والأئمة » (Islamic culture. October 1927) إنما كان
لتمسكه حقيقة بفضائل الإسلام الكبرى ، وإن لم ينف ذلك عنه ورعده
الجنون في بعض مسائل الفروض والعبادات بما يخالف الشرع ، فضلا عن تأثره بفكرة
التسامح عند الهنود وإعجابه بما تدعوا إليه الويشنوية من إعادة اكتشاف
الإنسان نفسه وإدراك شخصيته خارج الحدود التي تفرضها العرف وترسمها التقاليد
الدينية ، واقتناعه بأراء اليوبانشاد في القول بأن كل إنسان إنما يسمى السكان
الإنسي باسم يلائم وجهة نظره .

التي تغاير مذاهبهم في المسيحية على ما كان يفعل الأليزابيثيون مع
كاثوليكسي أيرلندا، وأصحاب فيليب الثاني ملك أسبانيا مع
البروتستانتين .

كذلك لم يكن هذا الأمير المغولى ليردد عن مشاورة رجاله
في تصريف شئون الدولة على أحسن وجه يكفل صالح الأهلين ،
حتى بلغ من حرصه على إسعادهم أنه لم يعارض في فرض ضرائب
جديدة عليهم لحسب بل ورفع عنهم كذلك قدرأ مما كان يفرض
عليهم من قبل .

وهذا السلطان، الذي قيل أنه قد أوتي حظاً وافراً من راحة
العقل حتى صار الموجه الفعلي لسكافه المشروعات والإصلاحات
التي تمت في عصره ، كان يعتمد ، أكثر ما يعتمد ، في تصريف
الأمور على طائفة من كبار الرجال في الدولة وعلى رأسهم وكيل
السلطنة ، وكان في أول عهد به بالحكم بيرم خان قائده ومربية .
ويأتى من بعد الوكيل في المرتبة الوزير أو الديوان . وهو القيم على
شئون المال في الدولة ، وكان يشغل في العادة مركزاً كبيراً
في الجيش (منصبدار) شأنه في ذلك شأن جميع أصحاب المناصب
في الدولة ؛ و يليه مير بخشى وهو الذى يقوم بدفع مرتبات الجند
والقادة ويشرف على شئون القوات جميعها ، ويُعد مستولاً

بصفة خاصة عن جيش السلطان الخاص . ويأتى من بعده
خان سامان وهو صاحب شئون البلاط ، وكان يلزم پادشاه
فى حاله وترحاله ويشرف على شؤنه الخاصة جميعها . ثم قاضى
القضاة وهو الموكل به شئون العدل وإجرائه وفق الشرع .
وأخيرا المحتسب وهو الذى يراقب سلوك الناس ويمنع ممارسة
البدع وارتكاب ما ينافى الشرع والآداب عموما .

وإلى جانب هؤلاء الكبار ، كان هناك فريق آخر من أصحاب
المناصب المهمة ، دونهم فى المنزلة ، مثل المستوفى ، محاسب الدولة
الأول ، والكتّوب وهو بمثابة رئيس الشرطة ، وكان يوكل
إليه حراسة المدينة فى الليل والبحث عن اللصوص وقطاع
الطرق ومراقبة السكان ورقابة الأسواق ، ثم صاحب البريد
: أمير العرض الذى يرفع إلى پادشاه الالتماسات والشكاوى .

وبلغ من حرص أكبر على ضمان العدل فى دوائه أنه كان
ينظر بنفسه فى القضايا الكبرى التى كان على عماله بولايات
الدولة أن يبدعوا بها إليه ، كما كان يفتح أبواب قصره للناس
حرما معلوما فى كل أسبوع ليتلقى منهم ظلاماتهم بنفسه أو يتلقاها
من ينيية عنه من ثقافته حين كان يتغيب عن مقره .

وكان صدر الصدور (المفتى) وقاضى القضاة ومساعدوهم

يعاونون الپادشاه عادة في الفصل في ذلك كله وفق قواعد الشرع الشريف ، مع مراعاة رسوم الهنادكة وشرائعهم فيما يعرض لهم من مشا كل ويقوم بينهم من خصومات .
وقد ألغى أكبر كثيراً من العقوبات البدنية التي تتنافى مع الإنسانية ، كبت بعض أعضاء البدن ، وأمر أن يكون تنفيذ أحكام الأعدام منوطاً بمصادقته شخصياً على الحكم .

هذا ولم تكن الدولة الإسلامية في الهند ، قبل عصر أكبر ، تعرف التقسيمات الإدارية في الغالب ، اللهم إلا ماذهب إليه شيرشاه في هذا الباب من قبل ، إذ كان تحديد الإقطاعات رهناً بمشيئة السلطان وحده .

وانتهى أكبر إلى تقسيم أراضي الدولة إلى ولايات « سِيَّه » ، وكل ولاية إلى عدة مراكز (سرکار) وكل مركز إلى جملة دساكر (برگنا) .

وكانت هذه الولايات في أول أمرها اثنتي عشرة ، حتى إذا ما فُتحت الدكن بلغت خمس عشرة هي : آگرا والله آباد وأوده ودهلي ولاهور والمثلتان وكابل وآچمير والبنغال وهار

وأحمد آباد ومالوه وموار وخاندش وأحمد نگر (١) .
 ورأس كل ولاية ، في هذا النظام ، يدعى سبها سالار ، أى
 القائد العام ، وهو نائب السلطان بها . ولم يكن له أن
 يدخل في حرب أو يبرم التحالف والصلح دون مشورة السلطان
 ورأيه .

وهو المشرف الأول على شئون القوات والقضاء في إقليمه .
 وله أن يعيّن صغار العمال ويقيلهم . ولم يكن له أن يتدخل في
 الأمور الشرعية التى هى من اختصاص الصدر وحده ، أو يصدر
 أحكامه بالإعدام دون إذن السلطان نفسه .

ويليه في المنزلة ثمانية من أصحاب المناصب الكبيرة وهم :
 الديوان ، والصدر ، والعامل ، والبتخشى ، والخزندار ، والفوجدار
 المكتول ووقائع نويس . وبيان وظائفهم هو كالآتى :

الديوان : وبناطبه شئون المال بالولاية ، وهويل السباهسالار
 المرتبة . وكان فى أول أمره يعيّن من قبل أمير الأقليم
 نفسه ، حتى رأى السلطان أن يجعله تابعا له ليكون رقيبا من لدنه
 على كل ما يصدر عن الحاكم من تصرفات وأفعال ، ويحسد من

سلطانه كذلك إذا لزم الحال .

الصدر : وهو صاحب الشريعة في الإقليم كله، وكان في العادة من العلماء أصحاب المهابة ، ويأتمر القضاة ورجال العدل بأمره .
العامل : وهو صاحب الخراج ، وكان عليه أن ينظم جباية الضرائب ويراقب عُماله جميعا في بقطة تامة وحذر على وجه العدالة ، وأن يجرى تقدير خراج الأرض على درجة خصوبتها وجودتها، وأن يعمل على تأمين الناس على أنفسهم وما يملكون ، ويظهر الطرق والسبل من اللصوص وقطاع الطرق ويراقب البيع والشراء .

البتخشي : وهو المحاسب الذي يراجع أعمال العمّال ورجال الدخولية ، ويشترط فيه أن يكون ماهرا في الحسابات ملما بأصول الخراج ونظمه وأسس الإيرادات والمصروفات . وأن يسجل ذلك كله في سجلاته بالتفصيل .

الخزّندار : وهو صاحب الخزانة الحافظ لأموال الدولة ، وعليه أن لا يخرج مالا دون إذن الديوان ، مع إيصال بالتسليم ، ويثبت ذلك كله في دفاتره .

القوجدار : وهو القائد المباشر لقوات الولاية ، وعليه أن يعاون السبّهسالار في إقرار السلام في الإقليم كله ، ويعين العمال

من تحصيل الضرائب من أهل القرى والديار الذين يتمتعون
بأدائها ، على أن يكون ذلك بطلب مكتوب وتصريح من
الحاكم وكان هو الذى يطارد بقواته عصابات اللصوص وقطاع
الطريق ويخمد كل عصيان أو فتنة تنشب فى الإقليم .

الكوتول : وهو صاحب الشرطة والمنوط به مراقبة تنفيذ
الأوامر والقوانين فى المدن .

قائى نويس : وهو مسجل الوقائع ، وضابط الاتصال بين
الحكومة المركزية والولاية ، والرقب الذى لا تخفى عليه فى الإقليم
كله خافية .

وبواسطة هؤلاء الرقباء كان الپادشاه يقف على كل أمر ،
صغير أو كبير ، يجرى فى كافة نواحي دولته المترامية الأطراف .
وكان ، على كل واحد من هؤلاء أن يحيط أمير الإقليم ورجاله علما بما
يبلغه من الحوادث والوقائع قبل أن يرفع خبرها وتفصيلها
إلى السلطان .

وبرغم أن الپادشاه كان قد أحكم نظام الرقابة على عماله جميعا
فى مختلف أنحاء دولته فأقام من كبارهم رقباء بعضهم على البعض
لآخر ، فإن صعوبة المواصلات وتراعى المسافات ، مع اشتغال
الدولة نفسها بالحروب والغزوات المتواصلة فى الغالب ، قد

اضعف من جدوى هذا النظام حتى صار حكام الأقاليم يتصرفون
عموما وفق هواهم وعلى مسئوليتهم الخاصة.

وامتدت إصلاحات أكبر كذلك إلى نظام خراج الأرض
الذى كان يُعد أهم موارد الخزينة بعد رفع ضريبة الرءوس عن
كاهل الهنادكة وإعفائهم من ضريبة الحج .
ولم يكن هذا السلطان هو أول من أجرى ضريبة الأرض
على نظام كفل العدل للمسلمين والهنادكة على السواء ، فقد سبقه
إلى ذلك شير شاه سوري ، وإن كان خلفاؤه قد عدلوا عنه من بعده
فناثروا النهج القديم مع ما كان فيه من إجحاف بالغ الأهلين .
وحين عهد أكبر إلى تدمير مل وزير ماليتة ديوان أشرف ، بوضع
نظام ثابت لخراج الأرض يوفى للدولة حقوقها ولا يضار
الاهلون به ، عمد هذا الأخير أولا - على ضوء تجاربه السابقة
بالكجرات حين عهد إليه بتنظيم شئونها - إلى مسموح أراضى
الدولة كلها وبيان ما يوجد منها فيُزرع على مدار السنة ،
وما يُزرع منها مرة واحدة في العام ، وما لا يُنسب إلا مرة واحدة
في كل بضعة أعوام ، وما يعتمد منها في السقى على الأمطار ،
وما يسقى منها من الأنهار والينابيع والآبار ، وما هو في حكم

البور ، وما يقع منها في السهل أو يقوم على سفوح الجبال أو تغطيه
الأحراش والغابات (١) .

حتى إذا تم له ذلك كله ربط الضريبة على متوسط الإنتاج
في عشر سنوات ، على أن يكون للدولة ثلث المحصول نقدا في
الغائب ، بعملة العصر ، وكانت دقيقة الصنع مضبوطة الوزن ، مالم
يصب الزرع بآفة أو ينقطع الماء عن الأرض فتجذب .

كذلك حاول أكبر جاهدا أن يدرأ عن بلاده خطر المجاعات
المروعة التي كانت تدهمها حين كالت تجذب الأرض بسبب
انحباس الأمطار الموسمية عنها . فاهتم إهتماما بالغاً باستصلاح
الأراضي البور ، وحضر الأهلين على الاشتغال بالزراعة
وتوسيع رقعة الأراضي المزروعة ، وأمدهم بما يحتاجونه من البذور
ويعاونهم على زيادة إنتاج الأرض .

وكان من ثمرة هذه الجهود أن نعم الناس في الغالب بحياة طيبة
لم يألوها منذ زمن بعيد ، وازدهرت عيشتهم ، وصارت الأسعار
في متناول أيديهم جميعا .

وقد اقتبس البريطانيون أغلب نظم أكبر ، الحكومية والإدارية

والإقتصادية، حين صار إليهم زمام الأمور في الهند .
وثمة إصلاح آخر بالغ الأهمية أجراه الوزير الهندوكي
تدرمل ، بتوجيه من سلاطانه ، حين أمر بتحرير سجلات الدولة
كلها بالفارسية ، لغة المسلمين الرسمية بالهند إذ ذاك ؛ فأقبل
كثير من عمال الدولة من المسلمين الهنود والهنادكة على تعلم هذه
اللغة ، مما أدى إلى رواجها رواجاً كبيراً (١) ، ففي اليوم ثانی
لغات العالم الإسلامي انتشرا بعد العربية .

ومهد هذا الإجراء لظهور الأوردوية المكتوبة ، تلك اللغة التي
هي مزيج من لغات المسلمين ولغات الهند ، والتي نشأت نشوءاً
غريزياً من صلات سكان الهندستان من المسلمين والهنادكة
بعضهم ببعض ، لتأخذ صورتها الأدبية بعد قليل وتعم البلاد كلها .

الجيش : جرى سلاطين المسلمين في الهندستان على الاستعانة
في حروبهم بما كان يمدّهم به أصحاب الإقطاعات من الرجال
في الغالب . وكانت هذه الحشود ، على ضخامة عددها تجهل
أساليب القتال وفنونه عموماً ولا يتيسر لها فرص المراتب والتدريب .
حتى إذا ما قضى أكبر على نظام الإقطاع وصارت

يُراضى كلها ملكا للدواة ، وغدت ولاياتها تحكم بواسطة
نواب للسلطان يوليهم شئونها على نظام مرسوم ، رأى أن
ينهج في تنظيم قواته الحربية نهج علاء الدين الخلاجي وشيرشاه
سورى من قبل ، فتعدو للدواة قوات نظامية دائمة تقوم بدفع
تجورها من الخزانة العامة .

وكان من بين هذه القوات من يعمل تحت إمرة الپادشاه
نعمه فى بمثابة حرسه الخاص ، ومنها من كان يعمل تحت
إمرة حكام الولايات . هذا عدا القوات الخاصة التى كان
يحتفظ بها أصحاب المناصب الكبرى فى الدولة (المصبدارية) .
وقضى هذا النظام على كثير من مساوئ سابقة ، ومنها
ما كان يبذله الأمراء عادة من الرشاوى للحصول على إقطاعات
واسعة نظير ما يتعهدون به من إمداد السلطان بالجند والمؤن ،
وما كان يستتبع ذلك من إرهابهم لسكان الإقطاع وابتزازهم
لأقواتهم ومصادرتهم لأموالهم وأملأهم .
هذا وكانت قوات أكبر المسلحة تتألف من المائة والمدفعية
والفرسان والبحرية .

والمشاة ، إذا استثنينا منهم حملة البنادق (بندقجى) وأرباب
السيوف (شمشير باز) ، لم يكن لهم فى المعارك شأن يذكر فى

الغالب . فعامتهم ، على كثرة عددهم ، كانوا يضطلعون بخدمة القوة العاملة ونقل المؤن ورعاية الدواب وحراسة المعسكرات ليس غير . أما سلاح المدفعية ، وهو الذى أتى به ظهير الدين بابر إلى الهند على ما ذكرنا من قبل ، وعرفه السكجراتيون من بعد ذلك على أيدي البرتغاليين الذين كان لهم مستعمرات بشاطئهم فاستخدموه فى حروبهم مع همايون ، فقد كان مناط عناية الپادشاه الكبيرى حتى كان يشرف على كل شئونه بنفسه . وأغلب خبراء هذا السلاح كانوا من رجال فرغانة ومن العثمانيين ومولدى البرتغاليين بالهند . وبلغ من اهتمام أكبر بهذا السلاح وحده على إدخال كل تحسين ممكن عليه ، أنه احتال على تيسير استخدام قطعه الثقيلة ، التى كانت تستنفد جهود الرجال عند نقلها من مكان إلى آخر ، بأن وجه مصانعه إلى صنعها من قطع صغيرة يسهل فكها وتركيبها ويهون حملها ونقلها على جنده . وأما سلاح الفرسان فكان هو القوة الضاربة الرئيسية فى الجيش ، حتى كان الپادشاه يوالى بنفسه التفتيش عليه ويختبر خيوله ، وينزل إلى حظائرهما ، ويراقب تدريب رجاله .

وإلى جانب الفرسان كانت هناك وحدات الفيلة ، وقوام كل واحدة منها كان يتراوح بين العشرة والثلاثين . وكان

كل فيل يحمل إسمًا خاصا به على العادة التى لاتزال تجرى بتلك البلاد حتى اليوم .

كذلك عُنَى أكبر بتدعيم سلاحه البحرى وإن لم يبلغ به إلى درجة الأساطيل التى كانت تجوب أعالي البحار فى عصره على كل حال . وأغلب سفنه كانت تعمل فى أنهار الهندستان وفى حدود موانيه ، ومن بينها ما كان يحمل المدافع الخفيفة وآلات الحرب .

وقام ، بتشجيع من السلطان وتوجيه منه ، عدة مصانع لبناء السفن مختلفة الأحجام والأشكال فى لاهور وأحمد آباد وكشمير . وكان يعمل على هذه السفن فريق من مهرة الملاحين الذين كانوا يقدون من ساحل الملبار وكببای ليلاقوا من تقدير البادشاه ما انتهى إلى تقرير رتب لهم نظير رتب الضباط فى جيشه البرى .

هذا وتباین أقوال مؤرخى أكبر فى تحديد عدد قواته ، حتى ليذهب بعضهم إلى تقويم الفرسان عنده بأربعائة ألف والمشاة بما يقرب من أربعة ملايين .

والثابت المعروف أن الجيش الذى سار به البادشاه للقضاء على فتنه أخيه حكيم خان عند الحدود الشمالية الغربية كان يضم

قرابة خمسين ألفاً من الفرسان مع خمسة آلاف من فيول الحرب والوف
كثيرة من المشاة ، وجميعهم كانوا يقاتلون ، رتباتهم من الخزانة العامة .
ومن الطبيعي أن يتضاعف هذا العدد حين تنضم إليه قوات
الولايات ، وينكمش إلى ما دون ذلك بكثير أيام السلم .

الحياة والفكرية والثقافية : وقف المؤرخ عبد القادر
ابن ملوك شاه بداوني المجلد الثالث من كتابه « منتخب التواريخ » على
ذكر من عاصر أكبر واختلط به من الحكماء والعلماء والفقهاء
والمؤرخين والشعراء والأدباء الذين تجاوز عددهم الثلاثمائة .
والواقع أن الهند لم تعرف من قبل أكبر سلطاناً
مثله اجتمع حوله هذا العدد الكبير من رجال العلم والأدب ،
وأتمت نذواتهم عنده ولقوا منه كل إجلال وتوقير وتقدير ،
حتى بلغ من احترامه لشيخه عبد النبي صدر الصدور مثلاً أنه كان
يقدم إليه نعليه بنفسه حين يغادر مجلسه . بل إنه حين بلغه مقتل
وزيره الفضل ، وكان عالماً ومؤرخاً كبيراً مشهوداً له بسعة الإطلاع
وغزارة المعرفة ، اشتد حزنه عليه حتى ودّ لو كان هو المقتول
مكانة ، فنابغ العلماء ، على حد قوله ، لا يجود بهم الزمان إلا في
النادر القليل ، بخلاف الملوك وإن صلحوا .

كان من بين كبار المؤرخين الذين عرفهم بلاط أكبر ،
المؤرخ محمد قاسم فرشته صاحب التاريخ المعروف باسمه ، وعبد القادر
باداوى سالف الذكر ، ونظام الدين أحمد صاحب طبقات أكبرى
بمحمد عبد الباقي صاحب مآثر رحيمى . وكان أبعد هؤلاء
ذكرا وأخلصهم صيتا الوزير أبو الفضل بن مبارك العلائى الذى
نعب دورا هاما فى توجيه آراء الپادشاه الفلسفية ومبادئه المذهبية
على السواء . وله كتابان مهمان أولهما أكبر نامه ، وفيه
يستعرض تاريخ الدولة منذ نشأتها ، وقد أكله من بعده الشيخ
عناية الله لينم به تاريخ حكم الپادشاه كله ، ثم آيين أكبرى الذى
يسعد ثبنا كاملا لتقاليد الدولة المغولية ورسوم البلاط ونظام
الحكومة وقوانينها ، إلى جانب ما يحويه من حديث مفصل عن
المنادكة ورسومهم وعاداتهم وعلومهم .

ولم يكن أبو الفيض فيضى دون أخيه أبى الفضل فى نباهة
الذكر . فهذا الشاعر الذى لم يكن له نظير فى عصره ، حتى كتب فى
المنشوى والديوان أكثر من عشرين ألف بيت ، كان على نبوغ
كبير فى الكتابة والفقه ثم الطب الذى بلغ من شغفه به
أن أرقف علمه به على علاج الناس بالمجان . وترك هذا العالم
من بعده مكتبة كبيرة ضمت قرابة خمسة آلاف مجلد من

النوادر في الشعر والطب والفلك والموسيقى والرياضيات
والفلسفة والحديث والفقه . وقد نقلت جميعها ؛ على أثر وفاته ، إلى
البلاط بعد تصنيفها .^(١)

وإلى جانب فيضى ، اشتهر الشاعران الهندوكيان تنسى داس
وسورداس اللذان كانا يجيدان النظم في الفارسية والسنسكريدية معاً .
ولا أدل على عظيم عناية أكبر بالفنون الجميلة من مخلفات
عصره الفنية الرائعة التي يزدان بها كثير من متاحف العالم الكبرى
اليوم . ولقد وفد إلى بلاطه جملة من مشاهير النقاشين الفرس
وعلى رأسهم ميرسيد علي وعبدالصمد ، فلقوا عنده كل عناية وتشجيع .
ودفع بأكبر ولعه بهذه الفنون إلى أن يأمر بإقامة معرض للنقش
مرة في كل أسبوع تشجيعاً منه للفنانين وتشجيعاً لهمهم وإغراء
لمشاهيرهم بالقدوم إلى بلاده .

ولم يغفل بدوره كذلك عن تشجيع فناني الهنداكّة حتى نشأ
من بينهم طبقة فذة غدت تنافس نقاشى المسلمين في أكثر
من ناحية (٢) .

ولا يستغرب ذلك كله من عاهل أوتي من الأحاسيس الفنية

١ --- بداوتى منتخب التواريخ ثالث ٣٠٥

Laurence Binyon : The court Painters of the — ٢
Grand Moghul . Oxford 1921 .

ما جعله يصريح بأن التصوير هو ضرب من العبادة ، وأن للفنان ،
شيئا يبدو ، طريقته الخاصة بالإقرار بواحدية الخالق المبدع .
فهو ، حين يصوّر الكائنات الحية وينقش أعضائها وأطرافها
وملاحظها على لوحته ، لا بُد وأن ينصرف بذهنه وخياله إلى
التفكير في إبداع خالقها الذى نفخ فيها بما يعجز هو عن
تصويره وإبرازه .

وقد تختلف عن فنانيه لوحات كثيرة سجلت حياة البلاط ورسومه
وكثيرا من مظاهر المجتمع لعصره فى إبداع منقطع النظير .

ومدرسة النقش المغولية التى وضع أسسها أكبر لها اليوم صيتها
الذائع فى عالم الفنون على كل حال .

كذلك كانت مصانعه تخرج طُرُفاه من النسيج المزركش والسجاد
الفاخر المحلى بمختلف النقوش والألوان .

ولم تسكن عناية أكبر بالموسيقى دون عنايته بالتصوير
والنقش . وما تزال الأنعام المغولية وألحانها لها سوق رائجة بالهند
حتى اليوم .

أما العمارة الهندية الإسلامية التى تعد بحق من مبتكرات
العصر الأكبرى ، فى القصور والمساجد والحمامات وغيرها من
المنشآت ، بمدينة فتحپور على الخصوص ، ما يُبعد من بين خير نماذجها

التي تجلّت رائعة فيها بعد في مثنوى تاج محل بآگرا الذي يُعدّ من بين عجائب الدنيا .

وفنون الهند هي جملة ، باعتراف المؤرخين الأوربيين . لم تكن في عصر أكبر دون فنون أوروبا منزلة إن لم تتفوق عليها في بعض نواحيها (١) .

استُلى أكبر في أواخر أيامه بكموارث عائلية حطمت من قوته النفسية وهدّت من كيانه . من ذلك فقدّه لولديه مراد وكدا نيل على التوالي بإدماهما على الشراب ، وعقوق ابنه الأكبر سليم وعصيانه له حتى دبر مقتل الوزير العالم أبي الفضل بن المبارك الأعظم خالصاً الپادشاه وأكبر مستشاريه (٢) .

واشتد الداء على أكبر عام ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م فأسلم روحه إلى بارئها في جمادى الآخر من العام نفسه .

وحاول الخان الأعظم عزيز كسكا ومعه الأمير الهندوي راجامَن سنغ ، والپادشاه في أيامه الأخيرة ، أن يمهّدا للنبادة

V. A. Smith. History of Fine Arts in India and — ١
Ceylon. Oxford 1930 .

٢ — تكمله أكبر نامہ لعتایة اللہ ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣

بالأمير خسرو، ابن سليم وحفيد أكبر، سلطانا على الهند بدلا من أبيه الذي أدى ببغية إلى تمكن كراهيته من قلوب الكثيرين . لكن نديرهما باء بالفشل حين قدم سليم إلى أبيه وهو في النزاع فقلده سيف همايون وعمامته وعهد إليه من بعده^(١).

ولم يكن أكبر بهي الطلعة، وإنما كان قوى البنية مقداما شجاعا، لم يتقاعس أبدا عن مشاركة جنده في أعنف المعارك أو يتردد في مواجهة أضرى النمرة والأسود والفيلة وأشدها شراسة في المصطاد : كما كان يستخف بأربعين ميلا يمشيها في اليوم الواحد : ويندفع بحصانه في مجرى الكنجج إبان موسم الأمطار والفيضان وسيوله الجارفة .

كذلك كان أكبر شديد البر بالناس عظيم الإحسان إلى الطبقات الفقيرة خصوصا، حتى جاوزت رحمته بهم كل مدى وشملهم عدله إلى أبعد حد .

ومن تواضعه أنه كان يتقبل من أهل الطبقات الدنيا هداياهم البسيطة التافهة بنفسه ويضمها إلى صدره ممتنا، مع أنه كان لا يكثر هدايا الأُمراء والأعيان (٢) .

١ — وقاضي « حالات » اسعد بك قزوینی ١٦٩ - ١٧١

٢ — الهند وجيرانها ١٣٧

وكان، إلى جانب نظافته الشديدة، بسيط الثياب في الغالب ، فلم يكن يميل كثيرا إلى التحلى بالجواهر ، غير كلف بأنواع المآكل والمشارب . ولقد أفلح في كهولته عن تناول الشراب ، ولكنه ظل طوال حياته مدمنا على تعاطى معجون الأفيون، وهي رذيلة ظلت تتمكن من كثير من سلاطين الهند وفارس وتركيا أمدا طويلا (١) لتوردهم موارد الردى في سن مبكرة في الغالب .

هذا وكان أكبر طموحا يستمتع بصفات عقلية ممتازة يسّرت له أن يقضى وقتا مرسوما في النظر إلى شئون الدولة وماتقضيته نظمها من ضروب الإصلاحات التي كان يجيش بها صدره ، لينصرف من بعد ذلك إلى الجلوس إلى طوائف العلماء والحكماء الذين كانوا يقدون إليه من كل أمة على إختلاف مذاهبهم ومللهم، حتى شهدت الهند في عصره نهضة عقلية رائعة لم تكن تقل عن نظيرتها بأوروبا إذ ذاك .

وترك أكبر من بعده لا بنه دولة موطدة الأركان تتألف من الشمال الهندى بأكمله مع كابل وكشمير والبنغال وجزء كبير من الدكن .

١ --- جرب البادشاه كذلك التدخين وكان التبغ حديث الورد إلى الهند . وقايعي أسعد بك ١٦٥ --- ١٦٧ ، وفي هذه الصفحات نقاش طريف بين أسعد بك وضيبي السلطان الذي كان يحذره من الأندفاع وراء تقاليد الأوروبيين في عاداتهم دون تبصر .

ممكن أن هو أول من انتقل بالباريين من محاربين وطلاب
المغامرات إلى أصحاب أسرة مالكة عظيمة . ذلك أن بابر ، أول
السلطان المغول في الهند ، كان قد شغل بحروبه ومغامراته وفتوحه
سيرة حياته ، في حين قضى همايون الشطر الأكبر من عمره في
المنفى يجاهد لاسترداد ملكه الذي كان قد انتزعه منه الأمير الأفغاني
شهر شاه سوري ، وطرده من الهند كلها ، ثم كُتب الاستقرار على
على عرش الهند لأبي الفتوح جلال الدين محمد أكبر . فتجلت عبقريته
في تنظيم حكومة بلاده على اتساع رقعتها ، حتى كانت طريقته في الحكم
هي التي أذاعت من صيته أكثر مما أذاعته فتوحاته ، فأجمع كثير من
المؤرخين على أنه أعظم ملك عرفتة الهند ، حتى ليسلك كذلك
بن أعظم الملوك في التاريخ طرا (١) .

جهانگیر

لم يكن أكبر ، وهو من هو في رعايته للعلم والعلماء ، لينسى لابنه سليم مقتله لوزيره المؤرخ العالم أبي الفضل بن المبارك . كذلك لم يكن ليروقه منه ولعه الشديد بالشراب ، حتى جال بخاطره يوما ، بتجريض من صديقه رانا من سنغ وقائده عزيز ككا ، أن يتخطاه بولاية العهد إلى حفيده خسرو .

وحال دون تحقيق هذا الأمر حسن تدبير هذا الأمير حين قدم إلى أبيه مستتبيا عما بدر منه من عصيان وعقوق في السابق ، ليجلس من بعد ذلك على عرش الهند في آگرا في الثامن من جمادى الثاني عام ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م باسم السلطان أبي المظفر نور الدين محمد جهانگیر .

وبرغم ما كان من ميل هذا الأمير للشراب ، فقد كان على درجة كبيرة من الثقافة ، شغوفا بالمعرفة التي نشأه أبوه عليها ، متشبها بالتسامح المطلق الذي دأب أبوه على غرسه في نفسه وبشئة فيه ، حتى غدا في ذلك كله بصورة محبرة لسلفه أعظم سلاطين

هند المسلمين بلا شبهة .

ودفع جهانگیر حرصه البائع على ضمان إجراء العدل
بخطائق في دولته ، بالوقوف على شكاوى رعاياه والظر في تحقيقها
بنفسه ، إلى أن أمر بمد سلسلة العدالة التي ذاع صيتها عنه : « أول
ما أمرت به بعد جلوسى على العرش هو مد سلسلة العدالة لأطلع
بنفسى على شكاوى المظلومين من إهمال رجاى ديوان العدالة
لأمرهم ، » (١) . وكانت سلسلة من الذهب الخالص تطول
بلائين ذراعا ، وتتدلى منها أجراس سبعة ، وتمتد من شرق
البرج السلطانى الخاص بقلعة آگرا لتبلغ أسطونا شُدت إليه
عند شاطئه جمئة . والغالب أن سطوة الحكام ونفوذ العمال
كان أقوى من إرادة السلطان ، فلم تُحرك هذه السلسلة وتهز
أجراسها إلاّ مراتٍ قليلة .

هذا كما كان فى أسفاره ورحلاته الكثيرة لا ينى عن تفقد
أحوال الناس والجلوس إليهم وتحقيق مظالمهم بنفسه .
دستور أمل : ودعم جهانگیر صنيعه هذا بإصدار « دستور
أمل » ، وهو أنثى عشرة وصية وجهها إلى عماله ليسيروا على

١ — واقعات جهانگیرى ص ٢٨٥ . وهي تقليد جرى عليه بعض حكام الصين الإقليمين .

هدايا في علاقاتهم برعاياه وتديرهم لشئون الدولة .
وقد نظم هذا الدستور وظائف الدولة ومنصبها المدنية والعسكرية والدينية على السواء ، وفسر شئون الميراث وقوانين الضرائب ، ودفع عن كاهل الأهالي ما كانوا يلزمون بدفعه للولاية والعمال من الضرائب ليفيدوا منها لأنفسهم ، كما حظّر تطبيق العقوبات التي تؤدي إلى جلد أو قطع الأذن أو بترأى عضو من أعضاء البدن مهما بلغ عظم ذنب المذنب . كذلك حرّم هذا الدستور تعاطى الشراب وصناعته وتجارته ، وحضّر على إقامة دور الشفاء في كافة أنحاء البلاد وتزويدها بالأطباء ، على أن تقوم الدولة بالإعفاق عليها ، فتصرف الغذاء والدواء للمرضى بالمجان ، وحرّم على الولاية والعمال استخدام أقاربهم في مناصب الولايات أو مصاهرتهم إلى الأهالي دون إذن صريح من السلطان ، وحشّهم على إضفاء الأمن والطمأنينة على الناس فلا تغتصب أملاكهم أو أموالهم ، وأن يكفّوهم أخطار اللصوص وقطاع الطرق بتعمير الأرض الخلاء التي يأوى الأشرار عادة إليها ، وذلك ببناء الدور والمساجد بها وحفر الآبار فيها فيأنس الناس إليها .
كذلك نظم هذا الدستور مسكوكات الدولة من الذهب

والفضة والنحاس وجعل لكل صنف منها علما مرسوما^(١) .
ونهج جهانكير نهج أبيه أكبر في التشبث بالتساح المطلق
أزاء رعاياه من الهنادكة على الخصوص فقرَّبهم إليه وفتح لهم باب
المناصب الرفيعة في الدولة .

والثابت أن هذه السياسة قد ساعدت في كثير من الأحوال
على إقرار السلام في أراضي الدولة المغولية المترامية الأطراف
أكثر مما عاونت عليه قواتها العسكرية وآلاتها الحربية . وحين
عدل حكام هذه الدولة فيما بعد عن سياسة التساح هذه التي جرى
آباؤهم عليها ، أخذت الدولة تتعرض لمناعب شديدة دفعت بها
آخر الأمر في طريق التفسخ والانحيار .

ولئن كان السلطان قد شمل صديقه راجا برسنغ ديو ، قاتل
الوزير أبي الفضل ، بالكثير من الرعاية ، فإنه لم ينس ، على كل
حال عبد الرحمن خان خانان بن الوزير المقتول رفعه مكانا عليا .
كما تغاضى كذلك عن فعلة القائد عزيز ككا وراجا مَن سنع ، حين
كادا يميلان بأبيه إلى إبعاده عن ولاية العهد ، فأجزل عطاءه لهما ،
وإن لم يغمض عينيه أبدا عن مراقبة سلوكهما وسلوك ابنه خسرو
الذي كادا يناديان به مكانه في السابق .

ثورة الأمير خسرو : ما غدت نوازع الشباب الغض وأطماعه أن تغلبت على خسرو وهو يعلم أن له من بين الكبار في الدولة ظهراء في آماله ، فانطلق من حصن آگرا ، حيث كان أبوه يستبقيه به تحت عينيه ، واتجه إلى البنجاب في بضعة مئتين من رجاله وقد رفع بنود العصيان .

وانضم إليه في الطريق بعض صفار القادة ومعهم عبد الرحيم ديوان لاهور ، الذي اتخذته وزيراً له ، كما نفحه گورو أرجونا زعيم طائفة السيک وصاحب جرانث صاحب ، أقدس كتبهم ، قدراً كبيراً من المال بدوره ، حتى إذا ما بلغ لاهور ، امتنع دلاور خان أمير البنجاب عليه بها ، ليُقبل السلطان من بعد ذلك بنفسه فيصدّه عنها ويوقعه في أسره ويمثل بمن ماله في عصبانه من القادة أشنع تمثيل ^(١) .

وكان مادفع بجهانگیر إلى خروجه بنفسه عَجِلاً في أثر ابنه ، هو ما خافه من احتمال اتصاله بعدوّه راجا من سنغ في البنغال ، أو الأوزبکک والفرس عند حدوده الشمالية الغربية فيفتح بذلك بابّ البتاعب والأخطار التي لا تحمد عاقبتها .

على أنه ارتكب خطأ شنيعاً حين أمر بقتل زعيم السكّ ،
 وُلدته ابنه الناصر بالمال ، وكان في مقدوره أن يلقى بهذا الشيخ
 الحبس حتى يوافيه أجله بسلام ، فيتجنب بذلك إثارة عدا
 النفقة السكّ الكبيرة القوية التي رفعت شهيداً إلى مرتبة
 تديسين ، وراحت تنادى على طول الزمن بالنار لمقتله ، فساهمت
 داتها هذا مساهمة فعّالة في تعجيل انهيار بناء الدولة المغولية
 حين بدأ الضعف يعورها .^(١)

وكان الحبس لم يفتّ في عضد الأمير خسرو ، فإغدا بعد
 قتل أن استمال إليه نفرأ من حرّاسه ليتآمروا معه على قتل
 السلطان . حتى إذا ما وقف جهانگیر على تدبيرهم ، حين بلغ لاهور
 قادما من كابل حيث كان يستجم ، أمر بقتل المتآمرين ، دون
 منه الذي سمّلت عيناه وإن ترفق به الكحال حتى استرد بعض
 بصره بعد قليل . وقد بقي ، خسرو في محبسه حتى وافاه أجله بالدكن
 عام ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م .^(٢)

اضطرابات البنغال : أدى اضطراب الأحوال في البنغال ،
 كثرة توالى الحكام عليه وقصر إقامة كل واحد منهم به ، إلى أن

جمع الأفغان هناك شملهم من جديد ، فراحوا بزعامة من يدعى عثمان أفغان ، يثيرون القلاقل والفتن ، حتى قدم إليهم القائد مهايت خان فقضى على عصيانهم وأقر الأمور في هذه البلاد من جديد . وكان لحسن صنع جها نكير مع زعماء الثوار في البنغال ، حين عفا عنهم وقاد بعضهم مناصب في الدولة ، أكبر الأثر في ركونهم إلى طاعته وتفانيهم في خدمته . وكذلك فعل السلطان مع رانا أمار سينغ صاحب موار فوصله وابنه وبالغ في إكرامهما . (١)

مَلِكْ عَنبر : كانت الدكن قد ظهر بها قبيل وفاة أكبر وزير حازم وقائد شجاع هو ملك عنبر الحبشى وزير ملوك نظام شاهى أصحاب إمارة أحمد نگر .

وقاد هذا الوزير بصيرته النافذه إلى الإفاده من المرهتها الهنادكة وما عرفوا به من شجاعة وتهور فى القتال ، فدر بهم على حرب العصابات ومعارك الأدغال .

وقد استفحل أمر هذه الطائفة حين بدأ الضعف يدب فى الدولة المغولية . فصارت لهم دولة وقوة رهيبه طفقت تهدد حكام

الهند المسلمين تهديدا خطيرا .

وأمكن لهذا القائد الحبشى أن يسترد أغلب الأراضى عند أسير گاه وما حولها ، وهى التى كان قد استولى عليها أكبر ومنعه خروج ابنه سليم عليه من التوغل عند الجنوب منها . حتى إذا ما توالى قواد جهانگیر على الدكن فصدّهم عنها وأرغمهم على الارتداد إلى الكجرات ^(١) ، بعث السلطان بالخان خانان فهد الأراض بضرب العدو ، ليقدم شهزادة خرّم من بعد ذلك ويقر الأمور هناك بعد حروب طويلة انتهت بضم أقاليم الدكن الشمالية إلى أراضى الدولة ، وإن لم تكسر شوكة الوزير الحبشى ورجاله ، حتى تمكن خليفته حميد خان ، وكان من بنى جلدته ، أن يصرف قادة السلطان عن حربه على قدر كبير من الأموال .

قد أقام السلطان ابنه خرّم نائبا له بالدكن ولقبه بشاهجهان وهو اللقب الذى عُرف به من بعد ذلك فى التاريخ .

كذلك كتب لجهانگیر التوفيق بالاستيلاء على حصن كنجرا الهندوكى الشهير عام ١٦٣١/٥١م بعد حصار طويل دام أربعة عشر شهرا . وكان قد امتنع من قبل على فيروز تغلق وأكبر نفسه ، بل وكل الفاتحين المسلمين منذ أيام محمود الغزنوى الذى تم له اقتحامه .

فانتهب ما بمعبد نكر گوت الذى يقع فى نطاقه من أموال وكنوز (١)
ثورة شاهجهان : أدى ضياع قندهار من أيدي الدولة
المغولية إلى إثارة حفيظة السلطان على ابنه شاهجهان، بتحريض من
زوجته نورجهان ، حتى صار الحال إلى خروج الابن على أبيه
وجهره بعصيانه له .

ذلك أن هذه المدينة فضلا عن أهميتها التجارية الكبيرة ،
حتى كان يمر بها فى العام الواحد ما ينوف على أربعة عشر ألف
جمل تحمل البضائع فيما بين الهند وفارس ، كانت موقعا حربيا
خطيرا عند حدود الهند الشمالية الغربية ، مما حدا بياهر وأولاده من
بعده أن يحرصوا على الاحتفاظ بها فى أيديهم

ولئن كان الفرس قد أكرهتهم بعض الظروف على التخلي
عنها إلى حين ، فإنهم لم يعدلوا أبداً إلى التنازل عن حقهم الثابت
فيها أو تغفل عيونهم عنها أبداً . فانتز الشاه عباس الصفوى
فرصة اضطراب الأمور ببلاط الهند عند وفاة أكبر فزحفت
قواته إلى المدينة ، فما زال أميرها شاه بگ خان ممتنعا فيها حتى
وافته قوات جهانگیر فأبعدت هؤلاء الغزاة عنها .

هنالك شرع الشاه الفارسى يلاحق محاولاته الودية عند

السلطان الهندي عاتيه يسترد مدينته سلمبا . حتى إذا ما أيقن بفشل
مسيره بادى عام ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م بضرب الحصار عليها .

وحين علم جها نكبير إلى ابنه شاهجهان أن يبادر بالسير من
الدكن إلى قندهار لدفع الفرس عنها ، خاف إن هو سار إلى خارج
الهند ، أن تكيد له زوج أبيه نورجهان فى غيابه ، وكانت قد
شرعت تحشد جمودها ومعها أخوها آصاف خان لجل السلطان
على جعل ولاية العهد للأمير شهربار أصغر أبنائه وزوج ابنتها من
زوجها الأول شير أفكن ، فجهر بعصيانه لأبيه حتى رفض أن
يسير إليه جند الدكن حين طالبه بها .

هنالك اهتبلت نورجهان هذه الفرصة التى سنحت لها بذلك ،
فراحت تحط من قدر الأمير الثائرو تولى من قدر ختنها أصغر أبناء
السلطان حتى عقد له جها نكبير لواء حملة قندهار .

وفىما كانت السلطنة منهمكة فى تنفيذ خططها ، سقطت
قندهار بأيدى الفرس ، لتفقد من بعد ذلك رسل الشاه الصفوى إلى
جها نكبير وتؤكد له حق أميرها المتوارث وقومه فى هذه المدينة
فيتقبلهم بقبول حسن ويبعث فى أثر قواته بأمرها بالارتداد إليه .
وقوى من جهة نورجهان أن كان يناصرها فى خططها فريق
من كبار القواد والأمراء ، وفيهم آصاف خان ومهابت خان وبرسنغ

بندلا قاتل أبى الفضل ؛ وها هو السلطان نفسه يسير برأيها ، وموارد الدولة كلها رهن تصرفها .

واشتبك الحصان ، السلطان وابنه ، فى قتال عنيف عند الجنوب من دهلى . حتى إذا ما دارت الدائرة على شاهجهان ، فاعتذر ملك عنبر و سلطان غولكونده عن مديد العون له حين أكره على الارتداد إلى الدكن ، انطلق إلى أوديسه قتم من هناك إخضاع البنغال وبهار له . على أن فشله فى الاستيلاء على أوده والله آباد ، وما تكشف له من تفشى الخيانة بين صفوفه ، اضطره إلى الارتداد إلى الدكن من جديد ، فرحب به ، فى هذه المرة ، ملك عنبر الحبشى حتى كاد يشتبك إذ ذاك مع قوات الدولة فى بيجاپور .

ووضح لشاهجهان آخر الأمر ضعف مركزه بالدكن ، فلم يكذب يكتب إلى أبيه مستتبيا حتى حملت نورجهان السلطان من فورها على الصفح عن ابنه ، على أن يبعث بابنيه ، دارا شكوه وأورنگزيب ، وكانا حديثين إذ ذاك ، رهائن بدار السلطنة (١) .

مهابت خان : لم تكن نورجهان لتذهب هذا المذهب فى حمل السلطان على الإستجابة إلى ضراعة ابنه الأكبر لولا ما بدا لها من أخطار تهدد بالقضاء المبرم على خطتها وهدفها الأكبر فى

الحصول على البيعة لخماتها شهر يار .

ذلك أن مهابت خان ، وهو ذلكم القائد القدير الذى تم على يديه إقرار الأمور بالنغال ودحرقوات شاهجهان من بعد ذلك ، بساق ذرعا بنورجهان التى غدت تسيطر بنفوذها على شئون الدولة ، التى أدى بها غرورها إلى الخط من أقدار كبار الرجال ، فانطلق يدعو لأخذ البيعة لبروير ثانى أبناء السلطان ، وكان طوع يمينه ، ضمن بذلك خلاص الأمر له مستقبلا .

وأدى غلو السلطان ، بتحريض من زوجته ، فى اضطهاد ابنه وقائده حين أمر الأول بالسير إلى الدكن والثانى بالتوجه إلى البنغال ، إلى أن فرّ الإثنان من عنده وخرجا عن طاعته .

وما غدا مهابت خان أن كمن للسلطان . وهو فى طريقه من لاهور إلى كابل قادما من كشمير ، فسقط عليه فى خمسة آلاف من محاربي لراجپوتيين الأشداء عند نهر جهلم ، رافدا السند : وأوقعه فى أسره (١) . ولم تفلح نورجهان أول الأمر فى فك أسار زوجها ، فباءت نواتها بالهزيمة وسقطت وأخاها بدورهما فى الأسر ، لتصل دهاثها وحيلتها من بعد ذلك إلى الإيقاع بمهابت خان وهو يسير فى

حفنة قليلة من رجاله ، حتى لم يتمكن من الخلاص إلا بشق الأنفس
فهرب إلى الدكن .

هذا وكان شاهجهان قد سارع بدوره لنجدة أبيه حين علم
بوقوعه في الأسر ، فلم يباغ السند حتى وافته رُسُل
نورجهان تنبئه بما أشاعه خبر مقدمه من الاضطراب في صفوف
مهابت خان ، حتى تم لهم الخلاص مما وقعوا فيه ، وتشير إليه
بالارتداد سريعا إلى الدكن لإقرار الأمور فيها. (١)

نورجهان : هذه السيدة ، التي صارت صاحبة السلطان المطاق
في الهند في عهد جهانگیر ، هي ابنة تاجر فارسي يدعى ميرزا
غياث ساقته الأقدار إلى بلاط أكبر نولي ديوان كابل واضطلع
به في مقدرة فائقة . وما غدت ابنته هذه ، وكانت تدعى
مهر النساء أن بنى بها مغامر فارسي آخر يدعى علي قلى استاجلو
ويشتهر كذلك باسم شيرافكن ، وكان قد قدم الملتان فالتقى بالخان
خامان الذى ألحقه بأحد المناصب في الجيش .

وصحب علي قلى هذا الأمير سليم (جهانگیر)
حين سيّره أبوه أكبر لقتال رانا موار ، ولبث معه

كذلك بعض الوقت بالمكن ؛ حتى إذا ما خرج الأمير على أبيه ، كان ذلك القائد الفارسي من بين الذين تخلوا عنه من القادة وتركوا معسكره .

وحين ولي جهانگیر العرش ، فتناهى لكل رجال أبيه السابقين ما كانوا قد ارتكبوه في حقهم وشلهم جميعا ببرّه ، عهد إلى شيرا فكن بدوره بأحد المناصب في البنغال ؛ حتى إذا ما استراب في اتصاله بعصاة الأفغان هناك ، فبعث إلى نائبه البنغالي قطب الدين يأمره بتسييره إليه ، اهتبل هذا القائد فرصة انفراده بحاكم البنغال فهوى عليه بسيفه حتى كاد يقضى عليه ، لولا أن أسرع إليه حرس قطب الدين فمزقوه إربا بسيوفهم وأنفذوا أميرهم .

وسئّرت أرملة شيرا فكن عقب ذلك إلى البلاط فلبثت به سنوات أربع حتى بنى بها جهانگیر عام ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م . ومات قوله الرواية عن غرام السلطان بهذه السيّدة منذ أن رآها بالمكن أيام أبيه ، حيث كان زوجها يسير في حاشيته ، حتى انتهى إلى تـيـير مقتل زوجها بالبنغال لتخلص له ، قد نجد له سنداً في حملة السلطان نفسه ومؤرخيه على شيرافكن ، حين يصفوه بأنه كان مجرد ساقٍ عند الشاه الصفوي إسماعيل الثاني ، وأنه سار سيرة أهل

البغى والفساد فى البنغال (١) .

ولعل بناء جهانگير بهذه السيدة، بعد أن تركها تقيم سنوات أربع فى حرم أمه ، إنما كان فى الغالب لينسى الناس قصتها ولتخف لوعتها على زوجها وما لقيه من مصير أليم . وأيضًا ما كانت حقيقة المسألة ، فإن هذه السيدة ، التى كانت لاتزال على جمال فائق برغم بلوغها الرابعة والثلاثين من عمرها حين بنى بها السلطان . قد أوتيت من قوة الشخصية وحدة الذكاء ورجاحة العقل ما يسر لها أن تغدو صاحبة الكلمة الأولى فى الدولة، حتى خضع لمشيتها السلطان والقادة وتقبلوا جميعا مشورتها بأحسن القبول . ولا أدل على دهائها وسعة حيلها من نجاحها فى تخلص نفسها وزوجها من أسر القائد مهابت خان والإيقاع به بدوره على ما فصلناه من قبل .

واشتهرت هذه السيدة كذلك بقوتها البدنية الفائقة وشجاعتها الخارقة ، حتى انبرت لصراع أشد الكوا سرفتكا ، كما كان لها كذلك مشاركة فى الدراسات الأدبية وتفنن ذائع فى تصميم الأزياء ونقوش النسيج والجواهر والحلى (٢) .

ولقد كان حريا بنورجهان أن تقصر جهودها على وجوه الخير التي حققت الكثير منها ، حتى نهضت بالمرأة الهندية ورفعت الكثير من الجور عنها وساهمت مساهمة فعالة في معاونة الكثيرات من الفتيات الفقيرات على الزواج . فقد جرها ما صار لها من بالغ النفوذ على زوجها ، حتى ضربت السكة باسميهما (١) وذيلت مراسيم الدولة بخاتميها جنباً إلى جنب ، إلى أن طفقت ، بوحي من أطعائها ، تعمل لحل السلطان على البيعة لأصغر أولاده وختنها الأمير شهریار ، فأثارت بذلك ثائرة شاهجهان ، صاحب الحق الأول في ولاية العهد ، حتى جبر بالخروج على أبيه . ونهج نهجه كذلك طائفة من كبار رجال الدولة حين رأوا هذه السيدة تعمد ، بدافع من غرورها وكبرياتها ، إلى محاولة النيل من أقدارهم ، لتزعزع هذه الدسائس والفتن كلها من بناء الدولة وتعوق من إقرار الأمور فيها من بعد ذلك .

وساعد على إطلاق يد نورجهان في تصرف شؤون الدولة ، فضلا عن وله جهانگیر بها ، ما كان من إدمانه على الشراب ، الذي قضى على أخوية وهما في ميعة الشباب من قبل ، وتعاطيه

للأفيون ، حتى قضى فى ٢٨ صفر من عام ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧ م ،
والكأس فى يده ، بعد أن حكم اثنين وعشرين عاما .

شخصية جهانگير : لولا محنة الشراب التى ابتلى بها جهانگير
لأفادت الهند منه خيرا كثيرا .

فلقد كان لهذا السلطان الكثير من صفات أليه العالیه التى أرادها
له حين حرص على تزويده بالكثير من العلم والمعرفة والفضائل . فنهج
نهج التسامح المطلق فى حكمه وقرب إليه المسلمين والهندوك على
السواء ، ولاطف الأوربيين ومبشرينهم حين قدموا إليه .

هذا ، كما كان له مشاركة كبيرة فى الدراسات الأدبية
والتاريخية ، والمسام واسع بعلوم الحيوان والنبات خاصة ، وشغف
بالغ بالحدائق وتنسيقها بل وتزويدها بكل نبت جديد ، مما لم تكن
تعرفه الهند ، على ما كان يفعله جدّه بابر من قبل .

وبلغ من رسوخ قدم جهانگير فى الفنون الجميلة ، وبخاصة فى
فن النقش والتصوير ، أنه كان فى مقدوره أن يميز نقوش كل فنان
بخصائصه : فى سهوله ويُسر . حتى عند ما يشترك جملة منهم فى نقش
واحد ^(١) . وحين كان يعرض عليه زواره من الأوربيين صور

بتركهم وأمرائهم ، كان يأمر نقاشيه بنقلها ، تنوًا ، ليزين بها
مديران بلاطه .

وقد كتب بدوره سيرته ، على غرار ما فعل آباؤه في الغالب ،
في ضمها الكثير من أعماله ومشاهداته . ويؤكد صدق روايته
نعموما ، ما كتبه معاصروه من الأوربيين عن هذه البلاد حين
زاروها ^(٢) .

البريطانيون عند جهانگیر : أدى ما أذاعه البرتغاليون بأوروبا عن
سلخ ثراء الهند الطائل ، وما كانوا يرونه من كرم حكامها وترحيبهم
المسيحيين وملاطفتهم لهم ، أن قصد هذه الأرض في القرن
السابع عشر الميلادي نفر من تجار الهولنديين والبريطانيين
الفرنسيين ليبغى كل واحد منهم لأمته قدرا من الامتيازات
تأهلها التجارة وباطنها وهدفها الاستعمار .

وسبق البرتغاليون الأوربيين جميعا إلى الهند على ما فصلناه
من قبل ، ثم جاء الهولنديون في أثرهم ، وكان لهم نشاط تجارى
محموظ في جزر الهند الشرقية ، وفي جاوه وبتافيا على الخصوص ،
فجسروا في إقامة بعض مصانع لهم بسورات بالكجرات وعند
سواطى ثيانيانگر وغولكونده الشرقية ، ودعموها بالحصون

لتنقف في وجه منافسيهم من البرتغاليين الذين كان لهم عند دولة المغول مقام حميد . وما زالوا يجدّون في نشر أسواقهم بالهند حتى بلغوا بها آگرا نفسها ^(١) .

واقفني البريطانيون أثر الهولنديين في غزو الأسواق الآسيوية . والهندية بخاصة . وجاء منهم إلى الهند عام ١٦٠٨ م ولیم هوکنز ، فكان أول بريطاني يظهر في آگرا ويلتقي بالسلطان . وحين عرض على جها نگیر رسالة من مليکة جيمس الأول يرجوه فيه تيسير أمور التجارة الإنجليزية ببلاده ، احتفى به السلطان أول الأمر احتفاء كثيرا حتى أذن له بمشاركته مجالس شرا به . وبقي عنده فترة من الزمن ، حتى بلغ البرتغاليون بدسائسهم إلى تنفيره منه ، فرجع إلى بلاده دون أن يحقق غرضه على الوجه الذي ابتغاه . وكان مما ألقاه هؤلاء إلى السلطان في شأنه أنه لا يعدو أن يكون رسول ملك صغير على جزيرة صغيرة ، تدعى إنجلترا ، أغلب سكانها من صيادی الأسماك ^(٢) .

ومهد ازدياد النفرة بين حکام الکجرات والبرتغاليين

ومشربهم ، إلى الترحيب بتوماس رو مبعوث ملك الإنجليز حين
وصل إلى هناك من بعد ذلك عام ١٦١٥ م ، فاستطاع بلباقته
وعزمه وما جلبه معه من الطُّرف والجواهر والحلى ، وما قدمه
لرئيس الدولة من الهدايا الفاخرة ، أن يبلغ عند السلطان مكانة
مستويزة ويصل إلى ما يريد. فثبتت شركة الهند الشرقية البريطانية
أقدامها في أماكن عدّة ، وصار لها مصانع في سورات ، وعند
سانحل كوروما ندل ، وغولكونده ، وإلى الجنوب من مدراس .
وقد وصف هذا السفير وسلفه ، سلطان المغول الهندي
وبلاطه وما كان له من أبهة بالغة ، كما تحدثنا عن نظام حكمته
وجيشه وتقاليده القوم ورواج الثقافة عندهم .

هذا ، وكان التجار الأوروبيون يحرصون عموما على أن يجلبوا
إلى الهند كل طريف من منتجات بلادهم ويغمروا أسواقها
بالمكاليات وأدوات الزينة التي كان الناس هناك يكافون بها كفا
سيداء ويتهافتون عليها تهافتا عظيما ، ليأخذوا منهم في نظيرها
الواد الأولية والبحار والقطن والنيلة ، فيجوزون من مقايضاتهم هذه
أجاسا طائلة وغنما وفيرا . وكانت هذه المقايضات تجري في
نائب في مواليء بروج وسورات وكبلى وقاليقو طثم في كلكتا

من بعد ذلك . (١)

وكان مما يَسَّر للبريطانيين على الخصوص غزو أسواق الهند،
خلو جالياتهم أول الأمر من المبشرين وحرصهم على تجنب التدخل
في شئون الناس وتظاهروا بالموودة والمداينة لهم .

وإذى تعرض البرتغاليين لبعض السفن التي كانت تحمل
بضائع برسم السلطان ، مع نفور الناس منهم ، إلى أن أغرى جهانگیر
البريطانيين بقتالهم ، بعد أن طردهم من بلاطه ، فنزلت بهم في البحر
ضربات قاصمة .

وكسب التجار البريطانيون بصنيعهم هذا امتيازات أخرى
ما زالت تزداد على مر الزمن ، وما غدوا يدعمونها بالخبث والدهاء
ويثبتونها بالغدر والخيانة حتى وضعت بريطانيا أيديها على
شبه القارة الهندية كلها .

شاهجهان

حين مات جهانگیر سارع آصاف خان بإبناء صهره شاهجهان بالمكن بالخبر، ثم عمد من فوره إلى إخراج داور بخش، حفيد السلطان الراحل من ابنته خسرو، من محبسه وأجلسه على العرش، ليتق بهذا الإجراء الموقوت ماعساه أن يحدث من اضطراب الأمور في المدينة، حتى يتأتى له تخلص أولاد شاهجهان، محمد داراشكوه، وشاه شجاع، وأورنگزيب، وكانوا جميعا يقيمون عند نورجهان^(١) منذ أن بعث بهم أبوهم رهائن في دار السلطنة. ولم تكن نورجهان لترضى بما ذهب إليه أخوها آصاف فخرت ختنها الأمير شهریار علی أن يتادی بنفسه في لاهور، قصبه البنجاب، سلطانا على الهند. وظهره على هذا الأمر أمير من أولاد عمه دانيال، ليسارع إليه من بعد ذلك آصاف خان بنفسه ويقتحم المدينة عليه ويلقى به في الحبس بعد أن سُمِلت عيناه.

وتناهى خبر ذلك كله إلى شاهجهان ، ولما يبرح الدكن بعد ، فكتب في التو إلى صهره آصاف خان يحرضه على القضاء على منافسيه جميعا ، فكان لتنفيذه كل ما رغب فيه زوج ابنته أكبر الاثر في ارتفاع مكانته عنده وازدياد نفوذه في البلاط بالتالى ، حتى صار وزير السلطان الاول ولقب بيمين الدولة . ولم تكن النجاة من مذبحه آصاف خان تلك إلا لداوربخش فلاذ ببلاد فارس حتى أواخر أيامه .

هنالك لم تملك نورجهان بإزاء ذلك كله إلا أن تعتزل الحياة العامة . وقد تناسى لها السلطان الجديد كل ما كان لها معه من عدا . وأجرى عليها رزقا حسنا . ووافاها أجلها بلاهور عام ١٠٥٥ هـ / ١٦٤٥ م فتسويت إلى جوار زوجها جهانكير بيستان دلکشا بظاهر قصبة الپنجاب .

ولد شاهجهان عام ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٢ م ، من أم هندوكية ، -كأبيه- هي ابنة رانا مروار . وهو ثالث أبناء جهانكير وأقدرهم جميعا ، اتصف برجاحة العقل والذكاء وقوة العزيمة حتى كان جده أكبر شديد الاعتزاز به كثير الحذب عليه . وقد عرف دون سائر أمراء أسرته السابقين بعزوفه ، فى الغالب ، عن مقاربة الشراب مع مجانبته اللهو والعبث . وكفلت له صفاته العالية هذه ثقة أبيه

فيه دون أخويه : خسرو ، الذى عمد إلى عقوبته له منذ صغره .
 ويؤيد الذى لازمته العلة وضعف الإدراك منذ ولادته ، وكان
 بينهما يدمن الشراب فقضيا به فى حياة أبيها .

وإراد من قدر هذا الأمير عند أبيه ما أظهره من مقدرة وكفاءة
 فى حرب الراجپوتين عند موار ، وما أبداه من حنكة ودراية
 حين أرغم ملك عنبر الحبشى على قبول شروطه بعد ما أنزله من
 الهزائم المتكررة بقوات الدولة ، فأنعم عليه بلقب شاهجهان
 وعهد إليه بإدارة حكومة الدكن . حتى إذا ما توجهت
 لورجهان الخيفة من علو شأنه تخشيت أن يطغى بنفوذ على
 سلطانها ، راحت توقع ، بالدس ، بينه وبين أبيه ، فاعدا أن
 رفض السير إلى قندهار حين طلب إليه أبوه ذلك - وكان قد بلغه
 ما تدبره زوج أبيه لجل السلطان فى غيبته على البيعة إلى ختنها
 أصغر الأمراء شهریار - لينتهى به الحال من بعد ذلك إلى
 الجهر بعصيان طال أمده حتى عادت المياه بينهما إلى مجاريها من
 جديد على الوجه الذى فصلناه من قبل .

وحين دخل جهانگیر فى النزاع ، تدبر آصاف خان
 الموقف ، على ضوء مصالحه الخاصة ، فى روية وحذر ، فأثر
 أن يقف إلى جانب ختنه القوى الرشيد شاهجهان معرضا عن أخته

نورجهان وختنها شهریار ، لیصل من بعد ذلك - وفق ما قدر
ودبر - عند السلطان الجديد إلى أعلا المناصب ویصیر له بالدولة
شأن وأی شأن .

ممتاز محل : بنی شاهجهان عام ١٠٢١ هـ / ١٦١٣ م وهو فی
صدر شبابه بأرجمند بانویگیم ابنة آصاف خان وهی التي تشتهر فی
التاریخ باسم ممتاز محل أو سیده التاج .

وهذه السیده، التي حرص أبوها علی تنشئتها تنشئة طيبة وتزويدها
بالعلوم والآداب منذ صغرها ، كانت علی جمال فائق وخلق نبیل
وصفات عالیة أدت بها إلى ملازمة زوجها فی كل المحن التي
مرت به ، إبان خلافه مع أبیه وحروبه معه . فی وفاء وإخلاص
قل نظیره . وحين رقی زوجها العرش صارت له خیر ناصحة
ومرشدة ؛ فلم یسبد منها أبدا ما كان من شأنه أن یغضب رجال
الدولة أو یثیر ثائرة القادة ، وإن أخذ علیها بعض المؤرخین دفع
زوجها ، بوازع من تقواها وورعها ، إلى العدول بعض الشيء
عن التسامح المطاق الذي كان یصطنعه آباؤه بأزاء الهنادكة
والمبشرین المسیحیین . ولعل شاهجهان إنما منع ، بوحی منها كذلك ،
تجود الناس للسلطان ، علی ما كان متبعاً منذ أيام أكبر ، وعاد

الدولة إلى اتخاذ التقويم الهجرى فى أعمالها (١)، وحرّم التطاول على
مقام الخلفاء الراشدين عند شيعه بلاده ، وحدّ من بناء معابد
جديدة للمنادكة .

ولم يبطر ممتاز محل ما كان لها من نفوذ بالغ و ثراء طائل ،
فكانت تقيم على البر بالفقراء والأرامل ، وتعين بما لها الفتيات
الفقيرات على الزواج ، كما وسعت رحمتها كثيرا من المذنبين ، حتى
كانت تباغ بتدخلها عند زوجها إلى ردّ حياتهم عليهم فى الغالب .
وإعادة أصحاب المناصب منهم إلى مناصبهم (٢) الأولى .

ووافاهما أجلها عام ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ م وهى تضع طفلها
الرابع عشر ، فحزن عليها زوجها حزنا شديدا ، حتى عزف عن كل
مباهج الحياة برغم امتداد الأجل به من بعدها خمسة وثلاثين عاما .
وقد أذاع من صيتها ذلك المشوى الفخم الذى أقامه زوجها لها ، فكان
من آيات وفائه لذكرها . ويعرف هذا الضريح باسم « تاج محل »
ويُسعد بحق من بين روائع الفن المعمارى فى الدنيا .

ثورات الدكن : تعرض شاهجهان فى بداية حكمه لبعض

١ — بدلا من التقويم الألفى الأكرى

٢ — Muslim Rule. p 485

نوراث في الدكن ، كان منها ثورة راجا ججهار سنغ في بُندَلخاند .
ذلك أن هذا الأمير الهندوكي كان قد ورث عن أبيه برمن سنغ ،
قاتل أبي الفضل ، أموالاً طائلة ، فجال بخاطره أن يناهض الدولة
في قوات أبيه السابقة ، وكانت بدورها وفيرة العدد ، حتى اضطر
السلطان أن يسيّر إليه قائده مهايت خان في سبعة وعشرين ألفاً
من الفرسان وستة آلاف من المشاة ، فأرغمه على الإستسلام له ،
ليعاود عصيانه في العام التالي من جديد ، وينطلق ينتهب أراضي
جيرانه من الهنادكة ، ولكن خروجه ماغدا أن انتهى به إلى مقتله
وولده بكر ماجيت .

وفرغ شاهجهان من هذه الفتنة لتنتقل قواته في العام الثاني من
حكمه في أثر قائد أبيه السابق خان جهان لودهي حين أشعل بالدكن
بيران ثورة ثانية . فقد عمد هذا القائد الأفغاني ، عقب وفاة جهانگیر
وقبل بلوغ شاهجهان العاصمة ، إلى الزحف إلى ماندو والاستيلاء
على مقاليد الحكم فيها . وأطمعه عفو السلطان عنه من بعد ذلك حين
ولاه بعض الدكن ، فانطلق يعنف بالأهلين ويشتط في ارتكاب
المظالم والجور ، ليسيّر إليه السلطان عندئذ قائديه عبد الله خان ،
ومظفر خان فهاز الايطاردانه حتى ظفرا به بعد عامين فأُورِدَ حتفه (١) .

المجاعة والقحط : لم يفرغ شاهجهان من هذه القلاقل إلا ليواجه محنة القحط الذى اجتاح بلاده فى العام الرابع من حكمه ، وذلك بسبب انحباس الأمطار الموسمية التى تعتمد عليها الهند فى السقى والرى ، فأنجاب عن مجاعة بشعة بدت أقسى مظاهرها فى الكجرات والدكن ، وزاد من سوء الحال انتشار الأوبئة المماتكة بين السكان .

وبرغم ما بذله السلطان من جهود جبارة لإغاثة الناس ، حتى أمدهم بالكثير من المؤن والأرزاق والأموال وأقام المطاعم المجانية لهم وأعفاهم من أغلب الضرائب المفروضة عليهم ، فإن رداءة المواصلات وازدحام الطرق بالمهاجرين قد عوق كثيرأ من بلوغ هذه النجدة أهدافها ، حتى باع الناس أولادهم من الإملاق وطعنهوا الجيـف من المخمصة ، وغلبهم تعلقهم بالحياة على حبهم لأولادهم ، حتى كان منهم من ذبح ولده وطعم لحمه (١) ، وكثيرا ماسدت الطرق أحداثُ الألو ف من الصرعى ، وأقترت قرى وأحياء بأكلها من ساكنيها .

البرتغاليون : ضاق شاهجهان ذرعا باستبداد التجار البرتغاليين

عند شواطئ البنغال ، إذا انطلقوا يتخطفون الناس هناك قسرا
ليبيعوهم في سوق الرقيق ، وفرضوا على السكان مكوسا لحسابهم ،
حتى عم أذاهم وجورهم أغاب المناطق التي كانوا ينزلون بها عند
شواطئ الهند الشرقية والغربية على السواء .

وتفاقم خطر مبشريهم تفاقما خطيرا ، فقد جهدوا ، في ظل مواظمتهم
هؤلاء ، لحمل الأهليين على قبول عقيدتهم قسرا ، كما راحوا
يتدخلون في شؤون الدولة التي يعيشون في كنفها ويتآمرون عليها
مع تجار الهولنديين وغيرهم من الأوروبيين الذين كانوا يفدون
إلى هذه البلاد لا متصاص مواردها . ويشجعون بعض الخارجين
على ساطان الدولة من أبناءها على العصيان حتى كتب أسقف جوا
البرتغالي نفسه يشكوهم إلى مملكته ^(١) .

ولم يكن شاهجهان بغافل عن سلوك هؤلاء البرتغاليين الذين
أقدهوا ، إبان محنته مع أبيه ، على اختطاف فتاتين من أتباع زوجه
ممتاز محل حين نزل على مقربة من محلتهن ، فسكت إذ ذاك على مضض
ولم ينسها لهم . حتى إذا ما ولي الحكم وفزع الناس إليه من عسفهم
بعث من فوره عام ١٠٤٠ هـ / ١٦٣١ م بقائده قاسم خان (٢) .

كما على البنغال وأمره بافتحام مراكز هؤلاء الطغاة وتشتيتهم .
وبرغم امتناع هؤلاء الدخلاء في حصون قوية ، كانوا قد
سروها بالمدافع وشحنوها بالبنادق والرجال ، فقد اقتحم عليهم
رجال السلطان أقوى مواقعهم في هوجلي وخاضوا من أيديهم
عشرة آلاف من أهل الهند كانوا مُعَدِّين للتصدير . (١)

ولم تخسر الدولة في هذه الحرب أكثر من ألف قتيل ، في
حين سقط من أعدائها عشرة آلاف ، ووقع في الأسر أربعة آلاف
آخرون منهم ، سيقوا إلى آگرا ليختيروا بين اعتناق الإسلام
أو الحبس .

وإن كان شاهجان قد عمد بإجرائه هذا مع أسراه إلى أن يردَّ
الصاع صاعين للبشرى البرتغاليين (٢) ، وهو خطأ لم يكن لمثله أن
يرتكبه ، فهو على كل حال لم يذهب إلى ما ذهب إليه ملوكهم بأوروبا
وأسبانيا على الخصوص حين خيروا مسلمي الأندلس بين اعتناق
المسيحية أو الموت حرقا . وقد ردَّ السلطان الهندي هؤلاء
البرتغاليين آخر الأمر إلى محلتهم على كل حال ، وإن لم يستطيعوا أن
يعودوا بها إلى سيرتها الأولى من العمران لفرط ما كان قد نزل بها

من الدمار .

ولم يتردد البريطانيون ، على الخصوص ، في الإفادة من هذه المحنة التي نزلت بأعظم منافسهم بالهند فبدلوا جهودا كثيرة للتقرب من السلطان والحصول على مزيد من الإمتيازات لهم ولقومهم بالتالى .

حروب الدكن : تاق شاهجان إلى أن يتم الفتوح التي بدأها أبوه وجده من قبل بالدكن والتي شارك هو بنفسه في بعض منها أيام جهانگیر . وشدة من عزيمته للمضى فى هذا الأمر ، وهو السننى المتمسك بعقيدته ، حرصه البالغ على منع انتشار مذهب الشيعة الذى كان بعض سلاطين الدكن قد طفقوا يروجون له فى إماراتهم ويرحبون بأصحابه الفرس ، حتى غدت بلادهم مثابة لمناوئة السننيين فى الهند وإثارة الفتن بين السكان .

ولئن قعد بشاهجهان بعض ما عترض عهده من الأحداث عن المضى بخطته إلى غايته ، فقد أضطلع بهذه المهمة ابنه أورنگزيب من بعده ، وما زال بها حتى أتمها على خير وجه ، فلم تخضع الدكن كلها لسلطان الدولة فحسب ، بل لقد أظلت راية المسلمين شبه القارة الهندية كلها من أدناها إلى أقصاها .

هذا ولقد كان من أثر خروج شاهجهان ومهابت خان على

مناعة السلطان جهانگیر، وما تبع ذلك من أحداث فصلناها في موضعها، أن ضعف سلطان الدولة في الدکن، لينتهز أصحاب بيچاپور وغولكونده هذه الفرصة فيخلعوا عنهم الولاء للسلطان المغولی ويوسعوا، من بعد ذلك، في رقعة أراضيهم على حساب إمارة أحمد نگر التي بقيت على ولائها الإسمي للسلطان.

واستند بشئون الحكومة في أحمد نگر قائد مراهتى يدعى شاهجى، حتى صار سلاطين هذه الإمارة ينصبون وفق هواه، ويظاهرة في استبداده هذا أصحاب بيچاپور فراخوا يمدونه بالمال والرجال، فلم يرشاهجهان بازاء ذلك كله إلا أن يخرج بنفسه إلى الدکن، وكان قد طلب إلى أصحاب بيچاپور وغولكونده أن يعدلوا عن عدم دفع الخراج لشاهجى ويعترفوا بسلطانه هو من جديد فلم يستجيبوا له.

وأدى ظهور شاهجهان بالدکن في قواته الكثيفة إلى أن بادر أمير غولكونده بإعلان طاعته له من جديد، وقد تعهد له بمنع سب الخلفاء الراشدين ببلاده، وإجراء الخطبة بالثناء عليهم، والعدول عن الدعاء لشاه الفرس فيها.

وبقى صاحب بيچاپور على عصيانه حتى اقتحمت قوات السلطان بلاده ففتكت بأغلب قواته وانتزعت عددا كبيرا من

من حصونه ، ليرضى آخر الأمر بالخضوع ويتعهد بالابتعاد عن القائد المراهتهى شاهجى الذى يادر بمهادنة السلطان بدوره . ولم يرجع شاهجهان من الدكن حتى أقام ابنه أورانگزیب نائبا له هناك عام ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٦ م وقد دخلت فى حوزته دولت آباد وأحمد نگر وتلنجانا وخاندش وبرار (١) .

مكث أورانگزیب بالدكن سنوات ثمانية ، حتى إذا لم يستطع صبرا على ما بلغه من تمكن أخيه الأكبر داراشكوه من قلب أبيه ، فصارت أمور الدولة لا تجرى إلا وفق مشورته قدّم بنفسه إلى العاصمة بدعوى قلقه على صحة أخته جهان آرا ، وكانت قد أصيبت بحروق شديدة حتى أشرفت على الموت ، فلم يجد لها نفعا ما بذله الأطباء من جهود كثيرة لانقاذ حياتها . لولا ترياق صنعها لها مولى يدعى عارف أزاح به آلامها عنها ورد الحياة إليها . وقد قابل السلطان صنيعه هذا بإغداق الأموال والإينعام عليه .

بلخ وبدخشان : بسعى الأميرة جهان آرا رضى السلطان عن أورانگزیب من جديد فذبحه الحكومة السكجيات فقتل بها عامين اضطلع فيهما بشئونهما على خير وجه ، حتى وجهه من بعد ذلك إلى بلخ وبدخشان ، ليشارك هناك فى حروب عنيفة مع

كان شاهجهان يبغي من ورائها اسرداد بلاد
من وراء النهر كلها ، موطن آبائه السابقين ، التي لم يغفل أحد
من سلاطين المغول بالهند عن السعى إلى استرجاعها ما واتهم
الفرصة وتكشّف لهم ضعف حكامها.

ولئن أفلح أورنگزيب في إزال ضربات قاصمة بالأوزبكيك ،
على كثرة عددهم بالقياس إلى قلة قواته ، فقد انسحب آخر الأمر
من بلخ بعد أن أجلس على عرشها أحد أحفاد نظر خان حاكمها
السابق ، على الولاة له ، ليفتك الزمهير بفريق من قواته من بعد
ذلك وهي في طريق العودة وتضييع كل الأموال والجهود التي أنفقتها
الدولة في هذا الغزو هباءً (١).

قندهار : أشرنا من قبل إلى ضياع قندهار من أيدي
شاهانگیر حين رفض ابنه شاهجهان أن يسير إليها لدفع الفرس عنها ،
لأنه كان قد بلغه ماتدبره نورجهان في الخفاء لحل زوجها السلطان
بالببيعة لختها الأمير شهربار من بعده .

وحاول شاهجهان عام ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧ م أن يستعيد هذا
الإقليم بالموودة من أيدي الأمير الفارسي علي مردان ، نائب الشاه
الصفوي عليه ، لكن مسعاه باء بالفشل . حتى إذا ما كتب أمير قندهار

إلى سلطانه يسأله إمداده بالجند والعتاد ليقوى بهما على صد قوات الهند عن أراضيّه ، حمل مطلبه على غير حقيقته فظنّه لا ينبغي من وراء ذلك إلاّ تدعيم سلطانه ثم الخروج عن طاعته ، فسير إليه قوات كبيرة ، لا لتشدّ من أزره وإنما لتوقعه في أسرها وتعود به إلى العاصمة .

وجـين وقف على مردان على ما كان يُدبر له ، سارع من فوره بالكتابة إلى حاكم كابل المغولي يستنجد بشاهجهان ، لتقبل قوات الهند على المدينة من بعد ذلك فتدخلها ثم تدفع قوات الشاه الفارسي عنها بعد قليل .

ولم يسكت الفرس بدورهم على ضياع هذه المدينة من أيديهم . حتى إذا مارق الشاه عباس الثاني عرش الصفويين اعتزم الخروج لاستردادها في شتاء عام ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م وهو يعلم أن ثلوج الهند كوش سوف تعمّوق أى مدد يسارع به سلطان الهند إلى تعزيز حاميتها إبان هذا الفصل .

وصح ما جرى في حساب الشاه الصفوى . ذلك أن دولت خان ، نائب شاهجهان هناك ، حين بان له تردد دولته في تسير الجند إليه إبان فصل الثلوج ، وكان يلح عليها من قبل هذا لتعزيز قواته فلا يجد لمطلبه سميعا ، لم يصبر طويلا على الحصار

ما يستسلم لأعدائه وهو لا يعلم أنهم بدورهم كانوا على وشك الرحيل عنه لنقص كبير طرأ على مؤنهم ، وأن قوات الهند كانت بالفعل في طريقها إليه .

وجهد شاهجهان من بعد ذلك في استرداد هذه المدينة من جديد ، بسير إليها نخبة من قواده وقواته وعلى رأسهم ابنه أورنگزيب ووزيرہ سعد الله خان الذى خلف آصاف خان بعد وفاته .

وكان حرياً بالسلطان أن يستجيب لأورنگزيب حين طلب إليه أن يأذن له بالسير في محاولة ثالثة نحو هذه المدينة (١) ، وكان قد أمكن له في حصاره السابقين لها أن يدرس مواقعها وإمكانات حاميها دراسة خبير ، حتى كاد أن يتم له دخولها لولا إقبال الشتاء ونفاذ مؤونه ، فأدى رفض شاهجهان لطلبه ثم تسميره دارشكوه إليها هذه المرة ، على قلة درايته وخبرته الحربية ، إلى رد قوات الدولة عنها كرة ثالثة وضياح ما بذل لفتحها من أنفس وأموال هباء (٢) .

أورنگزيب في الدكن : عاد أورنگزيب إلى الدكن عام ١٠٦٣ هـ / ١٦٥٣ ، بعد غياب دام سنوات ثمانية قضاه في

١ - عمل صالح ثبات ٥٣٤

٢ - شاهجهاننامہ ١٠١ ، ١٠٢

السكرات وعند بلخ وقندهار ، ليرى حكومتها قدسات أحوالها حتى غدت عبثاً ثقيلاً على الدولة ، تستنفد إدارتها كثيراً من أموال بيت المال بدار السلطنة بعد أن كانت تمدّه في السابق بخراج وفير . فقد انصرف حكامها إلى رعاية مصالحهم الخاصة ، فأهملوا شأن الزراعة بها وطفقوا يثقلون كاهل الأهالي بما فرضوه عليهم من مكوس لحسابهم حتى هجر الفلاحون أغلب أراضيهم وفرّوا من قراهم ، فأجذبت الحقول وخوت البساتين والحدائق على عروشها . فما غدا ، بمعاونة إداري حازم يُدعى مرشد قُلي خان ، أن نهض بالزراعة ، عماد ثروة الإقليم ، من جديد ، فجعل كافة الأراضي الخصبة تحت إدارته مباشرة ، وأمن الفلاحين في أعمالهم وأمدّهم بالبذور الجيدة والماشية وشجّعهم على استصلاح الأراضي البور وزراعتها .

واهتدى مرشد خان بنظم تُدرّس لوزير أكبر ، فأمر بمسح الأراضي كلها وأعاد تقدير الخراج المفروض عليها من جديد ، فجعل للدولة نصف محصول الأرض التي تزرع على مياه الأمطار ، وثلثه من الأراضي التي تروى بمياه الآبار ، فيما عدا البساتين والحدائق فيجب منها ربع المحصول . أما الأراضي التي كانت تسقى من الترغ والقنوات فكان ربطها يتراوح بين الزيادة

والنقصان بحسب طبيعة تربتها .

وبهذا النظام ، وما كفله من توفير الأمن للفلاحين ، أقبل
البلاد على أعمالهم في جِدٍّ ونشاط أدى إلى استقرار اقتصاديات
البلد من جديد ونهوض مواردها بالتالى .

كذلك كان من أثر سوء إدارة حكام الدكن ، إبان غياب
أورنگزيب عنها ، أن عاد أصحاب غولكونده وبيجاپور إلى سابق
حروجهم على طاعة السلطان ، فامتنعوا عن دفع ما فرض عليهم
من جزية وراحوا يتخطفون أملاك الدولة هناك . حتى أغتحم
أورنگزيب فرصة سنحت له بنشوب الخصام بين عبد الله قطب
شاهى سلطان غولكونده ووزيره محمد سيد المعروف بمير جملة -
يكان هذا الأخير قد بلغ الكثير من النفوذ والقوة فصار له جيش
خاص به داخل الدولة قوامه خمسة آلاف من الفرسان وعشرون
ألفاً من المشاة - فزحف بقواته على هذه الإمارة بدعوى
تخليص أسرة الوزير من الحبس ورد أملاكها إليها . ولم يُغن
سلطان غولكونده فتيل ما بعث به إلى قادة القوات المهاجمة
من أموال كثيرة وجواهر عساهم يرجعون بذلك عنه ، فاقنم محمد
بن أورنگزيب عاصمته وأوقعه فى أسره .

وعنى شاهجهان آخر الأمر عن قطب شاهى وردّه إلى إمارته

بعد أن أقسم على الولاء له، ليرتبط معه من بعد ذلك برابطة النسب حين زُفّت ابنته إلى محمد بن أورنگزيب^(١). وما غدا مير جملة بدوره أن شمله شاهجهان بالرعاية حتى وزر له خلفا لسعد الله خان .

وسار أورنگزيب كذلك إلى بيجاپور، وكان قد بلغه اضطراب أحوالها بعد وفاة سلطانها محمد عادل شاه ، فما زال بها ، ومعه مهابت خان ومير جملة ، حتى وقع بأيديهم حصون بيدار وگولبورگة وگليآتي وبارنده . فما إن فرغوا من أمرها عام ١٠٦٨ هـ : ١٦٥٨ م فأنطلقوا إلى مدينه بيجاپور نفسها ، حتى أمرهم شاهجهان بوقف القتال ، إذ رضى سلطانها بالصلح على جزية كبيرة مع إعلان خضوعه وولائه ، وتنازله عما ضاع من أيديه من الحصون^(٢) .

فتنة الأمراء : رأى شاهجهان ، حين اشتد به المرض عام ١٠٦٧ هـ : ١٦٥٧ م أن يعهد بالملك من بعده إلى داراشكوه أكبر . أبنائه الأربعة من ممتاز محل دون إخوته ، وكان قد استبقاه إلى

١ - شاعبه : تنامة ١١٨ ، ١١٩ .

٢ - عمل صاخ ١٢٨ .

جانبه بآگرا حتى يتدرب على التمرس بأغباء الحكم .
ولم يكن لهذا الأمير بطبيعته كفاية حرية أو حكمة سياسية .
إلا أنه كان واسع الإطلاع ، شغوفا بدراسة الأديان بخاصة ، حتى
نقل ، بمعاونة بعض علماء البراهمة ، اليوپانيشاد المقدس من
السنسكريتية إلى الفارسية . وجرّ عليه اختلاطه بالهنداكة واشتغاله
الكثير بعلمهم ، سخط علماء السنّة ، مما يسر لأخيه أورنگزيب
أن يفيد من ذلك مستقبلا ، حتى بلغ إلى تأليب المسلمين في الهند
عليه إبان نزاعه معه على العرش .
أما شجاع ، ثانی الأبناء ، فكان في مقامه بالبنغال منصرفا في
الغالب إلى ملاذّه . وقد تعاون جو هذا الإقليم وإدمانه للشراب
على إضعاف عزيمته والهدّ من كيانه .
هذا ، في حين كان أورنگزيب يسوس شئون الدكن في همة ونشاط .
ولم يكن رابع الإخوة ، مراد بخش ، وهو في مقامه
للكجرات إلا صورة أخرى لأمير البنغال .
وأثار نبأ البيعة اذاراشكوه ثائرة إخوته الآخرين ، إذ كان
كل واحد منهم يرى نفسه أحق بالملك من أخيه . (١) ومن هذا
الأمير ، بخاصة ، الذي كان يُشاع عنه ميله إلى محاولة إيجاد دين

جديد يمزج فيه قواعد الإسلام بعقائد الهنادكة .

على أن أورنگزیب — وهو الذى قد كفل له محبة الناس وثقتهم به ما أظهره من كفاية فى الحرب وما عُرف عنه من الحزم والخلق القويم والتسك التام بأحكام الشرع — تمكن من أن يُغرى أخاه مراد بالائتلاف معه، على أن يفتسما أرض الهند فيما بينهما فيكون للثانى منها البنجاب والسند وكشمير وبلاد الأفغان . فالتقت قواتهما بقرية دهرمت على مقربة من اُجَين وقد أعلننا معا أنهما إنما قد قدما لتخليص البلاد من ربة ذلك الأمير المرتد داراشكوه .

واتجه شجاع ، بدوره ، على رأس جيش كبير ، إلى دهلى بعد أن كان قد نادى بنفسه سلطانا على البنغال ، لكن قوات سليمان بن داراشكوه ما غدت أن أرغمته على الإرتداد إلى إمارته بعد ن بلخ بنارس (١)

وبامت بالفشل كل الجهود التى بذلها الوسطاء لمنع الصدام بن قوات داراشكوه وأخويه ليُمنى من بعد ذلك جند دهلى زيمة شديدة ساعد عليها نفور بعض القواد المسلمين فى جيش

الدواة من السير تحت إمرة قادة من كبار الهنادكة فأنحازو إلى صفوف مهاجميهم .

وقوى من عزيمة أورنگزيب ما انضم إلى جبهته من قوات عديدة ، وما وقع بأيديه من أسلاب وذخائر حربية وموئن ، فاتجه إلى گواليار حتى حط رحاله بسهل سموگره إلى الشرق من آگرا ، لينزل من بعد ذلك هزيمة أخرى قاصمة بعدوه ، بعد قتال عنيف عظمت فيه خسائر الطرفين ، حتى اضطر داراشكوه آخر الأمر إلى الارتداد إلى آگرا سريعا في الليل تاركا كل عتاده وموئنه لأخيه .

وحين بلغ الأمير الظافر آگرا فكتب إلى أبيه يمتدح إليه عن هذه الحرب التي أكرمه أعداؤه على خوض غمارها ، بعث إليه شاهجهان بسيف بدعى عالمگیر هدية منه ودعاه للقدوم إليه . غير أن رجال أورنگزيب حذروه مما قد يكون أعداه له أبوه من شر الكلايقاع به ، وأشاروا عليه بأمر السلطان على الفور حرصا على سلامته وتأمين المركزه .

وأدى قطع الماء عن حصن آگرا إلى استسلام حاميته بعد دفاع مجيد ، لتحجّد من بعد ذلك إقامة شاهجهان في جناح الحرم بالقامة ، ولم يكن يرخص لأحد الاتصال به إلا لابنته

جهان آرا التي تفانت في السهر على راحته حتى آخر حياته .
ووقع بأيدي أورنگزيب رسالة كان أبوه قد بعث بها إلى
داراشكوه يحذره فيها من القدوم إليه ويطلب إليه لزوم دهلې ،
فتكشّف له بذلك سوء نوايا أبيه نحوه وصح لديه ما حذّره رجاله
منه في السابق ، فخرّم الكتابة على السلطان المعتقل .

وأحس أورنگزيب ، وهو في طريقه إلى دهلې زحفاً ، بنفور
أخيه مراد منه حتى شرع يتآمر عليه ، فدبر بدوره أمر اعتقاله
غدرّاً لبُسيره من بعد ذلك إلى السجّرات ويعتقله بقلعتها . وما
غداً أن أُدين هناك لقتله ديوانّه على نسقي قفّله به عام ١٠٧٢ هـ /
١٦٦١ م ^(١) .

وحين بلغ أورنگزيب دهلې نودي به عام ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ م
سلطاناً على الهند باسم عالمسكير .

هكذا ، وقد ظل داراشكوه يضرب في أرض البنجاب
والملتان والسجّرات وآجمير ، حتى حط به المطاف عند زعيم من
البطمان يدعى : ملك جيون ، كانت له عليه أباد سابقة كثيرة ،
فلم يغن عنه ذلك كثيراً ، إذ غدر به الأفغانى ودفع به إلى أخيه

أفتى العلماء بكفره وأباحوا دمه (١) .
أما شاه شجاع فما زال به قواد أورنگزيب يطاردونه في
بنغال حتى اختفى في جبال آسام وانقطعت أخباره .
ولو أن شاهجهان ، حين أبلّ من مرضه الذي اعتقد أن فيه
نسيبه ، كان قد عمد من فوره إلى حسم الموقف بنفسه بدلا من
أن يبعث إلى ابنه داراشكوه يطلب إليه العـدول عن قتال
خوته ، وقد كان يوقن أنه لا بأس عليه من قدومهم إلى دار
السلطنة ، لتغير الموقف كله على وجه السلامة .

فقد كان حريّا به أن يبرز إلى الميدان بنفسه فيقضى بظهوره
على الشائعات التي راجت بموته والتي ساعد على انتشارها سدّ ابنه
لّا كبر الكافة الطرق المؤدية إلى الدكن والگجرات والبنغال
قطعه البريد عنها .

هـذا ، كما كانت دعوته لمجلس الحرب الذي يضم كبار القادة ،
كفيلا بدوره ، في مثل هذه الظروف ، بالقضاء على الفتنة في
مهدا ، في الغالب .

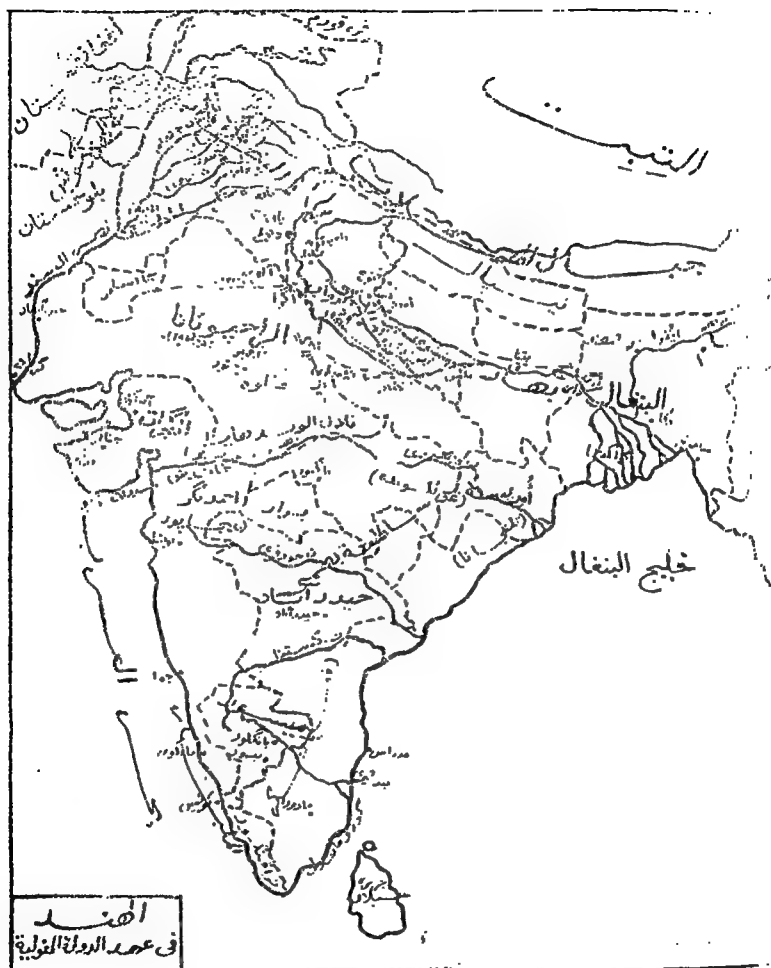
وغنى عن البيان أن ما عُرِف به أورنگزيب من مقدرة
بحزم مع انتصاره لعلماء السنة وتأيدهم له . قد أدى إلى التفاف

القوم حوله . فلم يكن ما أظهره الأهلون من الأسى حين جرى بداراشكوه إلى دهلي أسيراً فطوّف به في طرقاتها إلاّ لغدر مضيفه به في الغالب .

ولبت شاهجهان في محبسه سنوات ثمانية ، حاول في أثناءها عبثاً العمل على استرداد ملكه . حتى قضى أسيفاً حزينا عام ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٦ م وهو في الرابعة والسبعين من عمره ، وهو يرنو ببصره إلى تاج محل ، حيث ترقد زوجه الحبيبة ممتاز محل ، وإلى جواره جهان آرا ، ابنته منها ، التي وقفت حياءها على خدمته والعناية به .

شخصية شاهجهان : كان شاهجهان حاكماً قديراً بلغت الدولة في عهده أوجها وعلت مكانتها ، وقد نهج نهج أبيه وجده في تنظيم شئون الحكومة ، وتميز بالحزم الشديد مع رجاله وعماله والسهر على مصالح رعيته ، حتى كان لا يتردد في إنزال العقاب الشديد بمن يراه يتراخى في تحقيق العدالة لهم أو يتسبب بإهماله في إلحاق الضرر بهم (٢) .

ولئن ذهب إلى فرض ضرائب جديدة على التجار وأعاد فرض الرسوم التي كان الهنادكة يلزمون بها عند زيارة أماكنهم



المقدسة ، فإنه كان : على حد قول الرحالة الفرنسى تأثر فيه ،
ينظر إلى رعاياه عموماً نظرتة إلى أبنائه (١) . وتجلت شفقتة
بهم وحده دلى رعايتهم فيما كان يبذل من جهود كثيرة
لتخفيف وطأة القحط والمجاعات حين كانت تنزل بهم ، فلم يكتف
بما أقامه لفقرائهم من مطاعم مجانية كثيرة وما كان يبعث به
إليهم من الأرزاق والمؤن والآوال ، حتى أمر عماله بشراء
الأطفال الذين كان أهلهم يعرضونهم للبيع من فرط الإحلاق
ليردهم عليهم ثانية فيما بعد (٢) .

وبلغ من بره - ذا السلطان ، الذى عرف بتمسكه الشديد
بشعائر سنته ، أن داوم على إرسال هبات من الآوال فى كل عام
إلى فقراء الحجاز وعلماء الأراضى المقدسة وأشرافها .
وأدى به ذوقه الفنى الرفيع : وما ورثه عن آبائه من أموال
طائلة (٣) ، إلى تزيين الهند فى عهده بجملة من المنشآت المعمارية

Lane-Poole 329 - ١

Muslim Rule 546 - ٢

٣ - يقدر الرحلة الألمانى بمندلساو ما كان بخزائن دار السلطنة حين زارها فى
عهد شاهجهان ، بما يعادل ثلأعائة مليون جنيه ، عدا الدخل السنوى ، كما ذكر
كذلك أن جيش السلطان كان يضم مائة واربعمائة ألفاً من الفرسان ، ووصف
مدينة آكرا وازدهار الحياة فيها ، فقال إن طريقها كانت ممهدة نظيفة وإن ==

الفخمة التي ما تزال تُرى آثارها حتى اليوم بأكرّا ، وبدهلي الجديدة التي يعد بحق منشئها ومجددها ، والتي اتخذها مقاما له بعد أن أتم بناء قصره الكبير بها .

ومن هـ — هذه الآثار المسجد الجامع ومسجد اللؤلؤ والقلعة الحمراء . وأروعها جميعا ذلك المنشى الفخم الذى يعرف باسم تاج محل ، والذى أقامه لتخليد ذكرى زوجته ممتاز محل ، فعُد بكماله وبهائه من بين روائع المعمار فى الدنيا . وقد استغرق بناؤه اثنين وعشرين عاما ، واستخدم فيه عشرون ألفا من العمال ، وبلغت تكاليفه سبعة عشر وتسعمائة لكتّا (١) . من الروبّيات .

وبلغ بشاهجهان كلفه بالأبهة إلى صنع عرشه الفخم المعروف بعرش الطاووس الذى رُصّع بأكداس من الجواهر النادرة ، وكانت قوامه من الذهب الخالص ، وكان سقفه المطلى بالمينا يُحمل

== حوانيت التجار كانت تزر بمختلف أنواع السلع ، وقد خصص لتجار كل سلعة محلة موقوفة عليهم ، وكانت دور المسافرين نفقة نظيفة كذلك .

وأحصى هذا السائح بهذه المدينة سبعين من المساجد وثمانمائة من الحمامات ، هذا عدا القصور الشائخة التي كانت يسكنها المسلمون والهنداكة بظاهرها . وقال إن سكان أكرّا كانوا من الكثرة بحيث يمكنهم أن يقدموا من بينهم فى الحرب ما تئى ألف من

الرجال . Lane-Poole 333-5

٤ — الملك مائة ألف ، وفى هذا البناء اخطط الطراز الفارسى بالهندى .

على اثني عشر عمودا من الزمرد ، على كل واحد منها طاووسان
تزينهما الجواهر وتتوسطهما شجيرة يغطيها الماس والياقوت والزمرد ،
وتتدلى منه درج ثلاث تكسوها الجواهر والياقوت . وقد
استغرق صنع هذا العرش سنوات سبعة وبلغت تكاليفه أكثر
من ستة ملايين من الجنيهات (١) . وحين غزا نادر شاه الفرس ،
الهند عام ١١٥١ هـ / ١٧٣٩ م حمله معه ، فأثرى حكام الفرس من
جواهره ، وأفاد فتح على شاه سلطانهم من بعد ذلك من بقايا
وحطامه في إقامة عرش جديد له حمل الاسم نفسه .

أورنگزیب عالمگیر

اعتلى أبو المظفر محمد محي الدين أورنگزیب عالمگیر عرش الهند عام ١٠٦٩هـ / ١٦٦٩م والبلاد يعمها الخراب الشامل الذى اكتسح حقولها وروجها إبان حروب الوراثة الجائعة التى قامت بينه وبين أخيه دارا شكوه . وحالف القحط هذا الخراب بسبب احتباس الأمطار الموسمية ، فأتى على كل ما تبقى بالبلاد من أخضر وياس . لذا رأى أورنگزیب أن يرفع عن كاهل الأهلىن عددا من المكوس والضرائب تخفيفا عنهم ورحمة منه بهم ، فأعفوا من ثمانين نوع ، منها مكوس الطريق والمرور ومكوس الأرضية ، التى كان يلزم بها أصحاب المتاجر والخوانيت جميعا ، ومكوس لأضرحة ورسوم الدواب ، كما خفّض كذلك كثيرا من الرسوم التى كانت تفرض على المحاصيل الغذائية الزراعية تيسيراً على تسكان جميعا من مسلمين وهنادكة (١) .

وبرغم أوامره المشددة فى تنفيذ هذه الإعفاءات

وعنفه في معاقبة المقصرين من عماله ، فإن سكان المدن كانوا وحدهم ، في الغالب ، الذين أفادوا من ذلك كله ، إذ احتال حكام الأقاليم دوما على إبقاء الحال على ما كان عليه . حتى لا يضاروا في أهم موارد ومصدر ثرائهم ، ولا سببا حين عدل أورنگزيب عن نظام التجنيد الذي رسمه جدّه جلال الدين أكبر ، وسار عليه أولاده من بعده ، إلى نظام الإقطاع القديم .

اشتهر أورنگزيب منذ أول شبابه بتمسكه الشديد بتعاليم السُنّة ، حتى خاض حرب الوراثة ضد أخيه دارا شكوه على هذه المبادئ وأورده حتفه على ما أفتى به علماءه . لذا أبطأ الاحتفال بالنيروز عيد الفرس وحظرت دخول بلاده على أصحاب مذهب الشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب غير السُنّية (٢) .

١ — كان الحكام وعمال الدولة ، فضلا عن حرمهم البالغ على الاحتفاظ بمظاهر الأبهة والعظمة ، يتنافسون في تقديم الهدايا الثمينة من الجواهر وغيرها إلى السلطان في كل مناسبة ، وأعظم هذه المناسبات هي ذكرى مولده حيث كان يوزن بالذهب والجواهر على رسم مغولي قديم . ويذكر الرحالة الفرنسي برنيه ، وكان قد حضر هذا الحفل في أحد الأعوام ، أن ما قوم به السلطان من الجواهر بقدرته يوازي المليونين من الجنيهات . Lane-Poole 375

وكان من أثر هذا الإجراء ، ومناصبته قبائل الأفغان
تهدأ فيها بعد ، وما سبق إليه جسده حين نادى بأن الهند
تهدأ ، أن انقطع عن جيوش الدولة مصدر مهم طالما أمدّها
جاربين أشداء ، من أبناء بلاد ما وراء النهر وبلاد الأفغان
يركابل ، كانوا بلا مرء كفيّلين بشد أزر بني جلدتهم ، الذين
تأثرت عزيمتهم على مرّ الزمن ببحر الهند ، في دفع خطر المرفها
والسك عن الدولة ، وهما العصبتان اللتان عجل تزايد
نشاطهما في نهايتهما .

وأدى حرص أورنگزيب عالمگیر على أن يصبغ دولته
بالصبغة الإسلامية الخالصة إلى أن تشدد في تحريم الخمر
والميسر تحريماً تاماً وأبطل البدع ، ثم أمر بتعمير المساجد
وترميم الخرب منها وأمدّها بطائفة مختارة من الأئمة
والوعاظ والمدرسين ، وحض الناس على الإقبال على حلقات
العلم بها وشجعهم على الدرس فيها ، ثم بعث بمحتسبيه من بعد ذلك
ليراقبوا سلوك الناس ويحماوهم على التمسك بتعاليم الشرع
والإبتعاد عن نواهيه .

وظفّق أورنگزيب من بعد ذلك يُبعد الهنادكة عن مناصب
الدولة الكبرى ويقلل من عددهم في الدواوين عامة ، فلم يُبق بها

منهم سوى نصفهم حرصاً على صالح العمل (١) ، ولم يكن ذلك بدءاً منه بعد أن رأى بوادر الفتنة والعصيان تظهر من بينهم أيام أبيه .

وانتهى أمره معهم إلى أن أمر بغلق كثير من مدارسهم ومنعهم من إقامة معابد جديدة لهم ، حتى هدم معبدى بنارس وسومنات ، وأقام على أنقاض معبد — دمتشهره مسجداً كبيراً ، بعد أن بدّل اسم هذه المدينة إلى إسلامپور ، ونقل أوثان هذا المعبد المكحلة بالجواهر إلى آگرا فردم به — أساس مسجد نواب يسگیم صاحب حتى يطوها المسلمون بأقدامهم في صلاتهم تقرباً إلى الله (٢) .

وأعاد أورنگزیب فرض جزية الروس على الهادكة وأعفى من تأديتها غير القادرين عليها . وقد أدى الحرص بكثير من عامتهم إلى الدخول في الإسلام تخالفاً من دفعها .

كذلك فرض أورنگزیب رسماً جديداً على البضائع التي كان يستوردها التجار من الخارج ، وكان أغلبها من أدوات الترف

الزم الهنادكة منهم بدفع هذا الرسم مضاعفا .

يمكن تقسيم مدة حكم أورنكزيب التي تجاوزت سبعة
رربعين عاما إلى فترتين : الأولى ، وهي التي شغل فيها عامة
قرار الأمور في الهندستان ، والثانية وهي التي قضاهما في حروب
ستواصله بالدكن والجنوب استوعبت ستة وعشرين عاما
واستنفدت أموالا طائلة ووهلك فيها ملايين عدة من الجند
والأهلين . وقد هدف من ورائها في الغالب إلى الجهاد في سبيل
نشر الإسلام بين الهنادكة والقضاة على مذهب الشيعة أكثر مما هدف
إلى توسيع رقعة ملكه .

آسام والبنغال : أفاد أورنكزيب من كفاءة قائدة
مير جملله فوجهه في جيش كبير وأسطول من السفن النهرية إلى
آسام وكوش بهار اللتين تقعان عند الطرف الشمالى الشرقى الهندى
وهى منطقة تغطيها الغابات والآجام . وكان أصحابهما يتخطفون أراضي
الدولة . وبرغم فتك الاوبئة بجند الدولة وشدة ضغط العصابات
عليهم ، وهم في حصارهم لعاصمة آسام ، فقد مضى بهم قائدهم غداة
انتهاء موسم الأمطار ، والجمسى تركبه : حتى أرغم الآساميين على

التسليم ، فعاملهم برفق ومودة (١) . وعن أسف أن وافى الموت مير جُمله وهو في طريق عودته إلى دكا عام ١٠٧٢ هـ ١٦٦٣ م ، وأن نوابه أضافوا جميع بيوتهم ووده بهد بضع سنين بسوء إدارتهم وعسفهم .

وخلف مير جُمله علي البنغال الأمير شايبته خان ، خال السلطان . وكان ملوك أراكان بها قد اشتد نشاطهم حتى راحوا يتعاونون تعاوناً وثيقاً مع البرتغاليين لمناهضة الدولة . فرحبوا بقراصنة هؤلاء المستعمرين وغيرهم من المغامرين ، حتى باتوا يسيطرون على خليج البنغال ، فضلاً عن مساحات واسعة تمتد من من داتا السنج إلى دكا ، ثم انطلقوا يقطعون الطريق على التجار ويتخطفون الأهالي ويبيعونهم بيع الرقيق لتجار الهولنديين والإنجليز والفرنسيين في الثغور الدكنية الشرقية وفي جزيرة سرنديب غير بعيد من شيتا جونج .

وبرز شايبته خان لمقاتلة هؤلاء جميعاً ومعه أسطول كبير عدته ثلاثمائة سفينة خفاض ضدهم غمار معارك متصلة دامت ١٠٧٥ - ١٠٧٦ هـ ١٦٦٥ ، ١٦٦٦ م حتى كسر شوكتهم وحرر كثيراً من السكان من أيديهم واستعاد للدولة مساحات

كبيرة من الأراضي التي كانت في حوزتهم . وقد تحالف شايسته خان في حروبه هذه مع الهولنديين والبريطانيين الذين كانوا يتوقون للقضاء على منافسيهم من البرتغاليين ولم يكن يدري أنه بقضائه على البرتغاليين إنما يمد السبيل للبريطانيين الذين بدأوا وقتذاك بداية متواضعة هناك فأقاموا مصانعهم في منطقة كانت نواة لمدينة كلكتا الحالية (١) .

البطمان والأفغان : أخذت أطراف الهند الشمالية الغربية تتعرض ابتداء من عام ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م . لغارات قبائل البطمان الأفغانية ، وعلى رأسها يوسفزي والأفريدي (٢) ولما ينقض عام واحد على فراغ الدولة من مشاكل الحدود الشرقية . ولقد جهد السلطان أكبر من قبل في الحد من نشاط هذه القبائل ، وحذا حذوه جهانگیر ثم شاهجهان في سيراجيوشهما القوية إلى قندهار وبدخشان مرات عدة . وحين تجددت حركات هذه القبائل أواخر عهد شاهجهان ، بسبب حرب الوراثة الجاحقة التي نشبت بين أبنائه ، فأنحدرت جموع يوسفزي إلى مناطق الهزرا

١ — Lane-Poole 382.3 — المصانع هنا هي المخازن .

٢ — تشتهر من هذه القبائل الأفريدي والوزيرى على الخصوص بشدة المراسخى صدت جيوش الهند البريطانية مرات عديدة عن بلادها في القرنين : الحالى والماضى . وأثرت بها خسائر جسيمة .

فبلغت شواطئ نهر كابل ، لم يمكثف حاكم أتوك بردها في عنف حتى خرب منازلها وأراضيها .

وركبت هذه القبائل إلى الهدوء بضع سنين من بعد ذلك ، كان راجا جسوانت ، نائب السلطان عند جامرود ، يراقبهم فيها بعين ساهرة حذرة . ثم برزت قبائل الأفريدي ، وعليها زعيمها أكمل خان تستنهض همم القبائل الأخرى وتستعين بها في السيطرة على المنطقة الواقعة بين كابل وبشاور . حتى أتيج لها آخر الأمر أن تنزل هزيمة قاصمة بقوات الدولة ، عند عمر خير ، سقط فيها عشرة آلاف من جند السلطان أسارى بأيديهم .

وشجع هذا النصر القبائل الأفغانية الأخرى التي كانت تضرب بين أتوك وقندهار ، فركبت بدورها إلى العصيان . وقوى من عزيمتها انضمام الزعيم الأفغانى خوشحال إلى صفوفها ؛ وكان هذا الزعيم قد استُدِّرج من قبل ، بالخيانة والغدر ، إلى بشاور ثم ألقى به فى السجن بدهى ، فأطلق سراحه على أن يسير وابنه بجند الدولة لمحاربة أعدائه من قبائل يوسفزى ؛ ولكن ما أحرزه بنو جلده من الانتصارات على الدولة أنساه عداءه معهم فانضم إليهم .

هنالك بعث أورنسكزيب بهداى خان حاكم لاهور إلى بشاور ، وسير قائده الآخر مهابت خان إلى كابل . حتى إذا ما تكشف له

تواطؤ هذا الأخير مع العدو جعل مكانه شجاعت خان .

وأدى ظهور قوات الدولة القوية عند منطقة الحدود إلى قدوم فريق من شيوخ العشائر الشائرة مستسلين . حتى إذا ما أصم شجاعت خان أذنيه عن الاستماع إلى نصيحة راجا جسوانت فلم يصطنع التريث والصبر حتى يأتيه بقية الشيوخ فيبرم الصلح معهم على خضوعهم للدولة ، فاندفع بقواته إلى منازلهم في مناطق التلال المجاورة لكابل ، احذر البطهان إليه في ليل شتاء عاصف عام ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٤ م فأنزلوا بقواته هزيمة شاملة لاقى فيها حتفه .

هناك لم ير السلطان بُدا من المسير إلى هذه المنطقة آخر الأمر بنفسه ، فأفلق وقائدُه أغار خان ، بقوة السلاح تارة ويبدل المودة والمال والعطاء لشيوخ القبائل تارة أخرى ، في أن يؤمّن منطقة عمر خير ، أخطر أبواب الهند وأهم طرق الغزاة إلى سهولها وأراضيها .

ولم تستنزف قلائل الحدود الشمالية الغربية هذه كثيراً من أموال الدولة فحسب . بل لقد اضطر السلطان بسبب عنفها إلى استدعاء نخبة من قواته الدكنية إليها ، مما أتاح الفرصة لإمارات الدكن والمرهتها على الخصوص ، ليقبوا من نفوذهم هناك ويشيروا المتاعب في وجه الدولة من بعد ذلك .

ولم أن أورنگزيب كان قد اصطنع المودة مع القبائل الأفغانية منذ بادىء الأمر وأخذهم بالسياسة والدهاء الذى اشتهر به ، لأفاد من شدة مراسهم فى القتال فى حروبه الطويلة ، مع الراجپوتين والسك والمارهتاوشيعه الدكن ، وقد كانوا على دواه فى تصبهم الشديد لتعاليم السُّنة .

الجات والستناميون : أدت السياسة التى انتهجها أورنگزيب عالمگير فى تدمير معابد الهنادكة وإقامة مساجد للمسلمين على أنقاضها ، إلى شيوع روح التدمير بينهم حتى ثار الجات منهم " ثورة عارمة عند مانتوا فتمكن زعيمهم جُكال من قتل نائب السلطان هناك وانتهاب أراضى سعد آباد . ولم يفت سقوط هذا الزعيم فى يد الدولة ومقتله ، فى عضد بنى قومه ، فطفقوا ينزعون إلى التمرد والعصيان بين الفينة والفينة حتى تفاقم خطرهم حين بدأ الضعف يدب إلى بناء الدولة بعد عهد أورنگزيب .

١ — الجات أو الرُط ، منهم المسلمون ويكون السند الأعلى والنتان ، وقد ذكرهم الجاحظ بأنهم أصحاب مِهارة فى التجارة والصيرفة والصيلة ، ومنهم فريق من الهنادكة فى الراجپوتانا ، ومنهم السك فى البنجاب أنباع نانك ، وجميعهم من الويشية ، وغلب الصيرفة والمراين فى الهند اليوم منهم .

وجاءت ثورة الستاميين في أعقاب سابقتها . وهم طائفة من
 . داد ينتسبون إلى الإسم الحسن (الله : ستام) ، ويحرصون
 على كبرياتهم وأنفتهم حرصا شديدا . حتى لا يترددون في سبيل
 لك عن بيع أنفسهم ببيع السماح . ولم يكن مرد ثورتهم إلا
 اعتداء بعض الجند على فريق منهم^(١) دون أى سبب ديني
 آخر ، فرحفت جموعهم من نار تول عند موات تخرب
 ما يصادفها من مساجد وتعمل السلب والنهب في المدن والقرى ،
 حتى بلغت مشارف دهلي ، وفي ركابها شائعات قوية عن نفاذ
 غيرها وطلاسمها ، حتى فرغ الناس والجند من لقاءهم فلم يأتى السلطان
 نقضاء عليهم إلا بمشقة

السك : لم يقعد السك بدورهم عن المشاركة في حركة
 لسيخط التي عمت الهنادكة جميعا بسبب موقف السلطان غير
 اللودي معهم ، وكانوا قد غدروا يناصبون الدولة العداء من قبل
 منذ أن قتل جها نغير زعيمهم أرغون حين ظاهر ابنه خسرو
 في خروجه عليه .

وهذه الطائفة . وهى من الجبات البنجابيين . إمامها مصلح
 ديني يدعى غورو نانك ، ظهر في القرن التاسع الهجرى ، وحاول

أن يصهر ديانات الهند في مذهب واحد يقوم على تعظيمها جميعا ،
ويقضى على فروق الطوائف ، ويعلم المساواة التامة بين الناس .
وبلغ رابع خلفائه رام داس مكانة مرموقة عند السلطان
أكبر ، حتى أقطعه أرضا أقام عليها محلة لا يتباعه ومريديه ، فما زالت
تنمو وتكبر حتى صارت إلى مدينة أمر تسهر كعبتهم الدينية
اليوم بالبنجاب .

حتى إذا ما تفشت الكراهية المسلمين بينهم بسبب مقتل
جها نكير خليفته أورغون ، شرع زعيمهم الجديد هار غووند
يُعِدُّهم إعدادا عسكريا للدفاع عن كيانهم .

وحين ثار بهم تاسع زعمائهم غوروتغ بهادر ليعارض الدولة
في اضطهادها للهندكة وتخريبها لمعابدهم ، فقبص عليه أورنكزيب
عام ١٠٨٦ هـ : ١٦٧٥ م وأورده مورد الردى ، انطلق
ابنه غووند سنغ يشعل روح الحماس في قومه ، ليثأروا لقتلهم ، وهو
يواصل تدريبه الحربى لهم ويعمدهم بنقيع السيوف والخناجر .
فصمدوا لكل الضربات التي وجهتها إليهم الدولة في عزم
وإصرار حتى تم لهم السيطرة على منطقة التلال فيما بين شتلج ،
رافد السند ، وجمنه .

وأحاطت قوات الدولة بهذا الزعيم آخر الأمر بعد أن قتلت

وأيده ، فالتحق بخدمة بهادر خان خليفة أورنگزيب ، (١) لانتاب قومه ، حين بدأ الضعف يدب فى بناء الدولة ، إلى جيش جور غدا والمرهتها نذير سوء عليها .

الراجپوتيون : أدى فرض أورنگزيب جزية الروس من الهنادكة من جديد ، بعد أن ظلوا يعفون من دفعها ذابة قرن ونصف القرن ، إلى تفاقم الإضطرابات بينهم واشتداد أوار غضبهم .

وكان هدف السلطان من وراء إعادة فرضها هو الحصول على المال الذى أعوزه فى حروبه الكثيرة ، فلم يلتفت إلى توسلات جموعهم الكثيرة التى وفدت إليه وزحمت طريقه إلى المسجد ، حتى استخدمت الفيلة لتفريقها فهلك كثير منهم تحت أقدامها .

ولم يقبل الأمراء الراجپوتيون جزية الروس هذه عن طيب خاطر ، وقد انقلب السلطان ينظر إليهم بعين الإمتحان ، فى حين أن أسلافه ، حتى بعد استيلائهم على أقوى حصونهم فى چتور ، كانوا يعدونهم فى الغالب حلفاء لهم ويحفظون عليهم مراسم الأئمة والإمارة .

حتى إذا ما احتجز أورنگزيب بيلاطه أحد أبناء راجاجسوانت

بعد موته . وكان هذا الأمير قد شارك في إقرار الأحوال عند
الأنطراف الشمالية الغربية لألمانيا . فبرأى إلى قومه أنه إنما ينبغي
بفعلته هذه إلى حمل الأمير الراجيوتي الصغير على اعتناق
الإسلام . ألتفوا حول درغا داس راجا سوار (جده مور)
الذي توصل بالحيلة إلى تخليص الأمير من أسره وتسله وأمه إلى
إمارته ^(١) . لينفذ الساجان عندئذ قائد تيبورتيان وابنه الأكبر
لغزو هذه الإمارة وضمها إلى أملاك الدولة

كذلك انبرى أمير ألبانيا ^(٢) بدور يعارض ماقرض
عليه وعلى قومه من جزيرة الروس فاجتاحت قوات الدولة بلاده
بدور آخر . وبنت ما بها من مهابد هي راجا سوار التي لم يشفع لها ما كان
بين أميرها وأورنغزيب من صلوات مودة وسلام .

استصم الأمراء الراجيوتون النمرون من بعد ذلك بخصونهم
في الجبال ، وأنطلقوا من هناك نشطين لإيقاع قوات الدولة .
وقد دخل أكبر رابع أثناء أورنغزيب في كبح جماح هؤلاء الثورين

١ — منتخب الباب ٢٩٨ .

٢ — رفض أمراء أديبور دائما مهادنة سلاطين المسلمين ، كما رفضوا فيما بعد
أن يشاركوا في حفل تنصيب فيكتوريا ملكة بريطانيا إمبراطورة على الهند ، ورد
أميرهم إلى نائبها قلادة كوكب الهند محتجا بأن أحداً من أجداده لم يحمل شعار
الهندية من قبل .

الذين كادوا يصلون إلى قطع الإمدادات والمؤن عن أورنگزيب نفسه وهو في موار .

وأدى حرج الموقف بأورنگزيب إلى استدعاء ولديه الآخرين ، أعظم ومعظم ، بقواتهما من الدكن والبنغال ليشركاه الحرب عند موار ، في حين وجه ابنه أكبر إلى موار بعد أن أنبّه تأنيذاً شديداً لتهوانه السابق مع العدو . فإذا بالأمراء الراجپوتيين يلتفون حول هذا الأمير الغاضب ، وكان إذ ذاك في الثالثة والعشرين من عمره طموحاً فتياً ، فما زالوا يزينون له الخروج على أبيه حتى استجاب لهم ونادى بنفسه سلطاناً عليهم .

هنالك قرّر قرار القوم على الزحف ، بجموعهم التي تجاوزت السبعين ألفاً ، إلى آجمير مقر السلطان ، ولم يكن بها حوله من الجند عندئذ ما يزيد على الألف فارس ، حتى أتاح تباطؤ الأمير أكبر وانشغاله بمتعة الفرصة لأورنگزيب ، فبلغ بدهائه وحسن تدبيره إلى صرف الأمراء الهنادكة وجموعهم عن ابنه وجذب مامعه من قوات الدولة إلى صفوفه ، إذ اصطنع خطاباً بعث به إلى أكبر ، تعمد أن يقع بأيدي الراجپوتيين ، وقد أثنى فيه على الأمير وعلى خداعه للأعداء على مارسمه له من قبل ، وأمره باستدراجهم وقواتهم حتى

يُخَصِّرون بين قُوَّتَي المسلمين لِيَسَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ ^(١) . فَإِذَا
بِالرَّاجِئِيَّاتِ يَنْفَرُطُ عَقْدُهُمْ حِينَ أَطْلَعُوا عَلَى الرِّسَالَةِ ؛ وَإِذَا
بِالْأَمِيرِ النَّاتِرِ يَجِدُ نَفْسَهُ وَحِيدًا فِي الْمِيدَانِ ، فَيَمْعَنُ فِي الْهَرَبِ حَتَّى
يَنْزِلُ بَعْدَ مَطَافِ طَوِيلٍ عِنْدَ شَمْبُوجِي بْنِ شِيَوَاجِي زَعِيمِ الْمَرْهَتَا
بِالدَّكْنِ . وَقَدْ أَبْجَرَ مِنْ أَحَدِ مَوَانِيهِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إِلَى إِيْرَانِ فَأَقَامَ
بِهَا إِلَى آخِرِ حَيَاتِهِ .

وَانْتَهَتْ الْحَرْبُ مَعَ مَوَارِ عام ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١ م بَعْدَ أَنْ قَبِلَ
أَمِيرُهَا التَّنَازُلَ عَنْ بَعْضِ حَصُونِهِ لِلدَّوْلَةِ نَظِيرَ إِعْفَائِهِ وَقَوْمِهِ
مِنْ جَزِيَةِ الرُّعُوسِ . أَمَّا مَوَارِ فَقَدْ دَبَّقَتْ عَلَى عَصِيَانِهَا
حَتَّى أَقْرَبَهَا دَرِشَاهُ ، خَلِيفَةُ أَوْرَنْكُزِيْبِ ، لِأَصْحَابِهَا بِمَقْوَعِهِمْ فِيهَا .
الشَّيْعَةُ وَالْمَرْهَتَا : قَضَى أَوْرَنْكُزِيْبُ ، بِطَرِيقِ الْعُفْفِ الَّذِي سَاكَمَهُ
مَعَ الْأَمْرَاءِ الرَّاجِئِيَّاتِ ، عَلَى مَوْرَدِ قُوًى مِنَ الْجُنْدِ الَّذِينَ ظَالَمُوا سَانْدُوا
الدَّوْلَةَ فِي حُرُوبِهَا أَيَّامَ السُّلْطَانِ جَلَالِ الدِّينِ الْأَكْبَرِ وَخُلَفَائِهِ . كَمَا
شَارَكَ أَمْرَاؤُهُمْ ، فِي الْوُظَائِفِ الْكُبْرَى وَفِي الْجَيْشِ ، فِي تَحْقِيقِ الْمُنْعَةِ
لِلدَّوْلَةِ وَتَوْفِيرِ الْمَهَابَةِ لَهَا . وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْمُحَارِبُونَ الْأَشْدَاءُ كَثِيلِينَ بِشَدِّ
أَزْرَ أَوْرَنْكُزِيْبِ فِي حُرُوبِهِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي تَضَاهَا بِالدَّكْنِ فَابْتَلَعَتِ الْأَمْوَالَ
الطَّائِلَةَ وَفَقِيَ فِيهَا أُلُوفٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَبْنَائِهَا . وَبَدَأَ بِنَاءَ الدَّوْلَةِ مِنْ

سائر أمتها يتزعزع ويتصدع .

فقد عقد العزم ، بعد أن تم له إخضاع موار عام
١٠٤٠ هـ ١٦٨١ م ، على السير إلى الدكن . فهاهم سلاطين المسلمين في
بجور وغولكونده لا يزالون يحملون هناك لواء التشيع ويروجون
لهذا المذهب الذي يرى أورنگزيب أنه من أقدس الفروض عليه ،
يرصفه سلطان السنيين وحامي المذهب ، أن يقضى على ملكهم
أو يعودوا إلى ملتته . ولقد أرغم في عهد أبيه على وقف القتال
معهم ومهادنتهم ، ليهتبلوا الفرصة التي أتت لهم من بعد ذلك بمرض
شاهجهان وقيام حرب الوراثة بين أبنائه فيعودوا إلى سيرتهم
الأولى في العصيان ونبذ طاعة الدولة . وهاهم المرهتها قد تفاقم
خطرهم ، والدولة منشغلة بحروبها عند الحدود الشمالية الغربية وفي
أراجچوتانا ، فانتشرت عصاباتهم تخرب المدن والقرى وتنتهبها
وتغتصب الحصون وتقطع الطريق على التجار وتأوى عندها
الخارجين على سلطان الدولة حتى نزل الأمير أكبر بن أورنگزيب
آخر مطافه بكنفهم .

ولم تكن الدكن ، على كل حال ، بغريبة عن هذا السلطان ،
فقد وُلى حكمها في عهد أبيه ماينوف على اثني عشر عاما
يعرف مالا أرضها من خصب عميم وما لأمرائها من ثراء عريض .

وكان المرهتها الدكنيون هم أول من اجتراً من سكان الجنوب
في الغالب على الزحف إلى الهندستان . وقد قضى أورنگزيب
عالمگیر أكثر من ستة وعشرين عاماً يحاربهم هناك . وقد أنزلت
عصاباتهم بالدكن كله في أيامه خسائر بالغة بما خربته من مدنه
وقراهوما أحرقته من زرعه وضرعه حتى شاركوا فيما بعد مشاركة
فعالة في انهيار الدولة .

ويُشتق اسمهم من مهاراشترا ، أى المملكة الكبرى ، وهى
التي لم يبلغ الباحثون تحديدها في القديم بعد . ويعود
البراهمة من زمرة الشودر أدنى طبقات الهند وطوائفها ،
وإن كانت سماتهم فيها كثير من سمات التورانيين . وقد ذاع
اسمهم في القديم على كل حال حين استعان بهم بليكسين الثانى في
حروبه مع هرشا .

وامتدت إلى منازلهم بالدكن بدورها موجة الإصلاح الدينى
التي ظهرت في أماكن متفرقة بالهند في القرنين الخامس عشر
والسادس عشر الميلادى ، فظهر من هداة المراهمة ، اكناته وتكرام
ورام داس ، ينكرون نظام الطبقات ويجهرون بأن الشودرى قادر
بعقيدة بهاكتى (أى الإخلاص لله) أن يبلغ عند الله منزلة ليست

دون منزلة البرهمى الورع ^(١) .

وتدأفاد منهم ملك عنبر الحبشى الوزير الدكنى فى حربته مع
جهاى كير ، على ما ذكرناه من قبل . وظهر من بين صفوفهم
من بعد ذاك شاهجى بهونسل الذى حارب الدولة ثم عمل تحت
لوائها لينضم آخر المطاف إلى صفوف البيجاپوريين من بعد ذلك .
وحين قضى شاهجهان على إمارة أحمد نگر ، تمكن ذلك
القائد المرهتهى بعد قليل من أن يمد نفوذه إلى هذه الإمارة
ويجلس على عرشها أميراً من أمرة نظام شاهى . حتى اجتاحت
جند الدولة هذه الإمارة من جديد ، فليجأ شاهجى ثانية إلى
بيجاپور ثم اعتكف آخر الأمر فى إقطاعه بيونا وشارغوندا على
مقرته من بمباى .

شيواجى : نشأ شاهجى ابنه شيواجى تنشئة عسكرية
منذ صغره . وأتاح له لزومه بلاط بيجاپور بعض الوقت التمرس
بالسياسة والوقوف على الكثير من أحوال الدولة وعلاقاتها
بسلطين الدكن ، كما بث فى نفسه حكم المرهتها ، رام داس ،
حباً الهنداكة ، وحرصه على وقف حيياته للدفاع عن

بنی جلدته ومقدساتهم .

حتى إذا ما اضطربت الأحوال في بیجاپور بسبب مرض سلطانها عام ۱۰۵۶ هـ / ۱۶۴۶ م . انتهز شیواجی هذه الفرصة ليستولى على جملة حصون حول بونا (۱) . إقطاع أبيه . ولينفذ من بعد ذلك إلى إقليم كُنكان .

هنالك بادر سلطان بیجاپور إلى اعتقال شاهجی فلم يطلق سراحه حتى تعهد ابنه شیواجی بالركون إلى السلم والابتعاد عن انتهاب أراضي الإمارة وتخطفها .

ولكن المرتهی مالبث أن عاد إلى كنكان من جديد ، وأورنگزیب نائب شاهجهان إذذاك بالدكن، مشتبك في الحرب مع بیجاپور ، فوضع يده على أغلب أراضيه ، وتحكم في موانيه حتى رد البيجاپوريين عنه حين ساروا إليه من بعد ذلك ، وطفق يتعقبهم في تقهقرهم عنه حتى دخل بلادهم . فلم يرتد عنها إلا حين بلغه زحف شايسته خان قائد أورنگزیب على الدكن .

وأتبع لشايسته خان أن يقتحم بونا وحصن شكن ويثبت أقدامه في القسم الشمالي من كُنكان ، ليهاجأه عندئذ شیواجی بمقره في

مائتين من رجال عصاباتة قدموا في هيئة من يحتفلون بزفاف صبي ، فانقضوا على قصره في غارة ليلية قُتِل فيها أغلب حراسه وحريره وأصيب هو نفسه بجراح شديدة (١) .

واستشرى خطر هذا الزعيم المرهقي حتى سقط في أربعمائة من رجاله على ميناء سورات الغني فانهب سكانه وتجاره وما صادفه فيه إذ ذاك من سفن الحجاج المسلمين . فلم يقف في وجهه هناك إلا مصانع الهولنديين والإنجليز الذين لم يأبهوا تهديده وأغلظوا القول لرسله ، فعاد بأسلابه إلى مقره دون أن يحجزه على التعرض لهم بسوء .

وثار أورانگزیب لفرط جراءة هذا الثائر ، فبعث إليه بجيش كبير، عليه ابنه معظم ، اكسح بلاده حتى هدّد مقر حكومته في رايگره ، ليهادن الدولة من بعد ذلك فيتنازل لها عن الكثير من الحصون ويتعهد بدفع جزية سنوية كبيرة لها .

ومازال السلطان بعدوّه حتى حمّله ، بحسن تدبير قائده راى سنخ ، على القدوم إلى آگرا ومعه ابنه شيهوجى ليقدم فروض الولاة إليه بنفسه .

وحسين أحسن هذا الزعيم المغامر بأنه وابنه معتقلا
في دارهما ، احتالا على الحراس فهربا من محبسينهما في سلتين
من سلال الفاكهة بتدبير محكم ، لينطلقا من بعد ذلك إلى
مناوأة أوردنكر برب من جديد . وقد كان في إمكانه أن يكسبهما
إلى صفه باصطناع المودة معهما فيبلغ بمعوتهما إلى إخضاع الجنوب
كله لسلطانه دون كبير عناء ^(١) .

ومن عجب أن شيواجي ، حسين عاد إلى مقره ، وجم
وزراء منصرفين إلى تدبير شئون الدولة وكأن شيئا لم يقع
لا .

وعاد شيواجي الدولة عامين انصرف فيهما إلى تنظيم
حكومتها ، وكان يدير شئونها إذ ذاك مجلس برئاسته قوامه
ثمانية من الوزراء لشئون المسائل والشئون الداخلية والخارجية
والدينية والبلاط وشئون الحرب والقضاء ، وجميعهم ، فيما
عدا وزيرى العدل والشئون الدينية . كانوا من أصحاب الرتب
في الجيش .

وعاد شيواجي عن نظام التجنيد الذى كان يلزم به رجاله
فضاء ستة أشهر من كل سنة في المعسكرات لينصرفوا من بعده

إلى حقوقهم ، فأقام له جيشاً ثابتاً التزمت حكومته بنفقاته . وكان
فوائده أول الأمر المشاء حتى يسهل تشكيل العصابات منهم . ثم ضم
إليهم من بعد ذلك فرق من الفرسان صاروا مصدرراً للفرع
والرعب أينما حلوا وساروا . (١)

ولم يهتم المرتهبها إلا بترقية الزراعة وتوسيع رقعتها .
فلم يلتفتوا إلى العناية بالتعليم أو العمل على كسب الأهالي
إلى صفوفهم (٢) .

وحظقت نصابانهم تعاود نشأتها من جديد ابتداء من
عام ١٠٨١ هـ ١٦٧٠ م حتى طردت نائب السلطان من كُنكان .
وسقطت مرة ثانية على سورات ، فبلغ ما انتهبت منها ما يزيد قيمته
على سبع ملايين من الروبيات . وكان من أثر غاراتهم المتكررة
على هذا الميناء المهم أن أدى انتشار الرعب منهم بين السكان إلى
كساد التجارة فيه .

ونادى شيواجي بنفسه آخر الأمر أميراً على قومه
عام ١٠٨٥ هـ ١٦٧٤ م ، والدولة منشغلة عنه إذ ذلك بفتح الشمال ،
وقد ضم إليه كثيراً من الأراضى والحصون في نطاق مملكته .

فيا يانكر القديمة التي بات الهنادكة فيها يحلون باستعادتهم لمجدها
الغابر عـلى يديه .

ثم انطلق من بعد ذلك ينتهب أملاك الدولة نفسها ، بعد أن
اغتصب بعض حصون أخرى من سلطنة بيجاپور . فلم يستطع
دائر خان قائد أورنگزيب أن يصمد في وجهه كثيراً ، حتى طواه
الردى عام ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م ولما يكمل الثالثة والخمسين من
عمره (١) .

وزرع من بناء الدولة التي أقامها شيواجي ، انصراف رجاله
من بعده إلى تحقيق أطماعهم وآربهم الخاصة ، فانقلبت القوة التي
أقام صرحها إلى سلاح هدام استخدمه رجاله في منازلهم فيما
بينهم ، ليحىء من بعد ذلك أورنگزيب ، بعد فراغه من حروبه
في الشمال ، فيلتحم معهم في معارك متعاقبة استمرت سنين طويلة
وأصيبوا فيها بضربات متلاحقة منه وخسائر جسيمة في الأموال
والأنفس .

بيجاپور وغولكونده : قدم أورنگزيب عالمكير إلى

١ — يذكر خافي خان في منتخب الباب « ٣٠٥ » لشيواجي أنه كان يحرص
في غزائه على ألا يتعرض أحد من رجاله لمساجد المدين أو نساكنهم وأطفالهم بالسوء برغم
عدائته الشديد لهم .

برهانپور عام ١٠٩٢هـ / ١٦٨١م ليقود بنفسه معارك الدكن ، فبعث
بابنه الامير مُعظم لغزو أراضى المرتها ، فتوغل فى كُنكان ليجد
العدو قد جلى عنها بعد أن أحرق زرعها وخرَّب قراها . حتى إذا
ما حاول الجيش الغازى أن يمون جنده بالمؤن عن طريق
البحر سقط الثوار على السفن فاستولوا على ما بها من حبوب
وأغرقوها .

وحين وجه السلطان ابنه الثانى أعظم إلى بيجاپور وسار هو
إلى أحمد نگر ، انطلق شميموجى بن شيواجى وخليفته إلى خاندش
غرب بعصاباته قراها ، حتى إذا ما قدمت إليهم قوات الدولة تفرقوا
سراعا ، على عادتهم ليتصيدوا أفرادها وينزلوا بها خسائر كثيرة .
هنالك رأى أورنگزيب أن يوجه جهوده كلها إلى الاستيلاء
أولا على إمارتى بيجاپور وغولكونده فيحرم بذلك المرتها من
أموال كثيرة كانت تلتزم هاتان الإماراتان بدفعها لهما لقاء
لشرهم ، ويبلغ فى الوقت نفسه إلى القضاء على أصحاب مذهب
ينكره أشد الإنكار ، وهو مذهب الشيعة الذى كان يدين
به سلاطين هاتين الإماراتين ويروجون له بالهند .

وفى هاتين الإماراتين اللتين كان الضعف قد تمرب إلى
حكومتهما فى قوة بسبب تنازع حكاهما ووزائهما فيما بينهما ،

كانت نواة عصابات المرهتها الحديثة ، وفيهما كذلك عاش زعيمهم شاهجي وابنه شيواجي وحفيده شنبهوجي ، وكانوا جميعا على تحالف وثيق في بعض الأوقات مع حكامهما ، ويجمعهم معا في صعيد واحد ، آخر الأمر ، عداؤهم المشترك للدولة وكراهيتهم المتأصلة في نفوسهم لها .

وأشرف أورنگزيب بنفسه على حصار حصن بيجاپور ، فلم يغن صاحبه فتى — لا استجاده بأبي الحسن قطب شاه سلطان غواكونده أو بشنبهوجي أمير المرهتها ، حتى أرغم على الاستسلام بعد دفاع مجيد ، دام عاماً وبعض العام . استطاع إبانة البيجاوريون بمعاونة المرهتها أن يخربوا كافة الأراضي الزراعية ببلادهم ويحرقوا محاصيلها حتى عانى الغزاة شحاً شديداً في الأقوات كاد يصرفهم غير مرة عن غايتهم ، لولا عناد قائدهم أعظم بن السلطان وشدة مراسه .

ودخل السلطان بنفسه المدينة قبيل أواخر عام ١٠٩٧ هـ / ١٦٨٦ م فهدم كل النقوش الهندية التي كانت تزين قصر سلطاتها سكندر شاه ، كما خرب رجاله بدورهم جملة من المنشآت الفخمة الأخرى بها .

وقضى سلطان بيجاپور وهو في الثانية والثلاثين عن عمره

بعد أن أنفق بضع سنين في حصن دولت آباد بالديكن وشاركه حبسه هذا بعد قليل أبو الحسن قطب شاه سلطان غولكونده بعد أن سقطت بلاده بدورها في أيدي الدولة^(١)

ذلك أن أورنگزيب كان قد استمد حقه على صاحب غولكونده أمير حيدر آباد حين امتنع عن دفع الجزية التي تعهد بها للدولة من قبل ، ونقض اتفاقه معها بالابتعاد عن مخالفة أعدائها ، حتى اتخذ له وزيرين من الهنادكة هما مادانا وآلنا فكانا على اتصال وثيق بشمبوجي ، زعيم المارهنبا في الخفاء ، بها هو آخر الأمر يعاون انتخاب بيجاپور في حربهم مع الدولة.

هالك زحف أورنگزيب على غولكونده ، وابنه أمظم في حصاره لبيجاپور . حتى إذا ما بلغه فشل الأهليين بها للوزيرين الهندوكيين مدد بن المضي في زحفه ، إلى حين . ليعاون ابنه أولا في حربه .

وعاد السلطان ، بعد سقوط بيجاپور ، إلى غولكونده من جديد . ليواجه بها مقاومة عنيفة عاون أصحابها عليها المارهنبا . فأحرقوا الزرع على عادتهم . وأخذ الجوع والوباء يفتك بجند الدولة حتى تمكن أورنگزيب ، بالرشوة والخديعة ، من التهرب

آخر الأمر إلى داخل الحصن .

ولم يفتّ تدفق الغزاة في عضد الوزير عبد الرازق الذي انطلق في حفنة قليلة من رجاله لا تزيد على اثني عشر نفراً يدفع بهم أعداءه عند باب الحصن في تهور وشجاعة مذهلة حتى أعاقته جراحه التي زادت على السبعين عن مواصلة النضال .

ونذب أورنگزيب لعلاج هذا الوزير طبيباً هندياً وآخر أوروبياً . وحين شفى من جراحه أراد السلطان أن يكرمه لشجاعته بإلحاقه وولديه ببعض المناصب ، فاعتذر له ممتناً بأنه لا يستطيع أن يخدم سلطاناً بعد مليكة أبي الحسن ، أكبر أورنگزيب فيه وفاءه وشمله بالكثير من الرعاية والإحسان (١) . وفي حصن غولكونده ومدينة حيدر آباد الدكنية استحوذ أورنگزيب على كوز كثيرة وأموال طائلة كانت تدرها على هذه البلاد أراضيها الخصبية وموانئها التي كانت تزدهم بالتجارة الأوروبيين ومصانعهم التي كانوا يدفعون عنها للسلطان رسوما باهظة سنوية .

شبهو جى : انتهى أورنگزيب من أهرهاتين الإماراتين ليفرغ من بعد ذلك لحرب المرهتا . وكان أميرهم شبهو جى ن شيو ا جى قد أثر أن

يلزم حصن سنجمشوار طالبا للسلامة : والسلطان منهك في حربه مع جيرانه ، حتى وقع عليه مقرب خان قائد أورنگزيب ، وهو في تقاعسه منصرف إلى لهوه ، فأسره مع زوجاته وبناته وفريق من رجاله ، ثم قتله وأعيانه وأمر فطُوف برءوسهم في أغلب مدن الدكن عام ١١٠١ هـ / ١٦٩٠ م عظة وعبرة (١) .

وسقطت راجكره عاصمة المرهتا بأيدي الدولة بعد أشهر فلائل من أسراهم ، وأحيط بأفراد أسرته جميعا إلا رامداس ، ليجتاح أورنگزيب من بعد ذلك الجنوب كله حتى يبلغ تنجوره بأقصاه .

بهذا صارت شبه القارة الهندية كلها في حوزة أورنگزيب إلا أماكن قليلة عند الساحلين الشرقي والغربي كانت بأيدي المستعمرين الأوروبيين ، وإن لم يمكنه ترومي أطرافها ، وما يحمله له أغلب أهلها الهنادكة من كراهية وعداء ، من إحكام قبضته في الواقع عليها وتثبيت أقدامه بها . — هذا فضلا عما استنزفته حروبه بها من أموال طائلة حتى عجزت الدولة أواخر أيامه عن الوفاء بمقرارات الجند (٢) .

لقد أراد أورنگزيب أن يجعل من جنوب الهند إمارة تابعة له يجرى حكمها على غرار حكومة البنغال أو البنجاب ، فقضى هذه السنين الطويلة مقيما ، في الغالب ، هناك حتى نهاية عمره ، فلم يبلغ إلى تحقيق هدفه على الوجه الذى ابتغاه . ذلك أن قواده لم يكونوا من طراز أولئك الرجال الأشداء ذوى الجلد الذين ساروا مع جده الأكبر بابر ففتح بهم الهندستان وكسر بهم شوكة الراجپوتيين ، إذ كان كل واحد منهم يحرص أشد الحرص وهو في حملات الدكن على توفير أسباب الرفاهية والراحة لنفسه على أكمل وجه وكأنه لا يزال يقيم بالعاصمة في قصره ومن حوله نسائه وجواريه . هذا كما كان الراجپوتيون بدورهم قد تخلوا عنه ، وهم الذين طالما عاونوا آبائه في حروبهم من قبل . فلو كان قد أتيح لأورنگزيب رجال من أولئك وهؤلاء لاستطاع أغلب الظن ، القضاء التام على المرهتها في يسر ، ولثبتت أقدامه في الهند كلها ، ولجنّبت الدولة بالتالى الأخطار القاتلة التى تعرضت لها فيما بعد على أيدي المرهتها والسك^(١) .

هذا وقد حاول راجا رام داس أن يلم شعث المرهتها من جنيد، بعد أن كسبت له السلامة من الأسر ، فلم يحالفه التوفيق ،

حتى حاصرتہ قوات الدولة آخر الأمر في حصن ستارا إلى الجنوب من بونا . واستسلم أصحاب الحصن لأعدائهم بعد موت أميرهم ، وقد تزعمتهم من بعد ذلك تاربي أرملہ هذا الراجا فقادت عصابتهم في عزم أسلافها وحسنتهم . وحين سار أورنگزيب إلى أحمد آباد عام ۱۱۱۷ھ / ۱۷۰۵م مضوا في أثره يخربون أراضى الدکن حتى مشارف مالوہ ، فبلغ ما هلك من السكان على أيديهم هناك ، وما قضى عليهم القحط ، بسبب أنحباس الأمطار قبل ذلك بسنوات قليلة ، بضعة ملايين .

لم ينقض عام على أورنگزيب بأحمد آباد حتى بلغ به المرض والشيخوخة مبلغه فأيقن بدنو أجله . هنالك فرّق أبنائه في أنحاء الدولة مخافة أن يقع بينهم ما وقع بينه وبين إخوته من قبل من تطاحن وقتن ، فبعث بأعظم إلى بیجاپور ، وبکام بخش ، أحب أبنائه إليه ، إلى مالوہ .

وكان أورنگزيب منذ أول عهده على حذر تام من أبنائه حتى لم يتردد في إلقاء ابنه الأكبر سلطان في الحبس حتى مماته ، كما سجن ابنه معظم سنوات ثمانية حين بلغه خبر تفاوضه مع سلطان بیجاپور ، أثناء حرب الدکن ، دون تصريح منه . وفعل مثل

ذلك مع ابنه كام بخش وكان أقرب أولاده إليه . بل إنه لم يتردد كذلك في عقاب ابنته زيب النساء ، وكانت شاعرة موهوبة ، اعطفها على أخيها أكبر حتى وافاها أجلها في الحبس (١) .

وحين اشتد به الداء أوصى رجاله أن يقيموا له جنازة بسيطة عند وفاته ، ويسرعوا بدفنه في أقرب مقابر المسلمين ، ولا يزويدوا في ثمن كفنه على خمس رويات كان قد كسبها من صنع الطواقي وبيعها ، وأن يتصدقوا على الفقراء بثلاثمائة من الرويات كانت هي كل ما يملكه وما تبقى له من دخله من نسخة للقرآن الكريم وبيعه .

وافاضت روحه يوم جمعة ، على مناه ، في الثامن والعشرين من شهر ذى القعدة عام ١١١٨ هـ / ١٧٠٧ م وهو في التسعين من عمره فووري التراب في مقبرة دولت آباد (٢)

شخصية أورنگزيب : وقف أورنگزيب عالمگیر حياته كلها على إعلاء شأن السنة ونشر لواء الإسلام خفاقا عاليا ، ومجاهدة عبادة الأوثان والخارجين على إجماع أهل السنة

من أصحاب المذهب الشيعى وغيرهم . وقضى أيامه على خير بما يقضيها مسلم تقى يحفظ القرآن ويصوم أغلب أيامه ، حتى كان لا يتردد ، وأعنف المعارك تدور من حوله ، فى أن يزل عن دابته فيؤدى الصلاة فى وقتها باطمئنان بالغ وخشوع وكأنه يقيمها بالمسجد الجامع أو فى داره (١) .

وبلغ من ورعه وتجنبه للترف والمتع ، إلى جانب تحريمه التام للخمر والميسر ، أن أبعد الموسيقيين والمطربين عن بلاطه برغم راعته فى العزف (٢) ، وخير الرافصات بين الزواج أو النفي فى الأرض . كما طوى قلبه على الرحمة البالغة برعاياه حتى بَعُدَ كل البعد عن القسوة والقتل ، وكاد يستغنى عن اصطناع العقاب فى محاكمة المجرمين إلاّ قطاع الطرق منهم (٣) هذا فضلا عما شُهر به من تجمل بالصبر وهدوء النفس فى المحن ، والتواضع الشديد الذى أدى به إلى تهديد نائبه بالبنغال حين

١ — مرآة عالم ١٦١ .

٢ — يروى أن الموسيقيين حملوا عندئذ النعوش مولوين والسطان فى طريقه إلى المسجد ، حين استفسر عن أمرهم أجابوه بأنهم فى طريقهم لدفن الموسيقى ، طلب إليهم أن يحسنوا دفنها حتى لا تعود إلى الحياة ثانية .

بلغه أنه يتعالى عن الناس في مجلسه حتى اتخذ له ما يشبه العرش ليرتفع عليه (١) .

ولقد نشأ منذ شبابه على الترس بالحكم والاضطلاع بالحرب ووقائعها ، فأصاب نجاحا كبيرا في حكم الدكن وحروبه ، كما ذاع صيته كذلك في مارك بلخ وبدخشان مع الاوزبگ وغيرهم .

وأدت به رقابته لضميره في كافة ما كان يصدر عنه من أعمال أنه كان لا ينام إلا ساعات قليلة ، لينفق وقته كله في الإشراف على كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة بنفسه . ويسهر في دأب متواصل على مصالح رعاياه . ويبت في كل مسائلهم برأيه الخاص ، حتى كان وزراؤه في الغالب مجرد كُتّاب لتنفيذ أوامره .

وبلغ من حرصه على تحقيق العدل لرعاياه أنه أصدر أوامره المشددة لقضاة في كافة أنحاء البلاد بأن يتوافروا على دراسة قضايا الناس ومشاكلهم . مع سرعة الفصل فيها بالجلوس للقضاء خمسة أيام في كل أسبوع بدلا من يومين على الرسم السابق .

على أن غيابه الطويل بالجُزوب وهو يدير دقة المعارك هناك ،
قد أدى إلى تسرُّب الفساد إلى جهاز الحكم وسلوك أغلب العمال
طريق العنف مع الأهلين .

ولم يلبس أورنگزيب إلا بسيط الثياب ، ولم يكن يسمح
لأحد أبداً أن يغتاب غيره في حضرته . وأدى به ورعه وزهده
إلى أن كف يده عن بيت المال ، في الغالب ، فعاش على ما كان
يكتسبه من صنع الطواقي بنفسه ونسخه للقرآن الكريم بخطِّه
الشيكست [الرِّقعة] والنسختعليق ؛ وكان له في كتابته ذوق فني
رفيع ، وكان يبعث ببعض هذه النسخ هدية منه إلى الحرمين
الشريفين . وقد كان من أمانة أن يحج إلى البيت الحرام لولا
ماخافه من اضطراب أمور الهند في غيبته ، فأخذ على عاتقه تيسير
سبل الحج لرعاياه .

ولم يشتغل أورنگزيب في حياته بغير علوم القرآن والسنة
في الغالب ، على تمكُّنه من الآداب الفارسية وبراعته في النظم
الذي عدل عنه حذر الغواية .

وألَّف بأمره وإشرافه موسوعة مهمة تجمل أقوال أئمة
الفقه الحنفي في المذهب ، وهي المعروفة بالفتاوى الهندية

أو العالمگیریة (١) .

على أن أورنگزیب كان يرى اصطناع الخداع فى السیاسة
أمراً واجباً ، وأنه لا ضیر على الحاکم من نشر شبکة من
العیون بین الناس لتأتیه بأخبارهم وتنبيه بأحوالهم . كذلك
لم یسکن یرَ بدأ من أن یصطنع السلطان الرحمة والشفقة مع
أعداء عقیدته الذین یناوتونه ، فمصنف لذلك بالمرهتها والراجپوتیین
والشیعة والسک عصفاً شدیداً حین وقعدوا فى قبضته .

البریطانیون عند أورنگزیب : کان من أثر وقوف البریطانیین
فى وجه شیواجی زعیم المرهتها ، حین أفدم على نهب سوارت ، أن
توثقت علاقاتهم بأورنگزیب الذى قابل موقفهم من عدوه
بتخفیض الرسوم التى كانت تفرض على وارداتهم .

وكان البریطانیون قد أفادوا ، من قبل ، من سخط شاهجهان على
البرتغالیین وتدمیره لمراکزهم عند هو جلی . فحصلوا على إذن لهم
منه بإقامة وكالة لهم هناك ، لتخضع من بعد ذلك كل وكالاتهم
الهندیة لإشراف موحد مركزه فى سوارت .

١ — طبعت هذه الفتاوى بمصر عام ١١٨٢ هـ أى بعد ماضى قرن ونصف القرن
على وفاة أورنگزیب . وهى من المراجع الشرعیة المهمة فى الأحوال الشخصیة .

وامتد نفوذهم التجارى من بعد ذلك إلى بمباى بالساحل الغربى ، حتى إذا ما عارضوا شايسته خان حاكم البنغال فيما فرضه عليهم من رسوم جديدة ، على خلاف اتفاقهم السابق مع شاهجهان فعمدوا إلى مناهضة الدولة ، دحرتهم قوات أورنگزيب عند كل مراكزهم ، فضاعت منهم مصانعهم عند هو جلى وسوايانام . وحرروا حرماناً تاماً من عمارتهم لنشاطهم التجارى فى أراضى الدولة من بعد ذلك على أن ما كانت تجبیه الدولة منهم من رسوم كثيرة ، أغرت أورنگزيب بالعمو عنهم ، فجاءوا من جديد ليقبموا لهم بأدى هو جلى محلة جديدة بالقرب من قرية صغيرة تدعى كلكتا . وما غدت هذه القرية تتسع فى تدرج سريع حتى أصبحت عاصمة الإمبراطورية الهندية البريطانية قبل أن ينتقل نائب الملك إلى دهلى الجديدة .

ووحّد البريطانيون من بعد ذلك جهودهم ونشاطهم التجارى عند الساحلين الشرقى والغربى ، فى شركة الهند الشرقية ، ودأبوا قرابة نصف قرن على التظاهر : فى حرص تام ، بالتباعد عن التدخل فى شئون الدولة .

ولم يكن يحول بخاطر أورنگزيب عالمگیر أنه يتساعده مع هذه النصبه إنما يمد الطريق لأولئك الذين لم يتورعوا عن سلوك أحط السبل وأدنىها ، حتى تم لهم استثمار شبه القارة الهندية كلها .

خلفاء أورنگزيب

يتهم بعض المؤرخين أورنگزيب عالمگير بأن عدوله عن سياسة سلفه العظيم جلال الدين أكبر في تقريب الهنادكة إليه وفتح باب مناصب الدولة الكبرى لهم قد أدى إلى شيوع الفتنة بينهم وجنوحهم إلى الثورات في مختلف أنحاء البلاد مما عجل بنهاية الدولة المغولية ، في حين يرى مؤرخون آخرون أن تقريب السلاطين السالفين للهنادكة وإصهارهم إليهم وحضهم المسلمين على الامتزاج بهم كان هو العامل الأول في زلزلة بناء هذه الدولة .

وفي هذين القولين متسع للبحث ، فأورنگزيب في تمسكه بتعاليم السنة وقتصره وظائف الدولة الكبرى على المسلمين لم يكن إلاّ ضرباً بالمحمود الغزنوى ومحمد الغورى اللذين أرسيا قواعد الحكم الإسلامى بالهند . وسلاطين المغول ، وغديرهم من حكام المسلمين بالهند ، حين حضوا الناس على الإصهار إلى الهنادكة ومخالطتهم . إنما كانوا يبعثون من وراء ذلك إلى تألف أفراد شعوبهم ،

وهو أمر عاون على ازدياد عدد المسلمين زيادة بالغة بالهند . حتى إن الغالبية الغالبة من المائة مليون مسلم في شبه القارة الهندية اليوم هي من أصول هندوكية .

والحجة الدالة على خطأ القول بأن اختلاط المسلمين بالهنداكة وإصهارهم إليهم أدى إلى ضياع دولتهم بالهند ، هي أن أورنگزيب نفسه أمته هندوكية خالصة . وهو الذى خضعت لراية المسلمين في عهده شبه القارة الهندية ، والذى عرف بتمسكه البالغ بشعائر الإسلام وسنته . وقد شهد ثقافة المؤرخين ، وفهم من الهنداكة ، بحزمة وشجاعته وعلو همته وأصالته رأيه . وقلوا بأن الهند لم تعرف منذ أيام سكندر لودهي ، سميًا له في حب العدل والسهل على مصالح الناس . ولئن كان هو آخر السلاطين المغول الكبار زمانا فهو يُعد من بين أعظمهم وأقدرهم على كل حال .

وغاية القول أن انهيار الدولة المغولية لا يرجع إلى سياسة أورنگزيب أو سياسة أسلافه نحو الهنداكة ، وإنما يُردُّ إلى ما كان عليه خلفاء أورنگزيب من الضعف حتى عجزوا عن إدارة دفة الحكم في بلادهم التي بلغ أبوهم برقتها إلى ما لم تبلغه ، حتى أيام أكبر ، من السعة وترامى الأطراف ، وتمكن بما أوتي من حزم

وقوة شكيمة ، من السيطرة على إدارتها سيطرة تامة ، اللهم إلا في أخريات أيامه حين خذلته الشيخوخة وأضناه المرض . هذا : كما انصرف كثير من رجالهم بدورهم إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة فحسب ، حتى سعى فريق منهم إلى الاستقلال بما بأيديهم من ولايات غير آية بالأخطار التي طفقت تهدد كيان الدولة في الداخل على أيدي المرتهب والسك والراجپوتيين ، مما أدى إلى تيسير غزو الفرس والأفغان لها مرات متتابة من بعد ذلك ، فزلزل بناء الدولة على أيديهم زلزالا شديدا مهد الأرض لأولئك المستعمرين الأوروبيين الذين بلغوا ، بقصور السلاطين السابقين عن إدراك وإياهم ، إلى تثبيت أقدامهم في أماكن عديدة بالشواطىء الهندية بما حصلوا عليه من امتيازات ورخص ، ثم انطلقوا من بعد ذلك يحصنون مواقعهم بجندهم المدرب والأسلحة الحديثة التي لم يكن لها عند الدولة المغولية نظير ، حتى أفلح البريطانيون منهم ، بالقوة حينئذ ، وبالدرس والوقية والغدر أغلب الأحيان ، في أن يضعوا أيديهم على شبه القارة الهندية كلها .

بهادر شاه :

لم يُجِدَ فتى لا حرص أورنگزيب على أن لا تتكرر بين بنه مأساته مع إخوته في تنازعهم على الملك . فهو حين فرق

أبناءه في الأرض قبل وفاته ، ولم يعهد لأحد منهم بالملك من بعده .
حتى لا يتآمروا عليه في حياته فينتهى به الحال إلى ما انتهى إليه أبوه
شاهجهان من مصير أليم على يديه ، إنما أدى بإجرائه هذا إلى تأجيل
الفتنة إلى ما بعد انقضاء أجله فحسب ، دون اقتلاع أصولها .

فلم يكد يوسف الثرى حتى قامت الحروب بين أبنائه ، وقد هدف
كل واحد منهم إلى استخلاص عرش الهند لنفسه ، فنادى أعظم
بنفسه سلطانا بمالوه وكذلك فعل أخوه كام بخش بيدجپور ، في حين
زحف شاه علم بهادر ، أكبر أبناء أورنگزيب من بشار إلى البنجاب
حتى بلغ دهلئ ، لينطلق إلى قتال أخويه من بعد ذلك فيقضى على أعظم
بعد أن بلغت قواته مشارف آگرا ، ويوقع كام بخش في أسره .
على مقربة من حيدر آباد الدكن بعد ذلك بعامين ، وقد رفض
الأسير في عناد أن يُعالج من جروحه حتى تضى بدوره (١) .

هنالك عهد بهادر شاه بالوزارة إلى بدخشى منعم خان الذي كان
له خير معين بلوغه العرش : ليواجه من بعد ذلك ثورات المرهتبا
في الدكن والراجپوتيين في منازلهم ثم السك في البنجاب والجات
عند مشارف آگرا . وإلى جانب هؤلاء جميعا كان البريطانيون
قد أخذ خطرهم يتفاقم في أغلب مراكزهم وعند الشواطئ الشرقية

بخاصة ، وكان أغلب القادة قد بعث السأم والضجر في نفوسهم ،
حروب أورنگزيب السابقة الطويلة وبات الجند أنفسهم بسببها
في حالة من الإنهك الشديد الذي أدى إلى سريان الفوضى
في صفوفهم ، كما نتج عن اتساع رقعة الدولة ، وضعف
رقابتها على عمالها منذ أواخر عهد السلطان السابق ، أن
شرع فريق من الولاة بدوره يتقاعس عن شـد أزر الدولة
ومدتها بقواته في انتظار الفرصة المواتية للاستقلال بما بيده
من أرضين .

الراجپوتيون والسك : لم يهل الراجپوتيون السلطان الجديد
وهو في حربه مع أخوته حتى انحدر أجيت سنغ بن جسوانت من
مكمنه بالجبال فائتلف وأمر سنغ صاحب اُدایپور لينطلقا من
بعد ذلك إلى جده پورفیطردا عمال الدولة منها ثم يعملان التخريب
في مساجدها ويتخذان منها معابد لأوثانهم ، ويذيقان المسلمين الخسف
والذل بأرضها .

وأتى لبها درشاه ، بعد أن فرغ من أمر أخيه أعظم ، أن
يُلزم هاذين الأميرين طاعته من جديد ، ليعودا إلى سيرتهما
الأولى من البغى بعد قليل وهو في شغل عنهم بحربه مع ثاني إخوته
كام بخش بالدكن . حتى إذا ما عاد إليهما ثانية بعد القضاء على فتنة

الوراثه ، دفعه حسن تدبيره إلى مهادنة الراجپوتين جميعا فى اُدايبور وجدهپور وجايپور ، فاعترف لهم بالرسم الذى كان لآبائهم أيام جدّه أكبر ، كسبا المودتهم ، حتى ينصرف مطمئنا إلى حرب السّك الذين جنّحوا إلى الثورة فى البنجاب من جديد ^(١) .

ذلك أن أحد البطهانيين الأفغان اغتال بالدكن كوفند سنغ ، عاشر زعماء هذه الطائفة . الذى كان قد وقع فى أسر أورنكزيب ثم التحق من بعد ذلك بخدمة بهادرشاه فسار معه فى حرب كام بخش بالدكن . وحين بلغ خبر مقتله البنجاب من بعد ذلك انطلق خليفته بندا يشعل الحماس بين بنى جلدته ويحرضهم على الانتقام لزعيمهم المقتول ، فسقط بهم على سرهند فقتل حاكمها لينتشر رجاله من بعد ذلك فى البنجاب الشرقى فيشيعون فيه الخراب والدمار والقتل ، فلم ينج من سيوفهم الأطفال أو النساء والشيوخ . ولم يقنعوا بذلك كله حتى امتد طغيانهم إلى لاهور وكادوا يبلغون بفتنتهم مشارف دهلى . لولا أن سارع إليهم السلطان فردتهم قواته إلى تلال جامو ولم يمنع جند الدولة عن مطاردتهم وتشيت شلمهم إلا وفاة بهادرشاه بلاهور عام ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م

وهو في السبعين من عمره بعد أن حكم أربع سنوات وشهرين ساءت فيها أحوال الدولة المالية حتى اضطر القائمون على أمورها إلى اقتراض الأموال من بعض أمراءها لسد العجز في الخزانة .

وكان من حسن تدبير هذا السلطان حين أطلق سراح شاهو ، حفيد شيواجي ، أن ركن المرهتيا في عهده إلى الهدوء حتى صحبه في حربه مع أخيه بالدكن ، نياما سندھيا ، أحد كبار صدورهم .
ولئن كان المرهتيا قد تفرقوا ، عقب موت أورنگزيب ، شيعا وأحزابا حتى ابتدوا عن تحقيق أهداف شيواجي وشبهوجي في إقامة دولة موحدة كبيرة لهم . فإنهم لم يعدلوا أبدا عما عرفوا به من الميل إلى التخريب والتدمير ما أتحت لهم الفرصة بذلك .
جهاندار :

تقاتل أبناء بهادر شاه الأربعة على العرش ، بعد موت أبيهم ، على المادة الغالبة عند الأمراء التيموريين بالهند .
ولقد كاد الحال يستقر بينهم ، بادی الأمر ، على أن يقسموا ملك أبيهم فيما بينهم فيكون لجهانشاه الدكن ولرفيع الشأن الملتان ، ورتنا وكشمير ، على أن يقسم جهاندار وعظيم الشأن بقية الأرض فيما بينهما . لولا أن تنازعوا من جديد على الأموال

ليباغ ذوالفقار خان بدهاته إلى إثارة جهاندار ورفع الشان وجهانشاه
مجتمعين، على أخيهام عظيم الشان .

واتسع نطاق الفتنة بين الإخوة جميعاً حتى سقط فيها ثلاثة
منهم، ليرقى العرش من بعد ذلك جهاندار فينصرف إلى اللهو
والمتعة، ويُبعد عن بلاطه الرجال المجرّبين والعلماء، حتى زحف
إليه محمد فرُّخ سیر، ابن أخيه عظيم الشان، من پتنا، وكان قد
استقل بها على أثر مقتل أبيه ثم مد سلطانه إلى البنغال، فالتف
حوله عمال الدولة هناك لعدله وشجاعته، فأُنزل بقوات الدولة،
على كثرتها، ضربات متلاحقة حتى دخل آگرا فانطلق منها إلى
دهلي فوجد عمته بقلعتها، فأورده مورد الردي ولما يعض عليه في
الحكم أحد عشر شهراً^(١)

فرُّخ سیر :

جلس فرُّخ سیر على عرش دهلي في المحرم من
عام ١١٢٤هـ / ١٧١٢م بعد أن طاف موكبه المدينة، والفيلة
تتقدمه وعابها جُشتاعمه جهاندار ووزيره ذى الفقار، فاتخذ له
وزيرين أخوين ينتميان إلى أشراف العرب هما السيد عبد الله خان
والسيد علي خان، لينفسان من بعد ذلك على عبد الله مير جملة

معتمد الملك ما حباه به السلطان من نفوذ واسع حتى اتخذته مشيراً له وأطلق يده في تصريف شئون الدولة كلها ، فما زال يوقعان به عند السلطان حتى أبعدته آخر الأمر إلى پتنا وانفردا بالأمر كله . وقد نجم عن تنافس الخصمين وما كانا يحكماه من التآمر والدس إلى هلاك كثير من الأنفس ظلماً ^(١) .

السك والمرتها : ونزع السك عام ١١٢٦ هـ ١٧١٤ م إلى الفتنة من جديد ، وكان زعيمهم بندا قد وحد صفوفهم بعد أن أقاموا لهم معقلاً قويا بجودا سپور بالپنجاب ، ثم انطلق بهم إلى أراضى هذا الإقليم الشمالية فاتهبوها وسيطروا على كافة الأراضى الواقعة بين لا هور وسر هند . حتى بعث السلطان إليهم بقائده عبيد الصمد دِلر جنگ نخاض معهم وقائع عنيفة ، فلم يفلح في إرغامهم على الخضوع والتسليم بعد أن ارتدوا إلى حصونهم إلا حين شاعت فيهم المجاعة بفعل الحصار المحكم الذى ضربه عليهم .

وسيق غورو بندا وألوف من أتباعه إلى العاصمة أسارى ، ليقتل منهم فى كل يوم بضع مئات حتى فنوا عن آخرهم . وما غدا زعيمهم أن لحق بهم بعد أن شهد ذبح ابنه ، أمام عينيه ، انتقاماً لمن

ذبحهم ورجاله من أبناء المسلمين في البنجاب (١) .
وكان من أثر هذا العقاب الرهيب أن ركن السك إلى
السلم بضع سنين .

هذا وكان قليج خان نظام الملك بهادر فتح جنگ ، مؤسس
بيت النظام في حيدر آباد ، حين ولاه السلطان شئون الدكن قد
جد في كبح جماح المرهتها الذين انطلقوا يفرضون على التجار
والسكان ربع المكوس المقررة عليهم نظير عدم تعرض عصاباتهم
لهم . حتى إذا ما استدعى هذا الأمير إلى البلاط ليحل محله
هناك الوزير حسين علي خان بعد أن غضب السلطان عليه ، أدى
بهذا الأخير انصرافه إلى مشاحناته وخلافه مع السلطان إلى مهادنة
المرهتها على أن يجعل لهم أكثر من ثلث خراج الدكن كله .
وضاق فرخ سیر آخر الأمر ذرعا بنفوذ وزيره الآخر
عبدالله خان ، فدبر هو وبعض رجاله خطتهم على الخلاص منه ، لكن
عبدالله أفسد تدبيرهم بحذره ، حتى قدم أخوه العاصمة في قوة من المرهتها
فأطبقوا جميعا على السلطان في قصره ووأوقعوه في أسرهم ثم سملوا أعينيه ،
وقضوا عليه شقا بعد ذلك بقليل بعد أن حكم ست سنوات وبضعة أشهر

رفع الدرجات :

هنالك أجلس الوزيران على عرش دهلي أبا البركات
رفع الدرجات في حين نادى خصوصهم بنيكوسير ، أحد أحفاد
أورنسكزيب ، أميراً عليهم بآگرا .

ووافي رفع الدرجات أجله بعد أشهر ستة من حكمه قضاها
على فراش المرض ، ليخلفه رفع الدولة شاهجهان الثاني فيسير سيرته
في الاستسلام في كل شيء إلى وزيريه والخضوع التام لرايها .
وقد قوى من نفوذها استعادتهما لا آگرا ووقرع أميرها
نيكوسير في أسرها .

محمد شاه : قضى شاهجهان الثاني بدوره بعد حكم لم يبلغ شهوراً
ثلاثة ، فأتى الوزير عیدالله خان بابنه محمد روشن اختر وأجلسه
على العرش في ذی القعدة من عام ١١٣١ هـ / ١٧١٩ م باسم
محمد شاه ليحكم من بعد ذلك تسعاً وعشرين عاماً ويشهد
تفكيك الدولة وانهيارها على يديه .

احتال السلطان الجديد بدوره على التخلص من استبداد وزيريه
الأخوين به ، حتى إذا ما تم له القضاء عليها ، استدعى إياه أضاف
جاه نظام الملك فاتخذ وزيراً له . لكن سلوك العصبية العابثة ، التي
غدا السلطان ينقاد بالبلاط لمشورتها ، ما لبث أن دفعه إلى ترك العاصمة

بعد قليل إلى الدكن حيث أمكن له أن يثبت أقدامه بإمارة حيدرآباد الحالية بعد أن هزم قوات الدولة التي وفدت لقتاله ، حتى أقره محمد شاه آخر الأمر عليها وأطلق يده في شئون الدكن (١) .

ولم يكن نظام حيدرآباد هو أول أمير استقل بإمارته استقلالا فعليا لا ينال منه اعترافه الاسمي بسيادة السلطان . إذ الواقع أن نفوذ الدولة وسيطرتها على كثير من ولاياتها كان قد غدا ، بعد وفاة أورنگزيب بيضع سنين ، يأخذ طريقه إلى التلاشي . فقد استقل كذلك بما بأيديه من أرضين مرشد قلى خان نائب السلطان على البنغال وأوريسه وبهار ، أغنى أقاليم الهند ، فتوارث أولاده ملكه من بعده ، وحذا حذوه كذلك سعادت خان وأبناؤه بإقليم أوده .

ولئن عمد نظام الملك في إمارته الجديدة إلى إجراء الخطبة وضرب السكة باسمه ، فقد ظل سنين كثيرة على ولائه للدولة فساندها في كثير من المواقف بإخلاص .

وهكذا زال كل سلطان للدولة على الأراضى التي تقع إلى الجنوب من نهر نربدا بقيام إمارة حيدرآباد الدكنية، ومن حولها المرهتا الذين توصلوا التمكن نفوذهم وأقدامهم بما أقرته الدولة لهم من

نصيب في خراج الدكن، ضمنوا به مورداً كبيراً لهم .
 المرهتها : أدى فتور همة شاهو أمير المرهتها إلى انفراط عقد
 دولتهم ، فراح كل زعيم من كبارهم يعمل لحسابه الخاص ، وقد نبذوا
 جميعاً الحرص على وحدة الدولة التي عمل لها شيهوجى وشيواجى
 من قبل وتجردوا للسلب والنهب والتخريب ، وسيلتهم السابقة
 لهدفهم وغايتهم من قبل .

وامتد نفوذ عصابتهم إلى البحر ، فقاد قبطانهم تولاجى
 قراصنتهم عند الشواطئ الشرقية والمبار ، فظل البريطانيون
 يرهبونهم هناك حتى تم لهم القضاء على كل نشاط بحرى لهم في
 الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادى (١) .

لقد كان على المرهتها أن يسمكوا بعصابتهم عن إثارة
 الاضطرابات بجنوب الهند نظير ما ترصده الدولة لهم من نصيب
 في خراج الدكن . حتى إذا ما عادوا إلى سيرتهم الأولى من البغى
 والعدوان ، فحاول نظام حيدر آباد أن يقتحم قصبته القديمة بونا
 بقواته ، ردّ عنها رداً عنيفاً ، وشرع أصحابها يطاردونه حتى تعرضت
 حاضرتهم نفسها لخطر هجومهم عليها ، فلم يجد آخر الأمر مندوحة

من خطب ودّ الپیشوای^(١) وزرائهم الأقویاء الذين كان یبدهم المقالید الفعلیة لإدارة الدولة ، فهادنهم على ألاّ يتعرض لهم إذا ما ساروا إلى أراضی الدولة فی الشمال بعيداً عن أملاكه ، وفی خاطره أنه بخطته هذه سیدفعهم إلى مناهضة الراجپوتین أعدائه وأعداء الدولة على السواء .

ولو كان المرتهنـها قد اتلفوا مع هؤلاء الراجپوتین على الدولة بدلا من اجتياح أراضیهم ؛ مغیرین ، طلبا للغنم الذى صار كل غایتهم فی حروبهم فی الغالب ، لكفلوا لأنفسهم نفوذاً أوسع مدىً ، ومغانم أضخم قدراً بالهند دون شبهة .

على أنهم لم یکادو یبلغون مالوّه ثم یظهرون من بعد ذلك عند مشارف دهلی ، حتى استنجد محمد شاه بنظام الملك ، الذى طمع بخروجه إلى حربهم فی أن یقضی على خطرهم المتزايد ؛ حتى إذا مادّ حرت قوات السلطان[¶] وأمیر حیدر آباد بجمعة عند بهوبال ، نشر باجی راو الزعیم المرتهن نفوذه وسلطاناه على كافة الأراضی التى تمتد فیما بین نربدا وسنبهل بما فیها مالوه .

الغزو الفارسي :

أقبلت على الهند كارثة مروّعة في ركاب نادرشاه ، صاحب فارس ، كانت أشد وطأة على الدولة وأبعد أثراً من الغزو التيموري الذي تعرضت له البلاد قبل ذلك بثلاثة قرون ونصف القرن .

ذلك أن هذا العاهل القدير ، وكان من أسرة تركانية رقيقة الحال في خراسان ، توصل بجده وطموحه ودهائه إلى الجلوس على عرش الصفويين بإيران ، ليتجه من بعد ذلك إلى توسيع ملكه حتى دانت له كافة الأراضي الواقعة فيما بين بحر الخزر وقندهار . وما لبث بعد ذلك أن استحوذ على إقليم كابل ، وكان لا يزال بأيدي أصحاب دهلي ، ثم انحدروا إلى البنجاب فنشر الخراب والدمار فيه كله ، بعد أن دخل لاهور في شوال من عام ١١٥١ هـ / ١٧٣٩ م .

ولقد أصمت حكومة دهلي أذنيها حين استغاث بها عاملها على البنجاب لدى مقدم نادرشاه إلى أراضيه (١) ، فلم تنتبه من غفلتها إلا بعد أن كان الفرس قد توغلوا في البنجاب واقتحموا قصبته . ومع هذا فقد

أضاع السلطان المغولى ورجاله كثير أمن الوقت فى نقاش عقيم غلبوا فيه أحقادهم على مصلحة الدولة، حتى انتهوا إلى استبعاد إسناد قيادة الحملة إلى نظام الملك أمير حيدر آباد الذى كان قد قدم لنجدة السلطان ببعض قواته، حذر الشائعات التى زعموها بتواطئه مع شاه الفرس (١). واستنجد السلطان كذلك بالراجپوتيين والمرهتا؛ فأما الأولون فلم يعيروا دعوته التفاتا، وأما الآخرون فقد آثروا أن ينصرفوا إلى تأمين حدودهم، فأقاموا لهم خطوطا دفاعية حصينة على طول نهر نربدا وكنوا من ورائها.

والتقى الغزاة بالمدافعين عند كرنال على حدود البنجاب فى معركة لم تستغرق سوى ساعات ثلاثة مئى فيها السلطان المغولى بهزيمة منكرة استسلم على أثرها لنادر شاه، ليدخل من بعد ذلك جند فارس مدينة دهلى فيعملون فيها السلب والنهب والتدمير ويقتلون من أهلها ما يزيد على العشرين ألف نسمة.

ولم يرجع نادر شاه عن الهند إلا بعد أن اغتصب عرش الطاووس لنفسه، وأرغم محمد شاه، نظير إعادته إلى عرشه، على التنازل له عن أرض كثيرة بالبنجاب تمتد من كشمير حتى ولاية السند؛ مع تعويضات مالية طائلة ومزيد من الجواهر

والأحجار الكريمة ، جعلته يتقاضى عن جمع الضرائب من سكان فارس لسنوات ثلاثة ^(١) . ولم ينس نادرشاه بدوره أن يسلك في ركابه قسراً فريقاً من مهرة النقاشين ورجال المعمار ^(٢) على غرار ما فعل محمود الغزنوى وتيمور من قبل .

وبضم نادرشاه بلاد الأفغان وقسماً كبيراً من البنجاب إلى بلاده حُرمت سلطنة دهل من حدودها الطبيعية التي كانت تحمى سهولها ، ومُنْع عنها موارد كثيرة كان مصدرها هذه الأقاليم الغنية ، وانكمشت بالتالى إلى إمارة صغيرة لم يعد لها قَبَل بمواجهة المرهتا والسك الذين استشرى خطرهم وأخذوا يعيشون في الأرض فساداً .

والواقع أن غزو نادرشاه كان أخطر على الدولة الإسلامية بالهند من الغزو التيمورى وأبعد أثراً وأوخم عاقبة . ذلك أن الدولة الإسلامية ، برغم تفككها عقب تحريبات تيمور ، استطاعت على كل حال أن تستعيد سيرتها الأولى من القوة في أغلب إماراتها وأقاليمها الكبرى ، إذ لم يكن لها بالبلاد أعداء يتربصون بها نظير المرهتا والسك ، على الخصوص ، الذين

كانوا للدولة المغولية بالمرصاد ، ومن ورأيهم المستعمرون
الأوروبيون ، وعلى رأسهم البريطانيون ، عند شواطئها يعدون
العدة لا ابتلاع أراضيها كلها .

الغزو الأفغانى :

ظل الپنجاب بأيدي الفرس اثني عشر عاما حتى دخله
عليهم أحمد دأبدالى الدراني ، شاه الأفغان ، الذي نجح بعد
قتله لنادرشاه في أن يوحد قبائل الأفغان بزعامته ويمد سلطانه
حتى سيحون وشواطئ قزوين لينحدر من بعد ذلك إلى سهل الهند .
وأفلح محمد شاه سلطان الهند في رد الأفغان وأميرهم عن بلاده
أول مرة عام ١١٦٠ هـ / ١٧٤٨ م ، حتى إذا ما وافاه أجله في
مستهل العام التالي ، خلفه ابنه أحمد شاه ليواجه ثورة قبائل أفغانية
أخرى ، هي الروهيلا إحدى بطون يوسفزي ، عند قنوج والدواب ،
فلم يتح لوزيره صفدار جنگ نائب أوده القضاء على فتنهم إلا بعد
أن استعان بالقائد المرهتهى هولكر وكان إذ ذاك بمالوه ^(١) . وقد
مهد السلطان المغولى باستعانته بالمرهتهى إلى انتشار نفوذ هذه الطائفة
حتى بانغ البنغال بعد أن شمل مالوه والكيجرات .

وانتهت غزوات أحمد أبداً إلى المتكررة على الهند مع اشتغال الدولة ، في ضعفها ، بقتن الروهيلا المتعاقبة ، إلى ضياع البنجاب واستيلاء الأفغان عليه .

عالمسكير الثاني :

ما غداً الوزير غازي الدين نظام الملك أن ائتمر بالسلطان أحمد شاه لما كان من عدائه هو وأمه له ، فعزله وأجلس مكانه محمد بن جهاندار باسم عالمسكير الثاني (١) .

ونجم عن خلاف هذا الوزير صاحب حيدر آباد مع زعيم الروهيلا نجيب الدولة ، أن بعث هذا الأخير إلى أحمد أبداً إلى شاه الأفغان يحرضه على الزحف إلى دهلي نفسها ، فاقتحمها برجاله عام ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م وأنزل بها وبأهلها أضراراً فادحة ، ثم عاد إلى بلاده بعد أن ألقى بمقاليذ الأمور فيها إلى نجيب الدولة ونصب ابنه الأصغر تيمور شاه نائباً له بالبنجاب .

ولم يكن نظام الملك ليرضى بفعل يده عن تصريف الأمور في دهلي ، فما إن فشل في اقتحام أوده والله آباد ، وكان أصحابهما على صلة وثيقة بنجيب الدولة ، حتى راح يستعين بالمرهتاء ، فحرضهم على مهاجمة قوات الشاه الأفغان في البنجاب ونجيب الدولة

في العاصمة وما حولها .

وأفليح القائد آدينه بك خان في أن يطرد قوات أحمد أبدالي من البنجاب بمعونته المرهتها ويستخلص لنفسه من بعد ذلك لاهور وتتا والمملتان التي خلفه السك عليها فيما بعد . ولم يكنف غازي الدين نظام الملك بطرد نجيب الدولة من العاصمة التي باتت تحت رحمة المرهتها وقادتهم ، حتى أوفد رجاله فقتلوا عالمگیر الثاني وهو بحسن شاهجهان^(١) .

على أن نجيب الدولة مال بث بمعاونة حليفه شجاع الدولة بن صفدار جنگ أمير أوده ، أن دفع المرهتها عن منازل الروهيلا ، ثم استنجد من بعد ذلك بالشاه الأفغانى لتخلصه من نظام الملك وحلفائه الذين لم يكن له قبَل بالقضاء التام عليه ، حتى لبى أحمد أبدالي نداءه ونجح في طرد المرهتها من البنجاب والشمال الهندى كله .

دحر المرهتها عند پانى پُست : على أن عصابات الدكن هذه مالِثت أن جمعت جموعها عقب انصرام فصل الأمطار فصار لها ثلاثمائة ألف من الجند ومعها ثلاثمائة من مدافع الميدان^(٢) الثقيلة .

١ — عبرتاه ٢٤١ - ٢٤٣

٢ — فرحة الناظرين : ١٧٠

زحف بها أمراؤها، وسواس راو وسداسيوها وسنديا، إلى دهلي ثم جاوزوها ليلتقوا من بعد ذلك بقوات الشاه الدراني عند پاني پت . ولم يكن شاه الأفغان بدوره في قوة تزيد على الثمانين ألف مقاتل، ومدافعها لا تبلغ العشرين، ولم يكن رجاله على دراية بطرائق الحرب الحديثة التي أتيج لفريق من جند المرهتا التدريب عليها بأيدي الفرنسيين بمستعمراتهم الدكنية : فأفادوا منها كثيرا في حروبهم . ونجح الأفغان آخر الأمر عام ١١٧٤ هـ / ١٧٦١ م في قطع المؤن عن أعدائهم ليخوضوا معهم من بعد ذلك معركة عنيفة هدّت من كيانهم وضععت من نفوذهم بالهند . وبلغ من وقع في الأسر من رجالهم مائتي ألف وفيهم قائدهم سنديا الذي قُتل لوقته . ولم يقو زعيمهم الپيشوا بلاجى راو على تحمل هذه الصدمة حين بلغته أنباؤها، وهو في طريقه بالإمدادات عبر نربدا ، فارتد إلى بونا حيث قضى نجه هناك بعد شهر ستة ^(١) .

البريطانيون في البنغال وبهار : لم يكن المنتصر في پاني پت هذه المرة هو الذي قدّر له أن يمسك بزمام الأمور في الهند كلها كما قدر لظهير الدين بابر حين قضى على السلطان إبراهيم اللودهى ولجلال الدين أكبر حين هزم الأمير الهندوكى هيمون

وجنوده من قبل ، فقد اضطر أحمد أبدالى شاه الأفغان ، بعد انتصاره الحاسم هناك ، إلى أن يعود إلى بلاده حين ثار عليه جنده لتأخر مرتباتهم وانتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة فيهم بالهند ، ليمل ثقل الحدثان من بعد ذلك إلى ناحية الشرق حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد غدت توعد أقدامها في البنغال وتحكم من خططها في الجنوب الهندى حتى تم لها القضاء على نفوذ الفرنسيين هناك ولمّا يكن قد مضى بعد أسبوع واحد على انتهاء معركة پانى پت ، لتبلغ من بعد ذلك بالتدريج إلى وضع يدها على شبه القارة الهندية كلها وتضمها في قرن واحد من الزمان إلى أملاك التاج البريطانى .

ولقد وقعت أحداث پانى پت هذه وعرش دهلى خالٍ بعد مقتل صاحبه عالمكير الثانى وفرار ابنه على جوهر من وجه غازى الدين نظام الملك ، حيث لاذ بجلال الدين حيدر شجاع الملك نواب (١) أوده فى جلال آباد .

موقعة پلاسى : عن لعلى جوهر بن عالمكير الثانى وهو فى أوده أن يغزو البنغال ، وكان البريطانيون قد بسطوا نفوذهم عليه بعد

١ — كلمة نواب هذه تقابل لفظ راجا أو أمير ، فهي من ألقاب التتصرف ، ولا يستلزم أن يكون صاحبها من أرباب المناسب .

أن تم لهم إخراج أميره سراج الدولة منه . وكان هذا الأمير قد
انزع كلكتا من أيديهم فلم يبلغوا إلى استردادها منه إلا بعد أن استمال
كلايف ، مدير شركتهم القائد جعفر خان إليه برشوة قدرها ثلاثة ملايين
من الروبيات ^(١) ضموا بها النصر على الأمير المغولي ومعه سراج
الدولة في معركة بلاسي ، في شوال من عام ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م ،
تلك المعركة التي تعد أولى المعارك الحاسمة بين المستعمرين والدولة
في الهند (٢)

وكوفي جعفر خان على خيائته هذه بتنصيبه حاكما على
البنغال تحت وصاية الشركة البريطانية .

وما غدا الأمير المغولي أن باع يثنا في مائة ألف من الجند ومعه
محمد قولي خان نائب ولاية الله آباد فالتقى مع ميران خان بن مير جعفر
وأحلافه البريطانيين في حرب كاد يتم النصر فيها لجند الدولة
لولا ما نجم عن نقص مؤنه من انسحاب جملة من الأمراء من
صفوفه ، فمنهم من آب إلى دياره ومنهم من استجاب لإغراء
الاعداء فانضم إلى قواتهم ، حتى اضطر الأمير إلى مهادة خصمه

بعد ما نزلت به الهزيمة ^(١) .
شاه علم :

في يتنسا بلغ الأمير على جوهر خبر وفاة أبيه
فنادى بنفسه سلطانا على الهند باسم شاه علم واتخذ شجاع الدولة
وزيراً له ثم آب إلى الله آباد فأقام بها .

وضاق البريطانيون ذرعاً آخر الأمر بجعفر خان وخذاعه ، حتى
إذا ما كشفوا عن توأته مع الهولنديين حين حاولوا إنزال بعض
قواتهم إلى البر ليحموا بها مصالحهم التجارية في شرق الهند ،
خلعوه بحجة تقدمه في السن وربطوا له معاشاً ثم أقاموا مكانه
زوج ابنته الأمير على قاسم .

وما لبث حاكم البنغال الجديد أن رفض بدوره أن يسير على
هوى المستعمرين ، حتى عارضهم في رفع المكوس جملة عن
بضائعهم ، وكان الإيعاء في الأصل وفقاً على ما يصل منها برسم

١ — كان الأمير المنولي قد جعل من كلاف ، مبعوث الشركة البريطانية وقائد قواتها .
بعد معركة بلاسي ، قائداً لخمسة آلاف من الفرسان ، حين طلب إليه الانضمام إلى قواته
في محاربة ميرجعفر بالبنغال ، بوصفه من قواده ، اعتذره بتعاقفه مع أمير البنغال
على رسم البريطانيين في الدهاء والخداع الاستعماري . Dunbar 345 .
ولم ترد قوات البريطانيين في هذه الموقعة على أربعائة وخمسين رجلاً مع ألفين
وخمسة مائة من أهل الهند ، لكن أسلحتها الحديثة وتحسن تدريبها ودهائها كففت لها
النصر بطبيعة الحال .

أعضاء جاليتهم الخاص ، حتى وضع يده عنوة على يتناو ما بها من مصانع لهم .
موقعة بـ بـكسر : حين قدمت قوات المستعمرين من كلكتا
فأطبقت على يتنا ، اتخذ على قاسم ، بعد هزيمة ، سيده إلى نواب أوده
فلاذبه . وقد أوقع بها البريطانيون عند بكسر أواخر عام ١١٧٧ هـ /
١٧٦٤ م ثم دخلوا الله آباد وليكنو وجُنار ^(١) .

وفي هذه الواقعة استسلم للبريطانيين شاه علم فتنازلوا له عن الله آباد
وما حولها وضمنوا له معاشا سنويا قدره مليونان وستمائة ألف من
الروبيات على أن يطلق أيديهم في جمع الخراج بالبنغال وبهار
وأوريسه ^(٢) ، وبعبارة أصح : على أن يعترف لهم في الواقع
بسلطانهم على هذه الأقاليم . كذلك ردوا لشجاع الدولة أغلب
أراضيه على خمس ملايين من الروبيات يدفعها لهم .

المرهتة في دهلي : لبث شاه علم بـقيم في الله آباد على وعود متكررة من
البريطانيين بتيسير عودته إلى دهلي ، ولكنهم لم يوفوا له بشيء منها أبداً .
هذا ؛ وكان أحمد شاه أبدالي قبل أن يعود إلى بلاده بعد
انتصاره في پاني پت قد اعترف بعلم شاه سلطانا على الهند ، على أن
يعهد بالوزارة إلى نظام الملك وبشئون المال والخراج إلى نقيب الدولة ،

١ — حديقة الأقاليم ؟ .

وفي خاطره أن هذا الوضع سيكفل إقرار أمور الدولة هناك .
على أن نجيب الدولة تأتي له إبعاد خطر المهرتها ونظام الملك عنه ،
لينفرد من بعد ذلك سنوات تسعاً بشئون الحكم في دهلي والسلطان في
منفاه بالشرق . ويمكن هذا الزعيم الأفغانى خلال ذلك من القضاء على
فتنة السكك ، على كثرة عددهم بالبنجاب ، لكن تهديد الجات له وزعيمهم
سورج مل ثم ابنه جواهر سنغ من بعده أدى به إلى التفكير في
الاستعانة بالمهرتها لدفع خطرهم عنه .

ونجم عن وفاة نجيب الدولة تخرج الحال في العاصمة ، حتى بات
الناس يتوقعون سقوطها في أيدي المهرتها أو السكك بين يوم
 وآخر . هنالك حزم شاه علم أمره فاتفق مع المهرتها على أن يادروا
بدخول المدينة باسمه فيسلموها له من بعد ذلك على أربعة ملايين
من الروبيئات يدفعها لهم في أوقات مرسومة . وبهذه الخطة
انقذ السلطان على الأقل سكان المدينة من تعرضهم لمذابح السكك
لوكانوا قد أتبح لهم الاستيلاء عليها . (١)

وصادفت خطة شاه علم هذه قدراً كبيراً من التوفيق والنجاح
ليكتشف - من بعد ذلك ببضع سنين - أنه لم يتخلص من أيدي

١ — حافظ المهرتها دواما على تقاليدهم حتى في أيام تفككهم فلم يقرءوا قتل
السكان الآمنين على ما أشرنا إليه من قبل .

البريطانيين ويفر منهم إلا ليقع في برائن المرهتها .
فقد قدر أن يفيد من عون المرهتها له ، دون خطر كبير
عليه منهم . بعد أن كُسر شوكتهم في پانی پت ، فيحقق لنفسه بذلك
الاستقلال الذى ينشده بعيداً عن البريطانيين ونفوذهم . وهو
بعد في مقامه الجديد سيصير له من دخل الأراضى التابعة لدهلى
ما يعوضه عما كان يدفعه البريطانيون له ، ثم منعه عنه فيما بعد .
وهكذا سار شاه علم إلى دهلى فدخلها في هسپتال عام ١٨٥١ هـ /
١٧٧٢ م برغم معارضة أغلب أتباعه الذين كانوا يؤثرون البقاء
بإقليم الله آباد أرغد عيشاً وآمن مقاما . وقد وجد في وزيره الفارسى
ميرزا نجف خان ذوالفقار الدولة خير معين ، حازم وناصح أمين حوال
الإثنى عشر عاماً التى قضاه فى منصبه حتى وفاته . فقد دفع هذا الوزير
عن الدولة خطر السك بعد أن هزمهم واسترد منهم آگرا ، كما كسر
شوكة الروهيلات الأفغان بتحالفه مع البريطانيين وشجاع الدولة نواب
أوده عليهم ، حتى أصبحت الدولة تمارس نفوذها ممارسة تامة فيما
بين سناج وسنبهل : كما استردت قدراً من مهابتها السابقة التى غابت
عنها سنين طويلة من قبل .

وقضى نجف خان ليودى القحط الشديد الذى نزل بمنطقة دهلى
من بعد ذلك عام ١٧٨٢ م فأهلك ما يقرب من نصف السكان ، إلى

اضطراب اقتصاديات الدولة ، حتى عجزت عن الاتفاق على الجبش
القوى الذى أنشأه ذلك الوزير الحازم ، فداد به عن أراضيها
غويلا ، فانصرف عنه كثير من الأمراء والقادة إلى بلادهم .

وأدى تنافس رجال الدولة فيما بينهم إلى استنجد خلفه الوزير
أفراسياب بمادهوجى سندهيا زعيم المرهتها ، بعد أن أخفق السلطان
فى الاتفاق مع البريطانيين على مساعدتهم له وفق شروطه ، ليجمع
هذا الزعيم المرهتهى من بعد ذلك مقاليد السلطة كلها فى يده بوصفه
نائبا للسلطان ، ويجعل من همت بهادر أحد رجاله وكيلا مطلقا بالدولة
وتعرض سندهيا لعدة ضربات فى الراجپوتانا والدوآب ،
كما اقتحم دهلى فى غيبته غلام قادر خليفة نجيب الدولة على الروهيلا
منتصف عام ١٢٠٢ هـ ١٧٨٧ م وقبض على شاه علم وسمل
عنيه ثم نادى بابنه بدار بنخت مكانه ^(١) .

وتم للزعيم المرهتهى آخر الأمر على كل حال تثبيت أقدامه فى المنطقة كلها
من جديد بفضل ضباطه الفرنسيين الذين آزره والبنده دوات راو من بعده
كذلك حتى دفع البريطانيين عن بلاده ، ليقبلوا من جديد عام ١٨٠٣ م
يقودهم قائدهم ولسلى فيجتاحوا أراضي المرهتها كلها ويقوضوا
سلطانهم ويدخلوا دهلى .

الأحتلال البريطاني

طرْد المنافسين :

أخذت بعوث البريطانيين التجارية تفد إلى الهند منذ بداية القرن السابع عشر الميلادى ، ولم يثبط من عزيمة رجالها ما بذله البرتغاليون من جهود متواصلة عند سلاطين الدولة المغولية ليحولوا دون منافستهم لهم بهذه البلاد . وما لبث هؤلاء البريطانيون ، بما اشتهر عنهم من الدهاء وسعة الحيلة ، أن صرحت الدولة ائهم بإقامة وكالات تجارية ^(١) عند سورات، فى الغرب وهو جلى فى الشرق ، ثم ما زالوا يتقربون من بعد ذلك إلى سلاطين الهند حتى عاونوهم فى حربهم للبرتغاليين عند الشواطىء الشرقية ، كما دفعوا المرهتها كذلك عن بعض الموانئ الهندية

١ — كان التجار الانجليز يمانون كثيراً من المشقة فى إخراج العملة الفضية من بلادهم ليدفعوا ثمن التوابل التى كانوا يشترونها من جزر الهند ، حتى اهدتوا إلى إقباة تجار البهار على منسوجات الهند ، فسموا بدورهم إلى إقامة وكالات تسجفهم بالهند . هذا؛ كما كانوا يحملون كذلك إلى الهند من بلادهم أدوات الترف فيحصلوا نظريها على ما يبتغون من منتجات هذه البلاد بتقديرهم .

الغربية ؛ ونال البريطانيون ، إثر كل عون قدموه للسلاطين ، مزيداً من الامتيازات حتى بلغوا من الثراء والقوة واتساع النفوذ ما مكنهم من شراء بمباى نفسها من البرتغاليين وتوسيع رقعة أراضيهم عند كلكتا ومد نفوذهم إلى مدراس وما يليها جنوباً .

ولم يطق البريطانيون بطبيعة الحال منافسة الفرنسيين لهم بعد ما كسروا شوكة البرتغاليين وأحبطوا كل محاولة قام بها الهولنديون لتثبيت أقدامهم عند بعض شواطئ الهند

وكان الفرنسيون قد بلغوا ، بتدبير دوبليكس ، مدير الشركة الفرنسية الهندية ، ودهائه ، إلى مزيد من النفوذ في الدكن وجنوب الهند . فقد استطاع هذا الداهية الفرنسي أن يدرّب بعض جنود إمارة حيدر آباد الدكنية وفريقاً من قوات جنوب الهند على أساليب القتال الحديثة وخططه حتى صار الحاكم الأعلى لكافة الأراضي الواقعة إلى الجنوب من نهر كرشنا والموجّه لدفة الحكم فيها من وراء ستار .

وحين نشبت حرب الوراثة النمساوية عام ١٧٤٠ م وتحارب فيها الفرنسيون والبريطانيون بأوروبا ، بادر دوبليكس بالهند إلى اجتياح مدراس والاستيلاء على كثير من مراكز البريطانيين عند الشواطئ الشرقية ؛ وما لبث البريطانيون أن استردوا

مراكزهم السابقة كلها بعد هذه الحرب ، إذ أفلحوا ، بدسائسهم بالعاصمة الفرنسية ، في حمل لويس الخامس عشر على استدعاء دوبليكس ، وبذا خلا لهم الجور ، حتى قضوا على كل نفوذ للفرنسيين بالهند وانتزعوا منهم كل أراضيهم إلا ميناء پُندشيرى وبعض أماكن أخرى صغيرة متفرقة بالهند

واصطنع البريطانيون طرائق دوبليكس الاستعمارية الفذة ، فانطلقوا يخضعون هذه البلاد الواسعة بجند من أبنائها وأموال من أموال أهلها .

وما لبث هؤلاء المستعمرون أن ثبتوا أقدامهم بالبنغال وأوده على أثر انتصارهم الحاسم في معركة بلاكسي وبكسر ، وأبرهوا عام ١٧٦٦ م معاهدة مع نظام حيدر آباد تعهد فيها الطرفان بتبادل المعونة والمساعدة عند تعرض أحد منهما للعدوان .

سلطان ميسور : هدف اتفاق البريطانيين مع نظام حيدرآباد في الواقع إلى الحد من أطماع حيدر على أمير ميسور عند الجنوب الغربي من الهند . واضطر هذا الأمير بدوره إلى قبول مهادنة الشركة البريطانية آخر الأمر عام ١٧٦٨ م وذلك بضغط من قواتها وقوات النظام . غير أن صاحب ميسور هذا ما لبث أن استولى عام ١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ م على كرناثا كلها عند شاعلى .

كوروماندل . وخلفه ابنه تيبو فاشتبك في حروب متواصلة مع البريطانيين عدة سنوات . وما إن هادنوه عام ١٧٨٤ م ، حتى عقد العزم على أن يبدأ بضرب المرهتها ونظام حيدر آباد ليتفرغ من بعد ذلك للبريطانيين ويخرجهم من جنوب الهند كله ، وفي حسابه أن فرنسا سوف تستجيب لاستجداده بها . غير أن رؤسله عادوا من باريس وليس في جعبتهم سوى عبارات التشجيع والإغراء (١) .

على أن أعداده ما لبثوا أن اجتمعوا عليه آخر الامر خاضروه في حاضرتة سرنجاتم عام ١٧٩٢ م ، يقودهم كورنواليس قائد شركة الهند البريطانية ، حتى أرغموه على مهادنتهم وقبوله التنازل لهم عن نصف أراضيها .

وقوت انتصارات نابليون بونابرت بأوروبامن عزيمة تيبو ، وأصاب الفرنسيون بدورهم قدرا جديدا من التوفيق بالهند كذلك ، فاسترجعوا بعض نفوذهم في حيدر آباد وعقدوا أواصر الصداقة مع أمير ميسور واضطلوا بتنظيم جيوش هاتين الإمارتين وتدريبها . على أن القائد البريطاني ولزلى توصل بدهائه إلى القضاء على النفوذ الفرنسي من جديد واسترجع أميرها إلى حظيرة الشركة .

حتى إذا ما وجد من تبدو الإصرار على تمسكه بالضباط الفرنسيين في جيشه وتحالفه مع فرنسا ، سار إليه من مدراس فاقترح عليه حاضرتة في قتال عنيف سقط فيه السلطان الميسوري وهو يقاتل . وبهذا قضى البريطانيون على آخر أمير مسلم قوى وقف في وجههم بالهند في إصرار وإيمان وعناد .

وأُتيح للبريطانيين بالتدريج بسط نفوذهم على أهم مراكز الجنوب ، وعملوا على تأمين طريقهم إلى الهند فوضعوا أيديهم على جزيرة سيلان عام ١٧٩٧ م بعد أن كان الهولنديون يرباطون في بعض شواطئها ، كما انتزعوا من الهولنديين كذلك رأس الرجاء الصالح بعد أن تم لهم إجلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، تلك الحملة التي كان نابليون يبغي بها الوصول إلى الهند وإخراجهم منها ، وأحبطوا في الغالب كل خطط للفرنسيين والروس بغوا من ورائها عزلهم عن الهند وانتزاعها من أيديهم .

حرب المراهتيا : أفاد البريطانيون من شيوع الانقسام بين المراهتيا فاشترؤا زعماءهم في ناجبور والكجرات بالرشاوى ، ليتفرغوا من بعد ذلك إلى يتي سندهيا وهو لكر ، أقوى طوائفهم ، فاجتاح هستنيج أقوى حصون سندهيا في گواليار

عام ١٧٨٠ م وأنزل به هزيمة شديدة ركن من بعدها المرهتها عموما إلى السلام وها دنوا أعداءهم .

هذا : وكان قد تم لدھوجى سندھيا بسط نفوذه على دھلى ، على ما بيناه من قبل ، وهزم الراجپوتين ، كما مد نفوذه على كافة أراضى المرهتها القديمة حتى بونا عاصمتهم القديمة ، ليخلفه من بعد ذلك ابنه دولت راو عام ١٧٩٤م على هذه الأراضى كلها .

وكان أن دعى الپدشوا باجى راو البريطانيين إلى شد أزره بأزاء خصومه فى بونا ، فقدموا من فورهم إليه ودخلوا معه المدينة ليعقدوا معه عام ١٨٠٣ م معاهدة بَسِيْنِى التى أعترف لهم فيها بسيادتهم .

وحين ثار زعماء سندھيا وبھونسلا على هذا الدخلى الأجنبى . خاضوا مع البريطانيين غمار معارك عنيفة عند آسای انتهت بهزيمتهم وخضوعهم لشروط الشركة البريطانىة ودخول البريطانيين دھلى وضياع أملاك سندھيا عند الشمال والشرق من جمنه ، وانتقالها وكافة الاراضى الواقعة بين السکنج وجمنه وإلى الغرب منها إلى أيدي المستعمرين .

وكان أن ترك البريطانيون بعض الأراضى بأيدي المرهتها فغانى الراجپوتيون على الخصوص كثيراً من الأذى على أيديهم وكان فى حسابهم أن أصحاب الشركة سوف يحمونهم من شرورهم .

وحين استشرى خطر عصابات الهندارى المرهتية في إقليم بهار بصفة خاصة ، جرّدت الشركة كل جيوشها لتجهز عليها جميعا ، حتى استسلم لها كل زعمائها عام ١٨١٧ م فسهكت لفريق من عفارهم بلزوم بعض إمارات في مالوه والسكجرات . وقد سارع الراجپوتيون بدورهم إلى التحالف عندئذ مع البريطانيين فلم يخوضوا معهم حربا جماعية أبدا (١) .

حرب الأفغان : كان من أثر هزيمة روسيا لفارس عام ١٨٢٨ م أن عظم نفوذها في تلك البلاد حتى حملت حكومتها على التعاون معها لمد نفوذها كذلك إلى أفغانستان (٢) باب الهند إلى سهول الهندكج .

وحين تبين لبريزم مبعوث الهند البريطانى بكابل حرج موقف دوست محمد شاه الأفغان بأزاء نشاط مبعوث الروس الداهية فينسكو فثش حتى اضطر إلى مصانعته برغم ميله للزوم الحياد التام ،

١ -- Dunba 438

٢ — اطلاق « بلاد الأفغان » على الإقليم الذى يعرف بهذه التسمية اليوم ، هو من اصطلاح العصور الحديثة ، ومن باب تعميم الجزء ، على الكل ، فنأزل الأفغان عني إن الجنوب من طريق كابل — بشاوره أما سكان كابل وغزته ولفغان فهم خبيث من غنا عمر العرب والفرس والترك . Ikbal Ali Shah. Afghanistan

تتقد أوكلاند مدير الشركة الهندية العزم على الزحف إلى أفغانستان
وفي صحبته أميرها السابق الشاه شجاع الملك الذي كان
قد طرده دوست محمد فليجاً إلى رنجيت سنغ أمير البنجاب .

وكان هذا الأخير قد باع بقومه السك إلى انتزاع هذا الإقليم
من الأفغان ، ثم آثر أن يهادن البريطانيين حين دخلوا دهلي وهدوا
نفوذهم إلى مشارف سستاج .

وتم للبريطانيين إجلاس شجاع الملك على عرش كابل من
جديد حتى يضمنوا بذلك القضاء على دسائس الروس وإبعاد
نفوذهم عن حدود الهند .

على أن الأهالي ما لبثوا أن ثاروا عليهم في العاصمة ثورة عارمة
أرغمتهم على التسليم بعودة دوست محمد إلى مقامه القديم وإخلاء
المدينة من قواتهم ، لتنزل بهم من بعد ذلك كارثة بشعة وهم
يتراجعون بين ثلوج الطريق وضربات رجال القبائل على الجانبين ،
فلم ينج من حملتهم التي كانت تضم عشرين ألف رجل إلا شخص
واحد هو الطبيب العسكري بريدون (١) الذي كتب له أن
يبلغ جلال آباد حيث كانت تنزل حامية عسكرية بها .

ورجع البريطانيون من جديد إلى أفغانستان في حملة انتقامية .

قدمت من قندهار و جلال آباد فوجدت الأهاليين في كابل قد قتلوا
شجاع الملك ، و نادوا بابنه فتح جنك مكانه .

على أن إرادة الأهاليين كانت أقوى من عنف الغزاة وأسلحتهم ،
فما لبث البريطانيون أن اُرغموا على الرجوع ثانية عن أفغانستان
بعد أن عاهدوا أميرها دوست محمد عام ١٨٤٣ م على احترام حدوده .
وبقي شاه الأفغان محافظا على عهده مع البريطانيين محافظة
تامة حتى بُعد كل البعد عن المشاركة في ثورة التحرير التي نشبت
بالهند عام ١٨٥٧ م بزعامة فريق من المسلمين وكادت تنتهي إلى
طرد المستعمرين منها .

وقد بامت بالفشل كل المحاولات التي بذلها البريطانيون لطي
بلاد الأفغان تحت نفوذهم . ولم يكن مصير الحملات التي قادها
اللورد روبرتس عامي ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ م فدخل بها كابل بأحسن
حظا من حملات أوكلاند سالفة الذكر . فعلمت أبناء القبائل الأفغانية ،
من الأفريدي والمحسودي والوزيرى ، ببسالتهم وضراوتهم في
القتال ، البريطانيين كيف يحترمون مشيئة الأحرار الذين رفضوا
على الدوام كل ما كان يعرض عليهم من مغريات مادية لقبول
المستعمرين ببلادهم (١) .

إخضاع السّك والبوخ : تذرّع البريطانيون بحجروهم الأفغانية لإخضاع السند بلاد البوخ لسلطانهم ، كما انتهزوا كذلك فرصة إعتداء السّك على بعض مناطقهم بعد موت أميرهم رنجيت سنغ ، فما زالوا يطاردونهم حتى أنزلوا بهم هزيمة قاصمة بالگجرات عام ١٨٤٩ م (١) ضموا من بعدها كشمير والپنجاب كله إليهم ، وجردوا قوات هذه الطائفة من أسلحتها وصرّفوا رجالها للعمل في المزارع .

وكان السّك والغوركها أبناء نيال ، التي لم يخضع المستعمرون إلا بعضها ، خير محاربين اعتمد عليهم البريطانيون في كل الحروب التي خاضوها دفاعا عن امبراطوريتهم أو لالتهم أراضٍ جديدة . وبدخل البريطانيّين على الدوام فيما كان يقع بين الأمراء من منازعات ، بالدس والوقيعة ، أفلحوا آخر الأمر في أن يضموا إليهم الإمارات الهندية التي لم يستولوا عليها بقوة السلاح .

وبات الأمراء الذين بادروا إلى مخالفة هؤلاء المستعمرين من أول الأمر ، خُفِظت عليهم إماراتهم ، معدودين من أتباع

بريطانيا ، ومُنْعُوا من ممارسة أى نشاط سياسى أو إدارى دون مشورة مستشاريهم البريطانيين الذين كانوا فى الواقع أصحاب السلطان المطلق فى هذه الاراضى .

وفُرض على أمثال هؤلاء الامراء أموال كثيرة يدفعونها للشركة نظير حمايتها لهم ودفاعها عن أراضيهم ، وحين كان يعجز أحدهم عن الدفع أو يتوقف ، كانت الشركة تبادر بالاستيلاء على أراضيه لتفرض على سكان إمارته ما تُلزم به غيرهم فى أملاكها من ضرائب الارض الباهظة ، حتى اضطر الكثيرون منهم إلى بيع أولادهم لسداد ما كانوا يُلزمون به ، فعانى الملايين من أهل الهند أفظع ضروب القسوة والطغيان وعاشوا فى شقاء لم تعرفه الإنسانية فى أحلك عصورها (١) .

خاتمة سلاطين الدولة المغولية :

لم يقرر غزو نادرشاه الفرس ولا غزوات أحمد أبدالى ، شاه الأفغان . المتكرر للهند مصير الدولة المغوية بقدر ما قررته معركة بـِـسـِـكنـِـر عام ١٧٦٥م بهار . فطُـوِيت بانتصار البريطانيين فيها على شاه علم السلطان التيمورى ضجة الحكم الإسلامى فى الهند .

ولم يكن البريطانيون ليتركوا شاه علم يزع من مقامه بالله آباد ، حيث كان يعيش على المال الذى ربطوه له ، إلى كنف المهرتها بدهلى إلاّ ليضيقوا الخناق عليه وعلى حلفائه من بعد ذلك ، وقد باتوا على يقين ، تام من قرب وقوع شبه القارة الهندية كلها بأيديهم وخلاصها لهم بعد أن تم لهم هناك القضاء على نفوذ الفرنسيين أخطر منافسيهم وأقواهم ، وما تكشف لهم عن عجز قوات الهند الكثيرة على الوقوف أمام قواتهم ، على قلة عددها ، لحسن تدريب رجالها وما بأيديها من أسلحة حديثة لا تعرف الهند لها نظيرا . حتى واجهوا . وعددهم مع حلفائهم من الوطنيين خمسة آلاف رجل ، عشرة أضعافهم فى معركة بـِكـَسـَر سالفة الذكر ، فانتصروا عليهم انتصاراً حاسماً لم يسكفهم أكثر من عشرين قتيلاً وبعض الجرحى .

ولئن كان شاه علم يذكر للمهرتها أهم أعانوه على العودة إلى دهلى ونظروا إليه فى الغالب نظرتهم إلى أحد حلفائهم حتى سارعوا إلى إنقاذه من بين برائن الشائر الروهيلى غلام قادر ، فى حين أعرض كورنوالث مدير الشركة البريطانية عن نجده فى محنته مع هذا الزعيم الأفغانى ، وضيق عليه البريطانيون ، من قبل ، فى الله آباد بعد أن هزموه فى بـِكـَسـَر ، فإنه على كل

حال كان يداعبه الأمل في أن تنتهى الحرب بين
المرهتها والبريطانيين ، إلى إنهاك قواهما معا ، حتى يخرج
المنتصر منهما وهو أميل إلى سلوك طريق المودة معه . وعلى هذا
الرأى حرص كل الحرص على دوام اتصاله بالفريقين المتحاربين
وإعلان تأييده لكل واحد منهما على حدة في نفس الوقت .

على أن البريطانيين ما لبثوا حين دخل قائدهم ولسلى مدينة دهلي
عام ١٨٠٣ م أن انفردوا بالأمر كله فيها ، فلم يلتفتوا إلى السلطان
إلا ليرتبوا له معاشا لم يزد على ما كانوا قد أجروا عليه في
الله آباد من قبل .

أكبر شاه الثانى :

لم يكن للسلطان وأعضاء أسرته ما يقلقهم في ظل الحكم
البريطانى إلا ضالة مارتب لهم من مال أصبح لا يفي
بنفقاتهم (١) ، وإن وجد بخزائن شاه علم بعد وفاته ما يزيد على
المليون من الروبيات كان قد أدرها .

و حين فضى شاه علم قبيل أواخر عام ١٨٠٦ م بعد أن جلس على
العرش خمسة وأربعين عاما ، خلفه ثانى أبنائه أكبر شاه الثانى ،
ليقضى حياة يغلب عليها الخمول والضعف حتى عدل اللورد هاستنجز ،

حين خلف واسلى على إدارة الشركة الهندية ، عن تصدير أوامر شركته ونشراتها بإرادة السلطان ، ورفع عن خاتمه كذلك الرسم التقليدى الذى يصفه بأنه خادم السلطان المخلص ، بل لقد رفض فى لقائه له أن يخضع للراسم التى لم يكن الحكام البريطانيون من قبله يجردون غضاضة فى ممارستها . ولم يكتف بذلك حتى حرض نواب أوده على أن ينادى بنفسه سلطاناً (١) ، واحتضن رام موهان رو صاحب جمعية براهما سماج الذى راح يدعو مُجِرداً إلى القضاء على بيت التيموريين فى الهند (٢) .

بهادر شاه الثانى:

وخلف أكبر الثانى ابنه بهادر شاه الثانى عام ١٨٣٧ م ليعيش بدوره على الرزق الذى كان يجريه البريطانيون على أبيه ، من قبل ، بعيداً عن كل نشاط سياسى أو مشاركة فى الحكم ، فلم يكن تملق باله إلا معارضة المستعمرين له فى اختياره لولى عهده وعدم استجابتهم لشكواه من ضآلة معاشه الذى كان يراه لا يكتفى

Dunbar. 431 — ١

٢ — راح هذا الزعيم ، بتأثير حركات الإصلاح الدينى السابقة فى الغالب ، يدعو إلى توحيد ديانات الهند فى دين واحد يعبد إلهاً واحداً هو براهما ، دوت تمسدد فى آلهة أو الطبقات أو الزوجات ، وينكر كل الماديات الهندية القبيحة كالساتي وزواج الأطفال وغيرها .

لحفظ مظاهر الأبهة اللاتقة بأمر تيمورى .

وبقيام الثورة الوطنية الكبرى ، التى يعرفها البريطانيون
بثورة السباهى أو العصيان ، عام ١٨٥٧ م انتهت أيام
بهادرشاه على عرش الهند ، وطُويت صفحة السلاطين الباريين
أبناء تيمورلنك بالهند كماها .
الثورة الوطنية :

هذه الثورة العارمة التى كادت تقضى على كل نفوذ
للبريطانيين فى الهند كلها ، والتى كان معها عسف الشركة البريطانية
واستنزافها لثروات البلاد وإفقار أراضيها الحصبة ، لاسيما فى
الشمال ، نشبت فى وقت واحد بالبنغال ودهلى وجونپور والبنجاب .
أما أخطر أدوارها فقد بدأ بالبنغال حيث الجيش الذى كان
يعتمد عليه هؤلاء المستعمرون فى حفظ النظام بالهند ، وكان
قوامه أكثر من مائة ألف مقاتل فيهم عشرون ألفا من
البريطانيين . وقد بنى الثائرون خططهم على أن يسارع البريطانيون
عندئذ إلى استدعاء كل قواتهم المنتشرة فى الهند إلى البنغال
فيخلو لهم الجو بذلك ويشتوا أقدامهم ويجمعوا شملهم من جديد ،
فلا يتمكن المستعمرون منهم بعد ذلك أبدا .
وعرف المتزعمون للثورة كيف يثيرون ثائرة جند البنغال ،

يُكَّانَ أغلبهم من الراجپوتين والبراهمة ، حين انطلقوا يلقون في
وعدهم أن الشركة تعتزم تسييرهم إلى خارج الهند لحرب بورما ،
يأمر الذي يتنافى وعقائدهم التي تعد كل من يغادر موطنه خارجا
بلى طبقته منبوذاً . كما نبههم كذلك إلى معالجة البريطانيين لأسلحتهم
وعجالاتهم بشحم الخنزير ودهن البقر المقدس ، ودسهم هذه
الدهون فيما يقدمونه لهم من الطعام ، بل إنهم كذلك قد عقدوا العزم
على حملهم قسراً على اعتناق النصرانية بأيدي مبشريهم الذين
جلبوهم لتحقيق هذا الغرض ، وهام يفتلون في وجوهم باب
الترقية حتى إلى أصغر رتب القيادة في الجيش ، وهو ما لم يمنعه
عليهم أحد من السلاطين المسلمين من قبل .

وانطلق المسلمون في دهلي ، يقودون الثورة ، بزعامه بعض أبناء
السلطان وفريق من الزعماء الأفغان المحليين ومعهم حاميه ميروت
الشمالية التي أنضمت إلى صفوفهم ، وفي خطتهم أن يُخرجوا
المستعمرين من بلادهم ويُعيدوا للمسلمين سابق سلطانهم بالهند .
وما غدا المرهتا في جونيور أن نزعوا بدورهم إلى العصيان
بزعيمهم أميرهم نانا صاحب الذي كان وفريق من رجاله قد حددت
إقامتهم هناك ، كما انطلقت الشائعات في الوقت نفسه بزحف
الروس والفرس والأفغان لشد أزرها السوار ، حتى أصيب

البريطانيون في بدء الثورة بخسائر كثيرة وهزائم متكررة في أماكن عديدة (١) .

على أن المستعمرين ما لبثوا أن أقروا الأمور في البنجاب بهمة قائدهم لورنس وحسن تديره، لينطلقوا من بعد ذلك ومعهم حلفاء من السك، والغوركها وقوات نظام حيدر آباد فيقضوا على الثوار بكل مكان في قسوة بالغة وعنف، ويقصفوا بمدافعهم دهلي، ثم يدفعوا بالسلطان المغولي الشيخ، وهو في الثانية والثمانين من عمره، إلى محاكمة صورية أدانوه فيها بدعوى وقوفه وراء والده محمد بنخت خان وبرزوا مغول في تزعمهما للثوار، ومسئوليته عن مقتل تسع وأربعين من البريطانيين بدهلي، وثورته على الحكومة البريطانية بوصفه أحد رعاياها، وإعلانه الحرب عليها ومناذاته بنفسه ساطانا على الهند .

هذا؛ والثابت المعروف أن أحدا من السلاطين المغول، منذ أن صار شاه علم في قبضة الشركة الهندية، لم يقبل الاعتراف بالحماية البريطانية أبداً، كما أن بهادرشاه نفسه لم يكن له أى مشاركة في هذه الثورة حتى اعتذر لزعمائها بفراغ يده من المال، وأنه ليس له جيش أو قوة يقدمها لهم، ولم يكن له بالتالى علاقة بلمصمة

صغيرة وُجدت أثناء الثورة على حائط المسجد الجامع وبها نداء منسوب إلى شاه الفرس يدعو فيها المسلمين إلى تناسي خلافاتهم وتوحيد صفوفهم حتى يُقبل لنجدتهم (١)

قضى البريطانيون في هذه المحاكمة عام ١٨٥٨ م على السلطان المسن بهادر شاه بنفيه مع أفراد أسرته إلى رانچون ، وأعلنوا من بعد ذلك ضم شبه القارة الهندية كلها إلى امبراطوريتهم. تمارس الحكومة البريطانية حكمها بنفسها حكما مباشرا . وعوضت الشركة الهندية عن إبعادها عن شئون الحكم بمبالغ طائلة وتعويضات سخية جعلت دينا على الهند ، هي وكل النفقات التي أنفقتها بريطانيا في حروبها الأفغانية وحروب بورما بدعوى تأمين حدود الهند والمحافظة على سلامتها .

وراح الحكام البريطانيون في الهند يذيعون بدورهم على الدنيا ما يبذلونه من جهود للنهوض بهذه البلاد وترقيتها ، ومنها إنشاء الطرق الحديدية وتوسيع رقعة الأرض الزراعية ونشر الحضارة الأوروبية . ولم يكن هدفهم من وراء ذلك كله في الغالب

Spear pp 200, 222, 28 — ١

هذا وقد أتى بعض الباحثين البريطانيين بعد مضي ستين عاما على هذه الثورة بـرى السلطان الشيخ من كل ما نسب إليه ، ويدلل على أن الشركة هي التي ثارت قانونا على السلطان وليس هو عليها .

الإتنظيم ابتزاز ثروات هذه الأرض الواسعة الغنية ، حتى كانت منتجاتها تنقلها في كل عام أكثر من عشرة آلاف سفينة ، معظمها بريطانية ، لتبيعها بريطانيا في أسواقها بخمسة أضعاف أثمانها أو يزيد ، فلا يعود من هذا الربح الوفير على أصحابه الأصليين ، سوى القليل ، وهم الذين دُفع بجباهيرهم ليزرعوا الأرض لاسادتهم على كفاف من العيش .

وأقام البريطانيون من جهاز حكمهم بالهند طبقة جديدة تُضاف إلى طبقات الهند وتعلوها جميعا ، حتى حرّموا على أهلها دهرًا طويلا بحاستهم أو مطاعمتهم أو مزاملتهم في سفر أو سمر .
قيام دولة باكستان :

في البريطانيون بها درشاه الثاني ، آخر السلاطين الباريين : من الهند بوصفه الزعيم الروحي لأهلها من المسلمين الذين رفضوا في الغالب الاعتراف بسلطانهم وأصر زعماءهم وأبناء الطبقة المستنيرة منهم على معاداتهم وتأليب أهل هذه البلاد جميعا عليهم ، حتى أعان اللورد ألنبرو حاكم الهند البريطاني ، في صراحة نامة ، أن العنصر الإسلامي في الهند هو عدو بريطانيا الأصل وأنها السياسة البريطانية في الهند يجب أن تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية إليها لتستعين بهم في القضاء على الخطر الذي يهدد

بريطانيا في هذه البلاد (١) .

وعلى هذا المبدأ بطش البريطانيون بالمسلمين الذين قادوا الثورة الوطنية (العصيان) أكثر مما بطشوا بغيرهم من أبناء الطوائف الأخرى الذين شاركوا فيها ، فأقصوهم إقصاءً شاملاً عن كل وظائف الدولة التي كانوا يشغلون عدداً كبيراً منها ، وجهدوا في تفويض كل أوضاعهم الاقتصادية والثقافية ، ثم اصطنعوا أبناء الطبقات الهندوكية المتوسطة في الوظائف الصغيرة فلا يتخطونها أبداً إلى المناصب الكبرى التي كانت جميعها ، في المسلمين المدني والعسكري ، وقفا على المستعمرين .

حتى إذا ما أصدروا قوانين التملك الزراعى ، الذى نظم للأوروبيين حقوق امتلاك الاراضى الكثيرة والضياع الواسعة بالهند ، صارت أغلب الاراضى التى كان المسلمون يمارسون زراعتها ، بمقتضى هذا القانون ، ملكاً لجباة الضرائب من الهنداكة .

١ . بلغ من عدا هذا الحاكم البريطانى للمسلمين أنه أمر يترع بعض بوابات راجا بفرضه حين دخل البريطانيون أفغانستان يزعم أنها أجزاء من ممتلكات سلطنة محمود الغزنوى معه من الهند بعد أن خرب مصلى الهنداكة ، هذا أوائل القرن الخامس الهجرى . وحين حمل أنيرو هذه البوابات إلى الهند ، تقريبا منه إلى الهنداكة وتذكيراً لهم بعدوة المسلمين ، اكتشفوا هناك أن هذه الأبنية هي من صنع سبكتكين أبى محمود الذى لم يخبط حدود الهند في غزواته .

وانقلاب زراعتهم الأصليون الذين صودرت أراضيهم إلى الأجراء عندئذ ولم يكف هؤلاء المستعمرون بهذا كله بل طفقوا يزيفون تاريخ الحكيم الإسلامي بالهتد ويظهرون سلاطين المسلمين وعماهم بمظهر الطغاة . ثم انطلقوا من بعد ذلك يدعون الهنداكة إلى إحياء ماضيهم القديم قصد إثارته بذلك على مواطنيهم من المسلمين ؛ لينجلى ذلك ، كله فيما بعد ، عن مذابح رهبة متكررة بينهم وخلافات عميقة متواصلة شغلتهم جميعاً حيناً طويلاً من الدهر عن مناوئة الحكم البريطاني بالهند .

بعث اضطهاد البريطانيين المسلمين في الهند شعوراً قوياً فيهم بضرورة العمل على توحيد صفوفهم من جديد ورفع مغوياتهم وإصلاح حالهم ، حتى نهض السيد أحمد خان ، في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، يفصح عن هذا الشعور إفصاحاً عملياً ، فرسم لقومه المنهج الذي يبلغ بهم إلى تحقيق نهضتهم ؛ فنبههم إلى أن نفورهم من البريطانيين لا يعنى التزام العزلة والتخلف عن المشاركة في ركب الحياة الهندية ، وأن الإطلاع على المدنية الحديثة وعلومها واقتباس الصالح منها واجب على المسلمين لا يتعارض أبداً مع التفقه في أمور دينهم .

والتمسك بآداب الإسلام وتقاليده (١). ثم اتجه من بعد ذلك إلى البريطانيين يصارحهم بتبعاتهم ويؤكد لهم عدول المسلمين عن عدائهم لهم، حتى يخفف من حدة اضطهادهم لهم. إذ كانوا قد أبعدوهم إبعاداً شاملاً عن كل وظائف الدولة وطفقوا يغلقون أبواب الرزق في وجوههم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً — وبقيهم لهم الدليل على أن عسف شركتهم البريطانية وسوء إدارتها هو الذى أدى إلى ثورة الوطنيين عام ١٨٥٧ م

ولم يأبه السيد لاتهام بعض الرجعيين له بمهالة المستعمرين والمروق من الدين، فشمّر عن ساعد الجد في حزم وعزم وانطلق، يعمم إصلاحاته في أغلب نواحي الحياة الإسلامية ويدعو قومه إلى الاغتراف من علوم الغرب. وراح في مجاته تهذيب الأخلاق، ينقد أحوال المسلمين ويتقصى الأسباب التى أدت إلى زوال مجددهم القديم، ويعرض لكثير من الموضوعات العلمية والسياسية والاجتماعية التى يجب على المسلمين الإحاطة بأهدافها والاشتغال بها والمشاركة فيها. ودلّ من خلال أبحاثه هذه على مرونة اللغة

١ — كان مما احتج به في هذا الشأن أن المسلمين حين شرعوا يشقون حضارتهم الكبرى لم يترددوا في دراسة كتب اليونان وسواهم من غير أهل الملة، فلا حرج على المسلمين بهذا من دراسة كتب الغرب وعنومهم بل هو واجب عليهم :
حاضر العالم الإسلامى ٢٧١ - ٢٧٢ .

الأوردوية، لغة المسلمين وأغلب أهل الهند، وصلاحيتهما التامة لمسابقة المدنية الحديثة. وكان من أعظم أعماله الخالدة إنشاء كلية عليشگر، بشمال الهند، التي تحولت من بعد ذلك إلى جامعة عقب عودته من زيارته لبريطانيا عام ١٨٧٥ م، وفيها قامت الدراسات الغربية والدراسات الإسلامية جنباً إلى جنب على أرقى منهج جامعي إذ ذاك (١) بجهود السيد أحمد خان ظهر من بين المسلمين طائفة من نبغاء المفكرين والأدباء والفلاسفة الذين حملوا الرسالة من بعده (٢)، واتسع المجال لنقل فيض من المؤلفات الأوروبية النافعة إلى الأوردوية، فضلاً عن إحياء التراث الإسلامي الهندي.

وإن كان السيد أحمد خان قد أوقف حياته على النهضة بالمجتمع الإسلامي وسعى إلى حمايته حين نادى بضرورة تمثيل المسلمين في المجالس الهندية التشريعية بنواب مستقلين منهم؛ حتى لا تطغى طائفة الاغلبية على طائفة الأقلية في هذه البلاد التي تعد فيها العقائد أساس حياتهم السياسية والاجتماعية؛ وجهر بأن المسلمين والهنداكه أمتان مختلفتان تمام الاختلاف في العقيدة

١ - ٥٥٦٠ Dunbar

٢ - من أمثال هؤلاء السيد أمير علي وخدايخس ومحمد إقبال ومحمد علي وأخوه شوكت علي. وفيهم من أخرج للناس باللغات الأوردية كتباً قيمة عرفهم فيها بروح الإسلام وحقيقته وحضارته ومدنيته تعريفاً بيناً.

والنقايد وكل شيء ، فإن تلاميذه الذين حملوا رسالته من بعدد ما غدوا أن أعلنوا أن فترة محاسنة البريطانيين ، التي فرضها رائدهم من قبل . قد استوفت أجلها ، وأن واجب المسلمين غذا يفرض عليهم أن ينتزعوا حقوقهم من أيدي المستعمرين وكل من يقف في سبيلهم ، حتى أفصح المفكر الملهم محمد إقبال ، وهو من أبناء جامعة عليكر ، عن وجوب قيام وطن خاص بالمسلمين وحدهم بالهند ؛ ورسم حدود هذا الوطن على الأساس الذي تقوم عليه دولة پا كستان اليوم في الغالب .

ولم تكن معارضة الهنادكة لقيام دولة خاصة بالمسلمين في الهند إلا لخوفهم ، فيما ظنوا في الغالب ، من أن ينقلبوا إلى مصدر متاعب لهم من جديد حين يشتد ساعدهم ويستعيدوا بعض ماضيهم من القوة ، في حين كان البريطانيون يرون مبدئيا أن كل انقسام بين شعوب الهند فيه تحقيق لمصالحهم العليا على قاعدة الإستعمار المعروفة « فرّق تسد » .

وما لبث المسلمون آخر الأمر أن بلغوا بجهود زعيمهم محمد علي جنه ، ومن ورائه الرابطة الإسلامية ، إلى تحقيق قيام دولة لهم ، بعد أن أصرّوا على رفض جميع عروض المؤتمر الهندي ، الذي كان يتزعمه غاندي ، ودستور ١٩٣٥ ، حتى لا تضيع حقوق

أقليتهم الكبيرة في تيار الغالبية الهندوكية ، وحتى لا يكون لأحد وصاية عليهم (١) . فأعلنوا مولد باكستان في ٤ أغسطس ١٩٤٧ على حدود لا ترضيهم في الغالب ، قبلوها ليضعوا بذلك حداً للمذابح الكثيرة التي سقط فيها من المسلمين أكثر مما سقط من الهنداكة . وهي تضم كراچی ، مركز حكومتها ، وإقليم بشاور والحدود ، والسند والبنجاب في الغرب ، وأغاب البنغال في الشرق .

وبباكستان (٢) اليوم قرابة ستين مليوناً من المسلمين يعيش إلى جانبهم عشرون مليوناً من أصحاب المذاهب الهندية الأخرى . ولا يزال ما ينوف على أربعين مليوناً من المسلمين يعيشون في الجمهورية الهندية .

حضارة الدولة المغولية

أقبل المسلمون ، منذ فجر الاسلام ، على الاستفادة من حضارة
افرس واليونان بعد أن اطّاعوا عليها ، فلما دخلوا الهند
وتوغلوا في أراضيها واستقروا بها ومعهم ثقافتهم المزدهرة ،
اشتاقوا كذلك إلى التعرف على ما عند الهنود من ثقافة
ومدنية سمعوا الكثير عنها ووقفوا على قدر منها في بلادهم .

ونشأ عن امتزاج حضارة الحاكمين بحضارة المحكومين
القديمة ومدنيتهم حضارة ثالثة ، اشتملت على عناصر هاتين
الحضارتين ، هي ما تعرف باسم الحضارة الإسلامية الهندية التي
بدأت في أكل صورها في عهد الدولة المغولية التي أقامها
السلطان التيمورى ظهير الدين محمد بابر وخلفاؤه ، وظلت تحكم
هناك قرابة ثلاثة قرون .

جمع هؤلاء السلاطين البابريون في أشخاصهم كثيراً من
الصفات المتناقضة التي ورثوها عن أبيهم الأكبر تيمور لنگك ،
فكان فيهم وحشية وتسامح ، وجبروت وحيلهم . كانوا يقيمون

من هامات المقهورين على هيئة الاهرامات والمنائر، ولا يجدون في ذلك حرجاً ، ثم يشيّدون ، إلى جانب أكداس القتلى ، منشآت الحضارة والمدنية وبيالغون في حبهم وبذلهم للأدب والعلوم والفنون والمشتغلين بها ؛ بل إنهم ليسعون إلى العلماء يشاركونهم الدرس ويدعونهم من أقصى الأرض إلى بلادهم . وعلى هذه الخطّة وفد إلى بلاط الهند صفوة من علماء العرب والفرس والترك ليساهموا بجهودهم في بناء الحضارة الإسلامية الهندية هناك .

وأدى التسامح الذي اشتهر به سلاطين الدولة المغولية (١) ، إلى العمل على تقريب سكان الهند إليهم في الغالب ، حتى أصهروا إليهم ، وتبعهم رجالهم في ذلك ، وفتحوا لهم أبواب المناصب في الدولة . فساعد ذلك كله على نشر الإسلام بالهند حتى كانت غالبية المائة مليون مسالم الغالبة بشبه القارة الهندية اليوم من أصول هندوكية خالصة .

وإذا كان بابر مؤسس هذه الدولة لم يطل به الأجل بعد

١ — يجمع المؤرخون على بعد سلاطين الدولة المغولية عن التعصب الديني، فآزر الأهلون في عهدهم طقوسهم الدينية بحرية تامة في الغالب .
Havell 426—Prasad 286,7

إقراره للأمور في الهندستان ، وإذا كان ابنه هما يون قد امضى عمره في صراع متواصل من أجل عرشه ، فإن جلال الدين أكبر ثالث السلاطين - هو أول من أفصح عن التسامح المطلق وجهر بالتآلف فنادى بأن الهند للهنود من أهلها مسلمين وهنادكة - وهو الذى بلغ كذلك بالدولة المغولية ذروة المجد والرقى . فقد نهض بالفنون والعلوم والآداب نهضة شاملة ، وزين الهند بكثير من المنشآت الفخمة وأرسى جهاز الحكم على نظم لا تمت شعبه وأذاعت شهرته ، وقلده فيها الذين حكموا من بعده .

نظام الحكم : كانت السلطات جميعها في الدولة ، من عسكرية ومدنية ودينية ، في قبضة السلطان ، على الرسم الغالب في تلك العصور ، وفي البلاد الإسلامية على الخصوص ، وكان هواه هو دستوره وتشريعـه . فطالما كان الجالس على العرش من أولى العزم والقوة ، كان التماسك يعم الدولة الإسلامية كلها في الهند ، وإلا فإن حكام الولايات كانوا يسعون إلى إعلان استقلالهم وتأسيس إمارات لهم من فورهم ما أتاحت لهم الفرصة بذلك . وعلى هذا القياس ازدهرت الدولة المغولية أيما ازدهار عندما كان على رأسها رجال أقوياء كبار ، ونبقت عندما خلت من مثلهم .

أما الوزراء والولاة والقادة والأمراء فكانوا صنائع للسلطان في الغالب ، يرفع من قدرهم ويخفض كيف يشاء ، ويهيم من أراضى الدولة التى هى جميعها بداهة ملكه ، حين يشاء وبقدر ما يشاء ، ويستردها كذلك على مشيئته .

هذا ؛ وكانت أراضى الدولة على ضربين ، منها ما يُقطع للقادة والأمراء على أن ينفقوا من دخلها على جندهم الذين يساهمون بهم فى حروب الدولة ، ويدفعوا نصيباً آخر معلوماً من المال كذلك إلى بيت المال فى كل عام ، ومنها ما يستأجره الملتزمون على بدل سنوى يؤدونه . وكان هؤلاء جميعاً ذوى سلطان مطلق على الأهلىن بمناطقهم فى الغالب .

وعُدل أكبر نظام الإقطاع هذا إلى تقسيم البلاد إلى ولايات عليها نواب وعمال له ، على النظام الذى يبتأه فى موضعه سالفاً ، وأنشأ جيشاً قوياً مدرباً يتبعه رأساً وتقوم الدولة بدفع رواتب أفراد قواته من خزائنها (١) . ونهج خلفاؤه نهجه فى الغالب حتى جاء أورنگزيب عالمكير فرجع إلى النظام الأول .

وأدى اهتمام الحكام المغوليين والسوريين (١) بالوقوف السريع على كل ما يجرى فى مختلف أنحاء بلادهم الواسعة ، إلى تنظيم شئون البريد تنظيمًا محكمًا ، وتمهيد الطرق والإكثار منها وتزويدها بعلامات يهتدى بها السعاة والمسافرون . وأقاموا على هذه الطرق منازل كثيرة انزول الناس والدواب ، وأباحوها جميعا للمسلمين والمهندكة . وأدى قيام هذه المحطات إلى تجمع صغار التجار عندها ورواج أحوالهم بالتالى .

وقد أعجب بهذه الطرق الرحالة الفرنسى تافرنيه ، الذى ساه بالهند فى أواسط القرن السابع عشر الميلادى ، وصرح بأنهم كانت خيراً من طرق فرنسا وإيطاليا إذ ذاك وأكثر أمناً (٢) .

وعنى هؤلاء السلاطين جميعاً كذلك بإقامة العدل بين رعاياهم وانتشار الأمن فى ربوع بلادهم ، وألزموا التجار والصيارفة بمراعاة الأمانة ، وراقبوا سلوك عمالهم مراقبة دقيقة فى الغالب ، فلم يترددوا فى أن ينزلوا بهم أشد العقاب حين كانوا يتحققون من ظلمهم للأهلين أو اعتدائهم على أملاكهم أو أموالهم .

١ — السوريون هم آل شير شاه وأولاده .

٢ — حضارات الهند ٤٢٨

المجتمع : إن مؤرخى الهند عامة لم يعنوا فى الغالب إلا بحياة الحكام والسلاطين وأعمالهم وفتوحاتهم ، وما يتصل بذلك من حياة الولاية والقواد وأعمالهم ، فلم يلتفتوا ، إلا فى النادر ، إلى الكتابة عن شعوب هذه البلاد وأحوالها الاجتماعية فى شيء من التفصيل يُذكر ، اللهم إلا قلة يسيرة من المسلمين وفيهم أبو الفضل ابن المبارك ، مؤرخ أكبر ووزيره ، الذى تعد تدويناته من المصادر المهمة التى وصلتنا فى هذا الباب ، هى وما كتبه فريق من الأوروبيين من التجار والمبشرين الذين وفدوا على تلك البلاد فى العصر الوسيط وما تلاه .

والمجتمع المغولى فى الهند كان ، كما قلنا من قبل ، مجتمعا إقطاعيا خالصا رأسه السلطان الذى كان يضمنى فى العادة على بلاطه من ضروب الآبهة والعظمة ما خلب لب الذين أتيح لهم الإطلاع عليها وأدهش وصفه كل من سمع بها ، فى بلاطه كان يتجلى بهاء الدولة ومجدها ورواؤها ، ومنه تشع علامات المدنية وتنشق آلاء الثقافة ، وفيه تروج أنواع المعارف ، وعنده وفى كنفه يعيش رجال العلوم والآداب والفنون .

- ومن بعده يأتى الأمراء ورجال الدولة الذين كانوا على دين سلطانهم فى الغالب فى البذخ والترف والإسراف ، حتى كانت

بصورهم تزدهم بالجوارى والغلمان وتنعم بكل طريف أو فريد من الأثاث والمتاع ، وتفيض موائدهم بأطياب الطعام ، وإلى جانبها أكداس من الفاكهة المنوعة النادرة : المستوردة من غارى وسمرقند ، والأنبذة والأشربة الفاخرة التى لم يلتفت إلى تحريمها أحد من سلاطين المغول تحريماً جدياً بالهند إلا أورنگزيب .

ولعل استيقان هؤلاء الأعيان من مصادرة السلطان لأموالهم ، وأملأهم بعد موتهم ، على العادة الغالبة إذ ذاك ، أو حتى وهم على قيد الحياة حين يبلغ بعض الوشاة إلى الإيقاع بهم عنده ، كان ذلك يدفعهم فى الغالب إلى إنفاق أموالهم فى مثل هذه الوجوه فى إسراف بالغ .

وكان التجار بدورهم يحرصون ، ولا سيما فى المناطق البعيدة عن العاصمة ، على إخفاء أموالهم عادة فلا يصادرها حكاهم حين تشتد حاجتهم إلى المال أو يدفعهم جشعهم إلى طلبها .

هذا ؛ وكان أوسط الناس وأصحاب الحرف والصناعات يعيشون فى الغالب عيشة تترأوح بين الميسرة والمعسرة . أما أبناء الطبقات الدنيا وأصحاب الحرف الدينية ، ومعهم خدم الأمراء والحكام وأجراؤهم ، فكانوا فى شظف من العيش والذل مقيم ، لا ينالون

إلا وجبات غذائية قليلة هزيلة وأجور ضئيلة، حتى كادت الأمانة تنعدم بينهم بدافع من حاجتهم إلى سد رمقهم وإجابة مطالب ذويهم . ومع هذا فيقول بعض المؤرخين المحدثين بأن حالتهم برغم ذلك كله كانت أفضل بكثير منها في العصور الحديثة (١) .

وكانت طبقات الشعب هذه ، ومعها الزراع وأجراء الأرض ، هم أتعس الناس حظا وأشدّهم بؤساً حين تجتاح الهند المجاعات بسبب انحباس الأمطار الموسمية وما ينجم عنها من شحّ الأقوات وانتشار الأوبئة الفتاكة .

وقد التفت أكبر ، وأولاده من بعده في الغالب ، إلتفاتا جديا إلى العناية بأمر هذه الطبقات والعمل على تحسين أحوالها ومد يد العون لها عند حدوث المجاعات والقحط (٢) .

الصناعات : كذلك كان أكبر هو أول من غنى بأمر الصناعات الهندية ونهض بها ، فكان عنده ، كما يروى مؤرخه أبو الفضل ، مائة مصنع للنسيج والأسلحة والصباغة ، كل واحد منها كالمدينة في اتساعه (٣) . ومنها ما كان يُعَدّ للسلطان في كل عام

Muslim Rule. 673 — ١

Eb. 546 — ٢

٣ — آيين أكبرى — آيين ٩

ألف حُلَّة ليخلع أغلبها على رجاله .
وكانت أهم مراكز الصناعة المغولية هي في لاهور و آگرا
وفتچبور وأحمدآباد ودكا . وكثير منها كان من المنسوجات الفاخرة
والسجاد يصدر إلى الخارج .
كذلك كانت الهند تصدر الصوف والنيلة والتوابل، وتقايض
عليه في موانئها بالكماليات الشرقية والغربية التي اقتضتها حياة
البذخ والإسراف التي كان يحياها حكامها ، والتي كان من مساوئها
دخول الطباق إلى هذه البلاد في مستهل القرن السابع عشر الميلادي
لتزرعه في أرضها من بعد ذلك .

العمارة : أدى كلف الباريين البالغ بالحضارة والمدنية إلى أن
التفتوا إلى إتمام مدنها وشغفوا بالعمارة شغفا بالغا ، حتى ظهر في
عهدهم طراز معماري ، هو مزيج من فنون المسلمين في الغالب وبعض
الفنون الهندوكية ، فشاع في العالم باسم الطراز المغولي ، ويتميز
بالقباب البصلية الشكل والترصيع بالحجارة الكريمة والمينا والخزف ،
والأقواس الحادة ، والأبواب الفخمة التي تعلوها نصف قبة .
لقد انتقد ظهير الدين بابر أبنية الهند منذ دخلها انتقاداً شديداً
وأظهر امتعاضه من عمارتها . ولم يمنعه اشتغاله بحروبه المتواصلة

في هذه البلاد من إقامته لكثير من المنشآت على الطراز التيموري الذي عرفه في موطنه الأول ببلاد ماوراء النهر وصادفه في مواضع كثيرة بخراسان وكابل ، حتى ليذكر في سيرته أنه كان يستخدم ٦٨٠ من النحاتين في بناء قصوره ، بخلاف ١٤٩١ آخرين كانوا يعملون في منشآته الأخرى من الخزانات والمساجد بآكرا ويسانه ودهولپور وگواليار ^(١) . ولم يبق من منشآته الكثيرة هذه إلا مسجد كابل باغ في پاني پت والمسجد الجامع في سنهبل ، ليجيء من بعده حفيده أكبر فيزين الهندستان بعدة منشآت ضخمة جاءت عمارتها آية في الإعجاز الفني . وقد بقي منها حتى اليوم ضريح همايون وبعض قصوره في فتحپور سيكري ثم بلند دروازه (البوابة الكبيرة) التي أقامها تذكارا لفتوحاته الدكنية والتي تعد بارتفاعها الذي يبلغ ١٧٦ قدما وحيثها مثالا لروعة العمارة الهندية كلها . ويقوم غير بعيد منها ذلك المسجد الجامع ، الذي جاكى به في تصميمه البيت الحرام ، ثم حصن آكرا الذي استغرق بناؤه سنوات ثمانية .

وبما يذكر في هذا الصدد أن أكبر لم يغفل في عهده عن مراقبة أسعار مواد البناء حرصا منه على تيسير الحياة لشعبه .

وما أذاع صيت العمارة المغولية في الخافقين هو « تاج محل » ،
ذلك المزمى البديع الذى شيدته شاهجهان لزوجته ، أرجُمند بانو
بمناز محل ، فقام مثلاً على الروعة فى البناء وفى الوفاء ، حتى رجَّح
بعض المؤرخين ، خطأ ، استعانة شاهجهان فى إقامته بالفنانين
الإيطاليين ، كما نسبوا إلى بابر من قبل استخدامه لتلاميذ سنان
معماري العثمانيين ، المشهور .

والثابت المعروف أن هذا البناء ، الذى يُعد بحق من روائع
الفن المعماري المعدودة ، هو فى تصميمه وتنفيذه إسلامى خالص .
ومن منشآت شاهجهان الخالدة مدينة دهلى الجديدة ، التى
عُرفت فى عهده باسم شاهجهانآباد ، والتى خططها على أحسن
نمط فى عصره وأقام بها عدة قصور نفخة له ولأمرائه ، وخص
التجار وأصحاب الحرف والصناعات والفنانين من نقاشين وغيرهم ،
كل فريق منهم بمحلته ، ليهرؤا من بعد ذلك بمتجاتهم ورؤاء
مدينتهم أنظار الأوربيين الذين زاروها إذ ذاك (١) .

ونالت آگرا بدورها كذلك الكثير من عناية السلطان حتى
أشاد الرحالة الألمانى مندلسو بنظافة طرقها الممهدة وجمال

أبنيتها وإتساع رقعتها ، وأحصى بها إذ ذاك سبعين مسجداً
وثمانمائة حماماً (١) .

وبموت شاهجهان ، وارتقاء ابنه الصوفي أورنگزيب
عالمگیر العرش من بعده وضعف خلفائه ، فتراهم الدولة
بالتعمير والبناء .

وقلد الأمراء المسلمون ، في مختلف الإمارات الهندية ،
طراز العمارة المغولية ، فظهرت أمثلة منها رائعة في بيجانپور
وغوالكونده وأحمدنगर وبرار وييدار وتخطتها إلى نيپال، بسفوح
الهمالايا ، التي لم يدخلها المسلمون ، فضلاً عن إمارة ثيالا نگر
بأقصى الجنوب .

النقش : كان طبيعياً أن يستتبع شغف سلاطين الدولة المغولية
بالعمارة شغفهم كذلك بفن النقش والعناية به ، وأخذت مدرسته
عندهم طابعها المغولي الخاص بها حتى أفرد لها أرباب الفنون باباً
خاصاً بها وتحدثوا في أسفار كاملة عنها (٢) .

١ Lane-Poole 333. 5

٢ L. Binyon. The Court Painters of the Grand

Moghul. Oxford 1921.

فهذا جدّهم أكبر قد جلب معه إلى الهند جملة من روائع النقوش التي كانت في حوزة الاسرة التيمورية ، ومن بينها لوحات لبهزاد مصور السلطان حسين بيقراء ، الذي يصفه عمدا الفناين بأنه رفائيل الشرق (٢) ، كما استصحب همايون معه في عودته من المنفى إلى الهند النقاشين المشهورين سيد علي تبريزي وخواجه عبد الصمد ، ليحيى ابنه أكبر من بعد ذلك فيقرر أن التصوير نوع من العبادة ، وأن للفنان ، فيما يبذره ، طريقته الخاصة للإقرار بوحدانية الخالق المبدع ، فهو حين يصور الكائنات وينقش أطرافها وملامحها على لوحته لا بُد وأن ينصرف بذهنه إلى التفكير في إبداع خالقها الذي نفخ فيها بما يعجز هو عن تصويره وإبرازه .

وهو بعد ذلك يقيم ببلاطه معرضاً للنقوش في كل أسبوع ويجذب المجيدين من أصحابها تشجيعاً لهم ، بل إنه ليستهوى نوايا النقاشين من خارج الهند بالمنح والعطايا ليفدوا إليه ، كما يمد تشجيعه وعناية إلى فنانى الهنداكة ويحضهم على التعمق في تفهم

١ — لهذا النقاش لوحات عدة بأشهر متاحف الفنون وهو يتأثر في قوشه بمذهب التصوفية الفارسية ، فهو بذلك من مدرسة الرزية .

فنونهم القديمة ودراستها ، فمکان من نوابغهم بیلاطه دسوانت و بساوت و سنوک و تراشندو حککات ، إلى جانب عبد الصمد و میر سید علی و فرخ بگک و محمد نادر و أستاذ منصور .

وقد عهد أكبر إلى نقاشيه بتصوير وقائع چنگیز نامه، و ظفر نامه ، و راز نامه ، و هي جميعاً من مؤلفات المسلمين ، ثم المهامهارتا و الراماينا . ملحمى الهنادكة اللتين كان قد أمر بنقلهما و بعض كتب هندوكيسه أخرى إلى الفارسية ، فزُينت كلها بنقوش تصور حوادثها (۱) . وقد تأثر بعض هؤلاء النقاشين بالفنون الأوربية التي كان البرتغاليون قد جلبوا معهم إلى الهند بعض نماذج منها .

وورث جهانگیر عن أبيه كثير من أحاسيسه الفنية حتى كان في مقدوره أن يتعرف في يسر على مقومات كل فنان وخصائصه حتى حين شارك غيره ، في نقش واحد (۲) .

وبلغ الفنانون و النقاشون في عهد أورنگزيب بفن الخط و زخارف الكتب مرتبة الایچ — از الفنى الرائع ، و ساهم السلطان نفسه معهم بنصيب ملحوظ في نسخه للقرآن الكريم في

۱ — يداونى نان ۳۲۰ ، ۳۳۶

۲ — واقعات جهانگیرى ۳۵۹ ، ۳۰

إبداع مشهور .

وتختلف عن فنانى الدولة المغولية لوحات كثيرة سجلت كثيراً من مظاهر الحياة فى البلاط وفى المجتمع الهندى ، بل وفى البيئة الهندية كلها بأشجارها وأزهارها وطيورها وفيولها ، تجدها اليوم هى وزخارفهم قد أزدانت بها متاحف العالم الكبرى :

حدائق المغول : يتمثل كلف سلاطين الدولة المغولية بالجمال ، وحبهم للطبيعة ومباهجها ، فى حدائقهم التى أقاموها فى مواضع كثيرة بالهند حتى ذاع صيتها وأقبل الأوروبيون فى إيطاليا وبلاد الإنجليز ، على الخصوص ، يحتذون نمطها ويزينوا بها كثيراً من مدنها . فهذا بابر نراه فى مواطن كثيرة بسيرته لا يفتأ يتغنى بما أبدعته الطبيعة من آلائها . حتى إذا ما دخل الهند فشاهد حدائقها لأول وهلة ، انتقدها انتقاداً شديداً لسوء تنسيقها وخلوها من الماء يجرى فى جداولها بين الخنازل ، فأين هى من مغانى فرغانة وكابل ، . وما غدا أن أنشأ بالهندستان عدداً من البساتين والمنزهات ما حاكى بهارياض موطنه ، فكان من بينها جارباغ السكابلى بظاهر آگرا الذى جعله على نمط نظيره بكابل وجلب إليه كثيراً من النباتات والأشجار التى لم تكن

الهند تعرفها من قبل (١) .

وورث عنه حفيده شامجها ن شغفة بالنباتات والحـدائق
والأشجار وكافه بدراستها تفصيلا (٢) . كما استموت مغاني كشمير ،
بقتنتها ، الأمراء الباريين جميعا فكانوا يسارعون إليها في كل صيف
طالبا لللاذتجاء والمتعة ، حتى أقاموا على غرارها بلاهور : قصبة البنغال ،
شالمار أخرى حاكوا به نظيرتها في التبت بأشجارها وجداولها
وشلا لايتها ومدرجاتها .

وما زال الشعراء حتى اليوم يتغنون في الفارسية والأوردوية
بمفاتيح هذه الرياض وجمالها .

الموسيقى . هذا ؛ والمطلع على موسيقى الهند اليوم لا يستطيع أن
يغفل أمر المؤثرات الإسلامية التي عملت فيها ، سواء في ناحية
الأصوات أو ناحية الآلات

ومن المشهور كذلك أن سلاطين المغول كانوا على ولع شديد
بالعزف والغناء ، باستثناء أورنگزيب عالمگیر الذي سرح
الموسيقين والشعراء من بلاطه . فهذا بابر قد روى عنه تأليفه
لبعض الأصوات ، في حين كان ابنه همايون يعقد ندوة موسيقية

١ - بابرنامه ٣٨٠ ب

٢ - واقعات جهانگیری ٣٠٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤٨ ، ٣٧٠

ببلاطه فى يومى الإثنين والأربعاء من كل أسبوع : أما أكبر فقد استقدم إلى بلاطه مشاهير الموسيقيين، رجالاً ونساءً . من كشمير وإيران . ولا يزال مثنوى مطربة ميان تانس بگواليار مزاراً بقصده موسيقوا الهند حتى اليوم .

وفى إقبالنامه جهانگیرى ، لمعتمد خان ، تفصيل لنشاط لموسيقيين ببلاط جهانگیر ، وقد كلف هذا السلطان نفسه بالموسيقى حتى ألّف فيها أصواتاً كثيرة .

وفى عهد الدولة المغولية أدخل إلى الهند كثير من الآلات الموسيقية، مثل الرباب والسرود والدلرُنى والطاووس ، وجميعها فارسية الأصل (١)، كما ألّف، كثير من الأسفار فى هذا الفن تَخر بها مكتبة فيضى بآگرا اليوم، ولا يزال إلى وقتنا هــذا الألحان المغولية رواج بالهند .

الحركة الفكرية لم يَبْدُ سلاطين الدولة المغولية رعاة للحركة الفكرية فى الهند وحماة للعلوم والآداب فحسب ، بل كان منهم من ساهم بقلمه فيها وأخرج للناس كتباً قيّمة . فمن ذلك السيرة الفضة التى أنشأها

بأبر عن نفسه فافصحت عن إحاطته الواسعة بالتاريخ وتقويم البلدان وكثير من العلوم العقلية والنقلية . وتمكنة التام من الآداب العربية والفارسية والتركية . كذلك كتبت ابنته كُلمبَدَنُ بيسگيم ، همايوننامه التي تعد مرجعا وثيقا في تاريخ ثاني سلاطين المغول . وشغف مثلها بالآداب كثيرات من نساء البيت المغولي ، أشهرهن زيب النساء ابنة عالمگیر التي كانت تقرر الشعر باللسانين العربي والفارسي في رقة وعذوبة أودعتها ديوانها المشهور « ديوان مخفی » .

هذا ؛ وكان همايون يحرص في أسفاره على إلا تفارقه مكتبته الخاصة ، وكان يميل بخاصة إلى المصنفات الجغرافية والفلكية . ولم يكن جوهر صاحب تذكرة الواقعات إلا تابعا من أتباعه ومقدم شرا به ^(١) .

وصادفت سوق الثقافة والحياة الفكرية رواجاً منقطع النظير عند أكبر ، أعظم ملك عرفته الهند ، حتى أوقف المؤرخ عبد القادر بداوني المجلد الثالث من كتابه ، منتخب التواريخ ، على ذكر رجالها والمشتغلين بها في عهده . فكان من أعلامهم ملا داود صاحب تاريخ أُلُي وأبو الفضل بن المبارك صاحب أكبرنامه

١ — كان لأبر كذلك مكتبة قيمة عليها قيم يدعي عبد الله كتابدار .

آيين اكبرى — والكتاب الاول يستعرض فيه تاريخ الدولة المغولية منذ نشأتها ، فى حين يتحدث فى الكتاب الثانى عن رسوم هذه الدولة وتقاليدها ونظم الحكم فيها ومظاهر المدنية عندها . ثم أخوه أبو الفيض فيضى الشاعر الطبيب الرياضى ، ونظام الدين أحمد صاحب طبقات اكبرى ، ومحمد عبد الباقي صاحب آثار رحيمى ، ومحمد قاسم هندوشاه صاحب تاريخ فرشته . وأغلب هذه الكتب قد نشرت المطابع ونُقل بعضها إلى لغات كثيرة ، وجميعها قد صُنِف بالفارسية التى كان لها ولآدابها رواج عظيم ، ومركزٌ ممتازٌ بالهند أيام الحكم الإسلامى بعامة وفى عهد الدولة المغولية بخاصة ، حتى أقبل كثير من الهنادكة على دراستها واشتهر نفر من براهمة كشمير بإجادة النظم بها .

وبلغ من تقدير أكبر للعلماء أن استبد به الحزن حين بلغه خبر مقتل وزيره ومؤرخه أبى الفضل ، حتى ودَّ لو كان هو المقتول مكانه ، فنوايغ العلماء — على حد قوله — لا يجود بهم الزمان إلا فى القليل النادر بخلاف الملوك وإن صلحوا .

ولأكبر يدين الهنادكة يبعث آدابهم السنسكرىتية وإحيائها من جديد ، وظهور طبقة ممتازة من كتّابهم وشعرائهم . وبفضل نظراته المتساحمة وتشجيعه أقبل فريق من المسلمين أنفسهم على

الاشتغال بتلك الآداب ، حتى نظم الشعر بالسفسكريتية الوزير
عبد الرحيم خانخانا الذي نقل ببرنامج من الجغتائية إلى الفارسية
على ما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وفي عهد جهانگیر كتب معتمد خان تاريخه المعروف بإقبالنامه
جهانگیری ، وكامگر خان مآثر جهانگیری ، والشيخ نور الحق
زبدة التواريخ ، كما ألف في عهد شاهجهان ، بادشاهنامه ،
لعبد الحميد لاهوري ثم لامين قزويني ، وشاهجهاننامه لعنايت خان
وعمل صالح لمحمد صالح .

هذا ؛ كما كتب داراشكوه بن شاهجهان بعض كتب في التصوف
المقارن مثل « مجمع البحرين » ، وترجم لجمهور من أهل التصوف في
كتابه « سفينة الأولياء » . ودفعه شغفه بالاطلاع على فلسفة الهند
القديمة وعقائدها إلى أن عهد إلى بعض المترجمين بأن ينقلوا إلى
الفارسية قدرًا من كتبها مثل اليوپانيشاد وبهجتادجيتا
ويوجا ما شيست .

حتى إذا بلغنا عصر أورنگزيب وجدنا عنده من المؤرخين
محمد هاشم المعروف بخافي خان صاحب منتخب اللباب وسنن رأي ختري
صاحب خلاصة التواريخ ، ثم محمد مستعد خان صاحب مآثر عالمگیر
ومحمد كاظم صاحب عالمگیر نامه . وأشهر ما كُتب في عهد

هذا السلطان هو الموسوعة الفقهية الكبرى، المعروفة بالفتاوى الهندية أو العالمگیریة، التي عهد بتأليفها إلى فريق من خيرة علمائه ، وبذل لهم في سئاء ، فأجلوا فيها الفقه الحنفي كله إجمالاً شاملاً . ولم يمض على الفراغ من تأليفها أكثر من قرن ونصف القرن حتى طبعت في القاهرة ونُشرت، وذلك قبيل منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، مما يدل على قيام الروابط الثقافية الوثيقة بين الشعوب الإسلامية برغم بعد الشقة بينها ، وما أصابها من انحلال وضعف في ذلك القرن . ويُعد هذا الكتاب من أهم المراجع التي اعتمد عليها المصلحون في السنين الأخيرة لإصلاح قوانين الأحوال الشخصية بمصر .

اللغة الأوردوية : كان من أجلى مظاهر التجاوب القوى بين الثقافتين الهندية والإسلامية وآدابهما ، تطور اللغة الأوردوية ، أوسع لغات شبه القارة الهندية انتشاراً ، والتي تسعد من يجا من لغات الحاكين والمحكومين ، أى من الفارسية أساساً ، وماتسرب إليها من ألقاظ عربية كثيرة ومصطلحات اللهجات المحلية الهندية (١) .

١ — اللهجات الهندية هي في انغالب خليط من اللغات الدراورية والآرية بما فيها سنسكريتية . وقد بقيت السنسكريتية الأدبية الخالصة وقفا على أبناء الطبقات الهندية العليا . منذ أن وضع «منو» المزم نظام الطبقات فمزلت نفسها بذلك في الغالب عن عامة الناس .

فلقد بدأت ألفاظ كثير من لغات الفاتحين تتسرب إلى لهجات الهند منذ أن غزا محمود الغزنوى هذه البلاد واستقر خلفاؤه من بعده بها، كما غدت ألفاظ وعبارات هندية بدوردا تجري على لسان المسلمين، في الهند، حتى تمكن فريق منهم من آداب البلاد المفتوحة تمكننا يدينا ظهرت أمثله عند خسرو الدهلوى الذى كان ينظم الشعر بالفارسية. والبهاشا، لهجة دهلى، على الأوزان السنسكريتية، فى القرن الرابع عشر الميلادى .

حتى إذا ما أخذ الهنادكة يُقبلون على تعلم الفارسية منذ أيام اللوردهيين طمعاً فى الالتحاق بالدواوين، وجاء سلاطين المغول يفتحون لهم الأبواب إلى المناصب ويعنون بالتمهضة بالآداب الفارسية والسنسكريتية على السواء، ازداد تقرب اللغتين من بعضهما واختلاطهما، ليظهر من أثر هذا المزج لهجة ثالثة فى عهد شاهجهان فى القرن السابع عشر الميلادى، وقد بدا عليها معالم النضج والاستقلال واضحة، وقد عُرِفَت باسم «زبان أردو» أى لغة سوق المعسكر، بدهى، حيث كان لها رواج ملحوظ .

وبقيت هذه اللغة الجديدة فى الغالب تساهم فى النشاط الأدبى بنصيب محدود لا تبلغ فيه بعض مقام الفارسية، حتى تم للبريطانيين استعمار الهند فعملوا على اقتلاع الفارسية من هذه

البلاد - بوصفها لسان المفكرين المسلمين الذين جـروا على مناهضتهم - حتى تزعموا آخر الأمر ثورة التحرير الهندية ضدّهم في منتصف القرن التاسع عشر - فبدلوا جهوداً كبيرة لتنظيم أصول الأوردوية ونحوها، وطبعوا كتبها، حتى عمت الهند على حدّاتها عهداً وازدهرت آدابها. ولا تزال للمطارحات الشعرية الأوردوية بالهند كلها سوق رائجة حتى اليوم.

وكانت الأوردوية هي لسان الزعماء المسلمين من أمثال السيد أحمد خان وإقبال وخلفائهما الذين نصبوا أنفسهم للنهضة بالمسلمين في الهند والدفاع عن حقوقهم بازاء عداء البريطانيين المرير لهم. وعالج بها نفر من كتاب المسلمين والهنداكة كثيراً من الموضوعات الحديثة والقديمة فبرهنوا بذلك على مرونتها وصلاحتها كل الصلاحية في العصور الحديثة (١). وهى اليوم لغة باكستان الأولى ومن أكثر اللغات تداولاً بجمهورية الهند.

كان من أثر الإسلام البالغ بالهند، فضلاً، عن اجتذابه الملايين من أهلها بسماحته وقوله بالمساواة بين الناس جميعاً، أن برز طائفة من المصلحين الهنداكة ينادون بإنكار عبادة الأوثان

من دون الله الواحد القهار (١)، كما أنكروا كذلك نظام الطبقات والوظائف الدينية وزواج الأطفال وعادة الساتى، وأباحوا زواج الأراامل وسمحوا لغير الهندو باعتراف دينهم.

ولم تكن دعوات نانك صاحب ديانة السك، وكبير صاحب مذهب بهكتى، ورام موهن صاحب « برهما سماج »، وتعظيمهم جميعا للأنبياء والمرسلين إلا صدى لتعاليم الإسلام الذى كان بالهند ديناً وحكماً ومدنية.

١ - ديانات الهند القديمة كانت تقول أصلاً بالوحيد فى الغالب (اليرونى : ذكر ما للهند من مقولة . . . ص ١٣) وإن لم يبدو عندها بالمظهر الراشخ المؤكد عند المسلمين ، حتى انحرف بها سدتها من بعد ذلك فباعدوا ما بينها وبين مبادئها الأولى.

ملحق بالكتاب عن :

الترك والمغول

سلاطين الدولة المغولية، الذين حكموا الهند قرابة قرون ثلاثة. فشهدت هذه البلاد على عهدهم أعظم نهضة وحضارة عرفتها في تاريخها ، تمتزج في عروقهم دماء الترك والمغول . فأبوهم ظهير الدين محمد بابر ، فاتح الهندستان ومؤسس هذه الدولة ، ينتمي نسبُه من ناحية أبيه إلى الخاقان التركي تيمورلنك ويمتد عرقه من ناحية أمه إلى خان المغول الأعظم چنكيز .

والمغول والترك كلاهما قد سبق إلى غزو شبه القارة الهندية ، وكان لهما شأن خطير ودور هام في تاريخ آسيا الوسطى بعامة ، وبلاد الشرق الإسلامي بخاصة ، مما يقتضى أن نتحدث عنهم وعن تاريخهم في قدر من الإجمال .

فكم من مَدين إسلامية زاهرة انتهت برابرة الترك والمغول ثم دمروها ، وكم من حصون وقلاع أفنوا حامياتها ذبحاً ، ثم لم يتركوها حتى سوّوا أبنيتها بالأرض ، وكم من ألوف كثيرة من السكان المسلمين نهبوا متاعهم ثم ساقوهم في الغالب إلى حتوفهم ، وناهيك بالعدد الوفير من أصحاب الجيرف الذين

كانوا يسوقونهم معهم من بعد ذلك للعمل عندهم .
على أن هؤلاء المخربين ، حين دخلوا في دين الله أفواجا وتمكن
تصالحهم بالحضارة والثقافة الإسلامية ، ما غدوا أن انقلبوا في
الغالب إلى حُماة للعلوم والفنون والآداب ، وإن لم يتخلوا أبداً
عن ميلهم إلى سفك الدماء وإعمال السلب والنهب . فكنت تراهم
في الغالب يكسسون هامات ضحاياهم على هيئة المنائر والأهرامات
ثم ينصرفون من بعد ذلك إلى تعمير المنشآت النافعة الكثيرة .
ويزيدون المال والتشجيع للعلماء والأدباء وأرباب الفنون ، حتى
كان منهم من شارك أهل المعرفة نشاطهم ودروسهم ، لتشهد من
بعد ذلك على أيديهم جملة من المدن ، التي خربها أجدادهم من قبل ،
نهضة ثقافية وحضارية فذة ^(١) .

إن سلسلة الجبال الآسيوية الرئيسية العظمى التي تمتد من
الصين شرقاً إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط غرباً ، والتي
تبلغ غايتها من الإرتفاع في منطقة التبت ، وبجبال الهملايا التي
تُعرف بسقف الدنيا على وجه التحديد ، هي في تشعبها
وتفرعاتها : كانت تُعد بحق ، حاجزاً بين الشعوب

المتحضرة والقبائل التي لا تزال بأسيا على البداوة في الغالب . فما من شعب سكن إلى الجنوب من هذه الجبال إلا وكان له في التاريخ دور هام وفي الحضارة والثقافة نتاج قوى وسهم كبير . ولدينا في الهند القديمة وعلومها وفلسفتها ، وفارس وما كان لها من ملك عتيق وماض تليد ، ما يؤيد هذه الدعوى ويقوم دليلاً عليها .

وفي حين كانت الأراضي الواقعة إلى الجنوب من سلسلة الجبال الآسيوية تعج بالمدن الكبيرة والوديان الخصبة ، كانت المناطق الواقعة إلى ما وراءها شمالاً - باستثناء الصين وبلاد ما وراء النهر وماحول نهري سيحون وجيحون - ما تزال تتجول في أغلب مناطقها بمجموعات عديدة من قبائل البدو ، ثروتها قطاعان الانعام ، ومدنها وديارها صفوف من الخيام ، ودستورها العرف القبلي البدائي المتوارث .

وعرفت هذه المناطق الشمالية عند القدماء باسم بلاد السيث ثم أطلق عليها أهل الصين من بعد ذلك اسم بلاد التتار . وظل لفظ التتار يُطلق على كافة القبائل التي تجاور الصين وتقطع الأقاليم الممتدة في أواسط آسيا إلى الجنوب الشرقي من أوربا حتى ظهور چنگيز خان في القرن الثاني عشر

الميلادى (١) . وبرغم اشتهاى أمر المغول من بعد چنگيز خان ، فقد ظل صيت التتار القديم غالباً ، وصار اسمهم سارياً على المغول أنفسهم فى بعض بلاد أواسط آسيا وفى سوريا ومصر (٢) .

هذا ؛ وقد شاك كثير من المؤرخين سكان هذه المناطق الشمالية فى عروق ثلاثة هى : العرق المنشورى أو المنغورى أو المنشوى ، ثم العرق المنغولى أو المغولى (٣) ، ثم العرق التركى .

أما المنشورىون فهم أغاب سكان الصين ، وإلى الغرب منهم منازل المغول ، ثم مواطن الأتراك الذين يحاورون الصينيين فى بعض المناطق .

١ — التار عند الصينيين هم الفرباء والشعوب البعيدة والنور من الجماعات غير المتمدينة والاصوص . أنظر : هارولد لامب : جنكيز خان ص ٢٤ .

ثم المقدمة الإنجليزية لترجمة تاريخ رشيدى لكانها H . Elias p 83

٢ — تاريخ الكامل لابن الأثير مجلد ١٢ — المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء . م ٣ ، ٤

هذا وأهل تعريف المغول بالتتار ، وقد كانوا فى مبدئ أمرهم على بداءة وتأخر تام ، إنما هو من إطلاق التجار المسلمين قلا عن جيرانهم من الصينيين والأتراك .

٣ — تقصد بالعرق هنا الجنس . هذا ؛ والتسمية الصحيحة الواجبة هى منغول لا مغول ، والفاظ الأخير هو خطأ مشهور شائع .

وإلى الجنسين الآخرين ينتمى سلاطين الدولة المغولية وكثير
من القادة والجند الذين دخلوا معهم الهند واستقروا بها .

منازل التُّرك :

جاء إسم التُّرك صراحة ، أول مرة ، فى نقوش أورخون التى
اكتشفها الآثريون فى منتصف القرن الماضى ، والتى يرجع تاريخها
إلى القرن الثامن الميلادى . وتذكر هذه النقوش أن سلطان الأتراك
كان فى القرن السادس الميلادى يمتد بين حدود الصين وحدود إيران
وبينظمة ، وكانت قبائلهم تنتشر فى هذه المنطقة كلها ^(١) .

وأدى اختلاط الأتراك بجيرانهم من أمم العالم القديم
العريقة فى المدنية إلى وصول قدر غير قليل من حضارات هذه الأمم
إليهم ، وناهيك بما أتاحه هذا الجوار من تسجيل للكثير
من رسوم الترك ووقائعهم التى أغفلت الصين جارتهم الأولى
ذكر أغلبها ، فلم يكن حديثها عنهم ليعدو ذكر قبائلهم .

ومما ترويه أخبار الصينيين القدماء أن قبائل « هونج نو »
كانت تجاور بلادهم قبل ميلاد المسيح بعدة قرون . حتى إذا

١ -- ويؤكد الأستاذ بارتولد كذلك أن هؤلاء الأتراك هم أحفاد الهون .
Barthold-Donskies : Hist. des Turcs d'Asie centrale .
pp 6,16

ما أشتد خطرهما وتفاقم عداؤهما ، عمدت أسرة تسن' الحاكمة إلى بناء سور الصين العظيم لحماية بلادهم منهم ، فلولوا وجوههم من بعد ذلك صوب الغرب ونزلوا في ولاية كانسوه إلى جوارتل على هيئة الخوذة ، وهى « دوركاي » بالصينية ، ندسبوا إليها (١) .

وتم لهذه القبائل التركية فى القرن الثانى قبل الميلاد، السيطرة على مناطق متسعة الأرجاء فى أواسط آسيا (٢) ، فكان الأويغور ينتشرون فيما بين نهري تانو والنهر الأصفر ، وتيان شان والتاريم ، كما كانت مضارب القرغيز فى منطقة بنى سى، ومنازل القزراق والتوكوى فى التاي ، والياقوت عند الجنوب من سيبيريا ، فى حين انتشرت قبائل تركية أخرى حول بحيرة بيكال وبحيرة بلكاشر وعند سيحون وجيجون حتى بحر الخزر .

ومناطق الأتراك هذه، فضلا عن ترامى رقعتها، كان يتخللها

١ — هذه التسمية التى أوردتها باركر (Engl. Hist Rev. 1898)
431-4٥٦ p) يجب أن تقابل بالحذر هى وما جاء من أشارات لترك عند
غيرودوت ، وما ذكره الأستاذ بلوشيه من اشتقاق اسمهم من كلمة تورء الواردة
فى الأبناق القديمة JRAS 1915 p 305-8

٢ — Czaplicka, M. The Turks of Central Asia P 61 .

محراوات كثيرة متشعبة ، حتى لتبدو المناطق الزراعية بها أشبه بالواحات في مواقعها ، مما أحال استمرار قيام دولة معمرة بها تعتمد على الزراعة ويتيسر لها في نفس الوقت إحكام الرقابة على قبائل البدو التي ظلت أبداً مصدر تهديد دائم لآى أرض تُزرع أو مدن تقوم في هذه النواحي .

ويُستثنى من هذا التعميم بلاد ما وراء النهر التي تُعرف أيضاً باسم بخارى الكبرى . فهي برغم وقوعها إلى الشمال من سلسلة الجبال الآسيوية ، قد يَسَّرت لها طبيعة أرضها ، وما بها من مجار للياه عديدة ، مقومات الحضـر ، فازدهرت في الغالب ما أفلح حكامُها في ضبط أمورها ورد غائلة كل عدوان خارجي عنها .

وعن طريق هذه البلاد ، التي تُعد باب آسيا الوسطى والجنوبية . نفذ الأتراك والمغول إلى العالم المتحضّر وأفلحوا في إحداث تغييرات كثيرة خطيرة به .

وقبائل « هونج نو » ، هذه التي تشتهر أيضاً باسم الهون ، ندفت موجاتها مرات عدة على بلاد ما وراء النهر وفارس والهند ، كما عبرت الفولجا إلى الدانوب ، واكتسحت ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وأنزلت ، بقيادة أتيلـا ، هزات

عنيقة بأوروبا كما هو معروف مشهور^(١) .

ونتج عن اختلاط هؤلاء الأتراك بالفرس ، جيرانهم بأواسط آسيا ، أن نفذت إليهم ثقافة الساسانيين وحضارتهم ، وهم الذين كانوا يسيطرون على كافة مسالك التجارة ودروبها في العالم القديم .

وبزغ نجم الأويغور من بين الأتراك في القرن الثامن الميلادي ، فحكموا في أواسط آسيا ومنغوليا الحالية مكان الترك أوغوز والغزّ ، الذين اضطروا بدورهم إلى النزوح غربا ، ليتألق نجمهم في القرن الرابع الهجري الموافق للحادي عشر الميلادي ، فيشمل نفوذهم من بعد ذلك بلاد التركستان وقشغر ، ويرثون جزءاً من مُلك السامانيين ببلاد ماوراء النهر ، ويُعرفون في التاريخ باسم القره خانيين ، وكانت عاصمتهم أرقند إلى الشرق من فرغانه .

وإلى جانب هؤلاء كانت منازل القبچاق الترك تمتد حتى الفولجا ، وقد نشأت بينهم وبين بلاد خوارزم الإسلامية علاقات قوية . وغزا القرغيز عام ٨٤٠ م منازل الأويغور الذي آثروا

١ — يرجع بعض المؤرخين أن الهون لم يكونوا في زحفهم أثرا كما خلاصاً إذ كان معهم

كثير من المنول Degiugnes. Hist. Gen. des Huns Vol I p 212

واعل المؤلف يقيس في هذا على ما كان في جيوش جنكيز وأبنائه من الأتراك .

الهجرة إلى حوض التاريم والواحات القريبة منه على معاشرة هؤلاء الذين كانوا على درجة كبيرة من التأخر ، وطفقوا هناك يمارسون التجارة والزراعة ^(١) .

وانتجى القره ختاي ، وهم مغول في الغالب ، صوب الغرب بدورهم ، بعد أن طردتهم أسرة كين الصينية في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي من منازلهم بالصين الشمالية و صحراء جوبي ، فأقبحموا منغوليا على القرغيز ، ودخلوا إقليم خطان وهزموا خان قشغر القره خاني والساطان سنجر السلاجوقي ، وصالحوا أتسز شاه خوارزم على جزية قدرها ثلاثون ألف درهم يؤديها اليهم في كل عام ^(٢) ، وبلغوا بالغ بعد أن بسطوا سلطانهم على التركستان وبلاد ما وراء النهر كلها .

واثن أدى زحف القره ختاي إلى فتح أبواب منغوليا للهجرات من المغول ، فقد لبثت القبائل التركية ، وغالبيتها من الأويغور والغز و بطونهما ، هي صاحبة النفوذ فيما بين منغوليا وبحر الخزر ، والأويغور هم أغلب الأتراك الذين وجددهم الغزاة

١ — Grousset, R. L'Empire Mongol. p 11

٢ — جرى القره ختاي أو الكورخانيون في تقدير الجزية وفق النظم الصينية .
فترضوا على كل بناء دينار واحد . Barthold-Donskies p 98

المسلمون من العرب يبلاد ماوراء النهر حين دخلوها أواخر القرن الأول الهجرى .

حضارة الترك وإسلامهم :

تجمع كافة المصادر على أن الأويغور كانوا أرقى قبائل الترك قاطبة . وقد اجتمعت لهم مقومات الدولة بعد أن ارتقت الزراعة عندهم واتسعت رقعتها ؛ واستقرت حياتهم في كثير من المدن التي أقاموها ، حتى بعثوا بسفرائهم إلى خارج بلادهم وعقدوا المعاهدات مع غيرهم من الدول . وبلغ ارتقاء الوعي القومى عندهم إلى أن ثاروا على بعض حكامهم لإمعانهم في تقاليد الصينيين أعدائهم .

وآثر هؤلاء الأويغور في الغالب حضارة الصغد على حضارة الصين ، فاتخذ ملوكهم لأنفسهم لقب « شاد » مقابل لقب « شاه » الفارسي ، وأستخدموا أبجدية تُرَد إلى أصول صُغدية ، فكانت بذلك تتلاقى مع الأبجدية الفارسية الساسانية في النسب ، وكتبوا بها قبل تدوين نقوش أورخون بزمان طويل (١) .

وانتشرت الكتابة الأويغورية بين شعوب آسيا الوسطى

انتشاراً واسعاً (١) بعد سقوط دولتهم (٢) ؛ إذ لبثوا ، برغم أفول نجمهم السياسى ، كدولة ، يلعبون ، كأفراد ، دوراً سياسياً وثقافياً كبيراً عند دول الترك والمغول . فقاموا على تنشئة أولاد چنگيز خان واضطلعوا بالعمل فى دواوينهم ، وأرخوا لهم كما أرخوا لتيغور لنگك من بعد .

واستخدم خوانين فارس من المغول ، الأويغورية . فى تراسلهم مع بعض أمراء أوروبا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فكتبوا بها إلى باباروما وفيليب ملك فرنسا وإدوارد ملك إنجلترا لغرض قيام حلف بينهم لحرب المماليك المصريين (٣) .

وما تزال بدار الكتب الأهلية بمدينة فيينا نماذج من هذه الكتابة ، كما كان بحاضرة الأتراك العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى من هم على دراية تامة بهذه اللغة التى تُعد الأساس الذى قامت عليه

١ — فى بلاد الأويغور هذه عرف العرب المسلمون ورق الكتابة لأول مرة ، ليطالعوا العالم القديم عليه بدورهم من بعد ذلك . وكانت الصينيون كذلك يستعملونه منذ زمن طويل .

Grousset. R. Hist de l'extreme Orient. T11 p 407 — ٢

Czaplicka p z7 — ٣

الجغتائية لغة الترك التقليدية (١) .

هذا ؛ وكانت الديانات السائدة في الأوساط التركية ، قبل اعتناقهم الإسلام ، هي الشامانية التي تقضى بعبادة الأسلاف وتعترف بالإله العظيم ، ولكنهم لا تؤدي له الصلوات ، وإنما تقوم بها الآلهة الشريرة اتقاءً لخطرها ، ثم البوذية الهندية والزرادشتية الفارسية التي كان لها نفوذ راجح ببلاد الصغد في الغالب .

وجاور المسلمون قبائل الترك ببلاد أواسط آسيا ابتداء من أواخر القرن الأول الهجري ، وكان الإسلام قد اكتسح مراکز الزرادشتية ببلاد فارس

وطفقت قوافل التجار المسلمين تتوغل في مسالك آسيا الوسطى حتى بلغت الصين شرقاً وحوض الفولجا غرباً ، فكان هؤلاء التجار من أنشط الوسطاء في نشر تعاليم الدين الإسلامي .

وغنى عن البيان أن المسلمين لم يلبجأوا عموماً إلى العنف لحمل الناس على الدخول في ملتهم ، كما كانوا يكفلون لغيرهم في الغالب ممارسة عقائدهم في حرية تامة كذلك ، حتى رأينا

١ — تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ١٠٠ ، ١٠١ — ولا تزال هذه اللغة

هامة كذلك في التركستان الروسية .

المعتصم العباسي يتشدد في عقاب بعض المسلمين الذين اعتدوا على بعض معايد للفرس ببلاد الصغد (١) .

وإثن غدا الإسلام ينتشر ببلاد ما وراء النهر منذ أيام قتيبة ابن مسلم أواخر القرن الأول الهجري ، فإن إسلام الترك الجماعي لم يبدأ في صورة واضحة إلا أيام السامانيين في القرن الرابع الهجري ، فأسلم خان قشغر ، ساتوك بغراخان أمير القره خانيين ، وتسمى باسم هرون بن سليمان ، ودخل معه في دين الله أهل بلاده (٢) وفريق كبير من سكان التركستان الشرقية وإقليم خُطان .

كذلك اعتنق السلاجقة - وهم من عُز الخزر - الإسلام في القرن الرابع الهجري . وكانوا يُشتهرون بتمسكهم الشديد بتعاليمهم وحبهم على نصرة أهل السنة . وقد شمل سلطانهم بلاد ما وراء النهر وفارس والقوقاز ، ونفذت عروق منهم ومن جيرانهم إلى آسيا الصغرى فقصوا على الدولة البيزنطية الشرقية بها (٣) .

١ — تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ٨٦

٢ — تاريخ رشيدى ص ٢٨٦

٣ — الأتراك . العثمانيون هم كذلك من الفز «الأوغوز» ، والتتغز هم أيضا من الفز «توقوز أوغوز» قبائل الفزالتس . هذا وتخلط بعض المصادر العربية بين الأوبنور والأوغوز وتعتبرهم قبيلة واحدة ، وإن كانوا جميعا من الترك .

ومهد انتشار الإسلام حتى الفولجا وتكاثر جوع الأتراك عند بحر آرال وما حوله ، لقيام الدولة الخوارزمية التي صار لها شأن كبير في القرنين الخامس والسادس الهجرى . وروج من أحوالها أن بلادها كانت من أبواب التجارة المهمة التي تصل ما بين أواسط آسيا والأقاليم الإسلامية المتحضرة . وكان الخوارزميون يعتقدون آمالاً كثيرة لمد نفوذهم حتى حدود الصين ، ومعهم حلفاؤهم من القبچاق الذين أسلموا على أيديهم بدورهم في القرن الخامس الهجرى ، لولا ظهور چنگيزخان

ونفذت الثقافة الإسلامية إلى الشعوب التركية بأواسط آسيا ، على أيدي شيوخ الفرس المسلمين في الغالب ، فنقلوا عنهم كثيراً من الألفاظ والمصطلحات العربية والفارسية إلى لغتهم . وما غدوا أن شغفوا بالآداب الفارسية شغفاً كبيراً حتى ازدحمت قصور حكامهم بشعرائها وكتّابها ، وكادت العربية لا تجد لها سوقاً رائجة إلاّ عند بعض المشتغلين بعلوم القرآن والسنة .

المغول في مواظنهم :

فما كانت العناصر التركية توثق من علاقتها

وصلاتهم — بالعالم الإسلامى لتبلغ من بعد ذلك بنفوذها وسطوتها إلى إقامة دول قوية لها امتسعة الرقعة عظيمة الثراء ، كانت قبائل المغول ، عند كريولين وخنيجان وفي مناطق الأنون وتولا بمابلي أطراف الصين غربا ، تعيش عيشة بدائية صرفة ، فى مجموعات من الخيام الحقيبة المتناثرة بين السهول والغابات ، لا يدري العالم المتحضر من أمرها شيئا مذكوراً حتى ظهور چنكيز خان فى القرن الثالث عشر الميلادى .

ولم تهتم الصين ، جارتهم الكبرى نفسها ، بأمر هذه القبائل التى كانت تعرفها باسم منغ وا / ومنغكوتاتا ، حتى رأى أحد أباطرة أسرة كين ، التى كانت تحكم بالصين الشمالية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، أن يستعين بهم وبالقره ختاي فى القضاء على بعض أعدائه من القبائل التى كانت تنزل حول بحيرة بوير نور .

وعلا شأن قتي من المغول يدعى تيموجين فى هذه المعارك وذاع صيته حتى اختارته قبيلته خاناً عليها ، فلقب بچنكيز ، وأحيا اسم المغول من جديد بأن أعلن نفسه خليفة للبطل المغولى الأسطورى قتلى خان الذى كان يُمسك بالرجل فيشطره شطرين كما يُكسر عود من نصب ، والذى كان يبيت فى العراء .

صيف شتاء، لا يابيه بالزَّمهرير ولا يخشى الثلوج، حتى كانت لفحات
اللهب لا تعدو عنده لسع بعوضة (١) .

واعتر خلفاء چنگيز ورهطه بهذه التسمية ، التي كانت في
أول أمرها من صنع جيرانهم (٢) حتى رأينا رجال البلاط ،
المغولي يحذرون الرحالة الأوروبي جون ريبرك ، حين زار بلادهم في
منتصف القرن الثالث عشر، من أن يتحدث عن أميرهم حفيد الخان
الاكبر بأنه تتسرى؛ بل عليه أن يذكره بوصفه ملك المغول .
ولم تمض سنوات قليلة على بدء القرن الثالث عشر الميلادي

Howorth, H. History of the Mongols 1 p 44 — ١

Barthold, W. Turkestan p 382. — ٢

٣ — برغم التفات فريق من كتاب الفرس إلى التفرقة بين المغول والأتراك —
حتى قبل ظهور دراسات الأجناس — فوصفوا الأولين بالقبيح وتفنوا بحمال الآخرين ،
فقد اختلط الأمر على بعض من المؤرخين المسلمين بفعل الجوار في البيئة فعدوهم عرفا
واحداً . وساعد على هذا الخطأ ، أن المسلمين الأوائل كانوا يطلقون اسم بلاد
الترك على كافة المناطق التي تقع بين آخر حدودهم ، عند بلاد ما وراء
النهر ، والصين .

وبرغم تقرير مؤرخي الأتراك المحدثين بالتفرقة بين العنصرين ، فإن دعاة
التورانية من العثمانيين في القرن العشرين كانوا يقولون بأن الأتراك والمغول جنس
واحد ينتمي إلى الأصل التوراني ، فيتنون عمدًا عن جنسيتهم ولا ينكرون من أعماله
شيئا ، فما خبره ودمره هو عندهم دون ما يتخلف عن الحروب الحديثة بكثير :
«تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامي م ١ ص ١٥٩»

حتى انطوت قبائل المغول، والأتراك، في صحراء جوبي، تحت راية الخان الجديد لیتجه بها من بعد ذلك إلى الصين فيقضى على أسرة سى هاى، فى إقليم كانسو، وأسرة كين، فى الصين الشمالية ويدخل بكين، ثم يستدير من هناك ليلخ منغوليا، فمکان أرسلان خان، أمير القرلق هناك أول حاكم مسلم يستسلم له.

وما غدا أن أقبل عليه فريق من زعماء الترك فى أواسط آسيا يخطبون ودّه، وفيهم نفر من القيقاق، حلفاء شاه خوارزم وأصحابه، ومعهم فريق من التجار المسلمين الذين عاونوا الخان المغولى، فيما بعد، على فتح كثير من البلاد الإسلامية وتنظيم شئونها. وحدث أن انتهب عامل شاه خوارزم على اترار بالتركستان قافلة قادمة من بلاد المغول وقتل رجالها، وكانوا جميعاً من المسلمين، ظناً منه أنهم من عيون الخان المغولى، لتنتطلق الحرب بذلك فيجتاح المغول^(١) بلاد ما وراء النهر كلها ويخربوا جرجان وبخارى وسمرقند أعظم مدنها تخريباً تاماً ويفنون

١ — كانت قوات المغول تضم جنوداً كثيراً من الترك. بل إن كثيراً من الأتراك ومن أسرى المسلمين وأغلب من عاشر المغول واختلط بهم، كانوا يدعون نسبتهن للمغول جراً للمغانم.

حامياتها بعد أن استسلمت إليهم بخداهم ، ثم يسو قوا الأهلين أمامهم قسراً ليكونوا لهم من سهام أعدائهم ذرة .

ولم يواف چنگيز خان أجله عام ١٢٢٧م حتى كان له : إلى جانب حوارزم وبلاد ما وراء النهر ، خراسان وأجزاء من بلاد فارس والهند ثم آذربيجان وأرض كبيرة في الجنوب الروسى ، لينطاق أبناؤه من بعده فيتوغلوا في كوريا والصين وإيران ، ويبلغ قوادهم القسرة الأوروبية فينفذوا فيها حتى البحر الأدرياتي وأبواب ثيناً ، ويفر من أمامهم ملوك بولنده والمجر ، وتقضى سهامهم على دوق روسيا ودوق سيليزيا وفرسانه التوتونيين .

ولولا أن اضطروا للعودة إلى بلادهم على أثر ما بلغهم من موت أوكتاي بن چنگيز خان المغول الأعظم في قراقورم ، ونشوب الفتن بالصين ، لأوقعوا بأوروبا من الخراب نظير ما أحلوه ببلاد الشرق الإسلامى التى صادقتهم ، إذ قضوا على قواتها العسكرية ودمروا أهم مراكز الثقافة بها . ولقد كادوا يأتون على تراث المسلمين الفسكرى كله . الذى قام على رعايته الخلفاء وزاد فى كنوزه الصفوة من العلماء جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن ، لولا أن تصدى لهم المصريون عند عين جالوت بفلسطين فيما

بعد ، فأنزلوا بهم أول هزيمة قاصمة عرفوها وردوهم على أعقابهم ^(١) .
وإذ كان توجي خان . الابن الأكبر لچنگيز ، قد مات في
حياة أبيه ، فقد خلفه ابنه باتوخان على البلاد التي كان يتولاها
عند سهول القبچاق والأقاليم الواقعة فيما بين بحري آرال والخزر ،
وعند وادي الدون والبحر الأسود ، هذا في حين عقد لأوكتاي ،
أصغر أبناء چنگيز ، زعامة المغول في قراقورم .

أما چغتاي ، ثاني الأبناء ، فقد صار له بلاد ما وراء النهر
وخوارزم وخراسان والتركستان ومغولستان . وهي مناطق
يتباين سكانها في أجناسهم ، من ترك ومغول وفرس وعرب ،
كما تتباين طبيعتها كذلك ، ففيها صحراوات واسعة جرداء
وبجوارها مراعي وسهول فسيحة خصبة نشأت بها مدن كثيرة
وقامت بها حضارات .

وكان چغتاي يُعد في حياة أبيه أقدر فقيه في الياسا ^(٢) . حتى منعه

١ — عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م — كان يقود المصريين سلطانهم المظفر
قطز . وعلق المؤرخ أبو الفدا على هذا الواقعة « م ٣ ص ٢٠٥ » فيقول « . . .
وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد
يئست من الصرة على التنازل لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا
إقليماً إلا فتحوه ولا عسكرياً إلا هزموه » .

٢ — أصلها دزاساق . فذكرها الفرس والعرب « باسم » ترخيا . وهي ==

قومه من المشاركة في الحروب بعد وفاة خاتمهم الأعظم . وبوصفه أكبر أبناء جنكيز ، الذين بقوا على قيد الحياة وأقدرهم : عهدوا إليه كذلك برأسه مجلس الأمراء المغولي لتثبيت أو كشتى أصغر أبناء جنكيز على مقام أبيه وزعامته في قراقورم .

واتخذ الأمير چغتاي من المائى فى الوادى الأعلى لنهر إالى قصة لما سكه دون بخارى أو سمرقند أعظم مدائن بلاده ، إذ كان حولها تنزل قبائله وعشائره التى كان يعتمد عليها فى حروبه ؛ وكان رجالها بدورهم يفضلون حياة السهول والوديان الفسيحة على سكنى المدن ومخالطة أهلها الذين كانوا يرون فيهم وفى أهل الزراعة أجناسا منحلّة وعبيداً للأرض .

وأطلق اسم هذا الأمير ، دون أبناء جنكيز جميعا ، على بلاده وعلى أهلها ، فعُرفت هذه المناطق جميعها باسم بلاد چغتاي ، وعُرف الأتراك فيها بخاصة ، وكانوا غالبية كبيرة بها ، باسم الأتراك الچغتائيين .

== دستور المنول الذى دونه له الایفور أصحاب ديوانه . وهى منبج من القوانين للموضوعة على إرادة جنكيز وأنقع العادات القبلية ؛ ومما تدعو إليه : الاعتقاد بالله واحد والطاعة التامة للغان الأعظم :

تاريخ جهان كشا لعلامك الجوينى ص ٧٧ وما بعدها .

وبرغم بقاء چغتاي على دين آبائه وكراهية قومه عموما للمسلمين ، فقد اتخذ منهم وزراء ومستشارين ، وبُنيت في عهده جملة من المدارس والمساجد ببلاد ما وراء النهر وغيرها كذلك ^(١) .

ووافت چغتاي وأخاه أوغتاي المنيّة عام ١٢٤١ م وابن أخيهما ، باتوخان ، يتوغل إذ ذاك في أوروبا مع نفر من أبنائهم ، ليتسع نطاق المذابح والفتن بين أمراء المغول من بعد ذلك ، ويظل أمرها متصلا حقبة من الزمن كانت بمثابة الهدنة للعالم الإسلامي وأوروبا ، حتى قبض على زمام الأمور هولاكو بن تولى خان فعاود السير بقافلة التخریب المغولية من جديد . فغبر بلاد ما وراء النهر إلى فارس حتى بلغ العراق ودمّر بغداد حاضرة الخلافة العباسية تدميراً ، وقتل الخليفة العباسي نفسه شر قتلة ، ولولا

١ — كانت المغول في الغالب على الشامانية والبوذية حتى اختلطوا بالتك وغيرهم من المسلمين في فتوحاتهم فأسلم فريق كبير منهم . وكان أول من أسلم من أمرائهم هو برکه خان حفيد باتو خان وزعيم القبيلة الذهبية وذلك في القرن السابع الهجري ، وتبعه أحمد تسكودري الإيلخاني حفيد هولاكو بفارس ، حتى جاء غازات خان وأخوه ألباتو محمد خدابنده فانخرطوا الإسلام ديناً رسمياً لدولتهما . أما الجفتائيون فلم يبدؤا إسلامهم الجماعي إلا في القرن الثامن الهجري .

توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام من ١٨٩٠ وما بعدها : بازنولد : تاريخ الحضارة الإسلامية . ص ٨٩ وما بعدها

عد المصريين له بأرض فلسطين ، كما هو معروف مشهور ، لقضى على تراث المسلمين كله وخرّبت ديارهم جميعا في الغالب . وبموت هولاكو بدأ نجم المغول في الأفول التام . وأتاحت الاضطرابات ، التي غدت تعم أملاكهم ، الفرصة لكثير من الأقاليم لتتسلخ عن سلطانهم .

وما لبث الأتراك ببلاد ما وراء النهر ، وكانوا غالبية كبيرة ، أن استعادوا كثيراً من نفوذهم القديم حتى غدا تنصيب أمراءهم من الچغتائيين يجرى على هواهم .

ولم يعد الأمراء المغول ، من بيت چغتاي ، من النفوذ والسلطان إلا في قشغر ويرقند و آلا طاغ ومغولستان ، وبقي خواندينهم يحكمون هناك حتى اقتحم الأوزبك أغلب منازلهم فيما بعد .

تيمورلنك وخلفاؤه :

كان ظهور تيمورلنك ببلاد ما وراء النهر في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري بداية تحول جديد في تاريخ آسيا الوسطى ، إذ انتقلت مقاليد الأمور هناك من أيدي المغول الچنكيزيين إلى أيدي الأتراك الچغتائيين ، حتى انتهى الحال بحفيد هذا الخان التركي ، ظهير الدين محمد بابر . إلى بسط سلطانه على الهندستان .

وقد والى أبناؤه من بعده فتوحاتهم هناك، على ما بيناه، حتى أظلمت رايتهم شبه القارة الهندية كلها.

ولقد وصل تيمور في شبابه بجده وذكائه وشجاعته إلى أن استوزره الأمير الجغتائي إلياس بن تغلق تيمور صاحب سمرقند إذ ذاك، فما غدا الوزير أن انقلب على أميره، حتى اتخذ مكانه على عرش سمرقند عام ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م، بعد أن استولى على بلخ ونشر سلطانه على القسم الغربي من بلاد جغتاي، وإن ترك لأمراء المغول به بعض امتيازاتهم وحفظ عليهم مراسم الأمانة (١).

وتملكته شهوة الفتوح، فضم إلى مملكته مغولستان وخوارزم، كما اقتحم حدود الهند فبلغ دهلي التي استعصت على المغول من قبل، فلم يرجع عنها حتى دمّرها وساق معه كثيراً من أهلها أسارى، وفيهم خير أصحاب الحرف والمهن ليقيموا له منشآت به بلاده.

كذلك استولى على فارس ثم نفذ من العراق إلى بلاد السكرج والشام، ولم يرجع عن آسيا الصغرى حتى أوقع في أسره بايزيد

١ — ما تذكره بعض المراجع من نسبة تيمور إلى المنول هو من وضع بعض كتاب اللاينور الذين ذعبوا إلى حد جمع أسلاف جنكيز وتيمور عند جد معين، أرادوا بذلك أن ينفخوا على تيمور عراقة النسب تقرباً منه وتعلقاً.

سلطان العثمانيين (١). وإن هي إلا بضعة سنين من بعد ذلك حتى كانت بنوده تخفق فيما بين موسكو والكنج .

هذا ؛ وكان تيمور ، على جهله بالقراءة والكتابة ، حفيواً وأولاده بأهل العلم وأصحاب الآداب والمعارف ، حتى بلغت عاصمتهم سمرقند مركزاً فذاً بين مراكز الثقافة الإسلامية .

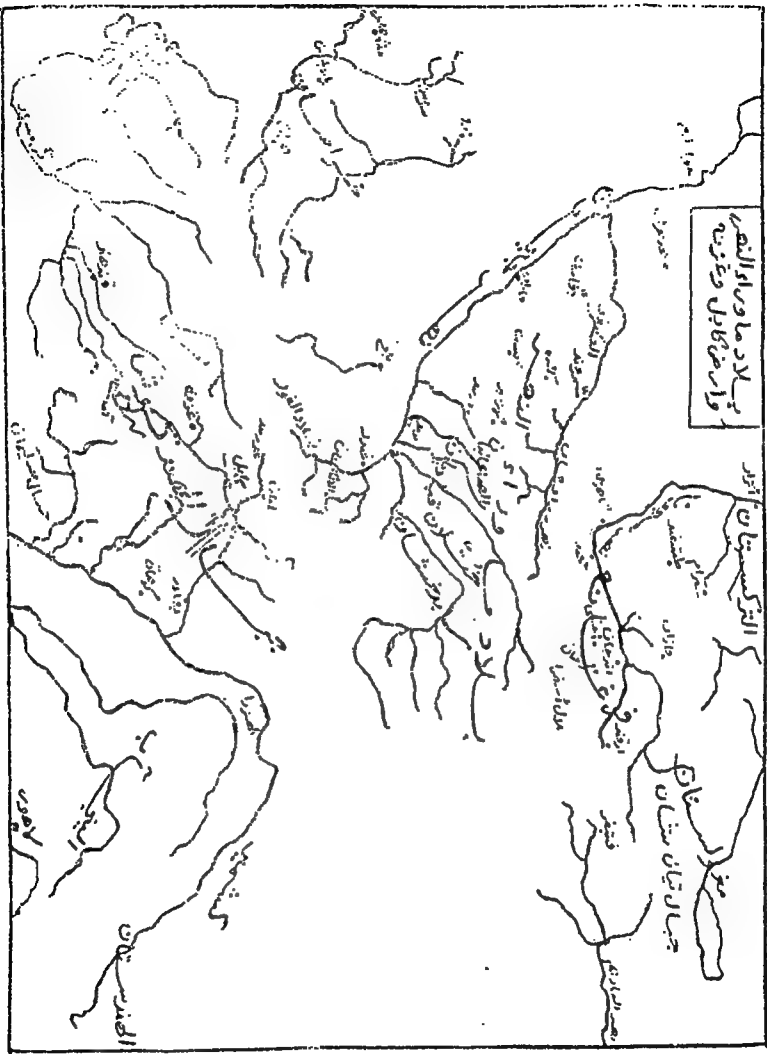
وما غدت هــ المدينة ، التي تأتق الخاقان التركي في تجميهاها بمشآته الكثيرة الفخمة ، والتي شق إليها طرقاً برية جديدة تصلها بفارس والهند ، أن انقلبت إلى سوق للتجارة هامة ومركز من أهم مراكز الاتصال بين الصين وبلاد آسيا الوسطى وإيران وآسيا الصغرى ، تعرض بها صنوف السلع وتبع بمختلف الأجناس .

ومات تيمور عام ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م في إحدى حرابه مع جيوش الصين عند اترار ، فاقسم ملكه من بعده ولده جلال الدين شاهرخ ومعين الدين ميرانشاه . حتى إذا ما قتل الأوزبك (٢) ثانياً الأميرين التيموريين واستولوا على أجزاء من بلاده : طفق

١ — تذكر بعض الكتب الحديثة أن تيمور قد حمل غريمه في قفص ، وهو خطأ تاريخي نتج عن سوء فهم بعض الكتاب لدلول هذا اللفظ في التركية ، فهو يطلق أيضاً على المواجه والأكشاك التي لها نوافذ تتغلها أسياج من حديد .

Hammer : Hist de l'Empire Ottoman T. 11 p 96-121

٢ — الأوزبك نسبة إلى أوزبك خان حفيد جنكيز من فرع توشي خان .



الأول يصطنع الحيلة معهم حتى أبعد خطرهم عنه ، ليعيد أغلب بلاد أبيه إلى حظيرته من جديد فيما عدا الشام وجنوب فارس (١). وخلف ألغ بك أباه شاهرخ عام ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م ، فدخل في منازعات وحروب متواصلة مع أهل بيته من الأمراء ، ولم يقف الأمر عند ضياع الكثير من أراضيه حتى قضى عليه ابنه عبد اللطيف ميرزا بنفسه ليُقتل هو بدوره بعد قليل .

ولئن خبت عند ألغ بك ملكته الحربية فقد تلالاً عنده نور المعرفة ، حتى هدته بصيرته إلى أن يقيم مدرسته الجامعتين ، في سمرقند وبخارى ، التي كتب على أبوابها ، طالب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة (٢) ،

وأدى اشتغال هذا الأمير بالعلم وشغفه به إلى أن وفد إليه كثير من علماء فارس وطلبته ، فكان يشاركهم في الدرس بنفسه ويدرس معهم حركات الكواكب في مرصده الكبير الذي أقامه بسمرقند . وقد نُظمت باسمه جداول للهيئة كانت آخر كلمة لها — ذا العلم في وقته .

١ — تاريخ عموي لإيران لعباس إقبال ص ٢٣٢ — ٢٤١ .

٢ — ١ — تاريخ الحضارة الإسلامية ١٠٨ — ١٠٩ .

ب . — ٣ . p 181 - Barthold-Donskies .

وبرغم اعتزاز هذا الأمير بتركته فقد كان شديد التعاق بكل ما يُرجى فيه رقى الإنسانية والفكر البشرى عامة .

وجلس على عرش سمرقند من بعده الأمير التيمورى أبوسعيد ميرزا ، بعون من الأوزبك ، ليقيم له من بعد ذلك ملكا واسعا ضم أجزاء من السند وخراسان وسيستان وامتد إلى العراق . حتى إذا ما هزم التركان فافتحم أذربيجان . لينحدر منها إلى العراق ، استطاع أوزون حسن زعيم التركان أن يتسلل إلى جبال أذربيجان فيقطع عنه الإمدادات ، لتنفشى المجاعة فى الجيش من بعد ذلك وينفرط عقد الجند وينتهى الأمر بالسلطان أبى سعيد نفسه إلى الوقوع فى الأسر ، ثم القتل .

وترك أبوسعيد عشرة من الأولاد ، ولكن لم يخلفه فى ملكه الواسع ، الذى كان يمتد من العراق إلى السند ، سوى أربعة منهم . فولى أحمد ميرزا إقليم سمرقند وبخارى ، وولى ألغ بك إقليم كابل وغزنه ، وولى محمود ميرزا استراباد وهرات ، ليختصبهما منه ابن عمه السلطان حسين بيقرا . فيستقر من بعد ذلك فى الصاغانيان وبدخشان (١) .

أما رابع هؤلاء الأربعة فهو عمر شيخ ميرزا الذى ولى إمارة

فرغانه ، فأدى به طموحه إلى أن يدخل مع جيرانه من المغول
أُصهاره والأتراك إخوته ، في حروب متواصلة ابتغاء توسيع رقعة
ملكه ، ليمضى عام ٨٩٩ هـ ، على أثر سقوطه من أعلى حصن له ،
فيحمل عبيء خصوصاته من بعده ابنه الصبي ظهير الدين
محمد بابر الذى قُبض له أن يقيم أعظم دولة عرفتها شبه القارة الهندية
في تاريخها .

البيئة في بلاد ما وراء النهر .

في بلاد ما وراء النهر ورث ظهير الدين محمد بابر الملك عن
آبائه صيبا وقضى بها سنين غير قصيرة في كفاح متواصل قبل
أن يولى وجهه قبَل المشرق : لينتهى به المطاف والسعى من بعد
ذلك إلى إرساء أسس الدولة المغولية في الهند .

وعن طريق هذا الاقليم ، أغنى أرض سيحون وجيحون ،
نفس الأتراك والمغول إلى بلاد العالم الإسلامى ليغيثوا وجه
التاريخ بها فى الغالب .

توسط جبال أسفرا ، المتفرعة من السلسلة الآسيوية
العظمى ، هذا الإقليم فيقع إلى الجنوب منها وادى جيحون وإلى
الشمال منها وادى سيحون

وأهم أقاليم جيحون الجنوبية هي بدخشان وبلخ وخوارزم .
وتتعدد بلخ أقدم هذه الأقاليم الثلاثة وأعرقها ، وتُعرف
عاصمتها ، التي تحمل اسم الاقليم كذلك ، عند مؤرخي العرب
باسم « أم البلاد » ، وبظاهرها كان يقوم معبد النوبهار الذي
اضطاع آل برمك بالخدمة فيه (١) .

هذا ؛ كما تشتهر خوارزم بقيام أسرة حاكمة قوية
لعبت دوراً مهماً في تاريخ هذه المنطقة في القرنين السادس
والسابع الهجري ، وهي الأسرة الخوارزمية .
أما بدخشان فهي مفتاح الطريق إلى الهند .

والقسم الشمالي من وادي جيحون جبلي في الغالب تكسوفته
الثلوج شهوراً عدة في السنة . وبه أقاليم خُتَلان وحِصار ، الذي
يعرف أيضاً باسم چغانيان أو الصاغانيان . ثم ولاية كش مسقط
رأس تيمور .

وإلى الشمال من كش وإلى الشرق من صحراء خوارزم يقع
وادي الصغد المعروف بخصب أراضيهِ ووفرة مغانيه . وتقوم
به المدينتان المشهورتان سمرقند وبخارى .

وسمرقند هي التي اتخذ منها تيمور وأولاده حاضرة

لملكهم ، وبها عرف المسلمون صناعة الورق لأول مرة . أما بخارى فقد اتخذها السامانيون قاعدة لهم ، وبني بها مُسلم بن قُتيبة ، من قبل ، أول مسجد بالمنطقة كلها .

وتُعد المدينتان من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في القديم على كل حال .

والأقاليم التي تقع في حوض سيحون هي في أهميتها دون سابقتها بكثير .

وأهم هذه الأقاليم ولاية فرغانة التي تعرف أيضا باسم خُجند ، وإلى الشرق منها تقع قشغر ، كما تقع طشقند عند حدودها الشمالية الغربية ، في حين ينحصر إقليم أشروسنة بين فرغانة والصاغانيان .

هذا ؛ وكانت أرض التركستان تمتد إلى الشمال من فرغانة وطشقند فيما بين سيرام رافد سيحون وبحر آرال . وقد اتخذ منها الأوزبك ، أيام زعيمهم شيباني خان ، قاعدة لغاراتهم الكثيرة على جيرانهم .

وإذا ما نظرنا إلى وجه الأرض بإقليم بلاد ما وراء النهر ، وجدنا الحُصْب يتوفر في أغلب فرغانة وخوارزم وبلخ

وبدخشان وكش والصاغانيان (١). وفيما عدا ذلك فقد كان الجذب يغلب على أرضه .

لذلك كانت الحياة هناك في الغالب متنقلة من محطة حيث الجذب والصحراء ، مستقرة راقية حيث الخصب والتماء الذي يمد عادة لقيام المدن والدول .

وأول من سكن هذا الإقليم : فيما يرجح كثير من المؤرخين ، عناصر تركية من السيث والتورانيين الذين كانوا مصدر تهديد دائم لبلاد فارس (٢) . وظلت موجاتهم لا تنحسر عن هذه البلاد منذ غارات الهون على أواسط آسيا في القرون السابقة للميلاد حتى الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي

ولم يمنع وفود السيث والهون بلاد فارس من مدّ نفوذها في هذا الإقليم حتى اتخذ بعض ملوكها من مدينة بلخ قسبة لهم ، ونزح إليه كثير من الفرس فمارسوا الزراعة بوديانه الخسبة ، كما لاذ به جمهرة من سراتهم حين اقتحم العرب المسلمون بلادهم عليهم

١ — معجم البلدان لياقوت الحموي ص ٣٧٠ — ٣٧٢

٢ — مما يحتج به بعض الباحثين في ذلك هو شيوع لفظ « قند » في أسماء المدن هناك كسمرقند وأزقند وطشقند الخ ، وهو تركي قديم بمعنى مدينة .

Barthold. Turkestan pp 96,97.

في القرن الأول الهجري .

وما غدا العرب أن طووا أغلب هذه البلاد تحت رايتهم بعد قليل ، فإذا بفريق من أبنائها من فرس وترك يصيبوا بالدولة الإسلامية حظا وافرا فيبلغوا أرقى المناصب بها ^(١) .

ولم تكنف العناصر الفارسية الإسلامية ، حين عظم نفوذهم في الدولة الإسلامية ، بإقامة دول لهم شبه مستقلة في أجزاء من هذا الإقليم ، حتى راحت تعمل لإحياء تراث الفرس القديم والنهضة بالآداب الفارسية من جديد .

وكان السامانيون ، الذين عمرت دولتهم في القرنين الثالث والرابع الهجري ، هم أصحاب اليد الطولى في هذا الميدان ، ليأتي سلاطين الترك ، من بعدهم ، من الغزنويين والسلاجقة وغيرهم ، فيسيرون على نهجهم في العناية بالثقافة الفارسية ويزيدون عليه ^(٢) ، فلم يمس إلا قليل حتى استردت الفارسية مناطق انتشارها القديم ببلاد ما وراء النهر ، لتسرب من بعد ذلك إلى مجتمعات الهندستان كذلك

١ — كانت بلغ من أكثر الأقاليم القديمة مساهمة في بناء الحضارة الإسلامية ، ومنها خرج البرامكة ، وزراء العباسيين ، وكثير من العلماء الكبار . تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٣ .

وتبلغ بذلك كله إلى أن تصبح بحق ثانی لغات العالم الإسلامی — لامی انتشاراً بعد العربية .

وكان مما ساعد على رواج هذه اللغة بين العناصر التركية ببلاد ما وراء النهر ، تصدى شيوخ الفرس في الغراب لتلقين الترك تعاليم الدين الإسلامی ومبادئه ، فكانوا يلقونهم إياها بالعربية ويحبسون إليهم آدابهم الفارسية معها .

وطغى نفوذ الترك على سلطان الفرس بأغلب بلاد ما وراء النهر؛ حتى كان الأولون هم أصحاب السيادة الفعلية هناك قبيل مجيء المغول في الغالب .

واستقر قسم من القبائل المغولية الوافدة مع چنگيز خان ببلاد ما وراء النهر جنباً إلى جنب مع القبائل التركية التي كانت — خصوصاً في الشمال وأكثر الوسط — تمثل الغالبية الفعلية للسكان .

وكان من الطبيعي أن تتأثر القلة المغولية الحاكمة ، لبدواتها ، بالكثرة التركية المحكومة ، التي كانت تعيش في محيط الحضارة والمدنية الإسلامية وتتجاوب معها ^(١) ، فأخذت عنها لغتها وامتزجت بها ، ليزداد بذلك نفوذ الترك ويعظم شأنهم ويُدعَّع كيانهم السياسي .

وبهذا كان قيام دولة المغول أكثر أهمية في نظر الترك ،
ما هو في نظر المغول أنفسهم ؛ فلم يقف الأمر عند حد
تفوق الترك الثقافي حتى انتهى بهم المطاف إلى استيلائهم على مقاليد
الحكم في هذه البلاد وإخضاع غزاتهم لسلطانهم .

وساعد على انتشار اللغة التركية بين القبائل المختلفة التي
كانت تسكن بلاد چغتای ، خضوعها جميعا لحكومة واحدة .

وتسرب إلى هذه اللغة قدر غير قليل من الألفاظ
والمصطلحات العربية والفارسية ودرجت في مدارج الرقي ،
حتى إذا ما جاء القرن السابع الهجري رأينا التركية الچغتائية
تحتل المكان الثالث ، بعد العربية والفارسية ، بأواسط آسيا .
وما تزال هذه اللغة تُسمع إلى اليوم في المدن التي تقع في نطاق
چغتای القديمة .

هذا ؛ وتعد أيام الأمراء التيموريين ببلاد ماوراء النهر بمثابة
العصر الذهبي للأدب الچغتائي الذي تتمثل أحسن نماذجه في
أشعار علي شيرنوائى ومشورات ظهير الدين بابر حتى اتسعت الكتابة
التقليدية الأدبية للترك جميعا (١) .

كانت الحياة بهذه البلاد تميل في الغالب إلى الاستقرار وتنعم
بمظاهر الحضارة والمدنية ما خضع الاقليم كله لحاكم واحد قوى
يُسَـقِرُ الأمور فيه ويدفع أخطار الغزو عن حدوده .

على أن تيمورلنك . آخر أصحاب هذا الإقليم الكبار ، لم
يكـد يـمضى حتى غدت الفتن والاضطرابات تعم هذه الأرض
كلها ، لينتهى بها الأمر إلى تمزيقها إلى ولايات عديدة ، أصحابها
متقاتلون متعادون على الدوام ، برغم ما كان يربط بينهم من وشائج
القربى وروابط الدم ، ومن حولهم الأوزبك والمغول والتركان
يتربصون بهم الدوائر ولا ينفكون عن مهاجمتهم وتخطف
أراضيهم .

ونج عن تمزيق الاقليم إلى ولايات عدة وما يستتبع ذلك عادة من
ضآلة عدد السكان بالتالى ، أن غدت قوات كل أمير لا تعدو أن
تكون مجموعات من العصابات الإقطاعية التى تعتمد فى انتصاراتها
على عنصرى المفاجأة وسرعة الحركة ، فتوقع بعدها قبل أن يتمتع
فى حصونه .

وغالباً ما كانت الهدنة تُعقد بين الخصمين بنفس السرعة التى
اشتعلت بها نيران الحرب .

وفنون الحرب به — هذه البلاد كان معظمها بدائياً يقوم على

المبارزة بالسيوف والترشق بالسهم ، وتسلق الأسوار بسلام الجبال .

ولم يكن البارود والغمامه غريباً عليهم . فقد كانوا يستخدمونه أيام السلم في مناجم الياقوت ومواطن العقيق بيدخشان .
وبرغم استخدام بعض الأمراء لعدد قليل من بنادق العصر ذات الزناد وبعض المدافع ، التي عرفوها عن طريق الفرس نقلًا عن العثمانيين في الغالب ، فقد بقيت السيوف والسهم وهجمات الفرسان هي الفصيل في المعارك .

هذا ، ولم يغفل أحد من هؤلاء الأمراء ، حين كان يتاح له تجهيز جيش كبير ، عن إحياء تشكيلات تيمور الخربية وتقاليده العسكرية . في تقسيم الجيش إلى قلب وجناحين وإقامة فرقٍ للمناوشة بأقصى الجناحين .

أما التشريع الغالب عند هؤلاء الأمراء جميعاً فكان الفقه الإسلامي ، دون إغفال أمر العرف القبلي المتوارث وتقاليد الياسا المغولية .

وبرغم ما كان من اشتغال الأمراء التيموريين بنزاعهم والتحاماتهم المتواصلة في الحروب ، فما يسترعى الانتباه أنهم لم

يتخلوا أبدأ عن العناية بالآداب والعلوم والفنون والاشتغال بها ، فحرصوا دوما على الظهور بمظهر رعاة الثقافة والمدنية . وكان من أبرزهم في هذا الميدان وأعلام كعبا ، بعد أنغ بكك ، السلطان حسين يبقرا الذى جمع ببلاطه فى خراسان أساطين الفنون وشيوخ العلم والمعرفة فى عصره ، وبهذا الأمير خُتِمت صفحة كبار التيموريين ببلا دما وراء النهر بعد ما كان من إرغام الأوزبكك لبابر على الخروج من هذه الديار .

مكتبة البحث

مراجع فارسية :

- ١ -- إقبالنامه جهانگیری : لمعتمد خان . کلکتا ١٨٦٥ م
- ٢ -- أكبر نامه ، أو تاريخ أكبر شاه باتفصيل احوال پدرش همايون ، لأبي الفضل بن المبارك - مخطوط بدارالكتب المصرية برقم ٨ م تاريخ فارسی .
- ٣ -- انتخابات جهانگیری - غير معروف مؤلفه .
(مجموعة إلیوت ٦)
- ٤ -- آیین اکبری لأبي الفضل بن المبارك .
مخطوط بدارالكتب المصرية برقم ٥٠ تاريخ فارسی
- ٥ -- بارنامه (بالترکیة الجغتائية) - نشر السيدة
: م ت بريدج .
الترجمة الفارسية لعبد الرحيم خان خانان - نشرها
محمد شیرازی .
بمبای ١٣٠٨ هـ

- ۶ — پادشاهنامه - لعبد الحمید لاهوری . (مجموعه البوت ۷)
 ۷ — تاریخ احمدشاهی، غیر معروف مؤلفه (مجموعه البوت ۸)
 ۸ — تاریخ آلنی ، لاحمد داود . (مجموعه البوت ۵)
 ۹ — تاریخ جهانگشای ، لعلاء الدین عطا ملک الجوینی

۳۰ م - لیڈن ۱۹۱۱، ۱۹۱۶، ۱۹۳۷ .

- ۱۰ — تاریخ حبیب السیر فی أخبار أفراد البشر .
 تألیف غی - اث الدین بن همام الدین الحسینی
 المعروف بخواندمیر ۴۰ م . (طهران ۱۳۷۳ هـ)
 ۱۱ — تاریخ رشیدی ، لمیرزا محمد حیدر دوغلات .

الترجمة الإنجليزية لسیر دنيسون روس مع
 تعایقات له . لندن ۱۸۹۸ م

- ۱۲ — تاریخ سلاطین أفغانی لاحمد یادگر . (مجموعه البوت ۵)
 ۱۳ — تاریخ شیر شاه لعباس خان سروانی (د د ۴)
 ۱۴ — تاریخ عالمگیر ثان ، غیر معروف مؤلفه .

(د د ۸)

- ۱۵ — تاریخ عمومی ایران لعباس إقبال . طهران
 ۱۶ — تاریخ فرشته لمحمد قاسم هندوشاه ، جزءان فی مجلد.

لکنو ۱۳۲۳ هـ

- ۱۷ — تاریخ گجرات لشاہ اُبی تراب ولی . کلکتا ۱۰۹۹ م
- ۱۸ — تاریخ مظفری ، محمد علی خان . (مجموعۃ البوت ۸)
- ۱۹ — تاریخ ہندی ، لرستم علی . ()
- ۲۰ — تنمۃ واقعات ، جہانگیری محمد ہادی . ()
- ۲۱ — تذکرۃ آئندرام مخاٹ . ()
- ۲۲ — تذکرۃ الواقعات اُوہما یو تنامہ : لجوہر ()
- ۲۳ — تکملۃ اکبر نامہ ، لعناۃ اللہ . ()
- ۲۴ — ریاضُ السلاطین : اُو تاریخ بنغالۃ .
- تألیف غلام حسین سلیم . کلکتا ۱۸۹۰ ، ۱۸۹۸ .
- ۲۵ — سیرُ المتأخرین لغلام حسین خان . (مجموعۃ البوت ۸)
- ۲۶ — شائعہا تنامہ . لعناۃ اللہ . ()
- ۲۷ — طبقات اکبری ، لنظام الدین أحمد بخشی .
- ()
- ۲۸ ظہر نامہ ، لنظام الدین شامی . بیروت ۱۹۲۷
- ۲۹ — عالمگیری نامہ ، لمنشی محمد کاظم بن محمد امین .
- کلکتا ۱۶۶۸ م
- ۳۰ — عبر تنامہ . لمحمد قاسم . (مجموعۃ البوت ۷)

- ٣١ -- عمل صالح : لمحمد صالح لاهورى . كلكتا ١٩١٢ م
٣٢ -- فرحة الناظرين : لمحمد إسلام . (مجموعة اليوت ٨)
٣٣ -- مآثر الأمراء لشاه نواز خان - ٤ م . كلكتا ١٨٨٠ - ١٨٩٦ م
٣٤ -- مآثر عالمگیری لمحمد ساقى مستعد خان كلكتا ١٨٧١ م
٣٥ -- مرآة سكندري لاسكندر بن محمد .

(مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٢ تاريخ فارسى)

- ٣٦ -- منتخب التواريخ ، لعبد القادر بن ملوك شاه بداونى - ٣ م
كلكتا ١٨٦٨ م

- ٣٧ -- منتخب اللباب لخافى خان (مجموعة اليوت ٧)
٣٨ -- واقعات جهانگیری ، سيرة جهانگیر (٦)
٣٩ -- وقایعی (حالات) لاسعد قزوینی (٦)

مراجع عریسه : (مساعدة)

- ١ -- اختلال التوازن العالمی ، لغوستاف لوبون ،
ترجمة صلاح الدين وصفي . القاهرة ١٩٢٨ م
٢ -- تاريخ الحضارة الإسلامية ، لبارتولد ، ترجمة
حمزة طاهر . القاهرة ١٩٣٣ م
٣ -- تاريخ الكامل ، لابن الأثير - ١٢ ج . القاهرة ١٣٠٢ هـ

- ٤ -- چنگيز خان . لهارولد لامب ، ترجمة بهاء الدين نوري .
بغداد ١٩٤٦ هـ
- ٥ -- حاضر العالم الاسلامي ، تأليف لوترب ،
تعريب عجاج نويهض . (انظر تعليقات الامير
شكيب أرسلان عليه) ٤ م القاهرة ١٣٥٢ هـ
- ٦ -- حضارات الهند : لغوستاف لوبون ترجمة
عادل زعيتر القاهرة ١٩٤٨ هـ
- ٧ -- الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ،
ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين القاهرة ١٩٤٧ هـ
- ٨ -- ذكر مال الهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة ،
لأبي الريحان البيروني (نشر زاخاو) لندن ١٨٨٧ م
- ٩ -- فتوح البلدان ، للبلاذري
ليدن ١٨٦٦ م
- ١٠ -- المختصر في أخبار البشر ، لأبي الفداء
القاهرة ١٣٥٢ هـ
- ١١ -- معجم البلدان ، لياقوت الحموي ٨ م
القاهرة ١٩٠٦ م
- ١٢ -- الهند وجيرانها ، لول ديورانت ،
ترجمة زكي نجيب محمود القاهرة ١٩٥٠ هـ

مراجع أوروبية :

- 1 — Ameer Ali, The Spirit of Islam. London 1923
- 2 — Barthold W. Histoire des Turs d'Asie
Centrale. Adapt. Fr. par Mme Donskies.
Paris 1945
- 3 — Barthold, Turkestan London 1928
- 4 — Binyon, Laurence. The Court Painters of
the Grand Moghul. Oxford 1921
- 5 — Cambridge History of India. 5 Vols.
Cambr. 1922 - 29
- 6 — Czaplika. M. A. The Turks of Central
Asia. Oxford 1918
- 7 — Degwignes, J. Histoire générale des Huns,
des Turcs, des Mongols etc ... 5 Vols. Paris 1756-58.
- 8 — D'Ohsson, Baron C. Histoire des Mongols.
Amsterdam 1852.
- 9 — Duff, Grant. Hist of the Mahrattas. 2 Vols. 1921.
- 10 — Dunbar, G. A. History of India from the
Earliest Times to the Present Day. London 1936

- 11 — Elliot H M. & Dowson, John. The History of India as told by its own Historians. The Mohamadan Period. 5 Vols
London 1867-77
- 12 — Cunningham J. D. Hist. of the Sikhs. 1916
- 13 — The English History Review ;1898.
- 14 — Gait, Edward. Hist of Assam Calcutta 1923
- 15 — Garra:t. G. T. The Legacy of India Oxford 1938
- 16 — Garret Ed. Mughal Rule in India 1930
- 17 — Grenard Fer. Baber Paris 1930
- 18 — Grousset, R. L'Empire Mongol. « 1941
- 19 — Grousset, R. Hist. de l'Extrême Orient.
2 Vols. Paris 1929
- 20 — Hammer, J. D. Histoire de l'Empire
Ottoman. 18 Vols. Paris 1830
- 21 — Havell, E. B. The History of Aryan
Rule in India. London
- 22 — Howorth, H. History of the Mongols.
3 Vols. London 1846
- 23 — The Indian Moslems by an Indian.
Mohamedan. London 1928

- 24 — Ishwari Prasad. A short History of Muslim
Rule in India . Allahabad 1933
- 25 — Islamic Culture Review (1928)
- 26 — Lane-Poole, St. Medieval India under
Mohammedan Rule. London 1917
- 27 — Moreland, W. H. & Chatterjee . A short
History of India. London 1936
- 28 — Sarkar. Hist. of Aurengzib. 2 Vols Calcutta 1912-24
- 29 — Sarkar. , Shivaji and his times. Calcutta 1919.
- 30 — Smith, V. A. Hist. of Fine arts in India
and Ceylon. Oxford 1930
- 31 — Sir Jar Ikbāl Ali Shah. Afghanistan. London 1928
- 32 — Spear, P. Twilight of the Mughuls. Cambridge 1915
- 33 — Vambery, A. A History of Bokhara London. 1873

دھر س أبجدی عام

إبراهيم شاه سور ۹۱، ۹۶، ۹۸،

۱۰۲

إبراهيم اللودمي ۱۴، ۱۵، ۲۲،

۲۶، ۳۰، ۹۰، ۲۷۰

أبو الحسن قطب شامی ۲۳۸، ۲۳۹

أبو الفضل بن المبارك ۱۲۶، ۱۲۸

۱۵۶، ۱۵۷، ۱۶۰، ۱۶۴

۱۶۷، ۳۰۸، ۳۱۰، ۳۲۰

أبو التيس فيضی (اضطر : فيضی)

أبو القاسم بن كاهران ۱۰۴

أبو بكر قشغری ۳

أبو سعيد ميرزا ۱۵، ۳۵۴

أترار ۳۴۴، ۳۵۱

أنسز شاه خوارزم ۳۳۶

أتیلا ۳۳۴

أجین ۲۰۴

الاحتلال البريطاني ۲۷۸ — ۳۰۲

أحمد آباد ۷۷، ۱۱۴، ۱۱۷،

۱۱۸، ۱۴۶، ۱۵۵، ۳۱۱

أحمد أبدالی الدرانی ۲۶۷ — ۲۷۱

۲۷۴، ۲۸۸

آتوك ۲۲۰

آجير ۱۴۶، ۲۲۸

آدينه بكخان ۲۶۹

آذريجان ۳۴۵، ۳۵۴

آرال ۳۴۱، ۳۵۷

آسام ۲۱۷، ۲۸۳

آشوك (آزوكا) ۹۵

آصاف خان ۱۰۹، ۱۷۳، ۱۸۵

۱۸۶، ۱۸۷

آكرا ۱۶، ۲۰، ۲۳، ۲۴،

۲۹، ۳۶، ۵۵، ۵۶،

۵۸، ۸۱، ۹۱، ۹۸،

۱۰۵، ۱۱۴، ۱۴۶، ۲۰۵

۳۱۱، ۳۱۲، ۳۱۳

آل تعلق ۱۲۲

الاطاغ ۳۴۹

آلتا ۲۳۹

آمبر ۲۲۶

آين أسكرى ۱۵۷، ۳۴۱

۸۸، ۵۲، ۵۰
 اسماعیل الصفوی الثاني ۱۷۷
 أسیرکاه ۱۷۱
 أشروسه ۳۵۷
 أعظم بن أورشکزیب ۲۲۷، ۲۳۷
 ۲۵۴، ۲۵۳، ۲۴۳
 أفرا سیاب ۲۲۷
 الأفریدی ۷، ۱۷، ۲۱۹، ۲۸۶
 الأفغان ۲۸۴، ۲۱۹، ۲۸۶ —
 ۲۹۳
 إقبال (انظر : محمد إقبال)
 إکنتاه ۲۳۰
 إکبر (جلال الدین) ۶۶، ۸۷
 ۹۴، ۹۲ — ۱۶۳، ۱۷۱
 ۱۷۲، ۱۸۸، ۲۱۹، ۲۲۸
 ۲۷۰، ۳۰۵، ۳۰۶، ۳۱۰
 ۳۱۲، ۳۱۹، ۳۲۱
 اکبر بن أورشکزیب ۲۲۶، ۲۲۷
 ۲۲۹
 اکبر شاه الثاني ۲۹۰، ۲۹۱
 اکبر نامه ۱۵۷، ۳۲۰
 التای ۳۲۳
 السید أحمد خان ۲۹۸، ۲۹۹
 ۳۲۵، ۳۰۰
 السید أمير علی ۳، ۱، ۳۰۰

أحمد أصفهانی ۱۱
 أحمد تسکودری ۳۸۰
 أحمد خان ۵
 أحمد شاه ۲۶۷ — ۲۶۸
 أحمد میرزا ۳، ۳۵۱
 أحمد نکیر ۷۶، ۹۷، ۱۲۵
 ۱۲۶، ۱۴۶، ۱۷۰، ۱۹۵
 ۲۳۱، ۳۱۴
 أخمنی ۳۲۲
 ادا بیور ۱۲، ۳۰، ۲۲۶، ۲۵۵
 إدوارد منی الانلیز ۳۳۸
 آدم خان ۱۰۵، ۱۰۶
 اراکان ۲۱۸
 أرجند باتو یکیم (انظر : ممتاز محل)
 أرسلان خان ۳۴۴
 رنزون ۱۶۸، ۱۶۹، ۲۲۳
 ۲۲۴
 أرغند ۳۳۵
 أسبانيا ۱۲۵
 أستاذ مصور ۳۱۶
 أستاذ اباد ۳۵۵
 أسفرا ۳۵۵
 اسکندر المقدونی ۴۸
 اسلام بور ۲۱۶
 اسماعیل الصفوی ۹، ۱۰، ۱۲

۳۱۸، ۳۱۶، ۳۱۴، ۳۰۶

۳۲۲

أوربيه ۱۰۲، ۱۲۰، ۱۲۴،

۱۷۴، ۲۶۱، ۲۷۴

الأوزبك ۴، ۶، ۱۱، ۱۲،

۱۵، ۲۰، ۴۹، ۵۲، ۸۸،

۱۰۹، ۱۷۲، ۱۲۳، ۱۲۴،

۱۹۷، ۳۴۹، ۳۵۴، ۳۶۴،

أوزون حسن ۳۵۴

أوكلانده ۲۸۵

أوكتاي ۳۴۵، ۳۴۶، ۳۴۸،

الأوفور ۳۳۳، ۳۳۵، ۳۳۶،

۳۷۷

إيران ۳۳۳، ۳۴۵، ۳۵۱،

إيطاليا ۵۹، ۱۳۴، ۳۰۷،

ب

باير ۱ — ۷۱، ۷۳، ۸۱،

۸۸، ۱۰۰، ۱۰۲، ۱۵۴،

۱۶۳، ۲۷۰، ۳۰۲، ۳۰۴،

۳۱۱، ۳۱۷، ۳۲۰، ۳۲۸،

۳۵۹، ۳۵۵، ۳۶۵،

باير نامه ۶۵ — ۷۱، ۳۲۲،

باتوخان ۳۴۶، ۳۴۸،

الجايتو خدا بنده ۳۴۸

أنغ بك بن أبي سعيد ۳۵۵،

أنغ بك بن شاعرش ۴، ۳۵۳،

۳۶۴

الله آباد ۴۷، ۱۲۶، ۱۴۶،

۱۷۴، ۲۶۸، ۲۷۳، ۲۷۴،

الإيافة ۱۳۲

إلياس بن تعلق نيمور ۲۵۰

أمر تسمير ۲۲۴

أمر سنغ ۱۷۰، ۲۵۴،

أمر قزويني ۳۲۲

أنجلترا ۱۳۴، ۱۸۲،

الأندلس ۱۹۳

الأنون ۳۴۲

أنتينا بفريدج ۶۵

أوداي سنغ ۱۱۱، ۱۱۲، ۱۳۶،

أوده ۱۴۶، ۱۷۴، ۲۶۸،

۲۷۴، ۲۷۱

أورخون ۳۳۳، ۳۳۷،

الأوردوية ۱۲۷، ۳۰۰، ۳۲۳،

۲۲۵

أورنسكريب عالمكير ۱۷۴، ۱۸۵،

۱۹۶، ۱۹۹، ۲۰۱، ۲۰۲،

۲۰۳، ۲۰۵، ۲۰۶،

۲۱۲ — ۲۵۹، ۲۵۶،

۳۱۶، ۲۷۹، ۲۷۸، ۲۱۹
 برسنخ دیو ۳۸، ۱۶۷، ۱۷۴
 بروج ۱۱۶، ۱۸۳
 برویز بن شاهجهان ۱۷۵
 برهانپور ۲۷۳
 برهما سماج ۲۹۱، ۳۲۶
 بریدون ۲۸۵
 بریطانیا ۲۹
 البریطانیون ۲۶، ۱۵۱، ۱۸۱ -
 ۱۸۴، ۲۱۹، ۲۴۸، ۲۷۰
 ۲۷۲، ۲۷۳، ۲۷۵، ۲۸۶
 ۲۸۷، ۲۹۰
 بساوت ۳۱۶
 بین ۲۸۳
 بشاور ۱۶، ۱۷، ۲۲۰، ۳۰۱
 البطمان ۷، ۱۲۴، ۲۱۹، ۲۳۱
 بغداد ۳۴۸
 بکرماجیت ۱۹، ۲۶، ۲۷، ۹۱
 بکسر ۲۷۴، ۲۸۰، ۲۸۸، ۲۸۹
 بلاجی راو ۲۷۰
 بلاد ماوراء النهر ۵، ۱۰، ۲۴
 ۵۲، ۵۴، ۹۶، ۱۹۷،
 ۳۱۱، ۳۳۰، ۳۳۴، ۳۳۶
 ۳۴۴، ۳۵۵
 بلند دروازه ۱۱۵، ۳۱۲
 بلخ ۱۹۶، ۱۹۷، ۱۹۹، ۳۳۶
 ۳۵۶، ۳۵۸، ۳۵۹

باجی راو ۲۶۳، ۳۴۸
 بارمل عدری ۳۸
 بارنده ۲۰۲
 بارودا ۱۱۷، ۱۱۸
 بازیهادر ۱۰۵، ۱۱۱
 بایزیدانستانی ۳۵۰
 بایسنقر میرزا ۳
 بتافیا ۱۸۱
 بجهور ۱۶
 البحر الأبيض المتوسط ۳۲۹
 البحر الاحمر ۹۸
 بحر الخزر ۲۶۴
 بحر العرب ۹۷
 بخاری ۴، ۱۱، ۱۲، ۳۰۹
 ۳۳۴، ۳۴۴، ۳۵۴، ۳۵۶
 بدائی ۱۳۲، ۱۳۸، ۱۵۶،
 ۱۵۷، ۳۲۰
 بدخشان ۳، ۱۷، ۴۹، ۵۲،
 ۷۴، ۱۱۰، ۱۹۶، ۳۵۶
 ۳۵۸
 بدخشی منعم شاه ۲۵۳
 برار ۹۷، ۳۱۴
 البرامکه ۳۵۶، ۳۵۹
 البرتالیون ۷۶، ۷۷، ۷۸، ۹۷
 ۱۱۷، ۱۱۸، ۱۱۹، ۱۳۴
 ۱۵۴، ۱۸۱، ۱۸۲، ۱۸۴
 ۱۹۰ - ۱۹۴، ۲۱۸

بهارملی ۱۰۸ : ۱۱۴
 بهاکتی ۲۳۰ ، ۳۲۶
 بهجفاد جینا ۳۲۲
 بهرام الصفوی ۸۸
 بهزاد ۳۱۵
 بهاشا ۳۲۴
 بهسکوان داس ۱۱۲ ، ۱۱۳ ،
 ۱۲۳ ، ۱۳۰ ، ۱۴۱
 بهلول لودھی ۱۳
 بهمنی ۲۵
 بهونیشا ۲۸۳
 بهوبال ۲۶۳
 بهیرہ ۱۶ ، ۱۷
 بهیلہ ۳۰
 بیانہ ۳۰ ، ۹۲ ، ۹۸ ، ۳۱۲
 البیت الحرام ۹۸
 بیجاپور ۹۷ ، ۱۲۶ ، ۱۷۴ ،
 ۱۹۵ ، ۲۰۲ ، ۲۲۹ ، ۲۳۱
 ۲۳۲ ، ۲۳۶ ، ۲۳۷ ، ۲۳۸
 ۲۳۹ ، ۳۱۴
 بیدز ۹۷ ، ۳۱۵
 بیرم خان ترکمانی ۸۷ ، ۹۲ ، ۹۴ ،
 ۱۰۲ ، ۱۰۵ ، ۱۰۷ ، ۱۴۴
 بیرمل ۱۲۳ ، ۱۳۰
 بیرنفر ۲۸۴
 البیرونی (ابو الريحان) ۳۲۶
 بیرنطہ ۳۳۳ ، ۳۴۰

لکھن ۳۳۳
 بنویش ۲۸۷
 بنسکین الثانی ۲۳۰
 بنای ۳۱
 بنارس ۴۷ ، ۱۱۹ ، ۲۱۶
 بنار (غورو) ۲۵۸
 بنال ۴۷ ، ۵۸ ، ۷۳ ، ۷۸ ،
 ۸۳ ، ۹۸ ، ۹۹ ، ۱۱۹ ،
 ۱۲۰ ، ۱۴۶ ، ۱۶۹ ، ۱۷۴ ،
 ۱۹۳ ، ۲۰۴ ، ۲۱۷ ، ۲۵۳ ،
 ۲۶۷ ، ۲۷۰ ، ۲۸۰ ، ۲۹۲
 ۳۰۱
 بند خانہ ۱۱۴ ، ۱۹۰
 بورما ۲۹۳
 بوئندہ ۳۴۵
 بونا ۲۳۱ ، ۲۳۲ ، ۲۳۳ ، ۲۶۲ ،
 ۲۸۳
 بوندی ۹۷
 ہادر خان بکراتی ۷۶ ، ۷۷
 ہادرشاہ بن اوردنکزیب ۲۲۵ ،
 ۲۵۲ — ۲۵۶
 ہادرشاہ الثانی ۲۹۱ — ۲۹۵ ،
 ۲۹۶
 ہار ۲۴ ، ۳۶ ، ۴۷ ، ۷۳ ، ۷۸ ،
 ۱۱۹ ، ۱۴۶ ، ۱۷۵ ، ۲۶۱ ،
 ۲۷۰ ، ۲۷۵ ، ۲۸۴ ، ۲۸۸

تاری ۲۴۳	یسکاک ۳۲۳
تاریخ اُلی ۲۲۰	پ (۱)
تاریخ رشیدی ۶۱	
تاریخ فرشته ۱۵۷ . ۳۲۱	بادشاهنامه ۳۲۲
التاریخ ۳۳۶	باکستان ۲۹۶ ، ۳۰۱ ، ۳۲۵
تافرنیة ۲۱۰ . ۳۰۷	بانی بت ۲۰ ، ۲۱ ، ۲۶ ، ۴۴
تانو ۳۳۳	، ۴۸ ، ۵۸ ، ۱۰۰ ، ۲۶۹
التبار ۳۳۰ . ۳۳۱	، ۲۷۱ ، ۲۷۴ ، ۲۷۶
تدرمل ۱۰۸ . ۱۱۷ . ۱۲۱	۳۱۲
۱۳۰ . ۱۵۰ . ۲۰۰	بنبا ۱۱۹ . ۲۵۷ . ۲۷۲
تراشد ۲۱۶	۲۷۴
تردی بکخان ۹۹ ، ۱۰۳	برکة خان ۳۴۸
الترك والمغول ۳۲۷ . ۳۶۵	بلای ۲۷۱ . ۲۷۲ . ۲۷۳
الترکستان ۳۳۵ . ۳۳۶ . ۳۴۵	۲۸۰
تسن ۳۳۳	البنجاب ۲۴ . ۴۹ . ۶۹
تغ بهار ۲۲۴	، ۷۵ . ۹۱ . ۹۲ . ۱۱۰
تکارم ۲۳۰	، ۱۲۲ . ۲۰۵ . ۲۶۵ . ۲۶۷
تشکودزی ۷	۲۶۸ . ۳۰۱
تذبی داس ۱۵۸	البنداری ۲۸۴
نوجی خان ۴۶	بندر شیری ۲۸۰
التوکوی ۳۲۳	بیر محمد شیروانی ۱۰۱ . ۱۰۵
تولاجی ۲۶۲	ت
توماس زو ۱۸۳	تاج محل ۱۶۰ . ۱۸۹ . ۲۰۸
تمهذب الأخلاق ۲۹۹	۳۱۲ . ۳۱۱

۱ -- لا يوجد في هذا البيط (ب ۱۲) الباء المثلثة أو الجيم المثلثة أو الكاف المتأخرة .

جمالير ٩٧
 جمفر خان ٢٧٢ ، ٢٧٣
 جكال ٢٢٢
 جلال آباد ٢٧١ ، ٢٨٥ .
 ٢٨٦
 جلال الدين حيدر شجاع الملك
 ٢٧١
 جند خان ٧٦
 جوا ٩٧
 جواهر سنغ ٢٧٥
 جون ريرك ٣٤٣
 جونيور ٩٤ ، ٢٩ ، ٣٦ .
 ٧٩ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٠٩ .
 ١٢٠ ، ٢٩٢
 جوهري صاحب تذكرة الواقعات
 ٣٢٠
 جيات آرا ١٩٦ ، ٢٠٦ .
 ٢٠٨
 جياندار ٢٥٦ ، ٢٥٧
 جيا نشاہ ٢٥٦
 جياسكير ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٢٦ .
 ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٨٤ ، ١٨٦
 ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٩
 ٣١٦ ، ٣٢٢
 جيلم ٧٠
 جيحون ١٠ ، ٤٨٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣
 ٣٥٥ ، ٣٥٦

تہور خان ٢٢٦
 تيان شان ٣٣٣
 تيو ٢٨١ ، ٢٨٢
 تيموجين ٣٤٢
 تيمور لنگ ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥١ ، ٥١٠ ، ٥١٠
 ٥٧ ، ٦٨ ، ١٢٣ ، ٣٠٣ .
 ٣٢٨ ، ٣٣٨ ، ٣٤٩ ،
 ٣٥٦

ث

الثورة الوطنية ٢٩٢ ، ٢٩٧

ج

الجات ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٥٣
 جالندھر ١٠١
 جامرود ٢٢٠
 جامو ٢٤٥
 جاوہ ١٢١
 جاي مل ١١١
 جايور ١٠٨ ، ١١٤ ، ٢٥٥
 ججہار سنغ ١٩٠
 جداسبور ٢٥٨
 جندھور ٧٨ ، ٩٧ ، ٢٥٤ ،
 ٢٥٥
 جرانت صاحب ١٦٨
 جرجان ٣٤٠
 جزر الهند الشرقية ١٨١

حسین یقرا ۵ ، ۶ ، ۶۸ ، ۳۶۴

حسین علی خان ۲۵۹

حصار (الصاغانیان) ۶ ، ۱۱ ،

۳۵۶ ، ۵۲

حصن الاودهیین ۵۸

حکیم خان (أظفر : میرزا حکیم)

حککات ۳۰۶

حمید خان ۷۱

حمیده بانو ۸۷ ، ۱۰۳

حیدرآباد ۲۳۹ ، ۲۵۳ ، ۲۵۹ ،

۲۸۱ ، ۲۷۹ ، ۲۶۱

حیدر علی ۲۸۰

خ

خانی خان ۳۲۲

خان جهان ۱۲۰

خان جهان لودهی ۱۹۰

خاننش ۹۷ ، ۱۲۶ ، ۱۰۶

خاتراده بیکیم ۱۰

خاترمان ۱۰۲

خانوه ۳۰ ، ۳۵ ، ۴۴ ،

۴۸

الخل ۳ ، ۳۵۶

ختن (خطان) ۵۳ ، ۳۳۶

خچند ۳۵۷

خدا بخش ۳۰۰

جینآب ۱۶

جینوت ۱۶

چ

چار باغ ۵۸ ، ۳۱۷

جنور ۵۶ ، ۷۷ ، ۱۱۱ ، ۱۱۳ ،

۲۲۵ ، ۱۳۰

جفتای ۸۰۲ ، ۳۴۶ ، ۳۴۷ ،

۳۵۰ ، ۳۴۸

اچکیر ۸۹

چبیر ۷۷

چنار ۴۷ ، ۱۰۶ ، ۲۷۴

چندری ۳۰ ، ۴۸ ، ۱۱۷ ،

چنکیز خان ۲ ، ۱۲۲ ، ۳۲۸ ،

۳۳۰ ، ۳۳۱ ، ۳۳۸ ،

۳۴۱ ، ۳۴۲ ، ۳۴۳ ،

۳۴۵

چنکیز نامه ۳۱۶

چوسا ۸۰

ح

حبیب السیر ۶۹

الحجاز ۸۹ ، ۹۸

حسن خان موآنی ۳۱ ، ۳۸ ، ۴۳

الذاتوب ۳۳۴
 دانیل بن اُسَکِر ۱۲۶ ، ۱۶۰ ،
 ۱۸۵
 دوداد بن سلیمان ۱۱۹
 داوریخس ۱۸۵ ، ۱۸۶
 درغا داس ۲۲۶
 دستور اَمَل ۱۶۵
 دسوت ۳۱۶
 دکا ۱۲۸ ، ۳۱۱
 الدکن ۹۶ ، ۹۷ ، ۱۲۵
 ۱۷۰ ، ۱۷۱ ، ۱۷۴ ، ۱۸۷
 ۱۸۹ ، ۱۹۴ ، ۱۹۹ ، ۲۱۷
 ۲۲۹ ، ۲۷۹
 دلچنک عبد الصمد ۲۵۸
 دلکشا ۱۸۶
 الدواب ۳۴ ، ۳۵ ، ۱۲۶ ، ۲۶۷
 ۲۷۷
 دوبلیکس ۲۷۹ ، ۲۸۰
 دوست محمد شاه ۲۸۴ ، ۲۸۵
 ۲۸۶
 دولت آباد ۲۴۴
 دولت راو ۲۸۳
 دولتخات لودھی ۱۵ ، ۱۸
 ۱۹ ، ۲۰
 دهرمت ۲۰۴
 دهلور ۳۰ ، ۳۱۲

خراسان ۵ ، ۶ ، ۷ ، ۱۰ ، ۱۵
 ۷۰ ، ۲۶۴ ، ۳۱۱ ، ۳۵۴
 خرید ۳۶ ، ۴۷ ، ۱۰۲
 خسرو بن جهانگیر ۱۶۱ ، ۱۶۴ ،
 ۱۶۷ ، ۱۶۸ ، ۱۶۹ ، ۱۸۵
 ۱۸۷ ، ۲۲۳
 خضر خان ۱۰۰
 خضر خیل ۱۷
 خلاصه التواریخ ۳۲۲
 خلجیون ۷ ، ۱۲۲
 خلیج العربی ۹۷
 خنجان ۳۴۲
 حواجه شاه منصور ۱۲۲
 حواجه ملک اعتماد خان ۱۰۸
 خوارزم ۳۴۱ ، ۳۴۴ ، ۳۴۵
 ۳۴۶ ، ۳۵۰ ، ۳۵۶
 خواند امیر ۶۹
 خوشآب ۱۶
 خوشحال ۲۲
 حیر آباد ۲۹

د

دارا شکوه ۱۴۲ ، ۱۷۴ ، ۱۸۵
 ۱۹۶ ، ۲۰۲ ، ۲۰۳ ، ۲۰۴
 ۲۰۶ ، ۲۰۷ ، ۲۱۳ ، ۲۱۴
 ۳۲۲

١١٢ ، ٧٣ ، ٥٦
 رانا موار ٧٦ ، ١٧٦ ، ١٨٦
 راني دروكاوتي ١٠٩
 راول اوداي سنك ٣٨
 راي براناب ١١٢
 راي سنغ ٢٣٣
 راي سورجانا ١١٣
 رفيع الدرجات ٢٦٠
 رفيع الثان ٢٥٦
 رنجيت سنغ ٢٨٥
 رتنپور ١١٣ ، ٣٠
 روبيرتس ٢٨٦
 روسيا ٩٣ ، ٣٨٤ ، ٣٤٥
 روما ٣٣٨
 الروميلا ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
 ٢٧٦

ز

زيان اوردو ٣٢٤
 زبدة التواريخ ٣٢٢
 الزراد شتية ٣٣٩
 زين خان ١٢٣
 زين الخوافي ٢٣

س

السامازون ٣٣٥ ، ٣٥٩

دهلي ٣٦ ، ٣٢ ، ٩١ ، ٩٢ ،
 ١٠١ ، ١٤٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦
 ٢٧٧ ، ٢٩٢
 دهلي الجديدة ٢١١ ، ٣١٣
 ديبالپور ١٨
 دين رهي (انظر المذهب الإلهي)

ذ

ذو القطار خان ٢٥٧

ر

الرابضة الإسلامية ٣٠١
 راجا جسونت ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٢٥
 راجا محل ١٢٠
 الراجپوتون ٣٥ ، ٢٢٩ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣
 راجكره ٢٤١
 راز نامه ٣١٦
 رام داس ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٢٤٢
 رام موهان ٢٩ ، ٣٢٦
 الرامينا ١٣١ ، ٣١٦
 رانا سنكا ١٤ ، ٧٥ ، ٣٠ ،
 ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٤

سلیم الاول العثماني ۵۱
 سلیم بن اکبر (انظر جهانگیر)
 سلیم جشی ۱۱۵
 سلیم شاه سور ۸۹ ، ۹۰
 سلیمان بن دارا شکوه ۲۰۴
 سلیمان خان کرانی ۱۱۹
 سلیمان شاه ۱۱۰
 سلیمان القانوني ۱۱۷
 سمرقند ۲ ، ۳ ، ۴ ، ۱۰ ، ۱۱
 ۱۲ ، ۵۱ ، ۶۸ ، ۷۰ ،
 ۳۰۹ ، ۳۴۴ ، ۳۵۰ ، ۳۵۱
 ۳۵۳ ، ۳۵۴ ، ۳۵۶
 سمرکند ۲۰۵
 سنهیل ۵۸ ، ۲۶۳
 سنجر الجوقی ۳۳۶
 سنجشوار ۲۴۱
 السند ۸۳ ، ۸۶ ، ۸۹ ، ۹۱ ،
 ۹۵ ، ۹۷ ، ۱۲۴ ، ۲۰۴ ،
 ۳۰۱
 سنڌیا ۲۷۰ ، ۲۸۲ ، ۲۸۳
 سنغ (غورو) ۲۲۴
 سنول ۳۱۶
 سوزات ۱۱۶ ، ۱۱۷ ، ۱۸۱ ،
 ۱۸۳ ، ۲۳۲ ، ۲۳۵ ،
 ۲۷۸ ، ۲۴۸
 سورج من ۲۷۵

سیکندکین ۲۹۷
 ستروی جی ۳۸
 السنایون ۲۲۲ ، ۲۲۳
 سخن رای ختری ۳۲۲
 سراج الدولة ۲۷۲
 سرساوه ۲۱
 سرندیب ۲۱۸ ، ۲۸۲
 سر نفاثم ۲۸۱
 سر نکبور ۳۰
 سر هند ۲۵۵ ، ۲۵۸
 سعد آباد ۲۲۲
 سفینه الأولیاء ۳۲۲
 السک ۱۶۸ ، ۱۶۹ ، ۲۱۵ ،
 ۲۲۲ ، ۲۴۲ ، ۲۵۳ ، ۲۵۴
 ۲۵۸ ، ۲۶۶ ، ۲۷۵ ، ۲۸۵
 ۲۸۷ ، ۲۹۴
 سکری ۳۱ ، ۱۱۴ ، ۱۱۷ ،
 ۱۶۰ ، ۳۱۱
 سکندر شاه بیجاپوری ۲۳۸
 سکندر شاه سور ۹۱ ، ۹۲ ،
 ۹۶ ، ۹۸ ، ۱۰۰ ، ۱۰۱
 سکندر لودھی ۱۳ ، ۱۴ ، ۲۵۱
 السالفة ۳۵۹
 سلسله العدل ۱۶۵
 سلطان بن اورنگزیب ۲۴۳
 سلطانہ خانیم ۸۸

شاهجي ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٣١ .

٢٣٨ ، ٢٣٣

شاهج ٣٥١ ، ٥٣

شاهو ٢٥٦

شايت خان ٢١٨ ، ٢١٩ .

٢٤٩ ، ٢٣٢

شجاع بن شهيدان ٢٠٣ ، ٢٠٤

شجاع الدولة ٢٧٣ ، ٢٧٦

شجاع الملك ٢٨٥ ، ٢٨٦

شجاعت خان ٩١ ، ٢٢١

شركة الهند البريانية ٢٧١ ، ٢٨٠

٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٤

٢٩٥

شركة الهند الفرنسية ٢٧٩

شهبوحي ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ .

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠

شار غوندا ٢٢١

شمس الدين محمد غزنوي أتمكه ٨١ .

١٠٧

شهاب الدين احمد خان ١١٧

شهاب الدين محمد النوري ١٣ ، ٢٣

٢٤ ، ٤٥ ، ٢٥

شهريار ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٨٨

شهزاده خرم (انظر : شاهجهان)

شيباني خان الأوزبك ٤ ، ٨ ، ٩ .

١٠ ، ٥٢ ، ٣٥٧

سوز داس ١٥٨

سومناث ٢١٦ ، ٢٩٧

سييريا ٢٣٣

اليت ٣٣٠ ، ٣٤٨

سيغون ٣٣٠ ، ٢٣٣ ، ٣٥٥ .

٣٥٧

سيد علي تبريزي ٣١٥ ، ٣١٦

سيد مهدي خواجه ٥٠

سيليزيا ٣٤٥

سيواك ١٠١

ش

الشامانية ٣٣٩ ، ٣٤٨

شاه بك أرغون ١٧

شاه بكخان ١٧٢

شاه شجاع ١٨٥ ، ٢٠٧

شاه علم ٢٧٢ — ٢٨٩ ، ٢٩٢

شاهجهان ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ .

١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٥ —

٢١٢ ، ١٢٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣١

٢٤٨ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٨

٣٢٢ ، ٣٢٢

شاهجهان الثاني ٣٦٠

شاهجهان نايباد ٣١٣

شاهجهان تامه ٣٢٢

خضر نامه ٣١٦

ظهیر الدین محمد بابر (اظہر : بابر)

ع

عادل شاہ سور (اظہر محمد عادل)

عالمکیر ٢٠٥

عالمکیر الثانی ٢٦٨ ، ٢٦٩

عالمکیر نامه ٣٢٢

عباد تخته ١٢٩ ، ١٣٥

عباس الصفوی ١٢٤ ، ١٧٢

عباس الصفوی الثانی ١٩٨

عبد الرحیم خانخانان ١١٨ ، ١٢٥

٣٢٢ ، ١٦٧

عبد الرحیم دیوان لاهور ١٦٨

عبد الصمد (نقاش) ٣١٥ ، ٣١٦

عبدالقادر بن ملوکشاہ (اظہر : بدآونی)

عبد اللطیف میرزا ٣٥٣

عبدالله خان أوزبك ١٠٩ ، ١٢٣

٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠

عبد الله قطب شاهی ٢٠١

عبد الله کتابدار ٦٩ ، ٣٢٠

عبد الله میر جملہ معتمد الملك ٢٥٧

عبد النبي (صدر الصدور) ١٥٦

عثمان بن عفان ٤

عثمان أفغان ١٧٠

العثمانيون ٩٧ ، ١١٩ ، ١٢٤

٣٣٨ ، ١٥٤

شیتا جونج ٢١٨

شیر أفکن ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧

شیر شاه ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩

٨٥ - ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠

٩٦ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٦٣

شیر شاه الثانی ١٠٢ ، ١٠٦

شیطانپور ١٤٠

شیعة ٢٢٨ ، ٢٣٧

شیواجی ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠

ص

صافغانیان ٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧

الصغد ٣٤٠ ، ٣٥٦

صلاح الدین أمير بھيلسه ٣٨

سفدار جنك ٢٦٧ ، ٢٦٨

نصفويون ١٥

نصين ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١

٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥١

ط

طبقات أكبری ٣٢١

طشقند ٣ ، ٥

طہماسب ٤٩ ، ٨٧ ، ٨٨

ظ

ظفر خان ١٢٠

عمل صالح ٣٢٢
 عناية الله ١٥٧
 عناية الله ٣٢٢
 عين جالوت ٣٥٥
 غ
 غازي خان لودهي ٦٩ ، ١٩
 غازيپور ٢٩
 غازي الدين نظام الملك (اظهر نظام الملك)
 غاندي ٣٠١
 غنجدويان ١١
 الغز ٣٣٥ ، ٣٣٦
 الغزنويون ٣٥٩
 غزنه ٣٥٤ ، ١٢٤ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ٥
 الغزو الأفغاني ٢٦٧ — ٢٧٠
 الغزو الفارسي ٢٦٤ — ٢٦٧
 غلام قادر ٢٧٧ ، ٢٨٩
 غور ٧٩
 الغوركها ٢٨٧ ، ٢٩٤
 غولكونده ٩٧ ، ١٢٦ ، ١٨١ ،
 ١٨٣ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٢٩
 ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠
 ٣١٤
 غوندوانا ١٠٩
 غياث الدين تغلق ١٣

العراق ٣٥٤ ، ٣٥١
 عرش الطاووس ٢١١
 عزيز ككا ١١٧ ، ١٦٠ ، ١٦٤
 ١٦٧
 عسكري بن بابر ٤٧ ، ٤٨ ، ٧٨
 ٨٩
 عسير ١٢٦
 عظيم الشان ٢٥٦ ، ٢٥٧
 علاء الدين الخلجي ١٣ ، ٧٦ ،
 ١٢٥ ، ١٥٣
 علاء الدين علم خان ١٣ ، ١٩
 علي أكبر جامي ٨٧
 علي جوهر ٢٧١
 علي خان ٢٥٧ ، ٢٥٩
 علي شير نوائي ٦٩
 علي قاسم ٢٧٣ ، ٢٧٤
 عليقلي (استاذ مدفع) ٤١
 عليقلي استاجلو (اظهر : شيرافكن)
 عليقلي خان زمان ٩٩ ، ١٠٦ ، ١٠٧
 ١٠٩
 علي مردان ١٩٧ ، ١٩٨
 علي ميرزا ٤
 علي تقى ٢٠٦
 عليكر ٣٠٠ ، ٣٠١
 عمر شيخ ميرزا ٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥

ف

فارس ٤ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٤ ،

٢٩٣

الفناوی الهندية (المالکيية) ٢٤٨

٣٢٣

فتجور سکري (اظہر سکري)

فتح (بنا) سنخ ١١١

فتح علی شاه ٢١٢

فدای خان ٢٢

فرخ سیر ٢٥٧ — ٢٥٩

فرغانة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٥١

١٥٤ ، ٣١٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧

فرمول ١٣

فرنسا والفرنسيون ١٣٤ ، ١٨١ ،

٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣٠٧

خلد طين ٣٤٩ ، ٣٤٥

فينكوفتش ٢٨٤

فيروز تعلق ١٧١

فيروز شاه سور ٩١

فيضي بن المبارك ١٢٨ ، ١٥٧ ،

٣١٩ ، ٣٢١

فيليب ملك فرنسا ٣٣٨

ف

الفولجا ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٤٣٣٩

٣٤١

فيايانكر ٢٥ ، ٩٧ ، ١٨١ ، ٣١٤

فيكتوريا ٢٧

فيتا ٣٣٨ ، ٣٤٥

ق

قاسم خان ١٩٢

قاليقوت ١٨٣

قا ٣

القبحاق ٣٣٥ ، ٣٤٤

القيلة الذهبية ٣٤٨

قتلق خان ٣٤٢

قتلق نكار خانيم ١

قُم بن عباس ٤

قراقورم ٣٤٥

قرشي ١١ ، ١٢

القرغيز ٣٣٣ ، ٣٣٥

الفرلق ٣٣٣

القره خانيون ٣٣٥

القره ختاي ٣٣٦

القرلباش ١١ ، ٥٥ ، ٨٨

قزوين ٨٧

قطب جليصري ١٣٤

قطب الدين بنغالي ١٧٧

القلمة الحمراء ٢١١

قلندر ٥٦

قندهار ٨ ، ٩ ، ١٧ ، ٨٧ ، ٨٨

٨٩ ، ١٢٤ ، ١٧٢ ، ١٧٣

١٨٧ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٨٦

کاکا ۱۸۳ ، ۲۱۹ ، ۲۴۹ ،

۲۷۹ ، ۲۷۲

کلنجر ۸۴ ، ۱۱۳

کلبای ۷۷ ، ۱۱۶ ، ۱۱۷ ،

۱۸۳ ، ۱۵۵ ، ۱۱۸

کنجرا ۱۷۱

کنکان ۲۳۲ ، ۲۳۵ ، ۲۳۷

کورنوالیس ۲۸۱ ، ۲۸۹

کوروماندل ۱۸۳ ، ۲۸۱

کوریا ۳۴۵

کوش بهار ۲۱۷

کوفند سنخ ۲۵۵

کوهینور ۲۶

کیتانیا ۱۴۲

کین ۳۴۲ ، ۳۴۴

گک

الکجرات ۲۴ ، ۳۰ ، ۳۷ ، ۷۳

۷۶ ، ۸۷ ، ۹۷ ، ۱۰۴ ، ۱۱۶ ،

۱۱۸ ، ۲۶۷ ، ۲۸۲

ککر ۴۸

کلبدن ۳۲۰

کلیانی ۲۲۰

الکنج ۵۴ ، ۸۱ ، ۹۱ ، ۹۵ ،

۳۵۱

کوالیار ۲۹ ، ۳۵ ، ۴۸ ، ۵۸ ،

قنوج ۲۹ ، ۴۵ ، ۴۶ ، ۷۹ ،

۲۶۷ ، ۸۱

القوناز ۳۴

ک

کابل ۵ ، ۶ ، ۸ ، ۴۹ ، ۵۰ ،

۵۲ ، ۸۹ ، ۹۶ ، ۱۱۰ ،

۱۲۲ ، ۱۲۳ ، ۱۲۴ ، ۱۴۶

۲۲۰ ، ۲۸۵ ، ۲۸۶ ، ۳۱۱

۳۱۷ ، ۳۵۴

کالپی ۲۹ ، ۳۰ ، ۹۹

کام بخش ۲۴۳ ، ۲۴۴ ، ۲۵۳ ،

۲۵۴ ، ۲۵۵

کامران ۱۷ ، ۷۵ ، ۸۱ ، ۸۸ ،

۸۹ ، ۹۰

کامکر ۳۲۲

کاندوه ۳۳۳ ، ۳۴۴

کبیر ۱۴۲

کراجی ۳۰۱

کرشنا (نهر) ۲۷۹

کرشنا دیوا ۲۵

کرناپا ۲۸۰

کربواین ۳۴۲

کش ۳۵۸ ، ۳۵۶

کشمیر ۹۷ ، ۱۵۵ ، ۲۰۴

کلانور ۹۴

کلاب ۲۷۳

مانسنگ ۵۷
 مانسنگ ۱۰۱
 مام آنسک ۱۰۴ ، ۱۰۷
 مانیسکیور ۱۱۰
 مبارز خان سوز ۹۱
 مبارک خان لوحانی ۱۰۴
 مبارک ناکوری ۱۲۸
 مہرہ ۲۱۶
 الحجر ۳۴۵
 مجمع البحرين ۳۲۲
 المحسودی ۲۸۶
 محمد إقبال ۳۰۰ ، ۳۰۱ ، ۳۰۴
 محمد بن اُورنگزیب ۲۰۱
 محمد بخت خان ۲۹۴
 محمد حیدر دوغلان ۶۹
 محمد شاه ۲۶۰ — ۲۶۷
 محمد صالح ۳۲۲
 محمد عادل شاه شور ۹۱ ، ۹۶
 ۹۷ ، ۱۰۲ ، ۲۰۲
 محمد عبد الباقي ۱۵۷ ، ۳۲۱
 محمد علی ۳۲۰
 محمد علی جنہ ۳۰۱
 محمد الفوری (اظہر : شہاب الدین
 الفوری)
 محمد قاسم هندو شاہ ۱۵۷
 محمد قلی خان ۳۷۲
 محمد کاظم ۳۲۲

۳۱۲ ، ۲۰۵ ، ۹۲
 کاتیکہ ۲۰۲

ل

لاہور ۱۶ ، ۱۸ ، ۴۹ ، ۸۱ ،
 ۹۲ ، ۱۰۱ ، ۱۱۰ ، ۱۲۱ ،
 ۱۴۶ ، ۱۵۵ ، ۱۶۸ ، ۱۸۵
 ۲۲۰ ، ۲۵۵ ، ۲۵۸ ، ۳۱۱
 لکھنؤ (لکنؤ) ۴۶ ، ۷۶ ،
 ۲۷۴
 لوحانی ۱۳
 الاودھیون ۱۳
 لورنس ۲۹۴
 لوئس الخامس عشر ۲۸۰

م

مآثر رحیمی ۱۵۷ ، ۳۲۱
 مآثر عالمگیری ۳۲۲
 ماتھو ۲۲۲
 مادانا ۲۳۹
 مادھوجی سندیا ۲۷۷
 المائق ۳۴۷
 مالوہ (ماندو) ۲۵ ، ۳۰ ، ۳۷ ،
 ۷۶ ، ۷۷ ، ۷۸ ، ۱۰۳ ،
 ۱۰۵ ، ۱۱۱ ، ۱۱۷ ، ۱۴۶ ،
 ۱۹۰ ، ۲۴۳ ، ۲۶۷

٢٩٠
 منار شاه ٤
 مسجد الاؤلؤ ٢١١
 مسجد نواب يكييم ٢١٦
 المسيح ١٣٤
 مصر والمصريون ٢٨٢ ، ٣٢٣
 ٣٤٥ ، ٣٤٦
 مصطفى الروى ٤٠
 مظفر خان تربى ١٢٠
 مظفر شاه الثانى ١١٦ ، ١١٨
 المتصم العباسى ٣٤٠
 معروف فرمولى ٢٩
 معظم ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧
 المنول والترك ٣٢٨ — ٣٦٤ ،
 منولستان ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠
 مقرب خان ٢٤١
 مكة المكرمة ٨٩
 مل ديو ٨٧
 الملبار ١٥٥ ، ٢٦٢
 الملتان ٨٣ ، ٩٧ ، ١٢٤ ، ١٤٦
 ملك جيون ٢٠٦
 ملك عتير ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٨٧ ،
 ٢٣١
 ملوت ٢١
 ممتازعل ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٢ ،

محمد هاشم خان ٣٢٢
 محمود تيمور
 محمود خان طشقند ٢ ، ٥
 محمود خان لودى ٣١ ، ٣٨ ، ٤٧
 ٧٣
 محمود الخايجى ٧٦
 محمود الغزنوى ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ ،
 ٤٥ ، ١١٦ ، ١٧١ ، ٢٥٠
 ٢٩٧ ، ٣٢٤
 محمود ميرزا ٣ ، ٦٧ ، ٨٧
 المحيط الهندى ٩٧
 مدراس ١٨٣ ، ٢٧٩
 المذهب الإلهى ١٢٨ — ١٤٣
 مراد بن أكبر ١١٨ ، ١٢٢ ،
 ١٢٥ ، ١٦٠
 مراد بخش ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦
 مراد خان ٨٨
 مرشد قلى خان ٣٠٠ ، ٢٦١
 مرو ٨
 المرتها ١٧٠ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠
 ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢
 ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢
 ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ —
 ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

میران بہادر ۱۲۶
 میران خان ۲۷۲
 میرانشاہ بن تیمور ۳۵۱
 میرزا حکم ۹۶، ۱۰۹، ۱۲۱
 ۱۲۲، ۱۲۳، ۱۵۵
 میرزا منول ۲۹۴
 میسور ۲۸۰
 ن
 نالیون بوتابرت ۲۸۱
 ناجیور ۲۸۲
 نادرشاہ ۲۱۲، ۲۶۴ — ۲۶۷
 ۲۸۷
 نانک ۱۴۲، ۲۲۳، ۳۲۴
 نانا ۲۹۳
 نجیب الدولہ ۲۶۸، ۲۶۹، ۲۷۴
 ۲۷۹، ۲۷۷، ۲۸۱، ۲۹۴
 نرید ۱۰۶، ۱۲۴، ۲۶۲، ۲۶۳
 نصرت شاہ ۲۵، ۴۷
 نصیر لوحانی ۲۹
 نظام (السقاء) ۸۰
 نظام شاہی ۱۷۰، ۲۳۱
 نظام الدین أحمد ۱۵۷، ۳۲۱
 نظام الملک (نظام حیدر آباد) ۲۵۹
 ۲۶۰، ۲۶۱، ۲۶۲، ۲۶۳
 ۲۶۵، ۲۶۸، ۲۷۱، ۲۷۴
 ۲۷۵، ۲۸۰، ۲۸۱، ۲۹۴

۲۰۲، ۲۰۸، ۲۱۱
 من سنغ ۱۱۲، ۱۱۳، ۱۲۲
 ۱۲۳، ۱۳۰، ۱۴۱، ۱۶۰
 ۱۶۴، ۱۶۷، ۱۶۸
 منتخب التواریخ ۱۵۶، ۳۲۰
 منتخب الآباب ۳۲۲
 مندللو ۲۱۰، ۳۱۳
 مندن ہارہ ۳۸
 منعم خان ۱۱۹
 منم وا ۳۴۲
 منکوتانا ۳۴۲
 منقولیا ۳۳۶
 منیر مرغینانی ۱
 موار ۲۵، ۳۰، ۴۶، ۹۷
 ۱۱۳، ۱۴۶، ۱۸۷، ۲۲۹
 موسکو ۳۵۱
 مہابت خان ۱۷۴، ۱۷۵، ۱۹۰
 ۱۶۴
 المہابارتا ۱۳۲، ۱۳۲، ۳۱۶
 مہارشترا ۲۳۰
 میان نانس ۳۱۹
 میدنی راو ۴۵
 میر جملہ (محمدسید) ۲۰۱، ۲۰۲
 ۲۱۷، ۲۱۸
 میر سید علی (نقاش) ۱۵۸

٣٢٠ ، ٣١٨ ، ٣١٥ ، ٣١٢

هابو تامة ٣٢٠

هت بهادر ٢٧٧

الهملایا ٤٨ ، ١٢٤ ، ٣٢٩

هندال ٨٩

الهندستان ٥٩ — ٦٤ ، ٩٦ ،

٣٤٩ ، ٢١٧

هوجلی ١٩٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

هولاكو ٣٤٨

هولكر ٢٦٧

الهولنديون ١٨١ ، ١٩٢ ، ٢٧٣

٢٨٢

هوميروس ١٣٢

هونج نو (الهون) : ٣٣٣ ، ٣٣٤

٣٥٨

هيمو (هيمون) ٩١ ، ٩٦ ، ٩٨

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣

٢٧٠

ی

الياما ٣٤٦ ، ٣٦٣

الياقوت ٣٣٣

يرقند ٣٤٩

اليسوعيون ١٣٤

اليوبانيشاد ٢٠٣ ، ٣٢٢

يوجا ما شيت ٣٢٢

يوسفزای ١

يبي سي ٣٣٣

لنوبهار ٣٥٦

نور افشان ٥٠

نور الحق ٣٢٢

نور جهان ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤

١٧٥ ، ١٧٦ — ١٨٠

١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٧٧

١٩٧

نيبال ٢٨٧ ، ٣١٤

النيروز (نوزوز) ٢١٤

نيره تو ٩

نيكوسير ٢٦٠

نيلا ب ١٦

و

الوزيری ١٧ ، ١٨٦

ولسلي ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٩١

وليم هوكنز ١٨٢

هـ

هار غوند ٢٢٤

هسنج ٢٨٢ ، ٢٩٠

هرات ١٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٧ ، ٣٥٤

هرم ديوا ٨٣

الخرزا ٧ ، ٢١٩

هيايون ٩ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٦ ،

٢٩ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٩

٧٢ — ٩٣ ، ١١٦ ، ١٦٣

Lp2Zf Lp1f ýřǺǺ !g2TZ LpǺf Lp1f 2 T RǺž

[illegible][illegible][illegible][illegible]

.(Ghose 2000, Dalrymple 2002) $\frac{1}{\sqrt{2\pi}} e^{-\frac{1}{2}x^2}$

.fufj Ō5+ŋAŨf+čGžŨf+!zz:f l2Ā! Gfoký+čžŌf || BžBžžŨfA:f KŮG Lž 2 T+k

၂၀၁၆ ခုနှစ် ဇူလိုင်လ ၁ ရက်နေ့မှ ၂၀၁၆ ခုနှစ် ဇူလိုင်လ ၁ ရက်နေ့

.(Oldenburg 1991) ě pǎ fǔ yǔ | R ŭ LdZhhu

LE 2020f L=02 LdZ 6 Āp2AŦf 24T 05+2 6dZ 2ĀT f yŦP LdZ (Russell 1969) + 52dZ 3 6Lj2Ā6f0dZ pĀnĀf

(Minault 1994) $\frac{1}{n} \sum_{i=1}^n L_i$

! qđž KČP! Lh Kđž 25đ! !o2 ů ů Zđ ! đ Lđ KĀT Lđ! .Mđž Āđ

.(Bayly 1988) + 0.6Kf

.G G k Ä D G p Ä D G b Z L # C Ä

[illegible]

[illegible][illegible]

LPY ZT If LPÄ. Ö Ö Ü 2 PÄZZPÜf U zhp Uşof Lp İ DZİNGÜGÄ NPhÜÖŞÖÄP Gır zhuş Gē. ýÄef yÄ ZPÜf
 ÜpzdZ+ÖÖÖÖÖZÄZf DÖÖf+ÖÄZf fPZÜf ! ÖfPÜf KÖÄPf || DZÄPÄ LÄdz dZ PöÖÖÖZf ýÄGJ
 ZÄK KündZ || DZÜPdz ÖG KİGÄ. LÄZf LpIf KÖÜÄİ İo ýPÜf İ ZZÖdZf fPjüZDÄ ÄT ÄdZ Ndz LPÄPÖLİ
 KÖÜÄ KÖPZT ýÄÖÄ. +ZPÜf+ÖÄfÄ ýaldZ LpZf+ÖT If ýGdZÖGf Lf PÄ ÖZGÜf ÖÜT ÜJÄ DZf ýÄ
 LpÄf ÖÖLp fÄo ýÄo ZPÜf ýPİf GÖdZ KündZ || DZÖGÜ İ ! ÖYÖZ+Ö Ö If KÖPİf KPhLÄZf LpIf
 U zhp LÄ ÜPİf GELjZÖdZ DZ Üf GELjZdz ýÄZ ÖG LjKÖdZ ZÄP || İÄ LÄZPÜf +ÖPZ LpÄfÄ+ÖZ Üf
 ÖÖGİ+Ä ÜPİf GELjZdz dZÖÄ+ÖGİf ÄNİj İPÖÖÖDZÖdZ DZ ZÄKdz ÖTÄZ NPTÄ ZÖdZ || İR KÖGÖ
 . ÖPÄÜj

LpZÄPİ If ÖÖKPhÖf ÜPİf LpZÜ Σ ÄZÖNİİ Ö ýThzHKLpÖr KÄPÄÜf+ZDZ ZPDfZ || Öİj
 LpZ İÜÄÖÖÖÖPÖf DZÖP LpZf+LpZf GÖZf ýG Lf! ÖNÄ ÜPİf || DZİG İÄ. DZÖd' DZ LpZ İPhyGü
 ýÄo KÖöüDZ KfZf ÖÜT G GELp DZÄ+ÖT If ýÄKÖÄ ÄZÄÖKİG GÖPdz DZİ. ÜZPÜf KÖPÜf U zhu
 ÖGÖGÜ İ DZÖLp DZÖZİ ÖZÜ Üf ÖDZf ZÖdZ KÖGÖ+ÖZKÖdzİ5 || İİ. Σ ZPÜf Σ Ö Ä+ÖLp KÖGÜf
 . Gİ DZÖP YÖP İT GÄ ZÖÖD+ZÖ ÖÖZÖGÖ PT Gİ DÖf YÖPİ ! ÖT Ö
 İ DZÖLp+LpZ+ÜÄ ÖÖ+ÖZf+ZPZÖNjÄPÄÜf KİGÄ. GÖZP GÄPÄÜf+ZPİ fZdz ÖGÖÖ KİG || İİ

DZÖÖÖ DZÜT hÜÖNjUşof İÄ ÜGEL LpZ İNÄZ LpZf LpZf İNjhuDZİ LpZ KÖGÄ. GÖ+hu Nj
 KÖÄÖdZKİG || İÄ ÜPİf ÖÖYÄP KÜGÄ ÖPÄ ZÄNj ýÄZÜGEL LpZ LpZÄPÜf KÖÄP KİGÄ. +ÖZf
 İNÄZf+T Öf KÖÄdz LpZf KÖPdz Kİf GÄ. ÄPÄÜGÜÖf+ÖPİf ZÖGÖ ÖÖGÄ ZÄÖLpİKİG
 . ÄPÄÜf+ZDZİPİf KÖÄPÄ İPİfÄ Yİf LpGdzU DZİNjPİf ÖÖ

|| Gİ || İRyÖ KÖÄPf || DZİNjZ LpZÖZ İGÄPÄÜGÖLj KündZ DZİZ yÄ If U Zf İNjZÖ
 GÖZf İÖÖ äZPD ÖG LjKündZ KündZ || DZÖPİ || İÄ Ö Ö If LpZ dZ. ýGdz İNjÖİ İÖLPY İÖZÖPİf
 İj İPİ ! ÖGÜf LpZdz NjÄ Ynöyh ÄPÄÜG KfZP Üf İ ZZÖdZ ZT İÖ ÜÄ. Lpİ İ İ NjZİT öÖ GZİPİ
 Üİ+ÖZf İj İPİ KZT İ İ ! . ýGÄ KfZGÄ Ä ýGİf+Z İÄZPÜf+ÖPİf KÖGÖGÖLj KÖPİf KündZ
 Z Ä İÄPZÄÄ äZPÜf ÖNjLpZ İK LpZ İÖÖ+ÖPİf KÖZİİ || İİ ÜAmin 1996) KÖZf ýGİf GELİ DZ
 . +GZÄÜJÄ+ÖZÖf+ÄÖİ ! ÖZ ÖR K

Z Ä ÜNjZÄ İZ If LİT T İÄ LİGÄ İj İPÄ ÜPÄÜG KÖPİf GEL KÖÄİ İj LpZdz İİ || İİ
 Gİ ÜÖÖ ZPİ ÖP+ÖÄZf KÖPİf PZPİf ÖÖ+ÖGİ || İİ LÄK İÄ. NİLİZ İ İf LpZf LpZ+ÖG İÖ Z TİÖ
 +Ö Ö İÄ+ÖZGÜf ÜÄU If ydz İPZİ+ÖZÄ GEL ZULjKİGÄ ýPİLZ KÖdzÖdZ İP ÖZGÜf İPÖZPİf ÖZ
 YÖZ+DZİZÖdZ ÄDÖNÄ Ü İPÖZÖPİf GİRLjÄ İPİ+ÖLj KündZİ ! ÄZPİ ÖÖDİ İf ýPİf LpZ. İPİf
 +ÖTİf+ÖT İZÖdZ äZPDİPÄ ZPİ İPİ ZULjKİGÄ. ÖZGİf ZTİf U ZÄ KÖÄZf LpZf+ZÖZ LpZ İf
 İPZ GZ ÖPİf İPİG ÖÖİZİ İZT Gdz ÄPÄÜf+ÖÄZf YÖG ZPDLpZPİf ZPİ LpZ İPİ KİGÄ ÜZGİf
 NİPİ KLPYİPÖÖÖÖÖ LpZİPİf ýGdz İ ZKÖZ İÜLİG İPÄ GÖPÄ Yf İPİ İPZİPİf+İPİ ÜLİG
 KfZPİf GEL LpZ ÖPİ+ZPÄ+ÖZGİf İZ Pİ T ! +ZÖZ KÖPİf KÖPİf ÄPÄÜf+ZÖ ÖÖÄ ZÄ+İPİ ÖP İÄ
 YİPİ ÄPÄÜGİG ZİT DZÄ Ü GÄTKKdz Z+İPİ LpZ İPZ Kdz İPİ. ÖPİf GÖZ YÜP LpZ İPİKİf ÖPİ
 LpZÄ KÖGİf GEL ÜPİ LpZ İÄ. LİPİKİf ÖPİ+ÖZGÜf KÖ İPİ GEL KÖZÄ ZZGdz Z ÖZ İTh
 . +ÖPİ+ÖÄ+ÖZ Üf+İPİf+ÖPİ ÖÖ+İPİ ÄPÄÜf ÄZGÄ ÄPÄÜf+ÖÄZf ÖPİ KLPÖYU İf
 ZÖPİ İ DZİZÖdZ ÄZÄ+ÖZÖ ZPİ dzÖPÖG KÖPİf || İİ DZİZÖdZ KLPİPİ KfZPİ İ DZİZÖÄ
 . (Suhrawardy 1945, Minault 1998a) ÖZGÜf

[illegible][illegible][illegible][illegible]

- S. B. Abbas, *The female voice in Sufi ritual. Devotional practices of Pakistan and India*, University of Texas Press (forthcoming).
- S. 'Abdullah, *The biography of Begam 'Abdullah* [in Urdu], Aligarh 1954.
- N. Ahmad, *The bride's mirror (Mirat ul-'arus). A tale of life in Delhi a hundred years ago*, trans. G. E. Ward, London 1903, repr. New Delhi 2001.
- Mrs. M. H. Ali, *Observations on the Mussulmauns of India*, 2 vols., London 1832, repr. Delhi 1973.
- S. M. 'Ali, *Huquq un-niswan*, Lahore 1898.
- S. N. Amin, *The world of Muslim women in colonial Bengal, 1876–1939*, Leiden 1996.
- R. B. Barnett, Embattled begams. Women as power brokers in early modern India, in G. R. G. Hambly (ed.), *Women in the medieval Islamic world*, New York 1998, 521–36.
- C. A. Bayly, *Indian society and the making of the British Empire*, Cambridge 1988.
- W. Dalrymple, *The white Mughals. Love and betrayal in eighteenth-century India*, London 2002.
- M. H. Fisher, Women and the feminine in the court and high culture of Awadh, 1722–1856, in G. R. G. Hambly (ed.), *Women in the medieval Islamic world*, New York 1998, 488–519.
- G. H. Forbes, *Women in modern India*, Cambridge 1996.
- D. Ghose, Colonial companions. Bibis, begums, and concubines of the British in North India, 1760–1830, Ph.D. diss., University of California, Berkeley, 2000.
- D. Gilmartin, Kinship, women, and politics in twentieth-century Punjab, in G. Minault (ed.), *The extended family. Women and political participation in India and Pakistan*, Delhi 1981, 151–73.
- 'Ismat, Urdu women's magazine, Delhi.
- M. Karlekar, *Voices from within. Early personal narratives of Bengali women*, Delhi 1991.
- R. Khairi, *'Ismat ki kahani*, Delhi 1936.
- Khatun*, Urdu women's magazine, Aligarh.
- G. Kozlowski, Private lives and public piety. Women and the practice of Islam in Mughal India, in G. R. G. Hambly (ed.), *Women in the medieval Islamic world*, New York 1998, 469–88.
- J.-M. Lafont, *Indika. Essays in Indo-French relations*, New Delhi 2000.
- S. Lambert-Hurley, Contesting seclusion. The political emergence of Muslim women in Bhopal, 1901–1930, Ph. D. diss., School of Oriental and African Studies, University of London 1998.
- J. Lebra-Chapman, *The Rani of Jhansi. A study in female heroism in India*, Honolulu 1986.
- D. Lelyveld, *Aligarh's first generation. Muslim solidarity in British India*, Princeton, N.J. 1978.
- L. Mani, *Contentious traditions. The debate on sati in colonial India*, Berkeley 1998.
- B. D. Metcalf, *Islamic revival in British India. Deoband: 1860–1900*, Princeton, N.J. 1982.
- , Reading and writing about Muslim women in British India, in Z. Hasan (ed.), *Forging identities. Gender, communities, and the state*, New Delhi 1994, 1–21.
- T. R. Metcalf, *Ideologies of the Raj*, Cambridge 1994.
- G. Minault, Shaikh Abdullah, Begam Abdullah and *sharif* education for girls at Aligarh, in I. Ahmad (ed.), *Modernization and social change among Muslims in India*, New Delhi 1982, 207–36.
- , *'Ismat*. Rashidul Khairi's novels and Urdu literary journalism for women, in C. Shackle (ed.), *Urdu and Muslim South Asia*, London 1989, 129–36.
- , Sayyid Mumtaz Ali and *Tahzib un-niswan*. Women's rights in Islam and women's journalism in Urdu, in K. W. Jones (ed.), *Religious controversy in British India*, Albany 1992, 179–99.
- , Other voices, other rooms. The view from the Zenana, in N. Kumar (ed.), *Women as subjects. South Asian histories*, Charlottesville, Va. 1994, 108–24.
- , *Secluded scholars. Women's education and Muslim social reform in colonial India*, Delhi 1998a.
- , Women's magazines in Urdu as sources for Muslim social history, in *Indian Journal of Gender Studies* 5:2 (1998b), 201–14.
- , (trans.), *Voices of silence. English translation of Altaf Husain Hali's Majalis-un-nissa and Chup ki dad*, Delhi 1986.
- V. T. Oldenburg, Lifestyle as resistance. The case of the courtesans of Lucknow, in D. Haynes and G. Prakash (eds.), *Contesting power. Resistance and everyday social relations in South Asia*, Berkeley 1991, 23–61.
- F. Parks, *Wanderings of a pilgrim in search of the picturesque*, 2 vols., London 1850, repr. Karachi 1975.
- L. Peirce, *The imperial harem. Women and sovereignty in the Ottoman Empire*, New York 1993.
- C. Petievich, Gender politics and the Urdu ghazal. Exploratory observations on *rekhta* versus *rekhti*, in *Indian Economic and Social History Review* 38:3 (2001), 223–48.
- C. Preckel, *Begums of Bhopal*, New Delhi 2000.

R. Russell, The pursuit of the Urdu ghazal, *Journal of Asian Studies* 29:1 (1969), 107–24.
M. Sadiq, *A history of Urdu literature*, Delhi 1984.
P. Spear, *The nabobs. A study of the social life of the English in eighteenth century India*, London 1932, rev. ed. 1963.
S. Suhrawardy (Ikramullah), *A critical survey of the development of the Urdu novel and short story*, London 1945.
Tahzib un-Niswan, Urdu women's magazine, Lahore.
S. Tharu and K. Lalita (eds.), *Women writing in India*, 2 vols., New York 1991.
Ashraf 'Ali Thānawī, *Perfecting women. Maulana Ashraf 'Ali Thanawi's Bihishti Zewar*, trans. B. D. Metcalf, Berkeley 1990.
Zillus Sultan, Urdu women's magazine, Bhopal.

(Gail Minault) K!Āłžč
+!Āf 2 Ń ūč :+džk